الكاتب الفلسطيني

العدد ١٨ - شتاء ١٩٩٠ - كانون ثاني - شباط - آذار



الكاتب الفلسطيني

العدد ١٨ ـ شتاء ١٩٩٠ ـ كانون ثاني ـ شباط ـ آذار

مجلة فصلية تصدر عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
لجنة العمل النقابية

الآراء الواردة لاتعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير

الاشتراكات السنوية

للأفراد: ـ سوريا ولبنان ١٥٠ ل.س
ـ بقية الاقطار العربية ٢٥٠ ل.س
ـ اقطار العالم ٢٥ دولار
للمؤسسات: ٥٠ دولار





الفهرست

كلمة الكاتب

الحل السياسي المتعثر و«مأزق» القيادة الفلسطينية

كل من تابع الاتصالات الجارية، منذ أشهر، بين القاهرة وواشنطن وتل أبيب، في نطاق ما يسمى «مساعي السلام في المنطقة»، لابد أن أنفاسه تقطعت دون أن يبرح مكانه. ويثور سؤال عاصف: كيف تستطيع قيادة م.ت.ف. مواصلة اللهاث والركض وراء هذه الاتصالات... هل هذا هو ما يقال عنه «النفس الطويل»، أم أن المسألة لا علاقة لها بطول النفس أو قصره، بل بما هو أخطر وأبعد؟!.

لانريد أن نجيب عن هذا السؤال بصورة تقريرية. وسنحاول تأجيل هذه الاجابة الى ما بعد فحص بعض المعطيات السياسية المتوفرة بين أيدينا. وسنضيف الى السؤال السابق سؤالاً آخر: هذه «القدرة» على مواصلة الركض وراء التحركات الاميركية... هل تعني أن القيادة الفلسطينية لا تملك خياراً آخر، وهي لهذا السبب في مأزق؟.

لاشك أن الاصرار الظاهر على مواقف قيادة م.ت.ف، من حيث التمسك بالمساعي الاميركية، وقياساً على النتائج المتحققة عن هذه المساعي، لا يمكن أن يكون دليلاً على النفس الطويل أو الصلابة المبدئية، لكنه يمكن أن يكون دليلاً على وجود المأزق. مع ذلك، فان الامر يظل في حاجة الى مزيد من التدقيق.

* * * *

عامان وثلاثة أشهر مضت على اندلاع الانتفاضة الشعبية في الارض المحتلة، وآخر الانجازات التي سجلت على صعيد الترجمة السياسية، واستثمار القيادة الفلسطينية للانتفاضة سياسياً، هو مجرد استمرار العمل لعقد اجتماع يضم وزراء خارجية مصر والولايات المتحدة والكيان الصهيوني، في وقت لاتزال الموانع قائمة، والاجتهادات مختلفة حول: تشكيل الوفد الفلسطيني المفاوض، جدول الاعمال، والضمانات الاميركية المطلوبة. والقضايا «الشائكة» لاتزال كما كانت: هل يشارك مبعدون أولا.. واذا شاركوا فكم عددهم: واحد أو أكثر؟. هل يحق لعرب القدس الشرقية أن يشاركوا أو لا؟. ودور الافتاء مشغولة في البحث عن الفتوى المناسبة والمقبولة!.

هنا يطرح السؤال مرة أخرى: هذه المتابعة «الماراثونية» من جانب قيادة م.ت.ف. لهذه التفاصيل، هل هي دليل على النفس الطويل والنضال المتواصل؟. واذا كان الامر كذلك، فما هي نتيجته، بعد أن يثمر عقداً لاجتماع الوزراء الثلاثي، وبداية للمفاوضات الفلسطينية ـ الاسرائيلية المنشودة. وما هي الجدوى السياسية لكل هذه الجهود التي تبذلها القيادة الفلسطينية؟.

في بيان صدر عن «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» في الارض المحتلة، بتاريخ ١٥ / شباط / ١٩٩٠. جاء التقييم التالي: هناك «أطراف تستعجل اللقاء بالاسرائيليين في القاهرة، وفق الاشتراطات الامريكية ـ الاسرائيلية، وبناء على خطة بيكر ومشروع شامير الانتخابي، المعروفة نتائجه منذ الآن، وهي اجراء انتخابات تحت حراب الاحتلال، لايجاد طرف مفاوض محلي ينصاع للادارة الاسرائيلية، ولا يملك من عوامل القوة شيئاً، بما يشكل بتدرج بديلاً لمنظمة التحرير، واقفالاً لطريق المؤتمر الدولي، وعقد صفقة منفردة بدون حل شامل للصراع الفلسطيني ـ

الصهيوني، والعربي ـ الصهيوني».

هذا التقييم يشير الى خلاف داخل م.ت.ف، خلاف من طبيعة تكتيكية. فما هو التكتيك البديل الذي تراه الجبهة الشعبية؟. يقول البيان شارحاً هذا التكتيك البديل: «المطلوب المزيد من النضال الانتفاضي بتصعيد الانتفاضة واسنادها بالنار باجماع ومشاركة كافة القوى، وامدادها بالمال للانتقال للعصيان المدني المتقطع، ودعمها بعمليات فدائية عبر الحدود العربية، وتجنيد كل ما يمكن تجنيده على صعيد عربي وعالمي». من أجل ماذا؟. يتابع البيان: «الى القدر الذي يؤدي الى املاء ارادتنا الوطنية الفلسطينية والعربية لعقد مؤتمر دولي كامل الصلاحيات، تحضره م.ت.ف. الممثل الشرعي والوحيد لشعبنا، على قدم المساواة، بحيث يقود المؤتمر الدولي بوصفه مقرراً الى الحصول على حقنا في تقرير المصير والدولة وحق شعبنا بالعودة الى أرضه التي طرد منها، فهذا هو المؤتمر الدولي الذي نسعى اليه».

بعد ذلك، اذا اعتبرنا موقف «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» هو الموقف الاكثر يسارية داخل م.ت.ف، نلاحظ أنه يتنازع القيادة الفلسطينية موقفان تكتيكيان: الاول يمثله الطرف القيادي المقرر في المنظمة، ويراهن على المساعي الامريكية، ويسعى الى صفقة منفردة سقفها الاعلى تطبيق مشروع الحكم الذاتي الاداري. والموقف الثاني لايزال يتمسك بوجهة نظر قديمة، نادى بها الاتحاد السوفياتي، قالت بالمؤتمر الدولي «كامل الصلاحيات». وأصحاب هذا الموقف يعتقدون أن عقد مثل هذا المؤتمر كفيل بتأمين «حق تقرير المصير والدولة وحق شعبنا في العودة ...»، وينسى هؤلاء، في هذا المجال، بعض الحقائق:

- إن مثل هذا المؤتمر لا يعقد الا اذا دخل تغير جوهري على ميزان قوى الصراع.
- إن الاتحاد السوفياتي لم يعد يتمسك بعقد هذا المؤتمر، على الاقل، بالمفهوم الاصلي.
- إن التطورات الاخيرة التي شهدها المسرح العالمي، غيرت من مفهومي مقولتي «الغرب» و«الشرق»، كما غيرت من دور كل منهما، مما ترك أثراً كبيراً على طبيعة ومصير الصراعات الاقليمية، وفي مقدمتها صراع الشرق الاوسط.

* * * *

عند هذا الحد من فحص المعطيات تتضح ملامح المازق الذي تعانيه القيادة الفلسطينية بطرفيها في داخل المنظمة. فالطرف الاول، القيادي المقرر المتمسك بالمساعي الامريكية، وبالدور الامريكي في التسوية، في مأزق، لانه لا يمتلك أية قدرة على التأثير في هذا الدور الامريكي المطلوب، ولذلك لا يجد أمامه الا أن يتابع لهاثه وراء ما تقول واشنطن وتفعل. أما الطرف الثاني، فهو في مأزق، لانه يتمسك بوجهة نظر لم تعد موجودة لدى أصحابها الاصليين، أو في المحافل الدولية

الفاعلة والمؤثرة في صراع الشرق الاوسط. هكذا يبدو الامر. لكننا لو شئنا مزيداً من الصدق في التحليل والوضوح في التعبير، نجد أن مازق الطرف الثاني نابع من كون أنه مستوعب من جانب الطرف الاول، بالرغم من لغته التكتيكية التي تبدو أقل وهماً وثقة بالدور الامريكي. لكن المراهن على الدور الامريكي المخادع والمتآمر، مثل المراهن على الدور الدولي غير الفاعل، في النتيجة، خصوصاً في ضوء المستجدات الدولية.

وفي عددها الصادر يوم ٢٠/١٢/١٩٨٩، نشرت جريدة (السفير) اللبنانية مقالاً للدكتور محمد السيد سعيد (رئيس الوحدة العربية لمركز الدراسات في الاهرام) حول دبلوماسية التسوية في الظروف الدولية الجديدة، انطوى على رأي يمكن أن يكون ذا فائدة في توضيح ما نرمي اليه، فبعد دراسة عدد من الصراعات الاقليمية ونتائج مشاريع التسوية الخاصة بها، يقول الدكتور سعيد:

تفصح «خصائص دبلوماسية التسويات الاقليمية عن عوامل ايجابية وأخرى سلبية، فيما يتصل بالقضية الفلسطينية. فمجرد وضع الصراعات الاقليمية الكبرى على طريق التسوية هو رصيد ايجابي، كما ان الاتجاه العام لاعتماد المشروعية الدولية أساساً للتسوية، هو أيضاً لصالح القضية الفلسطينية. أما على الصعيد السلبي، فان الميل لاستبعاد حركات التحرر من دبلوماسية التسوية، والامر الزمني الطويل الذي تستغرقه الدبلوماسية للوصول الى نتيجة مقبولة، ونقص الجدارة في الموضوعية لهذه الدبلوماسية، والنزعة نحو فك الارتباط بين الامن الدولي والوفاق من ناحية، والتسويات الاقليمية من ناحية أخرى، والنزعة السوفياتية نحو القيام بتنازلات أكبر هي كلها من الامور التي تحسب لغير صالح القضية الفلسطينية».

ويتابع الدكتور سعيد قائلاً: «واذا نظرنا الى الامر من زاوية أخرى، فان القضية الفلسطينية قد أصبحت تتمتع بشرطين هامين للتسوية الناجحة، وهي حدوث تحول نسبي في موازين القوى بتأثير الانتفاضة الفلسطينية، والتأكيد المكثف على المشروعية الدولية. لكن القضية الفلسطينية لاتزال محرومة من شرط ثالث جوهري وهو القيادة النشطة لاحدى القوتين العظميين، وتحديداً الولايات المتحدة، لدبلوماسية التسوية».

من الواضح أن الدكتور سعيد يخلص الى استنتاجاته السابقة من منطلقات محددة نختلف فيها معه، سواء فيما يتعلق بمفهوم «الصراع العربي ـ الاسرائيلي»، أو مفهوم «الحل العادل للقضية الفلسطينية»، أو مفهوم «المشروعية الدولية»، و«الدور النشط للولايات المتحدة» وحتى حول ما يقول عن «حدوث تحول نسبي في موازين القوى». مع كل هذه الاختلافات، فاننا نتفق مع الدكتور سعيد في ثلاث مسائل هامة، وهي:

- «فك الارتباط بين الامن الدولي والوفاق من ناحية، والتسويات الاقليمية من ناحية أخرى».
- «النزعة السوفياتية نحو القيام بتنازلات أكبر».

ـ عدم جدية الولايات المتحدة في سعيها لايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية.

اننا نعتقد بصحة ما يقوله الدكتور أحمد صدقي الدجاني حول «التعامل مع قضية فلسطين في ضوء المتغيرات العالمية الجديدة». فقد كتب في جريدة (صوت الشعب ٣١/١/٩٠) يقول: «ان أثر العامل الدولي في الصراع العربي ـ الصهيوني سيتضاءل في هذه المرحلة، في حين سيزداد أثر العامل المحلي فيه... ان قرار المسألة الفلسطينية سيعتمد فقط على قوة اللاعبين في المنطقة وليس على القوى العظمى المؤيدة لهم...».

* * * *

المأزق، اذن، كما اتضح لنا حتى الآن، يمكن اعادته الى أن م.ت.ف. لم تفكر حتى هذه اللحظة في الاعتماد على قواها الذاتية، نعني طاقات الجماهير الفلسطينية، وما تستطيع حشده من طاقات الجماهير العربية، بل ولم توظف ما هو مطروح للتوظيف، كما هو الحال مع الانتفاضة. ويعمق مأزق القيادة الفلسطينية أن عدوها الصهيوني يزداد تطرفاً وتوسعية بفعل العجز الفلسطيني والعربي أولاً، وبفعل العوامل والتطورات الدولية الحاصلة، وما أتاحته له من عوامل قوة جديدة، ليس أقلها فتح باب الهجرة اليهودية.

لكن استنكار مواقف القيادة الفلسطينية المقررة في م.ت.ف. يطرح سؤالاً جانبياً على جانب كبير من الاهمية، هو: هل كان الوصول الى المأزق الراهن نتيجة خطأ في الحساب أو التقدير أو حتى خطأ في التكتيك؟. ان الخطأ في الحساب أو التقدير أو التكتيك يظل قابلاً للتصحيح بالرجوع عنه في الدرجة الاولى. لكننا نرى أن الاصرار على المواقف التي اتضح خطؤها يوحي بالاقتناع في صحة تلك المواقف. وهذا أمر يجب أن يدفع التفكير في دروب أخرى.

ان نوعاً من اعادة النظر في سلوك القيادة الفلسطينية، يظهر أن المسألة ليست مسألة أخطاء غير مقصودة، وقعت، بل مسألة نهج قام على وضوح كاف في الرؤية، ويثير الشبهة في دوافعه وأغراضه أكثر مما يثير الاستغراب. ولاننا لا نريد أن نكتفي بتوجيه الاتهام، فسنراجع بعض ما يعلنه الناطقون باسم القيادة في هذه الايام. ولحسن حظنا ـ أو لسوئه ـ لن نذهب بعيداً، بل سنرجع الى المحاضرة التي القاها السيد هاني الحسن، مستشار رئيس م.ت.ف. في ندوة نظمتها الجمعية الراديكالية البريطانية، ونشرت ملخصها صحيفة (القبس ١٣/١٢/٨٩)، وجاء فيها قوله: انه يتحدث باسم التيار القيادي في م.ت.ف. الذي بدأ يعمل منذ ١٩٦٨ وفقاً لثلاث قواعد هي: «ان ميزان القوى الدولي لا يسمح بالحديث عن استرداد أرض فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، وأن الاوضاع الدولية الحالية لا تسمح بالحلول العسكرية، ولهذا لابد من السعي الى حل سياسي وفاقي، وأن الحل لابد أن يتضمن تنازلات، بما في ذلك تعديلات جغرافية على حدود

١٩٦٧»!.

ويؤكد هاني الحسن انه «وفي عام ١٩٧٤ وقع تطور جوهري آخر على تصورات م.ت.ف. لمبدأ الحل الوسط». وأضاف: «ان الحل الوسط الذي تدعو اليه المنظمة يتضمن تنازلات كبيرة. نحن نتنازل عن ٧٧ بالمائة من الوطن الفلسطيني. كذلك فان الحل الوسط يعني أيضاً التنازل عن أية مطالب أخرى في اطار سلام شامل...»! ويقولها هاني الحسن بكل الصراحة الجارحة ان «التيار القيادي» في م.ت.ف. احتاج لان يصارع الشعب الفلسطيني عشرين سنة ليوافق على قرارات الجزائر ١٩٨٨!. (هل وافق الشعب فعلاً على تلك القرارات؟!).

* * * *

هل يجوز، بعد ذلك، أن يتساءل أحد: لماذا كان المأزق الراهن؟.

لا نظن، لقد كان المأزق الراهن منذ كانت هذه العقلية التي مثلها «التيار القيادي» في م.ت.ف. فهذه العقلية لايمكن أن تتجاوز ما مارسته في السنوات الخمس والعشرين الماضية. فالمأزق الراهن في حقيقته عقلية قبل أن يكون ممارسة خاطئة، عقلية استطاعت أن تصل الى مواقع القيادة دون أن تكون مؤهلة لتحمل مهامها النضالية، والارجح أنها كانت دائماً مؤهلة للمهام المضادة. وبهذا المعنى لا يمكن اعتبار المأزق الراهن لحظة راهنة، أو نتيجة خطأ محدد يمكن تصحيحه بتجاوزه أو الرجوع عنه، بل فقط بتجاوز هذه القيادة ـ العقلية ذاتها أولاً.

لذلك، لا نستطيع، في المحصلة، أن نقول ان القيادة الفلسطينية في مأزق، لانها لا يمكن أن ترى المأزق أو تعرف طبيعته. والذين في المأزق هم القابلون بهذه القيادة الراضون باستمرارها في موقع القيادة، وأيضاً هم غير القابلين بها غير الراضين عنها، ولكن العاجزين عن تجاوزها أو زحزحتها عن مواقعها. بكلمات أخرى، ليست القيادة الفلسطينية في مأزق، بل الشعب وقضيته وقواه الوطنية هم في مأزق... وهم المسؤولون عن مباشرة العمل للخروج منه.

هيئة التحرير

الارهاب الدولي والقانون الدولي (١)

د. ابراهيم ابراش*

في السنوات الأخيرة أثارت الامبريالية الأمريكية والدول الدائرة في فلكها، مسألة على جانب من الأهمية وهي ماسمته «بالارهاب الدولي»، وذلك تحت وطأة الضربات الموجعة التي وجهتها حركات التحرير في العالم والقوى الثورية، ضد مراكز النهب والاستغلال الامبريالية وضد الأنظمة الفاشية والقمعية والاستعمارية والحركة الصهيونية.

لقد احتلت قضية «الارهاب الدولي» مكان الصدارة في وسائل الاعلام، وعند رجال الفكر والسياسة وشغلت حتى الرجل العادي الذي لايستطيع أن يمنع نفسه من الاهتمام بهذا الموضوع نظراً لقوة تأثير وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة التي أصبحت تقتحم كل بيت.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الهيمنة التي تمارسها الانظمة الاستعمارية على وسائل الاعلام وتسخيرها التكنولوجيا الحديثة على مستوى صياغة ونقل الخبر والصورة، تبين لنا أهمية وخطورة بل وضرورة التصدي للدعاوى الامبريالية الصهيونية التي تحاول أن تلصق صفة الارهاب بحركات التحرر العالمية وبنضال الشعوب من أجل حريتها.

---

* استاذ في كلية الحقوق جامعة الرباط، من فلسطين.

ان التصدي لبحث مسألة «الارهاب الدولي» ليس عملاً أكاديمياً محضاً، أو حالة ترف فكري، بل إنها ضرورة نضالية وقومية ومهمة ملحة تفرض نفسها على رجال الفكر والسياسة، لأنها تتعلق بقضايا الشعوب وحقها في تقرير مصيرها، إن التصدي لمسألة «الارهاب الدولي» وكشف أبعادها يندرج في إطار المواجهة الثقافية والايديولوجية التي تخوضها حركة التحرر العالمية ضد الهيمنة الثقافية والايديولوجية التي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية والأنظمة الاستعمارية العنصرية والحركة الصهيونية، أن تفرضها على شعوب العالم الثالث، إنها محاولة لافشال عملية غسل الدماغ التي تصاحب دائماً محاولات الهيمنة الامبريالية.

إن أخطر تمظهرات الامبريالية العالمية في عصرنا الحالي يكمن في الامبريالية الثقافة والايديولوجية، في محاولة الأنظمة الامبريالية أن تفرض مفاهيمها ومصطلحاتها ونظرتها للواقع على شعوب العالم الثالث، وهكذا تعمل الولايات المتحدة ومن يدور في فلكها على أن تفرض على الشعوب نسقاً من المفاهيم والمصطلحات التي تعطي نظرة أحادية الجانب للواقع وتخدم المصالح الامبريالية وسياستها الهيمنية، فأشاعوا أن حقوق الانسان تنتهك في الاتحاد السوفيتي وفي نيكاراغوا، وتناسوا الانتهاك الصارخ لحقوق الانسان على يد العدو الصهيوني، وانتهاك حقوق الانسان على يد النظام العنصري في جنوب افريقيا، وانتهاك حقوق الانسان في الأنظمة الديكتاتورية المحمية بالحراب الأمريكية وأوهمت الأنظمة الامبريالية، دول العالم الثالث أنها دول مستقلة وأن سيادتها تقف على قدم المساواة مع الدول المتقدمة وتحت ستار هذه المساواة تمارس الامبريالية كل أشكال النهب والسيطرة واستغلال ثروات الشعوب واستنزاف خيراتها واغراقها بالديون الممهدة للتبعية المؤدية الى ضياع الاستقلال والسيادة.

وضمن نفس السياق، سياق الهمجية الامبريالية ضد شعوب العالم الثالث وحركاتها التحررية تشن الولايات المتحدة الأمريكية والصهيونية العالمية حرباً نفسية وحرباً عدوانية مادية ضد هذه الشعوب وفي المقدمة الشعب العربي، حرباً تحاول من خلالها أن تقتل إرادة القتال والنضال عند الجماهير، أن تسلبها حقها في تقرير مصيرها، حقها في الحرية، تحاول أن توهم هذه الشعوب ومعها شعوب العالم أن الكفاح المسلح لحركات التحرر، عمل ارهابي مرفوض دولياً وأخلاقياً.

إن الولايات المتحدة الأمريكية في حملتها الارهابية ضد ماتسميه «الارهاب» تتجاهل أن «الارهاب الدولي» في المنشأ والمنطلق هو ظاهرة غربية، انه تعبير عن الاختلافات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التي أفرزتها المجتمعات الرأسمالية الاستهلاكية، إنه الابن الشرعي للنظام الرأسمالي، إنه امتداد ولكن بشكل أكثر عنفاً للثورة الطلابية التي شهدتها أوروبا وخصوصاً فرنسا في عام 1948 وهذه الثورة التي أخرجت للوجود الألوية الحمراء، جماعة ماينهوف، والجيش الأحمر، والعمل المباشر. الخ، إنه الارهاب التي بذرت بذوره الثورة الفرنسية في عهد اليعاقبة والحركات الفوضوية والعدمية في نهاية القرن الماضي إنه الارهاب الذي يعتمد مبدأ «العنف في مواجهة العنف».

ونظراً لأن العمليات «الارهابية» التي شهدتها المؤسسات والمصالح والأفراد الغربيون سواء في أوروبا أو خارجها، قد خلقت ردة فعل عدائية لدى الرأي العام والغربي ضد هذا الضرب من العنف، فإن الامبريالية الصهيونية حاولت توظيف هذا العداء ضد كل أعمال العنف التي تمس مصالحها وسياساتها

واضعة في سلة واحدة «الأعمال الارهابية والاجرامية» مع النضال المسلح التي تخوضه حركات التحرر من أجل نيل حريتها واستقلالها.

ومن هذا المنطلق وقفت الولايات المتحدة ضد محاولات دول العالم وكتلة الدول الاشتراكية التي عملت عند مناقشة قضية «الارهاب الدولي» داخل الأمم المتحدة، أن تفصل بين الارهاب وبين الكفاح الشرعي لحركات التحرر.

لقد كشفت الادارة الأمريكية عن نظرتها الانتقائية المصلحية في التعامل مع ماأسمته «الارهاب الدولي» فتعطي حكمين مختلفين لنفس العمل العنيف، معتبرة أن من يخدم سياستها ومصالحها تسقط عنه صفة الارهاب حتى وأن مارس أبشع أنواع الارهاب خطراً، أما الشعوب وحركات التحرر التي تعارض الهيمنة الامبريالية وتناضل من أجل حق تقرير المصير، فإنها تلصق بها كل صفات الارهاب والاجرام وتطالب العالم بإدانتها بل لاتتورع عن العدوان المسلح عليها سواء مباشرة، كما حدث عند العدوان الامريكي على الجماهيرية الليبية في ابريل 1986 أو عن طريق وكلاء كما حدث عند قصف العدو الصهيوني لمقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس وقبله قصف المفاعل النووي العراقي، وهكذا عندما سئل وكيل الخارجية الأمريكية جون وايتهيد في اجتماع دول حلف شمال الأطلسي على إثر الغارة العدوانية الأمريكية على الجماهيرية، إن كان بعض الأفارقة الذين يجندهم النظام العنصري في جنوب افريقيا ضد انغولا، يدخلون في نطاق من سماهم بالارهابيين، أجاب (لا . . فهم مناضلون من أجل الحرية سنقوم بمساعدتهم كما نفعل حالياً في نيكاراغوا وأفغانستان) . .

لقد كشفت الادارة الأمريكية عن حقيقة نواياها الاستعمارية والعنصرية، من وراء حملتها ضد ماأسمته «الارهاب الدولي»، والتي اعتبرت أن م. ت. ف والجماهيرية الليبية وكراً للارهاب الدولي في الشرق الاوسط هذه النوايا العنصرية كشف عنها مستشار الادارة الأمريكية للشؤون الاستراتيجية العسكرية - ادوارد لوتواك في مقابلة له مع مجلة اسبرسو الايطالية على إثر الغارة العدوانية الأمريكية على الجماهيرية، حيث قال: (كان من الأجدر القيام بعملية غزو مباشر تشارك بها قوات إنزال لمهاجمة معسكرات التدريب والقضاء على منبع الارهاب في ليبيا) ثم كشفت عن طبيعة تفكير الادارة الأمريكية تجاه العرب والمسلمين معتبراً أن الحملة الأمريكية ضد الجماهيرية والعرب عموماً هي تواصل مع الحملات الصليبية السابقة ضد المسلمين فيقول . . (البحر المتوسط هو حد فاصل بين حضارتين هناك الساحل المسيحي الذي يجيز الاختلافات في وجهات النظر والساحل الاسلامي الذي يبرز فيه كل من يهاجم الحضارة الغربية ويكتسب اعترافاً معنوياً من الجميع) ويستطرد محرضاً الايطاليين ضد العرب . . (أمامكم في جنوب أوروبا بديل واحد: إما أن تغلقوا حدودكم على العرب بشكل كامل أو تستسلموا على أساس الأمر الواقع أمام القرصنة الجديدة . . عليكم أن تراقبوا بشدة كل حركات العرب دون استثناء عليكم ألا تعتبروا مثلاً حامل جواز السفر المصري وكأنه مواطن من الدانمرك، عليكم أن تناضلوا ضد القراصنة الجدد - العرب - وأن لاتسمحوا لهم بحرية حركة واحدة على أراضيكم كما فعلت دوقية توسكانا وانكلترا في الماضي، إذا لم تقوموا بشن حملة صليبية جديدة ستكون لديكم الفوضى الصارمة).

ثم عبر عن عنصريته قائلاً (العربي كذاب حتى ولو صدق)!

وحتى لانغرق في متاهات التنظير السياسي الذي تطغى عليه غالباً الرؤية الذاتية وتتغلب فيه العاطفة على العقل، فإننا سوف نتناول ماتطلق عليه وسائل الاعلام الغربية وتنساق معها بعض وسائل الاعلام العربية (الارهاب الدولي) من جانبه القانوني، أي تأصيل الظاهرة من جانب مدى تطابقها مع قواعد القانون الدولي العام، آخذين بعين الاعتبار فقط أعمال الكفاح المسلح التي تلجأ إليها الشعوب وحركات التحرر من أجل تحقيق المصير والتحرر من الاستعمار والهيمنة الامبريالية.

إن معالجة ظاهرة (الارهاب الدولي) من جانبها القانوني والحقوقي مهمة ضرورية، وخصوصاً أن الموضوع فتح الباب على مصراعيه لجدل قانوني واسع قلب المفاهيم والتصورات الكلاسيكية حول قضايا القانون الدولي العام ومدى قابلية القاعدة القانونية للتطور والتغير، ومصادر القانون الدولي، وهذا القانون الذي وضعته الدول الرأسمالية في عهده كانت هي صاحبة الأمر والنهي في العالم، هي الفاعلة الوحيدة في العلاقات الدولية.

أما اليوم فقد وسعت قاعدة المجتمع الدولي وأضيفت إليه دول وجماعات جديدة، وهي دول العالم الثالث والمنظمات الدولية والاقليمية، هذه الدول وإن التزمت بالقانون الدولي العام وبأشكال العلاقات الدولية الكلاسيكية عند حصولها على استقلالها حتى تحظى بالشرعية وبالاعتراف الدولي، إلا أنها أصبحت تشعر بأن هذا القانون، سواء الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أصبح يكبل حريتها، ولايتوافق في كثير من بنوده ومضامينه مع أوضاعها الخاصة، عملت وتعمل من أجل إدخال تغييرات على هذا القانون، ومن هنا يمكن فهم الصراع الدائر مابين دول العالم الثالث من جهة وبين الولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى، داخل منظمة اليونسكو، والجمعية العامة للامم المتحدة، وغيرهما من المنظمات المرتبطة بهيئة الأمم المتحدة.

وفي نفس هذا السياق تندرج محاولة دول العالم الثالث والدول الاشتراكية وفي وضع تعريف جديد ذي قوة الزامية قانونية لتعريف حق تقرير المصير، وإدراج قوانين حروب التحرير الشعبية وكفاح الشعوب من أجل التحرر والتي أكدت الممارسة الفعلية في أكثر من حالة إنها قوانين ضرورية للأوضاع الخاصة للدول الفقيرة، إدراجها في إطار قانوني يتمتع بالاعتراف الدولي، وبالتالي تسقط عنه صفة «الارهاب الدولي».

القانون الدولي قانون دينامي متطور

يعرف جيرهارد فان غلان[٢] القانون الدولي بأنه مجموعة من المبادىء والأعراف والأنظمة تعترف الدول ذات السيادة وأي أشخاص دوليين بأنها تعهدات ملزمة، إلزاماً فعالاً في علاقاتهم المتبادلة).

وبالنسبة لمصادر هذا القانون وكما تعرفها المادة الثامنة والثلاثون من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية هي:

١ - المواثيق الدولية سواء عامة أو خاصة التي تحدد الأحكام التي تعترف بها الدول المتنازعة،

٢ ـ الأعراف الدولية مبنية؟؟ على أنها قيد الاستعمال العام وتمارس وكأنها قانون.
٣ ـ المبادىء العامة للقانون التي تعترف بها الامم المتحضرة.
٤ ـ القرارات القضائية وتعاليم اكثر الكتاب كفاءة في مختلف الدول.

لقد قال القانون الدولي بأهمية الأعراف الدولية وعادات وسلوك الشعوب في صياغة وتطوير مبادىء القانون الدولي العام، أي أن هذا القانون يخضع لمبدأ التعديل حسب ظروف الزمان والمكان، ويقول بينكر شوك (1673 - 1743) حول الموضوع أن أساس القانون الدولي «يكمن فقط في الاتفاق المشترك بين الدول الذي يتم الاعراب عنه إما في العرف أو في المعاهدات» وأكد على أن مصدر القانون يكمن في المنطق، وفي استعمال هذا المنطق في إيجاد أفضل الحلول لمشكلة، وأكثرها عدلاً[٣].

وفي نفس السياق رأى جوهان جاكوب موزر (1701 - 1785) أن مبادىء القانون الدولي تقوم على المعاهدات كمصدر أساسي وتأتي في المرتبة الثانية عادات الشعوب التي في رأيه أصبحت ذات قوة الزامية قانوينة ومصدرة للقانون، وهذا يعني في نظرهما أن القانون الدولي مرتبط بالواقع وقابل للنمو والتوسع في كل العصور حتى في عصر احتدام الصراع السياسي.

ويعترف فان غلان أن كثيراً من قواعد القانون الدولي باتت بالية وغير ملائمة، وخصوصاً المتعلقة منها بقوانين الحرب.

وهكذا فإن قواعد القانون الدولي بما فيها القواعد المتعلقة بالحرب ومنذ عشرات السنين تعرف حالة انتقال وتطور حيث أضيفت إليها مبادىء جديدة كرستها المعاهدات الدولية والمنظمات الدولية بما فيها منظمة الأمم المتحدة، وأضيفت مواثيق جديدة مثل ميثاق مكافحة إبادة الجنس البشري، ومواثيق جنيف لعام 1949 والمواثيق المتعلقة بإدانة العنصرية والتمييز العنصري، والمواثيق المتعلقة بتصفية الاستعمار وماتزال عملية التطور والتجديد تفعل فعلها في قواعد القانون الدولي العام.

فيمكننا أن نستنتج من هذا أن الأعراف وتواتر استعمال نهج وسلوك معين يحظى بقبول غالبية أعضاء المجتمع الدولي، يمكنها أن تخلق قاعدة قانونية ملزمة تحظى بالشرعية الدولية مثلاً حق الشعوب في اللجوء إلى الكفاح المسلح من أجل تحقيق مصيرها والتحرر من الاستعمار، وحتى تحظى العادة أو السلوك المتكرر بالشرعية الدولية فليس ضرورياً أن تنال موافقة شاملة لجميع الدول بل يكفي موافقة بأغلبية كبيرة من الدول وهو الأمر الحادث بالنسبة للقرارات التي تصدرها الجمعية العامة للأمم المتحدة.

ان تواتر استعمال شعوب العالم الثالث للنضال المسلح من أجل إثبات حقها في تقرير مصيرها تحول إلى سلوك ذي صبغة دولية، إلى عرف دولي ملزم للدول، وفي هذا يقول اوبنهايم:

«بالنظر إلى أن تواتر الاستعمال ينحو إلى أن يصبح عادة، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: عند أية حالة يتحول تواتر الاستعمال إلى عادة؟ وهذا السؤال يقوم على الواقع وليس نظرياً، إذ إن كل مابوسع النظرية أن تقوله هو هذا: متى وحالما اعتبر خط من السلوك الدولي تكثر الدول من الأخذ به ملزماً قانونياً أو صحيحاً قانونياً، فإن القاعدة التي يمكن أن تستنبط من هذا السلوك هي قاعدة قانون دولي».

بالاضافة الى العرف والعادة كمصدر لاضفاء القانون على سلوكيات تحظى بموافقة تجمع كبير من

الدول وتعبر عن واقع دولي معاش، هناك أيضاً الأمم المتحدة التي تعتبر مصدراً لتشريع القانون الدولي ذلك أن الأمم المتحدة كتجمع دولي تملك الأهلية والسلطة القانونيين لوضع قواعد ومبادىء قانونية فمجلس الأمن والجمعية العامة تعدان في هذا السياق مؤسستان مخولتان بوضع وتطوير قواعد جديدة للقانون الدولي ولاينتقص كون الجمعية التي تمثل مجتمع الدول، هي هيئة سياسية مثل هيئة تشريعية وطنية، من دورها كهيئة تسن القانون الدولي، وفي شيوع استخدام قرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن أن يكون لها أثر وضع القوانين، وفي الاعتماد الواسع النطاق عليها، دليل مقنع على أن الأمور التي يعتمد عليها تشكل، على الأقل إثباتاً هاماً على وجود أو مبادىء بعينها للقانون الدولي[٤].

وتؤكد الدكتورة هيغنيز على صلاحية الأمم المتحدة في تطوير القانون الدولي من خلال تصديق غالبية الدول على موضوع ما فتقول: (مع تطور المنظمات الدولية أصبح لاصوات الدول وارائها مغزى قانوني بوصفها تقدم دليلاً على القانون العرفي، وعلاوة على ذلك فإن ممارسة الدول تشمل تصرفاتها الجماعية بالاضافة إلى حصيلة تصرفاتها الفردية وقد تزايد عدد المناسبات التي ترى الدول أن من المناسب أن تتصرف فيها بصورة جماعية، تزايداً كبيراً، وذلك بفعل أنشطة المنظمات الدولية والتصرفات الجماعية للدول، إذ كررتها وإذ منحت لها أعداداً كافية وتواترات مرات كافية ترقى في نهاية الأمر، إلى مركز القانون ووجود الأمم المتحدة ـ وخاصة ماطرأ على عضويتها منذ عام 1955 من اتجاه متسارع نحو الشمول العالمي ـ يوفر الآن جهة وصل واضحة جداً أو مكثفة جداً لممارسات الدول».

وتؤكد هيغنيز أن وضع القانون العرفي يمكنه أن ينجز بفعل التصرفات الجماعية للدول، وهو مايتجلى بشكل بارز في قرارات الجمعية العامة[٥].

إذن انطلاقاً من الفهم الواقعي العلمي للقانون الدولي وللشرعية الدولية ورداً على النظرة الانتقائية التي تحاول أن تفسر بها الدول الاستعمارية قواعد هذا القانون بالشكل الذي يعطيها سلطة ديكتاتورية في توجيه وضبط المجتمع الدولي وقمع أية خروقات من قبل الشعوب الفقيرة للتمرد على هذه الدكتاتورية، نشطت دول العالم الثالث في الجمعية العامة للأمم المتحدة وفي المنظمات المتفرعة عنها من أجل تطوير وصياغة قوانين جديدة، وتكريس مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها كحق قانوني، مع ما يعنيه هذا الحق من اللجوء إلى كافة الوسائل بما فيها الكفاح المسلح وهو الأمر الذي أكدت عليه الجمعية العامة في قراراتها المتعددة أن المواجهة والجدل المحتدمين حول مايسمى «الارهاب الدولي» يرتبط ارتباطاً جوهرياً في الصراع الدائر بين الدول الرأسمالية والأنظمة التي تدور في فلكها وبين دول وشعوب العالم الثالث، فالأولى تحاول أن تحافظ على التفسير الكلاسيكي الجامد للقانون الدولي الذي يكرس حالة التبعية والخضوع، والثانية تحاول أن تفرض تصوراتها ومفاهيمها المبنية على خصوصية أوضاعها وعلى كونها تشكل الأغلبية الدولية، وبالتالي من حقها أن تضع القوانين التي تراعي مصالحها.

ومن هنا يمكن تفسير الحملة المسعورة التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية والدول الدكتاتورية والكيان الصهيوني ضد ماتسميه «بالارهاب الدولي» وهي في هذا تحاول أن تحول دون أن يتحول الكفاح المسلح للشعوب من أجل تقرير مصيرها، بفعل التكرار، وبفعل تراكم التأييد الدولي لهذه الشعوب إلى

عرف بمثابة القانون. وبالتالي تسقط المبررات الامبريالية المناهضة لحركات التحرر في العالم.

إن مايثير الدهشة أنه في الوقت الذي تتكاتف فيه جهود دول العالم المؤيدة لكفاح الشعوب من أجل حريتها وخصوصاً كفاح الشعب الفلسطيني ضد الكيان الصهيوني، وفي الوقت الذي تخوض فيه قوى التحرر العالمي حرباً اعلامية ونفسية وقانونية ضد محاولات القوى الامبريالية إضفاء صفة الارهاب على كفاح الشعب العربي ضد الصهيونية، في هذا الوقت تتصاعد دعوات مشبوهة داخل الصف العربي والفلسطيني تشكك في جدوى ومشروعية الخيار العسكري في مواجهة العدو، وتعمل على إسقاط هذا الخيار بحجة كسب الرأي العام الأوروبي أو إرضاء الولايات المتحدة، أو التستر تحت شعار موازين القوى والوضع الدولي والتوازن الاستراتيجي.. الخ

إن نهج التسوية ـ والتي هي المرادف للاستسلام في ظل موازين القوي الحالية ـ الذي يستشري في التفكير والسلوك العربي يوجه ضربة قاسية لكل جهود قوى التحرر في العالم لاضفاء صفة المشروعية على كفاح الشعوب ضد الاستعمار والهيمنة، إن نهج التسوية في الساحة الفلسطينية والعربية يعني السقوط في حبائل الايديولوجية الامبريكية الصهيونية، يعني استيعاب العقل العربي وتوظيفه لخدمة السياسة الأمريكية في المنطقة العربية.

هوامش

(١) لمزيد من التفاصيل حول مفهوم الارهاب وابعاده يمكن الرجوع الى:
ـ ابراهيم ابراش ـ الارهاب الدولي وحق الشعوب في تقرير مصيرها ـ مجلة الوحدة، عدد 25 اكتوبر 1986.

(٢) جيرهاد فان غلان ـ القانون بين الأمم ـ الجزء الأول ـ دار الأفاق الجديدة 1970 ص 7

(٣) نفس المصدر ـ ص 52

(٤) انظر: وليم توماس ماليسون وسالي فماليسون ـ تحليل القرارات الأمم المتحدة الرئيسة المتعلقة بقضية فلسطين من وجهة نظر القانون الدولي ـ الامم المتحدة، نيويورك 1979 ـ ص 5

(٥) نفس المصدر ـ ص 6.

الخلفية التاريخية للدعوة الوهابية في منظور الاستشراق السوفييتي

خطوة إلى الأمام.. أم خطوة إلى الوراء

تركي علي الربيعو*

مقدمة:

من بين التعاريف الجديدة للاستشراق التي يزجيها الاستاذ ادوارد سعيد في كتابه الرائع ـ الاستشراق ـ تعريف مهم، حيث يرى أن الاستشراق «نهج من الرؤيا، والدراسة، والكتابة المقننة (أو المشرقنة)، تسيطر عليه الضرورات الحتمية، والمنظورات، والاهواء العقائدية الكلائمة، ظاهرياً للشرق. فالشرق يدرس، ويبحث، ويدار، وتصدر عليه الاحكام بطرق معينة خفية محترسة»(١).

الشرق بحضاراته وشعوبه هو المادة الخام للاستشراق. يطبق عليه نهجه في الرؤية واهواءهُ العقائدية وتقنياته الكتابية التي تسهم في شرقنة الشرق، والتي تحولت الى انشاء (خطاب) له قوته وسلطته على كل من يريد أن يكتب أو يفكر في الشرق. ويضيف سعيد «اننا مالم نكتنه الاستشراق بوصفه انشاء فلن يكون في وسعنا ابداً أن نفهم الفرع المنظم تنظيماً عالياً الذي استطاعت الثقافة الغربية عن طريقه أن تتدبر الشرق ـ بل حتى أن تنتجه ـ سياسياً، واجتماعياً، وعسكرياً، وعقائدياً، وعلمياً، وتخيلياً»(٢).

هل هذه التعاريف قابلة للتعميم ـ خاصة وان ادوارد سعيد ـ واعتماداً على ميشيل فوكو المفكر الفرنسي الشهير ـ طبق نهجه على دراسة الاستشراق الاوروبي «الانكليزي الفرنسي بالتحديد». وهل ينطبق هذا الكلام على الاستشراق السوفييتي؟. ان الاجابة عن ذلك لاتتأتى الا من خلال قراءة تحليلية للكيفية التي مارسها الانشاء (الخطاب) الاستشراقي الروسي في دراسته لتاريخ الجزيرة العربية قبل ظهور الدعوة

* كاتب من القطر العربي السوري.

الوهابية . وأود أن ألفت النظر إلى أن هذه الدراسة لاتدخل في اطار الموضة الفكرية التي تتستر وراءها الكثير من القوى التي تهاجم الاستشراق .

فالدراسة تسهم في اطار من النقد الذي يفسح المجال ويدفع الى التساؤل،الى أي مدى تسهم الرؤية الاستشراقية بشقيها (الاوروبي الامريكي ، والسوفييتي بالتحديد باعتباره محور الدراسة) في قراءة انثربولوجية اقتصادية، سياسية لتاريخ الجزيرة العربية ، قراءة من شأنها أن تسهم في عملية التغيير المنشود الذي تهدف اليه دول الجزيرة العربية . وهذا لايعني أن الامل معقود على الاستشراق،لكن يمكن القول إن الدراسة الاستشراقية الموضوعية والمتعاطفة من شأنها أن تشكل اسهاماً في عملية التحول والتغير، فالاستشراق مدعو لان يطرح جانباً معرفته المؤدلجة التي ربطته بالاستعمار،وأن يشارك في عمليات التحليل التي تستهدف إعادة قراءة جديدة من أجل الاسهام في البناء والتركيب .

نبذة عن تاريخ الاستشراق الروسي :

يتميز الاستشراق الروسي ـ اذا ماقورن بالاستشراق الاوروبي ـ بضعف تقاليده الاستشراقية . اذ أن معرفته بالشرق ظلت ضئيلة . وقد أسهم في هذه المعرفة عن الشرق الاسلامي ثلاثة أمور:

أولا : المشاركة الروسية في الحملات الصليبية ضد الشرق العربي الاسلامي .

ثانيا : الصراع الروسي ـ التركي حول البلقان وحرب القرم والتي أسهمت في نسج أساطير وخرافات كثيرة عن الاسلام وعن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : الكتابات الاستشراقية المعادية في الغرب والتي نشرت في روسيا «فمع أواخر القرن السابع عشر قامت الاوساط العلمية الروسية بترجمة العديد من الكتابات الالمانية ، والايطالية الاستشراقية ، وصدرت في اطار سلسلة منذ عام ١٦٨٤ تحت عنوان «حكايات عن محمد منذ بداية رسالته وحتى النهاية» . وعلى حد تعبير كراتشكوفسكي . فقد انتقيت هذه المواد عن الاسلام ، عشوائياً ، وفي محض الصدفة»(٣) .

ويعلق أحد الدارسين للاستشراق الروسي على أن المعرفة بالاسلام ، مرت عن طريق المصفاة الاوروبية الغربية ، ولذلك جاء معظمها مشوهاً بعيداً عن الموضوعية العلمية . فلقد أرادت روسيا الاستعانة بوجهة النظر الاوروبية عن الاسلام ، لكي ترتكو على مستندات فكرية توظفها الارثوذكسية المسيحية الفكرية الروسية ضد الدوغمائية الاسلامية التترية(٤) .

مع بداية القرن الثامن عشر وبمبادرة من قيصر روسيا ـ بطرس الاول ـ تم انشاء متحف ومعهد الدراسات الشرقية في إطار اكاديمية العلوم الروسية . وارسلت البعثات ، لتعلم لغات الشرق (العربية والتركية والفارسية) . ولعل أهم حدث شهده مطلع هذا القرن هو ترجمة القرآن الكريم على يد الدكتور «بيوتر بوستيكوف» عام ١٧١٦ م عن الترجمة الفرنسية ، تحت عنوان ملفت للنظر (القرآن ومحمد أو قانون تركيا)(٥) .

في أواخر القرن الثامن عشر ، أصدرت القيصرة كاترينا (ايلول ١٧٧٢) قانوناً يقضي بالزامية تدريس

اللغة العربية في المدارس الثانوية . وقامت بطباعة القرآن الكريم ووزعته باعداد كبيرة بين مسلمي آسيا الوسطى ، وتم طباعة كتاب «الف ليلة وليلة» في بطرسبورغ ، وابتداء من الثلث الاول للقرن التاسع عشر بدأت مدرسة الاستعراب الروسية تقف على قدميها ، ونشأت وعلى حد تعبير أحدهم نزعة حماسية لتعلم العربية ، وتم تأسيس المتحف الاسيوي التابع لاكاديمية العلوم الروسية،وترأس أعماله المستشرق «فرين» أشد المتحمسين للتعمق في دراسة الثقافة العربية الاسلامية . وبدأت المعرفة الخابرة ـ ان جاز التعبير ـ تأخذ مجراها،فقد عاش البروفيسور «سنكوفسكي» عدة سنوات في العالم العربي ، واتقن العربية بصورة جيدة وغوسييف في مصر ، وغامازاوف كضابط عسكري وموراغييف كرجل دين ورحاله .

وابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر قامت اكاديمية العلوم الروسية ـ معهد الاستشراق ـ باستضافة مدرسين من أصل عربي «المكي ، الطنطاوي ، كينز ، مرقص ، عطايا ، وبندلي جوزي) وقد لمع في هذه الفترة الكثير من العلماء الاستشراقين السوفييت مثل موفالينسكي (١٨٠٨ ـ ١٨٧٧) ، مالنوف (١٨٣٥ ـ ١٩٠٨) ، ماشانوف الاستاذ في جامعة قازان ، وكاظم بيك المسلم الاذربيجاني(٦) . مع مطلع القرن العشرين كانت الدراسات الاستشراقية الروسية التي تناولت تاريخ الشرق العربي محدودة . فقد كتب داموف دراسة عن العراق العربي ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، بطرسبورغ ١٩١٢ ، وكرايمكس «تاريخ العرب والاداب العربي الدينية والدنيوية . موسكو ١٩١٢» . والادب العربي في مقالات ونماذج موسكو ١٩١١ وباستثنائها تكاد الدراسات التي تناولت تاريخ العرب والمسلمين غائبة حتى بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ م .

بعد الحرب العالمية الثانية ، اصدر لوتسكي الذي وصف على انه أكبر اختصاصي سوفييتي في مجال تاريخ البلاد العربية الحديث والمعاصر ، وانه مؤسس المدرسة السوفييتية للمؤرخين المستعربين(٧) ، كتابه الشهير ـ تاريخ الاقطار العربية الحديث ، وقد جاء وصف الكتاب على انه «أول تجربة في الادب الروسي والسوفييتي تستعرض بصورة منظمة تاريخ العرب في العصر الحديث،القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين»(٨) . وعلى «أنه يزخر بمشاعر التعاطف الحار والفياض مع شعوب الاقطار العربية»(٩) ، وكذلك تم جمع مؤلفات المستشرق السوفييتي الكبير كراتشكوفسكي وأصدرت في مجموعة مجلدات مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين .

ومع تعاظم الدور السوفياتي في العالم بعد الحرب العالمية الثانية وبروزه كقوة عالمية حدد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي (١٩٥٦) الدور والمسار الجديد للاستشراق السوفييتي ، وقد عالج المؤتمر الاول للمستشرقين السوفييت (طشقند ١٩٥٧) اربعين موضوعاً عاما تطال :

أولا : تهافت النظام الامبريالي .

ثانيا : مهام الاستشراق السوفييتي بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي .

ثالثا : الاهمية العالمية لمؤتمر باندونغ الذي أعطى دفعاً حاسماً لعملية التجديد الثقافي(١٠) .

ومع تعاظم الدور السوفياتي في البلاد العربية وجدت بعض المنشورات الاستشراقية طريقها الى

الجمهور فكتب «كوتلوف» عن الثورة العراقية عام ١٩٥٨ . «ولبيبديف» عن الاردن ١٩٥٦ ، وكاتافا لين «العلاقات الزراعية في سورية» وبتلاييف «الامبريالية الاميركية في العربية السعودية ١٩٥٧ م» . وقد أكد المؤتمر الحادي والعشرون مجدداً على أهمية الدور الجديد للاستشراقيين وقد جاء المؤتمر الخامس للمستشرقين (موسكو، آب/ اغسطس ١٩٦٠) ليكون تعبيراً حيا عن هذا التوجه، فقد شهد عقد السبعينات اهتماماً استشراقياً كبيراً بدراسة الادب العربي، فكتب «كودلين» «حول مشكلة صحة الاصل للشعر الجاهلي»، و «شيدفار» «حول نشوء واسلوب السيرة الشعبية العربية»، و «ميكولسكي» عن سبل تكوين النثر الروائي الفلسطيني، وكيرتشينكو» «حول بعض الجوانب من التوجه صوب التراث في الادب المصري(١١)، وحرر كل من فوبليكوف وكيكتيف، لازاريف، ليبيديف، نتشكين، رومیانتسيف، وسلطانوف كتاباً عن تاريخ الاقطار العربية المعاصرة في جزئين، وصف بأنه أول محاولة في المطبوعات السوفيتية لعرض تاريخ العالم العربي في احدث مراحله بصورة منهاجية»(١٢)، وكتبت الدكتورة تاتيانا تيخونوفا كتاباً عن ساطع الحصري بعنوان «ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي»(١٣).

وأصدر فاسيلييف كتاباً ضخماً بعنوان «تاريخ العربية السعودية، وأصدرت الاكاديمية السوفيتية كتاباً تحت عنوان «عالم البدو» والذي طال بدو شبه الجزيرة العربية وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

العلاقة بين الاستشراق والسياسة:

ان تعاظم الدور السياسي للاتحاد السوفييتي في النصف الثاني من القرن العشرين وبروزه كقوة عظمى لها دور وصف أحياناً بأنه امبريالي، ألقى على كاهل الاستشراق مهمة جديدة ونهجاً جديداً في الرؤيا، وانطلاقاً من وجود علاقة سببية وثيقة تاريخياً بين الاستشراق والسياسة، اذ أن الاستشراق في نهاية المطاف هو رؤية سياسية للواقع(١٤)، او لنضع الامور بشكل أكثر احتراساً كما يقول ادوارد سعيد، الاحتمال الكبير لامكانية استخدام الافكار المستنبطة حول الشرق من الاستشراق لاغراض سياسية، هو حقيقة هامة، لكنها حقيقة حساسة جداً(١٥). ويضيف ادوارد سعيد في مكان آخر، حيث يقول «واذا كان التحديد للاستشراق، يبدو سياسياً أكثر منه أي شيء آخر فذلك ببساطة لانني اؤمن بان الاستشراق كان هو نفسه نتاجاً لقوى ونشاطات سياسية معينة(١٦). - في الكتاب الرائع للاستاذ هشام جعيط المعنون «اوروبا والاسلام» يرى أن حقل الاستشراق يمتد حتى الى ميدان الانتولوجيا، الحقل الذي يفترض بعده عن تأثير النص الاستشراقي(١٧).

أمام هذا الحقل الكبير للدراسات الاستشراقية يكتسب الوطن العربي في منظور الاستشراق أهمية جغرافية «فقد كانت الجغرافيا، جوهرياً الاساس المادي للمعرفة بالشرق، وقد قامت جميع خصائص الشرق المميزة الكامنة واللامتغيرة على جغرافيته وتجذرت فيه»(١٨). فهو يقع على مرمى حجر من حدود الاتحاد السوفياتي الجنوبية، بالاضافة الى اهميته الجيوسياسية في الصراع العالمي (احتياطي هائل من النفط يفتح الشهية لمستشرقي برميل النفط - ان جاز التعبير - الذين يضطلعون ويتطلعون الى دور جديد، الصراع

العربي - الاسرائيلي، الممرات المائية، الحرب العراقية - الايرانية . . الخ.

الاستشراق السوفييتي بين ضعف التقاليد الاستشراقية وقوة الايديولوجيا:

استشراق الثلث الاخير من القرن العشرين في الاتحاد السوفييتي، ملقى على كاهلة مهمة صعبة حددها ميكوبان في المؤتمر الدولي الخامس والعشرين للاستشراق «ان من واجب المستشرقين ان يعكسوا في اعمالهم، بصورة موضوعية، أهم العمليات الجارية في بلدان آسيا وافريقيا، وان يعمدوا بصورة خلاقة الى صياغة المشكلات الاساسية لصراع شعوب الشرق من أجل تحررها القومي والاجتماعي والتعويض عن تأخرها الاقتصادي. ويصح أن نقول الاستشراق لن يسعه ان يعول على كسب اعتبار واسع ولا على النجاح، الا عندما يصبح في خدمة مصالح الشعوب الشرقية(١٩). هكذا يبدو ان المهمة شاقة وتتمثل في تقديم دراسة جادة ومتعاطفة مع شعوب الشرق، ولعل اختيار طشقند ١٩٥٧ مقراً اول لمؤتمر المستشرقين الاول بدلاً من موسكو أو بطرسبورغ (لينغراد حالياً) له دلالته الكبيرة. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو، ماهي الارضية التي يتحرك عليها المستشرقون الجدد، وما هو النجم الذي يهتدون بهديه في مسيرتهم الليلية؟ الاجابة التي يقدمها الاستشراق تتوزع على قسمين:

الاول: ينطلق في دراسته عن الشرق معتمداً على التراث الاستشراقي والتقاليد الاستشراقية التي أرساها المستشرقون السوفييت «اذ إن أبحاث العلماء السوفييت من المستشرقين المشتغلين بقضايا البلدان العربية والامبراطورية العثمانية - كما تقول الدكتورة يتخونوفا - ولاسيما مايتعلق منها بمشكلات تطور الايديولوجية القومية وخصوصيات علمنة الفكر الاجتماعي، والعلاقة بين النزعتين السلفية والعصرية في مذاهب المفكرين المعاصرين، تشكل أرضية يعتمد عليها في انطلاقة الاستشراق السوفياتي(٢٠). لكن المشكلة تتمثل وتكمن في ضعف أو غياب التقاليد الاستشراقية الروسية. فقد جاء في مقدمة كتاب لوتسكي مايلي «ان انعدام التقاليد التاريخية العلمية الروسية والضيق النسبي للقاعدة الادبية، وأخيراً مجرد عدم دراسة الكثير من القضايا الرئيسية الخاصة بتاريخ الاقطار العربية لا في الادب الروسي فحسب، بل وفي الآداب الاجنبية الاخرى ايضاً(٢١) يضع على عاتق وكاهل الباحث المستشرق المهمة الصعبة، والسؤال هو ماذا يفعل المستشرق السوفييتي الذي يقع على عاتقه مسئولية تقديم فهم جديد للشرق يقدمه بمثابة عربون وفاء لقادة الكرملين.

في هذه الحالة: إما الرحلة الى بلاد الشرق فرحا، بانعتاقه من قوة الانشاء الاستشراقي التي أسهمت في شرقنة الشرق، باحثاً في اطار سعيه لتكوين معرفة خابرة بالشرق عن توحد الانا بالموضوع وانهاء حالة الاغتراب التي عاشها الاستشراق الغربي؟ وإما استعارة دوافع التعبير من الغرب - من التراث الاستشراقي الغربي - وبذلك يعود ادراجه الى الوراء - الى القرن السابع عشر والى مدرسة بطرسبورغ، حيث تم استعارة المعرفة عن الشرق من مصفاة الاستشراق الاوروبي، وبذلك يتوحد الاستشراق السوفييت مع الاستشراق الغربي الاوروبي. والدليل على ذلك هو ماقدمه فاسيلييف، ففي دراسته المتميزة والهامة عن تاريخ العربية

السعودية، لم يجد بدا من الاعتماد على التراث الاستشراقي الغربي على (فولني، يوركهاروث، فيلبي، ديكسون، دوتي، بيلي، سادلر، بوبير، مونتاني، جوسان ولورانسي) في محاولته لفهم الخلفية التارخية لبدو الجزيرة العربية.

ثانيا: المجال الثاني الذي ينطلق في فضائه الاستشراقي السوفييتي يتمثل في تعاليم الماركسية اللينينية عن الشرق، وهذا ماحدده غافوروف مدير معهد الاستشراق في موسكو. في كلمته أمام مؤتمر طشقند «اننا معشر المستشرقين السوفيات، نعتبر من واجبنا العلمي، فضلاً عما يمليه علينا وعينا، ان نساعد شعوب الشرق، دونما انقطاع في صراعها من أجل مستقبل افضل،واننا مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية، ومنهجنا العلمي العميق، المنهج الماركسي ـ اللينيني، الذي أكد الواقع صحته، كما اكدتها تجربة بلادنا في مضمار بناء الاشتراكية، تجربة مبنية على نظرية علمية تقدمية، إننا مقتنعون بأن كل ذلك من شأنه أن يساعد شعوب آسيا وافريقيا على ايجاد السبيل الافضل والامثل من أجل احراز التقدم»[٢٢].

الماركسية هي الاطار الامثل والنجم الذي يهتدي بضوئه المستشرقون السوفييت، لكن التراث الماركسي بخصوص الشرق (مقولة نمط الانتاج الآسيوي) والتي تمثل تأكيداً واضحاً على خصوصية الشرق في محاولة لطرده وقذفه خارج التاريخ العالمي الذي يرسم ملامحه الغرب. لاتزال تثير الكثير من سوء الفهم وردود الفعل في الاوساط الاستشراقية السوفييتية او الغربية على السواء[٢٣].

لقد بين ادورد سعيد في كتابه السالف الذكر، حقيقة هامة جداً تتمثل في ان رؤية ماركس للشرق تظل اسيرة، لقوة النص (الانشاء) الاستشراقي الغربي للشرق،فالانشاء الاستشراقي يحتفظ بتأثيره الكبير كسلطة مرجعية حتى على صعيد رجل متعاطف مع الشرق مثل ماركس، وهذا مادفع ماركس لان ينحي التعاطف جانبا «ان على انكلترا ان تحقق في الهند رسالة مزدوجة، الاولى تدميرية والثانية احيائية تجديدية، افناء المجتمع الآسيوي، وارساء الاسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا «يقول سعيد» لقد كان ماركس الى حد ما طبعا مهتماً بالرهان على سلامة نظرياته في الثورة الاجتهادية لكن بدا الى حد ما أيضاً أنه كان في متناوله قدر ضخم من المادة الكتابية،مادة كان الاستشراق في آن واحد قد منحها صلابة داخلية ودفعها الى خارج حدوده وسيطرت على أي تقرير أو حكم يمكن أن يصدر حول الشرق»[٢٤] ويضيف في مكان آخر «مكتبة صلبة ضخمة ليس بمقدور احد حتى ماركس نفسه أن يتمرد عليها أو يتجنبها»[٢٥].

وفي رأيي ان السؤال هو الى مدى يظل الاستشراق السوفييتي أسيراً لسلطة النص (الانشاء) الاستشراقي حول الشرق، وذلك باعتماده على النصوص ذات الطابع الايديولوجي المشرقن التي كتبها رحالة ومبشرون وسياسيون ومستشرقون محترفون،والتي كانت بمثابة سلطة مرجعية لكل من ماركس والمستشرقين السوفييت. وفي هذه الحالة هل تمثل هذه الاستعارة باستعادة دوافع التعبير ـ خطوة الى الامام، أم إنها خطوة الى الوراء لاتتناسب والطموح الكبير الذي القاه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي على كاهل المستشرقين السوفييت. ان المثال الذي نقدمه في هذه الدراسة والمتمثل في رؤية الاستشراق السوفياتي للحركة الوهابية هو الذي يحكم على نوعية الخطوة، هل هي قفزة نوعية الى الامام في تاريخ الاستشراق، بشكل عام، خاصة وكما بينا ان الاستشراق السوفياتي يمتح من نفس البئر الذي يشرب منه الجميع، ام

إنها خطوة الى الوراء وفي هذه الحالة تكون هذه الورقة بمثابة ورقة نعي تكتب في نهاية عصر الاستشراق، ويكتبها رجل من خارج نادي الاستشراق. اذ إن الكتابة عن الاستشراق من خارج ناديه كثيراً ماتكون مفيدة على حد تعبير رودنسون[٢٦].

الوهابية في منظور الاستشراق السوفييتي:

يرتبط تاريخ الجزيرة العربية بتاريخ الاسلام. فالجزيرة العربية هي مهد الاسلام. وكذلك فهي مهد للدعوة الوهابية بقيادة محمد بن عبد الوهاب. لكن لماذا يركز الاستشراق السوفياتي على دراسة الدعوة الوهابية. ان الجواب الذي يقدمه الاستشراق يؤكد على صحة العلاقة الوثيقة بين الاستشراق والسياسية. ويدفعنا للتأكيد على ان الاستشراق هو امتداد للسياسة،ويتمثل هذا الجواب في كون الوهابية هي المفتاح الذي يقدم الفهم للكيفية التي قامت عليها المملكة العربية السعودية. نظراً لان العربية السعودية كما يقول فاسيلييف تلعب دوراً غير عادي واستثنائي[٢٧].

ماهي طبيعة هذا الدور؟ وماهو جانبه الاستثنائي؟ وهل يمهد فاسيلييف للادانة. سوف نترك ذلك الى نهاية البحث. لكنني سوف أفسح المجال للتساؤل التالي، وهو كيف يمكن فهم الدعوة الوهابية اذا كانت تمثل مدخلاً لفهم الدور الاستثنائي وغير العادي للعربية السعودية.

الجواب الذي يقدمه الاستشراق هو بمثابة البديهية اذ «ان دراسة مجتمع الجزيرة العربية بالدرجة الاولى يمكن أن تقدم لنا مفتاح فهم المذهب الوهابي،وأسباب تأسيس وتطور واندثار وبعث الدولة التي تحمل اليوم اسم العربية السعودية»[٢٨].

ان مجتمع الجزيرة العربية الذي يشكل مفتاحاً للمذهب الوهابي يظهر من تحليل لوتسكي في كتابه «تاريخ الاقطار العربية الحديث» متمثلاً في النقاط الاربع التالية:

أولا: الفوضى العامة والشاملة «ففي اوائل القرن الثامن عشر، لم يكن في الجزيرة العربية تنظيم دولة موحد. ركان سكانها ـ سواء من بدو السهوب أو من مزارعي الواحات الحضريين منقسمين الى قبائل متعددة، مفككي الاوصال ومتخاصمين فيما بينهم، يشنون بعضهم على بعض حروباً طاحنة متواصلة بسبب المراعي وقطعان المواشي وحقول الصيد والينابيع. ولما كانت هذه القبائل مسلحة كلها بدون استثناء اتسمت هذه الحروب بضراوة كبيرة واستمرت الى أمد طويل»[٢٩].

ثانيا: التجزئة الاقطاعية ـ العشائرية للجزيرة العربية «فقد كانت الفوضى العشائرية الاقطاعية في مناطق العرب الرحل متممة للتجزئة الاقطاعية في المناطق الحضرية. وكان في كل قرية ومدينة تقريباً حاكمها الوراثي، وكانت الجزيرة العربية الحضرية برمتها عبارة عن مجموعة من الامارات الاقطاعية المتدرجة الصغيرة حتى المتناهية في صغرها.. وعلى غرار القبائل، لم تتخلص هذه الامارات من الحروب الاقطاعية»[٣٠].

ثالثا: سيادة الطوطمية كعبادة «ومع ان العرب ـ ولفظ عربي يقابل بدوي عند لوتسكي ـ كانوا كلهم شكلياً

يدينـون بالاسلام ويعتبرون انفسهم مسلمين، الا انه كان يوجد في الجزيرة العربية في الواقع كثرة من الاديان القبلية المحلية. وكـان لكـل قبيلة عربية ولكـل قرية طواطمها وعقائدها وطقوسها»[٣١]. يؤكد فاسيلييف في كتابه عن تاريخ العربية السعودية واعتماداً على دراسات استشراقية. ان البدو ابعد مايكونون عن الإسلام. إنهم أناس وثنيون[٣٢].

رابعـا: استفحـال نظام الرق، الذي كان منتشراً بصورة واسعة نسبياً بين القبائل الرحل والحـضر على السواء، وكانت اسواق النخاسة في مكة والهفوف ومسقط وغيرها من المدن، تزود نبلاء العرب بعدد كبير من العبيد، الذين كانوا يستخدمون في الحياة العادية وفي الاعمال الشاقة على السواء»[٣٣].

اضـافـة الى الخصـائص الثـابتـة المـذكورة، نجد في الكتاب الذي حررته مجموعة من المؤرخين السوفييت، مجموعة من الخصائص التي يمكن استنتاجها والتي تتمثل في:

أ) سيادة نمط الانتاج الاقطاعي.

ب) هيمنة طراز الاقتصاد الطبيعي على الاقسام الداخلية منها.

ج) ضعف التجارة وانعزال الوسط الداخلي عن العالم.

د) بقايا قوية لعلاقات المجتمع المشاعي البدائي ونظام الرق[٣٤].

في معرض حديثه عن الاستشراق يقول سعيد «لكي يفهم المستشرقون الاسلام يجب تقليصه الى الخيمة والقبيلة»[٣٥]. ولكي تفهم الوهابية يوجه فاسيلييف في سفره الضخم «تاريخ العربية السعودية»، وجهة باتجاه الخيمـة والقبيلة البـدوية. في محاولـة لكي يذكي فهماً جديداً للوهابية والاسلام، ضارباً عصفورين بحجر واحد.

فاعتماداً على فولني ـ يصفه هشام جعيط في كتابه اوروبا والاسلام بأنه «ايديولوجي من الدرجة الاولى في فترة نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر[٣٦] ـ وعلى بوركهاردت وفيلبي والكثير من الرحالة والمبشرين يستنتج ان القبيلة هي الاطار الذي يجمع سكان الواحات المروية بالبدو الرحل الذين يعتمدون الرعي (بدوي، شبه بدوي). وان التعاضد هو السمة الاساسية في حياة البدو في اطار علاقة النسب مع ضعف روابط النسب عند سكان الواحات.

وان المجتمع البدوي هو مثال للمجتمع الديمقراطي العسكري. وان السمة الاساسية في التكوين الاجتماعي الاقتصادي لسكان الواحات المروية وللبدو هي الثبات والركود التاريخي «إن تباطؤ تطور القوى المنتجة وثبات البنيات الاجتماعية طوال القرون، يهيئان لنا فرصة سحب خصائص العلاقات الاجتماعية في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر او مطلع القرن العشرين على القرون السابقة[٣٧] ويضيف فاسيلييف في موضع آخر قائلاً ونظراً لعدم حدوث أية تغيرات ثورية في تطور القوى المنتجة في الجزيرة العربية خلال القرون الاخيرة حتى حلول القرن العشرين. يمكن الافتراض ان مثل هذا النظام الاجتماعي ظل باقياً امداً طويلاً مع بعض التعديلات والتعمق التدريجي للفوارق الطبقية»[٣٨] وكانت الجزيرة العربية قبل ظهور الوهابيين متروكة لحالها بقدر كبير طوال عدة عقود من السنين»[٣٩].

ان الثبات التاريخي منذ فجر الاسلام والى القرن العشرين وعدم حدوث أي تغيير ثوري. بسبب

من تركهـا لحالها عدة قرون» ان وسط الجزيرة العربية المعزول بحكم طائفة من الملابسات عن المناطق الاخرى الاكثر تطوراً في الشرق الاوسط لم يبتعد كثيراً عن مستوى النظام الاجتماعي الذي كان قد بلغه الحجاز في فجر الاسلام، أي مستوى المجتمع الاستغلالي البدائي لدرجة كبيرة»[٤٠].

وهذا معناه ان الاسلام وعلى مسار مايربو على الاكثر من اثني عشر قرناً لم يسهم في أية عملية تغيير «فسيادة الطوطمية وعبادة الاوثان، والفوضى العشائرية، والتخلف الاقتصادي الطبيعي ومجتمع الرق وغياب الدولة» تظهر بمثابة خصائص تاريخية ثابتة وعصية على التغيير. وهذا يعيدنا مباشرة الى مقولة نمط الانتاج الآسيوي والتي نذرت نفسها لتفسير الشرق بانغلاقه وجموده وفقدانه للحياة ومغايراته للغرب، وهذا مايجعل منه ميداناً لعملية جراحية ـ يقوم بها المستشرقون والجهاز الاستعماري ـ لاستئصال كل عوامل المرض في محاولة لاعادة انتاجه من جديد وتكوينه على غرار حداثة الغرب.

وانـطلاقـاً من أن حياة السـواد الاعـظم من سكـان الجزيرة العربية، ترتبط بنوعين من النشاط الاقتصادي. الزراعة الإروائية في الواحات، والرعي البدوي،فان السؤال المطروح على عاتق الاستشراق هو، هل كانت توجد هناك علاقات طبقية واضحة ـ اقطاعية على سبيل المثال؟. كما لاحظنا فان لوتسكي وكثيرين اسهموا في القول ان مجتمع الجزيرة العربية هو مجتمع اقطاعي. لكن فاسيلييف يخطو خطوة باتجاه الامام، فهو يرى «ان هناك علاقات طبقية من طراز ماقبل الرأسمالية»[٤١] ففي الواحات الاروائية كانت الارض ملكاً للوجهاء والفقهاء. الا ان اهم مايلاحظ هو ندرة الملكية العقارية وعدم انتشارها. هذه الملكية قادت الى نشوء الاقطاع والذي تزامن مع ضعف الرابطة العشائرية عند سكان الواحات. لكنها الاقطاعية الملازمة لبلدان الشرق الاوسط[٤٢].

أما على صعيد المجتمع البدوي الرعوي فبالرغم من كونه مجتمعاً استغلالياً «اذ إن عملية تشديد استغلال البدو البسطاء من قبل الوجهاء، وهو الاستغلال المستند الى التفاوت في الاموال، كانت جارية، ولكنها لم تبلغ مرحلة شق القبائل البدوية وتقسيمها الى طبقات»[٤٣].

وهكذا يبقى السؤال الذي يتبادر الى الذهن،هل وصل تحلل الاواصر العشائرية داخل قبائل البدو الى درجة تجعلها تتحول الى علاقات طبقية. فاسيلييف يجيب مستنتجاً ان المجتمع البدوي هو شاهد على غياب العلاقة الاقطاعية كما كان سائداً في الادبيات السوفييتية في هذا الموضوع. لكن مع ملاحظة «مجرد اتجاه نحو العلاقات الاقطاعية عند بعض القبائل المترحلة المنفردة»[٤٤] وفاسيلييف يعزو غياب العلاقات الطبقية الى عاملين اساسيين:الاول هو سبب رئيسي ويكمن قبل كل شيء في ضعف تطور القوى المنتجة في الاقتصاد البدوي وفي شح ومعدل المنتوج الفائض. والثاني في ضعف عملية الاستغلال داخل المجتمع البدوي.

لقـد عودتنـا الدراسات في حقل الاستشراق من مكسيم رودنسون الى لوتسكي وفاسيلييف على الاستنتاجات السريعة حول مجتمع الجزيرة العربية السابق على الاسلام او السابق على الوهابية. خاصة وان الاستشراق السوفييتي لايرى في الوهابية الا الوجه الآخر للدعوة المحمدية. والمحمدية كما يقول ادوارد سعيد «هي التسمية الاوروبية العلائقية والمهنية للاسلام»[٤٥]. والتي تروج في الادبيات الاستشراقية.

فهذا المجتمع هو مجتمع الفوضى والحروب والغزوات والنهب والسلب بحيث تظهر الدولة وكأنها حاجة العصر العظمى. انها كما يقول فاسيلييف» وماكان بالامكان تحقيق الاستقرار السياسي ووقف النهب البدوي وتأمين سلامة الروابط التجارية الا في ظل دولة مركزية»[٤٦].

يعلق الانتولوجي الفرنسي بيار كلاستر على هذه الرؤية التي تفسر ظهور الدولة بمنطق العقد الاجتماعي - ان صح التعبير - والتي ترى ان الدولة هي قدر كل مجتمع بقوله «ان هذه الرئاية تخفي انوية حضارية ثابتة»[٤٧] ففي كتابه المتميز «مجتمع اللا دولة» رأى أن هذه الرئاية تعبر عن نفسها بالشكل التالي «ان المجتمعات البدائية هي مجتمعات دون دولة. ان حكم الواقع هذا هو بحد ذاته صحيح، لكنه في الحقيقة يخفي رأياً ما. انه يخفي حكماً تقييمياً يجعل من الصعوبة بمكان امكانية تكوين انثربولوجيا سياسية كعلم دقيق. ان مايعلن عنه في الواقع، هو ان المجتمعات البدائية ينقصها شيء ما - الدولة - هو بالنسبة اليها، كما بالنسبة الى أي مجتمع آخر - المجتمع الغربي على سبيل المثال - ضروري جداً. هذه المجتمعات اذاً، هي غير تامة التكوين، انها ليست مجتمعات حقيقية بشكل كامل - انها ليست مجتمعات البوليس. انها تستمر في معاناة التجربة المؤلمة لغياب ما - غياب الدولة - وهي تحاول عبثاً تجاوزه»[٤٨].

ومن خلال هذه الرئاية وهذه الانوية الحضارية وعبر اطارها، تم الاشادة بالدور التوحيدي للوهابية في تاريخ الجزيرة العربية. لكنها - اي هذه الاشادة تحتمل أكثر من وجه،فهي تحتوي النفي والتشويه والادانة والتمجيد.

ان التمجيد الذي تحظى به الدعوة الوهابية في كتابات المستشرقين السوفييت يتمثل في أمرين رئيسيين:

الاول: كونها ايديولوجية توحيدية لمواجهة التجزئة الاقطاعية[٤٩].

الثاني: كونها راية للحركة الوطنية ضد النفوذ العثماني في الجزيرة وفي محاربتها للاسلام الرسمي الذي مثله الاتراك العثمانيون[٥٠].

وبمقدار ما مثلت الوهابية اتجاهاً ايجابياً في كونها ايديولوجية تحررية، الا أن فاسيلييف سرعان مايرتد الى النفي والتشويه الذي يأخذ طابع الادانة. اذ إن السلفية سرعان ماتتحول الى ايديولوجية طبقية اقطاعية، يقول فاسيلييف» تتضمن مؤلفات مؤسس الوهابية احكاماً لالبس فيها وهي تجسد مصالح الوجهاء وموجهة ضد الفقراء. فالجمهور البسيط يجب أن يخضع لاصحاب السلطة»[٥١]. ويضيف في مكان آخر «وقد قامت الوهابية نظاماً دقيقاً جداً للتمويه على القهر والتفاوت الطبقي وهو نظام مقتبس من تقاليد الاسلام التي مر عليها آنذاك أكثر من الف عام»[٥٢].

هذا في الوقت الذي اخبرنا فيه مؤلفو تاريخ الاقطار العربية المعاصرة ان الايديولوجية الوهابية كانت ايديولوجية البروليتاريا. فالجيش الوهابي، تألف من «باعة وحرفيين، فلاحين معدمين، بدو معدمين». هذا التناقض الكبير في رؤية الاستشراق السوفياتي للوهابية. فهي من جهة ايديولوجية تحررية وطنية، ومن جهة أخرى ايديولوجيا اقطاعية، ومن جهة ثالثة ايديولوجيا البرولتاريا. ويضيف فاسيلييف امراً رابعاً «فهي ايديولوجية للتوسع الحربي»[٥٣]. يفسح مجالاً للانطباعية في الرؤية ليأخذ الاتهام مجراه. يقول فاسيلييف

«ان الوهابيين الاوائل، كما نعتقد، طائفيون»[٥٤]. تسآلت قبل قليل، لماذا تشكل الوهابية مدخلاً لفهم طبيعة الدور الاستثنائي وغير العادي الذي تلعبه العربية السعودية الآن كما يرى الاستشراق الروسي. وهل يمهد هذا المدخل للادانة، وكما هو بين من التحليل، فان الادانة تأخذ ابعادها في كون الوهابية ايديولوجية اقطاعية / طائفية فقد التقت مصالح الامير بن سعود الذي ينشد الدعم الديني، بمصالح محمد بن عبد الوهاب الذي ينشد الدعم العسكري[٥٥]. وفي كونهما لم يكونا نظاماً اجتماعياً جديداً، كما لم يجلبا الى السلطة طبقة اجتماعية جديدة كما يرى لوتسكي[٥٦]. ان العربية السعودية بما لها من وزن في عالم الاسلام والمال والنفط لاتزيد عن كونها دولة ذات بنية اقطاعية / دينية متخلفة. وذات نظام اجتماعي قبلي ثابت. وفاسيلييف يعترف بأن الثروة النفطية أسهمت في اختلال توازن النظام الاجتماعي «ولكن لم يقم توازن جديد رغم كل مايبتدع من مرتكزات واجراءات جزئية. وهذه حالة مهزوزة ومشحونة بانفجارات اجتماعية، قد تتخذ أشكالاً غير متوقعة على الاطلاق. ونظراً لما للعربية السعودية من وزن في عالم النفط والمال والاسلام. فان الهزات والزلازل الاجتماعية في هذا البلد ستكون له عواقب دولية بعيدة المدى»[٥٧]. التوازن مفقود، والخوف على الوضع الدولي يكمن في انفجار برميل النفط الذي يمهد لانفجارات اجتماعية كبيرة وذلك بسبب من عقلية اقطاعية قبلية تديره. فهل ينصح الاستشراق السوفياتي بفرض الوصاية؟ ثم الا تلتقي هذه الرؤية مع مايسود في وسائط الاعلام الغربية والذي يظهر منظمة الاوبيك على أنها منظمة تخدم مصالح مجموعة من البدو المتخلفين؟

الخاتمة:

انطلاقاً من مواقع ايديولوجية بحتة تعتمد على انتولوجيا الوصف للقبائل البدوية كما فعل الاستشراق نتساءل الى أي مدى نستطيع أن نتقدم باتجاه تأسيس علم دقيق (انثربولوجيا اقتصادية) تتناول بدقة طبيعة الاقتصاد البدوي الذي يحول دون انتاج الفائض. هذا الفائض الذي يمهد للتبادل التجاري ويسهم في تكوين الدولة، اذ ان الحاجة للدولة تنبثق من الحاجة الى تنظيم الفائض وتسهيل عملية التبادل وذلك على سبيل المثال. وكذلك تأسيس انثربولوجيا سياسية تمهد القاع لتساؤلات عريضة منها. لماذا كانت المجتمعات البدوية ديمقراطية وبعبارة انثربولوجية مجتمعات ضد الدولة على حد تعبير كلاستر. أي أنها مجتمعات تمنع انبثاق الدولة التي تقود المجتمع الى مجتمع طبقي. مجتمع السادة والعبيد. الآمرون والمأمورون.

ان الاقطاعية الشرق اوسطية التي لجأ اليها فاسيلييف في تفسيره لنوعية العلاقات الاقتصادية الاجتماعية لدى سكان الواحات هي اقطاعية مغايرة للاقطاعية الاوروبية،وبالتالي فهي خارج التاريخ، وبما ان الدولة السعودية هي تكريس للاقطاعية فهي خارج التاريخ ايضا. واعود للقول ان هذه الاحكام هي احكام ايديولوجية وليست علمية. ففي دراسة الدكتور غينادي ماركوف عن النظام الاجتماعي عند البدو الرحل في آسيا، والتي طالت بدو الجزيرة العربية يخطو خطوة كبيرة الى الأمام تتمثل في اعترافه ان البداوة

ظاهرة تاريخية وليست خارج التاريخ. يقول ماركوف «ليست البداوة سوى ظاهرة تاريخية هامة، لايتلخص جوهرها فقط في اسلوب ادارة الاقتصاد، وانما يكمن قبل كل شيء في وجود مجموعة علاقات اقتصادية-اجتماعية خاصة، وتنظيم اجتماعي عشائري وبنية سياسية»[58].

اذن هناك تنظيم لايتفق وحالة الفوضى التي تصورها الادبيات الاستشراقية،وهناك بنية سياسية تحتاج الى مزيد من الدراسة. صحيح ان ماركوف ينفي الطبقية نهائياً عن المجتمع البدوي ويحصرها بالتحضر. الا انه لايقدم اي تحليل عن التنظيم الاجتماعي العشائري ولا عن البنية السياسية، ان التساؤل الذي يمهد الى اسئلة لاحدود لها هو لماذا لايوجد ملك على القبيلة، بل يوجد شيخ (زعيم) لايحوز على أي نفوذ أو أية سلطة قسر وعلى أية وسيلة لاعطاء الاوامر. ولماذا لايجسد زعيم القبيلة مسبقاً رئيس دولة؟. ولماذا لايسمح البدوي بان يتحول زعيمه الى مستبد؟. هذه اسئلة تحتاج الى أجوبة يمهد ظهورها الى تأسيس انثربولوجيا سياسية اقتصادية حول عالم البدو. ان القول بأن التحضر سوف يكون خطوة باتجاه انحلال المجتمع البدوي يحتاج هو الآخر الى سوآل يسبقه. كيف يمكن تكون مجتمع حضري طبقي - ان شئنا الدقة - انطلاقاً من مجتمع بدوي مضاد للطبقية. هل سندخل الناس الى الجنة بضربات الهراوة الى الحداثة الاوروبية).

انطلاقاً مما سبق يمكن القول ان قوة الانشاء الاستشراقي في صورتها المؤدلجة لاتفسح المجال لداسة جادة حول تاريخ الشرق،عموماً وتاريخ الجزيرة العربية خصوصاً، ولذلك فاني لااعتقد ان الانطلاق من مواقع ايديولوجية مسبقة، يفيد في الاجابة، ويسهم في عملية التحول.إن المواقف المؤدلجة لاتهدف في النهاية الا الى ادانة الماضي والحاضر، الماضي الاسلامي الذي لم يسهم في ايجاد نظام اجتماعي جديد. والذي لم يزد عن كونه ديناً بدوياً بدائياً يهدف الى البساطة والقدم كما ارتأى فاسيلييف،والحاضر الذي لايزيد عن كونه امتداداً للماضي العتيد. وعبر هذا يمكن القول ان الاستشراق هو الاستشراق. لكننا نأمل أن تكون الاسهامات النقدية التي تدين الاسشتراق والتي يسهم بها مستشرقون اعضاء في نادي الاستشراق بمثابة دعوة لتجسير فجوة الاغتراب بين الانا والموضوع في محاولة للاسهام في عملية التحول الحضاري التي تعيشها شعوب العالم الثالث.وهنا تكمن اهمية الخطوة الى الأمام والتي من شأنها ان تتجاوز سلطة الانشاء الاستشراقي الغربية وسلطة الايديولوجية الماركسية.

الهوامش والمراجع

١) ادوارد سعيد - الاستشراق (المعرفة، السلطة، الانشاء) - ص ٢١٤ نقله الى العربية كمال أبو ديب. ٣٦٦ صفحة - الطبعة الاولى - ١٩٨١ - مؤسسة الابحاث العربية - بيروت.

٢) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص ٣٨.

٣) سهيل فرح - الاستشراق الروسي - نشأته ومراحله التاريخية ص ٢٣٢، مجلة الفكر العربي العدد الحادي والثلاثون - كانون الثاني «يناير» آذار «مارس» ١٩٨٣ السنة الخامسة ص ٢٢٥ - ٢٦٦ عدد خاص عن الاستشراق - التاريخ والمنهج والصورة.

٤) سهيل فرح - الاستشراق الروسي ص ٢٣٢.

٥) سهيل فرح - الاستشراق الروسي ص ٢٣٥.

٦) تكاد الدراسات حول تاريخ الاستشراق الروسي أن تكون غائبة. ولذلك لا يسعني الا التوجه بالشكر للاستاذ سهيل فرح على دراسته عن تاريخ الاستشراق الروسي والتي أسهمت في اغناء هذه الدراسة.

٧) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديث - ص٣ - ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني - أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي - معهد الاستشراق - دار التقدم - موسكو.

٨) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديث ص٧.

٩) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديث ص٥.

١٠) أنور عبد الملك - الاستشراق في أزمة - ص٨٤ - ترجمة حسن قبيسي - مجلة الفكر العربي ص ٧٠ - ١٠٦ العدد الحادي والثلاثون - عدد خاص عن الاستشراق - يناير - مارس ١٩٨٣ - السنة الخامسة.

١١) بحوث سوفيتية جديدة في الادب العربي - تحرير فاليرياكير يتشنكو والكساندر كوديلين ترجمة محمد الطيار - دار رادوغا - موسكو ١٩٨٦.

١٢) انظر كتاب تاريخ الاقطار العربية المعاصربة - الجزء الاول - ص٣ - ١٩١٧ - ١٩٧٠ دار التقدم موسكو - ترجمة دار التقدم - ١٩٧٥ - وهو صادر عن معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم السوفيتية.

١٣) الدكتورة تاتيانا تيخونوفا - ساطع الحصري - رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي - ترجمة دار التقدم - ١٩٨٧ - دار التقدم - موسكو.

١٤) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص٧٤.

١٥) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص١٢١.

١٦) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص٢١٤.

**١٧) هشام جعيط - أوروبا والاسلام ص٧٤ - ٨٦ - ترجمة طلال عتريس - طبعة أولى - حزيران (يوليو) ١٩٨٠ دار الحقيقة - بيروت. يعلق جعيط على الانتولوجيا الفرنسية من خلال رؤية شتراوس للاسلام بقوله «لن ينجح انتولوجي فرنسي، كلاسيكي وغريب بموضوعه عن الجهال الاسلامي، في اعطائنا بضع صفحات قيمة عن الفكر والمصير الاسلامي. ص٧٧. وفي الحوار الذي أجراه هاشم صالح مع محمد أركون. علق أركون على موقف الانتولوجي الفرنسي شتراوس الخائف من الاسلام بقوله أن خوف شتراوس ناتج عن تحليل ضيق جداً للوضع وللعلاقات بين الاسلام والغرب» ص١٢.
انظر المستقبل العربي - من أجل مقارنة نقدية للواقع. مقابلة مع محمد أركون - العدد ١٠١ ص٤ - ١٦ السنة العاشرة - تموز (يوليو) ١٩٨٧.**

١٨) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص٢٢٦.

١٩) أنور عبد الملك - الاستشراق في أزمة - ص٨٥.

٢٠) تاتيانا تيخونوفا - ساطع الحصري - رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي - ص١٦.

٢١) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديثة - ص٤.

٢٢) أنور عبد الملك - الاستشراق في أزمة - ص٨٥.

٢٣) تركي علي الربيعو - نقد الاتجاهات المعاصرة في دراسة الاسطورة - حول علاقة الاسطورة بنمط الانتاج الاسيوي - مجلة الفكر العربي - العدد ٤١ - ص٢٧٧ - ٢٩٩ - آذار (مارس) ١٩٨٦ - السنة السابعة.

٢٤) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص١٧٢.

٢٥) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص١٧٤.

٢٦) في معرض تعليقه على كتاب ادوارد سعيد - الاستشراق - كتب رودنسون يقول «ثمة دائماً فائدة تجنى من نظرة شخص غير اختصاصي

على النشاط الدائر في حقل اختصاص ما، على الاقل من رجل يملك حداً أدنى من المعارف في هذا الميدان ص١١ . جاذبية الاسلام - ترجمة الياس مرقص - طبعة أولى ١٩٨٢ - دار التنوير - بيروت .

٢٧) فاسيليف - تاريخ العربية السعودية - ص٢٢ - ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطه - عدد صفحات الكتاب ٦٨٦ صفحة - دار التقدم - موسكو - ١٩٨٦ .

٢٨) فاسيليف - تاريخ العربية السعودية - ص٢٢ .

٢٩) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديثة ص٩٣ .

٣٠) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديثة ص٩٣ .

٣١) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديثة ص٩٦ .

٣٢) فاسيليف - تاريخ العربية السعودية - ص٨٢ وما بعد - تحت عنوان المعتقدات والعبادات عند البدو .

٣٣) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديثة ص٩٤ .

٣٤) تاريخ الاقطار العربية المعاصرة ص ٣٨٦ - ٤٥٨ - تحت عنوان المملكة العربية السعودية . . الجزء الاول .

٣٥) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص١٢٨ .

٣٦) هشام جعيط - أوروبا والاسلام - ص٣٢ .

٣٧) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٦٥

٣٨) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٦٥

٣٩) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٦٨ .

٤٠) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٨٣ .

٤١) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٣٦ .

٤٢) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٣٦ .

٤٣) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٤٤ .

٤٤) فاسيليف - تاريخ السعودية العربية ص٤٦ .

٤٥) ادوارد سعيد - الاستشراق - ص٩٤ .

٤٦) فاسيليف - تاريخ العربية السعودية ص٧٣ .

٤٧) بيار كلاستر - مجتمع اللادولة - ض١٨٦ - تعريب وتقديم محمد حسين دكروب - طبعة أولى ١٩٨١ - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت . وهو كتاب أقل ما يقال عنه أنه جديد في محتواه وفي طرحه وهنا تأتي أهميته الكبيرة .

٤٨) بيار كلاستر - مجتمع اللادولة - ص١٨٦ .

٤٩) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٩٥ .

٥٠) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٩٦ - ٩٧ .

٥١) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٩١ .

٥٢) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٩١ .

٥٣) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٩٤ .

٥٤) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٨٩ .

٥٥) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٩٨ .

٥٦) لوتسكي - تاريخ الاقطار العربية الحديث - ص٩٧ - ٩٨ .

٥٧) فاسيليف - تاريخ الجزيرة العربية ص٦٠٣ .

٥٨) الدكتور غينادي ماركوف - النظام الاجتماعي عند البدو الرحل في آسيا ص ٦٩ - ١١١ . ضمن كتاب - عالم البدو - الصادر عن أكاديمية العلوم السوفيتية - دراسات اتنوغرافية سوفيتية - ٢ دار ناؤوكا - موسكو ١٩٨٦ .

الحدود الآمنة ! في نظرية الأمن الاسرائيلية

حمزة برقاوي*

ليست هناك دولة في هذا العالم لا تسعى للحفاظ على أمنها وصيانته ولم يعد مفهوم الأمن يقتصر على الجانب العسكري - كما هو متداول في أغلب الأحيان - بل ان هذا المفهوم اتسع الى حد بعيد بحيث أصبح يشمل جميع النواحي السياسية والاقتصادية والحياتية، وليس الحديث عن الأمن الغذائي او سلامة البيئة الا جزءاً من المفهوم الواسع الشامل للأمن.

رغم ذلك يحتل الأمن على الصعيد العسكري الأهمية الكبرى لدى مختلف الدول. خاصة تلك المعرضة لاعتداءات من قبل دول اخرى بسبب نزاع معين بينها.

وتبدو الدول العربية - خاصة تلك التي تحيط (باسرائيل) - اكثر الدول خوفاً على أمنها. فهذه الدول شأنها شأن الدول المحاذية لدول عدوانية (مثل جنوب افريقيا) تعرضت وهي معرضة الآن لاعتداءات محتملة من قبل (اسرائيل).

باحث من فلسطين.

لدى اسرائيل ينقلب مفهوم الامن. فاسرائيل الدولة العدوانية التي قامت على الاغتصاب، رسمت لنفسها حدوداً معينة في اراضي غيرها معتبرة الدفاع عن هذه الحدود أساساً ومرتكزاً لأمنها. وبدلاً من ان يتحدث العالم عن الأمن على حدود الدول العربية المعرضة باستمرار لاعتداءات «اسرائيل»، قفز مفهوم الأمن الاسرائيلي الى المقدمة، بحيث أصبح المعتدي الغاصب، بنظر مؤيدي «اسرائيل»، هو الذي يبحث عن الأمن، واصبحت الشعوب والدول المعتدى عليها، تشكل (خطراً على الأمن)!

ورغم تنوع أشكال الأمن التي تسعى «اسرائيل» إلى تحقيقها، إلا أنها طوّرت لنفسها نظرية محكمة للأمن على الصعيد العسكري، ضمن هذه النظرية، تبرز مسألة الحدود الجغرافية بصورة واضحة، ويتم التركيز عليها كأساس هام للحفاظ على أمن «اسرائيل».

لا يستهدف هذا البحث القاء الضوء على نظرية الأمن بشكل عام، ولا التعرض لجوانبها المختلفة، بل ما يهدف اليه البحث هو التركيز على مسألة الحدود، كما وردت في تصريحات ومشاريع وبيانات الاحزاب والكتل والزعماء الاسرائيليين، وبصورة خاصة، كما وردت لدى ايغال آلون، نائب رئيسة الوزراء الاسرائيلية غولدا مائير، ووزير الخارجية الاسرائيلية الأسبق.

أول ما يجب التأكيد عليه، بالنسبة لنظرية الأمن الاسرائيلية، انطلاقها ـ شأنها شأن مختلف القضايا الأخرى التي واجهت الصهيونية ـ من الحقائق المادية، أكثر من اعتمادها على الأسس والمبادىء النظرية، أو على الاتفاقيات السياسية، سواء كانت ثنائية أو دولية. هذا ما عبّر عنه العديد من المسؤولين الاسرائيليين.

يقول آلون:

«أمن اسرائيل لا يتحقق بمجرد حصولها على ضمانات دولية، وإنما هو مرتبط باحراز «اسرائيل» على مكاسب وانجازات فعليه»[1].

أما غولدا مائير فقالت: «ان ما نريده ليس ضماناً من قبل الآخرين لأمننا، بل ظروفاً مادية وحدوداً أقيمت في هذه البلاد، تضمن بشكل أكيد عدم نشوب حرب اخرى»[2]. كما صرح اكثر من مسؤول اسرائيلي بعدم وجود ضمانات نهائية لأية معاهدة سلام مع أية دولة عربية، إذا لم تستند هذه المعاهدة إلى حقائق ثابتة على أرض الواقع.

في معظم الأحيان تدور هذه الحقائق حول الأمور التالية:

١ ـ جيش قوي لا يهزم. يقول آلون: «ستواصل «اسرائيل» العمل بقدر طاقتها ليكون ميزان القوى رادعاً، وحتى تكون قوتها دائماً قادرة على حسم المعركة والانتصار فيها»[3]. وفي هذا المجال يتم التأكيد من قبل قادة «اسرائيل»، على أن «اسرائيل» لا تستطيع ان تتحمل اية هزيمة عسكرية.

٢ ـ الهجرة اليهودية إلى «اسرائيل». ذلك أن «اسرائيل» تعرف تماماً ان انحسار الهجرة لا يعني فقط انهيار مقولة (الدولة اليهودية)، وإنما يشكل خسارة بشرية وإقتصادية.

٣ ـ إقامة المستوطنات. وهذا ما تميز به الاستعمار الصهيوني لفلسطين منذ بداية الهجرة. فقد شكلت المستعمرات التي أقيمت منذ مطلع هذا القرن نقاط ارتكاز لإقامة الدولة العبرية وتوسعها.

٤ ـ الحدود الآمنة التي يمكن الدفاع عنها، وذلك انطلاقاً من كون قيام «اسرائيل» قد فرض عليها أوضاعاً مصطنعة، تمثلت بصغر مساحتها، وطول حدودها، وعدم توفر عمق استراتيجي لها.

لقد حققت اسرائيل قدراً من النجاح في بعض هذه المجالات، بينما أخفقت في مجالات أخرى.

وضمن هذه الحقائق تبرز مسألة الحدود الآمنة باعتبارها العنصر الأكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية، بل يمكن القول بأن مختلف العناصر الأخرى، كإقامة المستوطنات، وجلب المهاجرين، والحفاظ على جيش قوي، تشكل بمعنى ما عوامل تصب في النهاية في جعل الحدود حدوداً آمنة. هكذا نجد ان نظرية الأمن تحتوي على العديد من الإشارات الجغرافية إلى المناطق التي تحاذي اسرائيل لرسم حدودها هناك.

وهذه الحدود، وإن كان بعضها ثابتاً تماماً في مرحلة ما أو على الدوام، إلا أن بعضها الآخر يتغير وديناميكياً، فهي في نهاية الأمر وسيلة وليست غاية... وهي ليست حدوداً يمكن الدفاع عنها فحسب، بل يجب ان تكون هناك حيث يمكن «لاسرائيل» ان تهاجم وتناور داخل الأرض العربية، وأن تكون هناك حيث لا تتيح المجال أمام القوات العربية لأخذ المبادرة.

هذه العناصر جعلت السياسة العسكرية الاسرائيلية، سياسة عدوانية توسعية، تستهدف توسيع مساحة «اسرائيل» بالوصول الى حدود طبيعية من جهة، والحد من امكانيات الخصم من جهة اخرى. مثال ذلك انطلاق مفهوم الحدود الآمنة في المرحلة التي تلت قيام «اسرائيل»، من كون حدود عام ١٩٤٨ ليست حدوداً يمكن الدفاع عنها. هكذا استهدفت حرب حزيران ١٩٦٧ على هذا الصعيد الوصول إلى حدود يمكن الدفاع عنها، وهي الوصول الى قناة السويس جنوباً، وإلى نهر الاردن شرقاً، ومرتفعات الجولان شمالاً.

مثل هذه الأفكار نجدها واضحة لدى آلون الذي اقترن اسمه بمشروع تضمن ـ بصورة أكثر تكاملاً ووضوحاً من أي مشروع آخر ـ المبادىء الأساسية التي يستند اليها الاسرائيليون في تحديد ـحدود (دولتهم) التي يعتقدون انها آمنة.

ورغم أن مشروع آلون قد طرأت عليه بعض التعديلات التي كان أخرها تلك الصيغة التي نشرها آلون في مجلة Futeign Affaing في عدد تشرين أول ١٩٧٦، إلا أن المبادىء الأساسية التي استند اليها المشروع بقيت ذاتها.

كذلك، ورغم أن هذا المشروع لم يقدر له أن يصبح مشروعاً رسمياً، إلا أنه يبقى أكثرها أهمية. ذلك أننا نقرأ بين سطور هذا المشروع أو ذاك، وسطور هذه الوثيقة أو تلك، كثيراً من المبادىء التي استند إليها آلون في مشروعه.

الحل المطروح لمسألة الأرض ـ كما يرى آلون ـ ينبغي ان يتضمن ثلاثة متطلبات أساسية ويستجيب لها وهي:

١ ـ حدود يمكن الدفاع عنها.

٢ ـ حقوق شعب «اسرائيل» التاريخية في أرض «اسرائيل».

٣ ـ دولة اسرائيل دولة أغلبية يهودية.

لنستعرض هذه المتطلبات:

أولاً: الحدود التي يمكن الدفاع عنها، وهي حدود ـ كما أشرنا ـ ذات عمق اقليمي، ومواقع طبيعية كافية للدفاع عن «اسرائيل». وفي حال عدم توفر العمق الجغرافي اللازم، فلا بد ـ كما يقول آلون ـ من (ايجاد بعد استراتيجي، وذلك بنشر تشكيلات في المناطق، تعتمد على قواعد مدنية، ومراكز سكنية، وعلى سكانها. ثم وضع استراتيجية تقوم على المبادهة، وتسعى الى نقل مسرح الحرب إلى أرض العدو)[٤].

لقد انطلق آلون من أن خطوط الهدنة لسنة ١٩٤٩ لا تشكل حدوداً آمنة، وأن الرجوع إلى هذه الحدود يشبه، إلى حد كبير، الدخول في مصيدة استراتيجية[٥]. هذا، كما يضيف بأن «معاهدة الصلح لا تشكل في حد ذاتها ضماناً للأمن.. إن السلام يمكن أن يتحقق عن طريق معاهدة صلح شاملة، وترتيبات أمن فعالة وتخطيط حدود دفاعية جديدة»[٦].

وفي مكان آخر يعلن: «في رأيي كان ينبغي أن تكون خطوط الهدنة غير التي تم الاتفاق عليها ـ وكنت مقتنعاً انه كان علينا أن نتقدم حتى نبلغ صحراء الجليل، ونصل إلى الاردن لنقيم خطوطاً دفاعية متينة، قبالة المنخفضات العربية شرقاً»[٧].

وفي مقال لرئيس الحكومة الاسرائيلية السابقة، ووزير الحرب حالياً اسحاق رابين بعنوان «مشاكل الأمن الاسرائيلي في الثمانينات» نشر في مجلة «معرخوت» التي تعنى بالشؤون العسكرية الاسرائيلية، في عددها المزدوج رقم ٢٧٠ ـ ٢٧١ تشرين أول ١٩٧٩ جاء ما يلي: «الهدف الأول هو بناء قوة عسكرية تمكن من الدفاع عن الدولة ضد أي هجوم عربي.. فالقوة الاسرائيلية هي الضمانة الوحيدة لاقناع العرب، بأن طريق الحرب لن تكسبهم إلا الهزائم العسكرية».. ويضيف «لضرورة ضمان واستمرار مسيرة السلام، والمحافظة على إنجازاتها، يجب ان لا نقبل أي خفض للقوة العسكرية الاسرائيلية في الثمانينات».

في نفس العدد تحدث اهرون ياريف رئيس دائرة الاستخبارات العسكرية السابق، عن العمق الاستراتيجي مبيناً «ان العمق الاستراتيجي، هو الخط الأمامي الذي يمكن للدولة أن تحتفظ فيه بقوات عسكرية للدفاع عن نفسها، خصوصاً وأن الوضع الطبوغرافي لإسرائيل، يتيح للطرف الآخر اقتطاع أجزاء من الدولة، وبشكل خاص الأطراف مثل إصبع الجليل ورأس ايلات ومنطقة القدس»[٨].

ثانياً: فيما يتعلق بعدم التنازل عن الحدود التي تمس ما يسمى بالحقوق التاريخية لشعب «إسرائيل» في أرض إسرائيل، يقول آلون: «من الممكن كما هو مفهوم ـ ان نقرر التنازل عن مساحة من الأرض في نطاق معاهدة للصلح، لكي نحقق هدفاً أكثر أهمية، ولكن علينا ألا نتنازل عن أية منطقة يتعارض التنازل عنها مع حقنا التاريخي في كل أرض فلسطين»[٩].

لقد لعب هذا المنطق دوراً أساسياً في تحديد مواقف «إسرائيل»، تجاه الأقطار العربية، وبخاصة تجاه الشرق، أي فيما يتعلق بالضفة الغربية. فمن المعروف ان المنطقة التي يطلق عليها اسم الضفة الغربية الآن تعرف بالإدعاء الصهيوني بأرض يهودا والسامرة، مما يجعل هذه المناطق أكثر المناطق ارتباطاً بما يسمى بالحق التاريخي اليهودي في فلسطين، وهو الأمر الذي يجعل تخلي «اسرائيل» عنها أو عن جزء منها في إطار

تسوية سياسية، أمراً شبه مستحيل.

ثالثاً: تقلق المناطق المحتلة، وبصورة خاصة الضفة الغربية وقطاع غزة، بال الإسرائيليين أكثر من غيرها لسبب رئيسي وهام، ألا وهو احتواء هذه المناطق على عدد كبير من الفلسطينيين الذين لا يرغبون بدمجهم ضمن دولتهم خوفاً من ان تتحول هذه الدولة الى دولة ثنائية القومية.

لذا نجد أن جميع الاقتراحات والمشاريع التي تعرضت لمستقبل الضفة، كانت تنفي إمكانية إعادة أي نوع من أنواع السيادة العربية على هذه المناطق، الأمن يستند الى النهر.. أي نهر الأردن. أما المشكلة فهي مشكلة السكان العرب الذين يجب أن يوجد حل لوجودهم، بحيث لا يشكلون خطراً على الطابع اليهودي «لاسرائيل».

هكذا راعت الاقتراحات المتعلقة بالضفة الغربية ـ شأنها شأن جميع مشاريع التسوية الاسرائيلية ـ راعت حدين: الحد الاقليمي، والحد الديمغرافي، أي الحفاظ على حدود يمكن الدفاع عنها، ثم الحفاظ على الطابع اليهودي لدولة اسرائيل.

فلدى حديثه عن إمكانية مرور الحد السياسي شرقاً بسلسلة جبال الخليل والسامرة يقول آلون «في هذه الحالة سيكون لنا دفاع متين ومريح بلا شك، غير أننا سنضيف إلى سكان «اسرائيل» القسم الأكبر من سكان الضفة الغربية، وهكذا نكون قد قابلنا الكسب الاستراتيجي بصعوبة ومعضلة على الصعيد البشري»[١٠] لذا وفي مكان آخر يقول عن خريطة التسوية التي يقترحها انها يجب أن «تضمن الطابع اليهودي والديمقراطي لدولتنا، وتجعلنا في وضع أفضل على الصعيد الدولي... خريطة من شأنها ان تمنح «اسرائيل» أقصى الأمن مع أقل عدد سكان ممكن من العرب»[١١].

لذا، وكي يضمن الاسرائيليون خلخلة الوضع السكاني العربي، وإيجاد حقائق جديدة ـ وبخاصة في الضفة الغربية والجولان ـ فقد ركزوا اهتمامهم على موضوع الاستيطان، وإقامة المستوطنات التي من شأنها ان تجعل ممارسة السكان العرب لأي شكل من أشكال السيادة شبه مستحيل.

وقد أعطى آلون موضوع إقامة المستوطنات مفهوماً استراتيجياً، حين قال: «إننا لن نكتفي بعدم التخلي عن هذه المستعمرات، ولكننا سنقيم قرى جديدة، ومواقع على الحدود الجديدة، تلبية لاحتياجات الأمن، وتجسيداً لنضالنا في سبيل حدود يمكن الدفاع عنها..».

ويستطرد:

إن على «اسرائيل» خلق واقع استيطاني زراعي ودفاعي في تلك المناطق التي تعتبر هامة جداً من الناحية الدفاعية، والتي لا يمكن التنازل عنها تحت أي ظرف. والذي أقصده هو الشريط الدفاعي الواسع على طول غور الاردن، مع ابقاء حرية الاختيار كحلول مختلفة بشأن المستقبل السياسي لسكان الضفة الغربية»[١٢]..

بعد هذا الاستعراض للمتطلبات الأساسية التي يرى آلون توفرها لوضع حدود «اسرائيل»، ننتقل الآن لنرى انعكاس هذه المبادىء تجاه الحدود. الشرقية أولاً: ثم الشمالية فالجنوبية.

ليس هذا الموقف موقفاً جديداً لدى آلون. فمنذ تحدث عن حدود عام ١٩٤٨ الشرقية، ونحن نقرأ

بين السطور رؤيته لنهر الأردن كحد آمن. يقول «كنت أريد على كل حال أن نتخذ مواقعنا على طول نهر الأردن. صحيح أنه ليس بذاته حاجزاً هاماً، برغم انه لا يستهان به كخندق مضاد للدبابات. غير ان طبوغرافيته في الجبهة الغربية ـ فرجة الأردن وسلسلة التلال والجبال والصحارى غير المأهولة ـ هي ذات حيوية في ايقاف تقدم جيش بري»(١٣).

كذلك بيجن، ومن قبله دايان ركزا اهتمامهما على الضفة الغربية، فقد كان دايان من أكثر المتحمسين لسياسة الاستيطان في المناطق المحتلة بما في ذلك الجولان.

لقد نادى بحق اليهود في الاستيطان فيها، وبذل اقصى جهوده لإرساء أولى المستوطنات بإشراف مباشر منه. أما من الناحية العسكرية، فد نادى دايان (بعدم السماح لأية قوة أجنبية بتجاوز نهر الأردن).

ولعل بيجن، أكثر زعماء اسرائيل صراحة في هذا المجال. فقد تضمن مشروعه الذي تقدم به أثناء المفاوضات التي سبقت توقيع اتفاقيات كمب ديفيد، المناداة الصريحة بضم المناطق كاملاً، وفسح المجال أمام ادارة ذاتية للسكان، بقي الخلاف حولها قائماً، فيما إذا كانت بإشراف اسرائيلي أم أردني، أم اسرائيلي ـ أردني مشترك.

إن احتلال اسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة، كان بالنسبة اليها هدفاً رئيسياً. ذلك ان الظروف التي فرضت حدود عام ١٩٤٨ تجاه الأردن، كانت بالنسبة للاسرائيليين ظروفاً استثنائية.

لقد ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة، لكي يضربوا ضربتهم التي تحققت بعدوان عام ١٩٦٧. منذ ذلك الوقت و «اسرائيل» مصممة في الواقع على عدم احداث أي تغيير استراتيجي، يعيد السيادة العربية للضفة والقطاع.

وهنا لابد من الاشارة إلى أن موقف الأحزاب المعارضة والصغيرة أكثر صراحة في إعلان عدم إمكان التخلي عن أي جزء من الضفة الغربية من الأحزاب الحاكمة ـ خاصة تجمع المعراخ ـ التي كان مسؤولوها مضطرين، بين الحين والأخر، إلى إعلان بعض التصريحات، تحت شعار ما يسمى (بالتسوية الاقليمية الوسط) لاعتبارات تكتيكية ودعائية.

هكذا نرى حزب المفدال يعلن «رفض كل مشروع ينطوي على أي تنازل عن أي جزء من أرض إسرائيل التاريخية»(١٤).

أما تكتل ليكود، فقد سبق وأن أكد على أن «حق الشعب اليهودي في أرض فلسطين، غير قابل للطعن. ينبغي رفض كل مشروع يسفر عن تقسيم أرض «اسرائيل» الغربية من جديد»(١٥). ورغم أن حزب العمل، لازال نظرياً يتبنى ما يسمى (بالحل الاقليمي الوسط) الذي يتضمن تنازلات عن بعض أجزاء من الضفة الغربية للأردن، لإقامة الحكم الذاتي فيها. نجده في نفس الوقت، لا يتنازل من وجهة النظر الأمنية، عن اعتبار نهر الأردن هو الحد الشرقي الطبيعي لدولة «اسرائيل»(١٦). هذا ما نقرؤه أيضاً بين سطور نداء بيريز الذي تضمنه خطابه في دورة الأمم المتحدة لعام ١٩٨٥، وهذا ما عبر عنه اسحاق شامير في كلمته التي ألقاها في إجتماع حزب حيروت بتاريخ ١٩٨٥/١١/٣.

لقد عبر اسحاق رابين عن ذلك بقوله «نحن نسعى إلى معاهدة سلام مع الأردن، تستند إلى قيام

دولتين مستقلتين: اسرائيل وعاصمتها القدس، ودولة عربية شرقي الاردن»(١٧). إن هذا الموقف هو موقف حزب المابام أيضاً، كما تضمنته أيضاً الوثيقة التي طرحها حزب العمل للتسوية بعد حرب تشرين، والتي عرفت باسم (وثيقة المبادىء الأربعة عشر)(١٨).

وقد رأى آلون نفسه الحل في قيام دولة فلسطينية في شرقي الأردن، إذ نراه يقول: «في الواقع يقوم مبدئياً على أرض «اسرائيل» التاريخية، الممتدة على ضفتي الأردن وطنان قوميان اليهودي والعربي..» ثم يستطرد: «لا سبيل إلى قبولنا بقيام دولة أخرى، تضاف إلى دول البحر المتوسط، وتقع بينه وبين الصحراء»(١٩).

في كل الاحوال، ان القاسم المشترك بين جميع الوثائق والمشاريع التي عالجت مسألة الحدود ـ بما في ذلك الحلول التكتيكية أو الوسط ـ هو رؤيتها لدولة «اسرائيل» تبسط نفوذها على فلسطين الطبيعية ـ أي دولة واحدة بين النهر والبحر، أما العرب فبإمكانهم ممارسة حكم ذاتي يتيح المجال أمام إسرائيل للتخلص من بعض مشاكلهم، هذا مع الرفض للدولة الفلسطينية.

على الحدود الشمالية، تكتسب مسألة المياه، وتأمين وحماية مصادرها أهمية استراتيجية. فمنذ بداية الغزو الصهيوني لفلسطين، وهذه القضية في مقدمة اهتمامات القادة الصهاينة.

ففي نيسان ١٩٧٠ جاء في المذكرة التي قدمها بن غوريون إلى حزب العمال البريطاني، باسم اتحاد العمل الصهيوني: «من الضروري أن لا تكون مصادر المياه التي يعتمد عليها مستقبل البلاد، خارج حدود الوطن القومي اليهودي في المستقبل. إن أهم أنهار أرض «اسرائيل» هي الأردن والليطاني واليرموك»(٢٠).

تجاه لبنان تتحدث جميع المشاريع والتصريحات عن ضرورة وجود منطقة أمنية داخل الأرض اللبنانية، انطلاقاً من كون الحدود «لا تشكل حواجز طبيعية» كما يقول ياريف، لقد بقي هذا الأمر ثابتاً، بينما نرى أن كل التصريحات التي عالجت اتساع هذه المنطقة، ونوعية الأمن الذي يجب أن يسود فيها، قد اتسمت بالتغير وعدم الثبات.

هناك من رأى مساحة هذه المنطقة على عمق ٤٠ كيلومتراً داخل الأرض اللبنانية. وهذا ما تحدثت عنه المشاريع الاسرائيلية قبل غزو لبنان عام ١٩٨٢. وهناك من يرى هذه المساحة في شريط متعرج لا يتجاوز الـ١٥ كيلومتراً.

وعن أسلوب تحقيق الأمن، فقد تداخلت التصريحات بدءاً من أسلوب نزع السلاح، وانتهاء بمعاهدة صلح، مروراً بتبني الميليشيات العميلة (كجيش لبنان الجنوبي).

أما تجاه الجولان فلم تنكر أي من التصريحات الاسرائيلية مطامع اسرائيل في الجولان. فقبل احتلال هذه المنطقة، كانت التصريحات الاسرائيلية، تؤكد على أهمية الجولان من الناحيتين الاقتصادية كضمان لمصادر المياه ـ أو الاستراتيجية العسكرية ـ موقع الهضبة ـ.

وقد أخذت التصريحات التي أعقبت عدوان حزيران ١٩٦٧، تعلن وبصراحة تمسك اسرائيل بالجولان، وعدم التخلي عن هضابه.

وقد حدد آلون هذه الحدود في مشروعه المعدل بقوله أن «الهدف هو احتفاظ اسرائيل بمنطقة

استراتيجية في الجولان لمنع سورية من إمكان اصابة مصادر المياه، ومنع حدوث هجوم سوري على الجليل».

أما حدود المنطقة الاستراتيجية جغرافيا فهي «الخط الممتد من جبل الشيخ حتى نهر اليرموك، على شكل قوس يوازي خط وقف إطلاق النار»[٢١].

هذا كما جاء في مشروع السلام الذي طرحه حزب الماباي في مؤتمره ما يلي: «لضمان أمن وسلامة مستوطنات الجليل الاعلى وغور الاردن، تمر الحدود مع سورية فوق الهضبة، وبعد أن يتم تحديد الحدود وبصورة نهائية يجرد القسم الباقي منها»[٢٢].

وبعد توقيع اتفاقيات كمب ديفيد ازداد المسؤولون الاسرائيليون في تشددهم تجاه مسألة الجولان وباتجاه الجنوب.

وعلى الرغم مما انتهى اليه الأمر في سيناء، نتيجة اتفاقيات كمب ديفيد فلابد من ذكر وجهة النظر الاسرائيلية قبل تلك الاتفاقيات ولو بصورة مختصرة.

لقد تحدث بيجن عن امكانية الإنسحاب، شريطة الاحتفاظ بمواقع عسكرية، منها على الاقل ثلاثة مطارات عسكرية.

أما دايان، فقد تحدث عن إمكان تقسيم سيناء بين مصر و «اسرائيل» شريطة أن يبقى الشريط الحدودي شرقاً وغرباً بيد «اسرائيل».

آلون كان أكثر تفصيلاً، حين تطرق في مشروعه إلى مسألة الحدود الجنوبية فقال «أما سيناء فلا تقوم فيها مشكلة أو معضلة سياسية أوتاريخية، بل هناك مسألة استراتيجية.. فشبه جزيرة سيناء تستطيع أن تخدم اهدافاً عسكرية ثلاثة:

١ ـ تشكيل منطقة عازلة بين مصر و «اسرائيل».
٢ ـ استخدامها قاعدة لاحتلال النقب ووسط «اسرائيل».
٣ ـ تحولها إلى فخ استراتيجي للقوات المصرية.

ويتابع:

(أما مواطن الضعف في شبه الجزيرة فهي:)

ـ محور الاحتلال التاريخي على طول الساحل ابتداء من العريش وغزة واتجاها إلى الشمال. منطقة تتزانا ـ القسيمة ـ الكنتلة.
ـ منطقة إيلات.
ـ منطة مضيق تيران.

فلكي نقيم ترتيب دفاعنا على هذا الحد ـ على «اسرائيل» ان تسيطر على قطاعات حماية ذات أبعاد معقولة في المناطق المذكورة الأربع، وتحتفظ لنفسها بمساحة أرضية متتابعة ومتصلة بين هذه المناطق، شرم الشيخ جنوباً إلى نقطة في الرمال. وبين العريش ورفح إلى الشمال على ساحل البحر المتوسط»[٢٣].

الهوامش:

(١) العابد، ابراهيم: مدخل إلى الاستراتيجية الاسرائيلية، مركز الأبحاث بيروت ١٩٧١. ص ١٩
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(٤) آلون، ايغال: اسرائيل: الكفاح من أجل الأمل، ترجمة لجنة الدراسات الفلسطينية (بدون تاريخ) ص ١٠٣.
(٥) العابد، ابراهيم، المصدر السابق، ص ٢٤
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠
(٨) شؤون فلسطينية، العدد ١٠٢ ايار ١٩٨٠، ص ١٥٠ ـ ١٥١.
(٩) العابد ابراهيم، المصدر السابق، ص ٢٧.
(١٠) أآلون ـ ايغال، المصدر السابق، ص ١٢٣.
(١١) المصدر نفسه، ص ١١٢
(١٢) العابد، ابراهيم ـ المصدر السابق، ص ٢٨
(١٣) آلون، ايغال، المصدر السابق، ص ١١٣.
(١٤) الاستراتيجية الصهيونية في المنطقة العربية، اصدار لجنة الدراسات الفلسطينية، دمشق ١٥/ ٣/ ١٩٨٠، ص ٤٧.
(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٨
(١٦) مجلة الارض، السنة الحادية عشرة، العدد ٢٢.
(١٧) الاستراتيجية الصهيونية في المنطقة العربية ص ٤٨
(١٨) لمزيد من التفاصيل انظر: مشاريع التسوية الاسرائيلية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٨ مؤسسة الدر، ات الفلسطينية. بيروت ١٩٧٨، ص ١١٩ ـ ١٣١.
(١٩) آلون، إيغال، المصدر السابق، ص ١١٩.
(٢٠) الاستراتيجية الصهيونية في المنطقة العربية ص ٢٢
(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٦.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(٢٣) آلون، ايغال، المصدر السابق، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

روح المقاومة عند شعب فلسطين

محطات تاريخية

د. شوقي شعث*

ان الحديث عن روح المقاومة عند شعب فلسطين يقودنا بالضرورة الى الحديث عن النضالات الكثيرة - بشتى انواعها - التي قام بها هذا الشعب عبر التاريخ، وعندما حاولت تتبع ذلك التراث النضالي وجدت نفسي أمام تراث هائل يمتد عمقاً في اعماق التاريخ، وهو في الوقت نفسه تراث متجدد ذو حركية حية متجددة تخاله احياناً قد نضب، واذا به يعود عطاء لاينضب، وفي هذا المقام لاادعي لنفسي انني استطيع ان اقدم صورة كاملة وشاملة عن مقاومة شعبنا العربي الفلسطيني، لذلك وجدت نفسي مرغماً على الاختيار وتقديم أمثلة فقط تكون بمثابة محطات نضالية تاريخية.

وقبل الدخول في استعراض ذلك التاريخ النضالي اريد ان اوضح امرين:

اولهما: ان اختياري لهذا الموضوع مستوحى من الانتفاضة التي يقوم بها شعبنا بكل بسالة في الارض المحتلة، وهو مستوحى ايضاً من روح المقاومة القديمة التي يتحدث عنها التاريخ بكل فخر واعتزاز.

ثانيهما: ان الحديث عن روح المقاومة لدى شعب فلسطين وما يقوم به من مقاومة، والتي هي متأصلة فيه عبر التاريخ، ليس القصد منه ان يخص الباحث الشعب الفلسطيني بصفات هي ليست فيه، او يميزه

* مؤرخ وباحث في شؤون الآثار من فلسطين.

نضاليا عن الشعوب العربية الاخرى، فمقاومته المستمرة وعبر تاريخه النضالي الطويل انما هي مستمدة من روح المقاومة التي يتحلى بها شعبنا العربي في كل مكان وبدعم ومؤازرة منه.

وسيكون حديث الباحث على النحو التالي:

١ - المقاومة عند شعب فلسطين منذ القدم حتى الانتداب البريطاني (يافا وتحوتمس الثالث، غزة وتحوتمس الثالث والعصور الكلاسيكية) الغزو الافرنجي الصليبي، الاتراك العثمانيون).

٢ - المقاومة عند شعب فلسطين ابان الانتداب البريطاني.

٣ - المقاومة عند شعب فلسطين من عام ١٩٤٨ - ١٩٦٧.

٤ - المقاومة عند شعب فلسطين منذ عام ١٩٦٧ حتى الان.

كانت فلسطين منذ القدم مفتاح بلاد الشام (سوريا القديمة)، بالنسبة للمصريين القدماء لحماية حدودهم الشمالية، وبالنسبة لمواجهة اعدائهم في بلاد ما بين النهرين والاناضول الحثية او الميتانية، وكانت كذلك مفتاح مصر وشمال افريقيا لمن يريد الزحف من آسيا الغربية لاخضاع مصر وشمال وافريقيا، او على الاقل اجبارها ضمن حدودها، لذلك كانت فلسطين كقطعة الحلوى او المنطقة الحيوية بالنسبة لجميع الاطراف، ولكنها في كثير من الاحيان كانت كحبة الحنظل مرة المذاق، فلم يكن العبور من الجنوب الى الشمال سهلاً، وكذلك العبور من الشمال الى الجنوب. تحدثنا كتب التاريخ عن كثير من أمثلة المقاومات التي قامت بها المدن الفلسطينية، فكم من غاز وقف طويلا عند ابوابها ولم يسمح له بالعبور الا بعد ان فقد الكثير من رجاله او عاد خائبا يجر اثواب الهزيمة، ومن بين الامثلة الكثيرة المتوفرة لدى الباحث يقدم مثالين قصيرين فقط اولهما: عن مقاومة يافا لتحوتمس الثالث. وثانيها: عن مقاومة غزة لتحوتمس المار ذكره، والاسكندر المكدوني.

مقاومة يافا (في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد)

تحدثنا مخطوطة من البردى تعود الى الاسرة المصرية التاسعة عشرة، عثر عليها في طيبة بمصر، وهي محفوظة اليوم بالمتحف البريطاني تحت رقم (١٠٠٦٠) يعود تاريخها الى حوالي منتصف الالف الثاني قبل الميلاد، وتعرف تلك البردية ببردية هاريس. تذكر المخطوطة ان تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٩ ق.م) ارسل قائده المشهور جحوتي ليؤدب مدن آسيا الغربية ولكنه وقف عند ابواب يافا بفلسطين اليوم، ولم يستطع اقتحامها نتيجة للمقاومة الباسلة التي ابداها المدافعون عن مدينتهم، وعندما يئس «جحوتي» من حصار المدينة لجأ الى الحيلة والخديعة، حيث اخبر امير يافا بانه لايرغب في احتلال المدينة، وانه يرغب في انهاء الحصار، وطلب الاجتماع بالامير الذي رغب في ان يرى صولجان تحوتمس الثالث، ولكنه في الوقت نفسه اعد للدخول متخفين الى المدينة وضعهم في سلال كبيرة. وعندما علم جحوتي ان امير يافا يرغب في رؤية صولجان الملك استغل هذه الفرصة، وتقلد الصولجان، وعندما أخذ الامير يتأمل الصولجان الذي بهره، أخذه جحوتي على حين غرة، وضربه ضربة أفقدته صوابه، فسقط مغشيا على الارض، عند ذلك قام جند

جحوتي بتكبيله، وامر بتنفيذ الخطة المتفق عليها، والتي تتلخص في ادخال مئتي سلة وضع بداخل كل منها جنديا، كما اشرنا، ليقوموا بمفاجأة حامية المدينة، والقضاء عليها واحتلال المدينة، وخارج الاسوار قابلوا ممثل امير المدينة واخبروه بان الرب منح المدينة «يافا» النصر المبين على جحوتي، وهاهم يقدمون الجزية ومن ضمنها مئتي سله، ودخلت السلال ونفذ الجند المكيدة، وفي المساء كتب القائد جحوتي الى سيده تحوتمس «من - خبر - رع» واخبره بالاستيلاء على المدينة.

ان نص البردية هذه يدل دلالة واضحة على مدى مقاومة اهل يافا الجيوش الغازية حفاظا على مدينتهم، وانها لم تستطع الدخول اليها الا بعد ان لجأت الى الحيلة والخديعة.

مقاومة غزة الى تحوتمس الثالث والاسكندر المكدوني

يذكر الاستاذ هنري ريغل، في مقالة له نشرت بوقائع الندوة العالمية الاولى للآثار الفلسطينية حول مقاومة غزة، بأنه لاتوجد مدينة كغزة، لديها من الشواهد الكتابية التي تشير الى المقاومة، تلك الشواهد التي تعود الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وردت في حوليات تحوتمس الثالث، وأضاف، إن المدن التي تستطيع أن تتباهى بأنها ظلت تقاوم حتى آخر رجل، قليلة جداً، ولكن غزة تستطيع ذلك، وهي اليوم لاتتكلم بل تحارب، والتاريخ يستطيع أن يجيب عن سؤال لماذا يقاوم أهل غزة في الزاوية الجنوبية من فلسطين؟».

وتتحدث المصادر التاريخية المكتوبة عن حالة نراها اليوم بمثابة احياء للماضي أو اعادة له، من تلك المصادر ماذكره بوليبيوس حول مدينة غزة (٢٠٢ - ١٢٠ ق. م) فبعد أن أخذ انطوخوس مدينة غزة كتب بوليبيوس مايلي «لقد كان أهل غزة يحافظون على إيمانهم بالمقاومة ويترجمون ذلك الى مقاومة لاتقاوم»، وعندما اجتاح الفرس البلاد وأخذوا كل المدن واجه أهل غزة وحدهم الخطر كرجل واحد، مما اضطر الفرس الى فرض حصار طويل على الرغم من القوة التي أخاف بها الفرس (مدن بلاد الشام كلها).

وعندما جاء الاسكندر المكدوني بعد أن أخذ صور ووقع أهلها في الاسر فان ذلك لم يخفهم، وكان أهل غزة، الناس الوحيدين في سوريا الطبيعية الذين تجرؤوا على الوقوف أمامه، وسخروا كل جهودهم في مقاومة الاسكندر، ويتحدث أريانوس الذي عاش في الفترة مابين (٩٥ - ١٧٥ م) الذي كتب تاريخ حملات الاسكندر الكبير فيقول «عندما وصل الاسكندر المكدوني مدينة غزة عسكر اليوم الاول قبالة جزء من السور اعتقد أنه سهل المنال، وفرض الحصار على الرغم من أن المهندسين العسكريين لديه قالوا إنه من الصعب احتلال المدينة من ذلك المكان، فلقد ظن الاسكندر أن الانجازات العسكرية الكبيرة التي حققها في حملته ضد الفرس تسمح له باحتلال مدينة غزة دون عناء، وان امتناعها عنه سيكون بمثابة ضربة لسمعته العسكرية في اليونان وغيرها من البلاد الشرقية، لقد التف أهل غزة حول باتيس حاكم المدينة وكان على الاسكندر أن يبني تلا يساوي ارتفاع المدينة ليتمكن من السيطرة عليها، وعلى الرغم من أن المدينة سقطت في النهاية بيد الاسكندر، الا ان رجالها تجمعوا وظلوا يقاومون حتى ماتوا عن بكرة أبيهم، وقام

الاسكندر بعد ذلك ببيع أطفالهم ونسائهم في أسواق العبيد، على حد قول الرواية التاريخية، وأسكن البدو بالمدينة الذين جلبهم اليها وجعلها مدينة محصنة للحرب. لقد استمر حصار المدينة واستمرت مقاومتها نحو عام تقريباً أبدى فيها المقاومون ضروباً من البطولة تفصيلها لامجال له هنا.

يعود ريغل الاستاذ السويسري للقول «إنه أسعده الحظ أن يعيش ويعمل في غزة بعض السنوات قبل وبعد عام ١٩٦٧ مع اللاجئين الفلسطينيين»، حيث أصبحت غزة مكانه المفضل وأصبح أهل غزة الاقرب الى قلبه. لماذا هو لايعرف؟ كما قال، ولكن مايعرفه أن غزة تقاوم.

المقاومة عند شعب فلسطين ضد الغزو الافرنجي الصليبي

تعرضت فلسطين، في غفوة من العرب المسلمين وتفرق كلمتهم، وغيرها من البلاد العربية، الى غزوة افرنجية باسم الحملات الصليبية بادىء الامر، الا أن المقاومة الباسلة التي أبداها العرب المسلمون، وخاصة أهل فلسطين من الفلاحين توجت بانتصار حطين الحاسم الذي أكد للافرنج أن لامجال الى الاستقرار في فلسطين والشرق العربي عموماً، كما اقتنع الافرنج، على حد قول بعض المؤرخين، «أن الشرق شرق وأن الغرب غرب».

تلت معركة حطين معارك كثيرة مع الافرنج أهمها في العهد الايوبي معركة تحرير القدس عام ١١٨٧ م، أي بعد معركة حطين بنحو ثلاثة أشهر تقريباً، ومعركة عكا في العهد المملوكي التي انهت الوجود الافرنجي نهائياً من فلسطين، ومن جهة أخرى كانت معركة عين جالوت ضد الغزو المغولي المدمر الذي تشير بعض المراجع التاريخية أنه لولا مساندة أهل فلسطين للجيوش المصرية الاسلامية لما تحقق النصر في «عين جالوت».

لقد جاء الافرنج الى فلسطين (الارض المقدسة) تحت ستار الدين لتأمين طريق الحج المسيحي على حد قولهم، الا أن العقبة أنهم جاؤوا طامعين في خيرات الشرق وأرضه، جاؤوا للاستقرار وتأسيس الممالك والامارات والقلاع، الا أنهم أجبروا على الرحيل وعادت الارض لأصحابها، فقد جاؤوا من أجل السيطرة على فلسطين.

مقاومة شعب فلسطين إبان الحكم العثماني

انتقلت السيادة السياسية على فلسطين والعالم العربي عام ١٥١٦ م الى الدولة العثمانية بعد أن هزم السلطان سليم العثماني قانصوه الغوري في معركة مرج دابق شمال حلب، وحكمت تلك الدولة الشعوب العربية باسم الاسلام، الا أن تلك الشعوب عانت كثيراً من جور الولاة العثمانيين وبطشهم ونزاعاتهم الاقليمية، إضافة الى النزاعات الدولية مثل النزاع الدولي بين العثمانيين والفرنسيين إبان الحملة الافرنسية على مصر وبلاد الشام بقيادة نابليون بونابرت، ثم النزاع بين الاتراك العثمانيين ووالي مصر محمد علي باشا،

ومن بين تلك الشعوب بالطبع شعب فلسطين، ومن الحوادث الهامة في هذه الفترة حصار نابليون لعكا، لقد دافعت عكا عن نفسها وعن فلسطين، ووقفت أمام نابليون الذي لم يتمكن من احتلالها، ورغم الحصار الذي فرضه على عكا، الا أنه لم يتمكن من أخذها، وكان للدور الذي قام به الفلسطينيون، داخل الحصار وخارجه، أثر بارز في إفشال الحملة الفرنسية. لقد جاء نابليون الى بلاد الشام عام ١٧٩٩ م، لتنفيذ مخططه، كما يعرف الجميع، للسيطرة على سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية فاحتل العريش بعد حصار دام ثمانية أيام، ومن هناك أرسل منشوراً الى أهالي نواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله على ماورد في المنشور المذكور؟!! وقال لهم انما جاء ليخلصهم من المماليك والجزار ولم تفتح غزة له أبوابها وهي بوابة بلاد الشام كما ذكرنا، الا بعد أن قطع على نفسه المواعيد والمواثيق بأن يحافظ على أرواح الناس وأموالهم ودينهم، ولكنه حنث بذلك الوعد وأخذ الناس بالقوة والعنف فانقلبوا عليه هم وسائر شعب فلسطين، وهذا ماجعله يسفك الدماء ويدمر العمران أثناء انسحابة مخذولا عام ١٧٩٩ عائداً الى مصر بعد فشله في حصار عكا الذي ألمحنا اليه.

بعد أن تحررت فلسطين من سيطرة الافرنسيين، عادت الى الحكم العثماني وعادت الى المقاومة بسبب جور الولاة وبطشهم، وكثرة شكاوى الناس منهم، فقام أهلها بثورات ضدهم منها: «ثورة غزة» على والي صيدا عبد الله باشا عام ١٨٣٠ م حيث كانت آنذاك تابعة لولاية صيدا التي كان يليها عبد الله باشا، وكانت تتبع له العريش وغزة والقدس وعكا ونابلس وجنين، ونظراً لجور عبد الله باشا كان الناس يلقبونه «عبد الله باشا الجزار» تشبيهاً له بسلفه أحمد باشا الجزار، أي أنه ذهب جزار وجاء جزار بالنسبة اليهم، فقد تحرر أهل غزة وتحدوا مع القبائل المجاورة وطردوا مأمور الجمارك وغيره وأعلنوا العصيان بقيادة «مصطفى الكاشف» أحد زعمائهم فتهددهم عبد الله باشا الا أنهم لم يذعنوا، فراسلوا محمد علي باشا لانقاذهم، فجاء ابراهيم باشا بحملته على بلاد الشام قبل أن يتمكن عبد الله باشا من اتخاذ أية اجراءات عسكرية ضدهم. وعندما بدأ عسكر محمد علي بجمع سلاح السكان وفرض الضرائب الباهظة واخضاع السكان للخدمة العسكرية الاجبارية، ثار الناس وكان في طليعتهم أهل فلسطين وظلوا ثائرين حتى تخلصوا منهم وعادت فلسطين الى حظيرة الدولة العثمانية من جديد.

وعندما ظهرت الحركات القومية في البلاد العربية شارك أهل فلسطين مع أشقائهم العرب في التخلص من الحكم التركي العثماني مؤيدين إقامة الدولة العربية المستقلة. الا أنهم وللأسف وقعوا ضحية مؤامرة بريطانية قذرة، فكانت اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦، ووعد بلفور ١٩١٧، واتفاقية فيصل وايزمن، وبموجب اتفاقية سان ريمو خضعت فلسطين للانتداب البريطاني وظلت كذلك حتى عام ١٩٤٨.

مقاومة شعب فلسطين للانتداب البريطاني

عبر العرب الفلسطينيون عن سخطهم منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدام الجنود البريطانيين أرض

فلسطين، فقد ساروا في مظاهرتين كبيرتين ضد ذلك الاحتلال إحداها في ٢ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩١٨، والثانية في ٢٧ فبراير شباط عام ١٩٢٠، وقد شارك في تلك المظاهرة الاخيرة مايزيد عن أربعين الف عربي فلسطيني. تلا ذلك إضراب عام، وتألفت جمعية سرية عربية تحت اسم «الفدائية» لممارسة العمل المسلح، وقد شنت تلك الجمعية هجومين مسلحين على مستعمرتين اسرائيليتين أحدهما في آذار / مارس ١٩٢٠، جاءت بعد ذلك اشتباكات يافا وضواحيها في أيار / مايو عام ١٩٢١.

ثورة البراق ١٩٢٩

عادت الاوضاع الى ماكانت عليه من التأزم بسبب تحدي اليهود العرب للفلسطينيين، فقد حدث أن اليهود جاؤوا في جماعات الى الحائط الغربي للمسجد الاقصى في مناسبة تعرف لديهم بتدمير الهيكل، على حد زعمهم، متحدين بذلك مشاعر العرب المسلمين، وأقاموا احتفالاتهم ورفعوا اعلامهم وأقاموا صلواتهم. خرج العرب في اليوم التالي للتصدي لهم واشتبكوا معهم، فانفجر الوضع وامتدت الاشتباكات الى يافا وصفد والقدس والخليل وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية، ولم تتمكن سلطات الانتداب البريطاني من اخماد تلك الثورة الا بعد أن أرسلت لها امدادات من الجنود من مصر والاردن ومالطة، بلغت على حد قول بعض المصادر خمسة آلاف جندي و ٦ قطع بحرية ومئةوعشرين طائرة.

لم يهدأ الفلسطينيون طويلاً، ولم يسكتوا عما لحق بهم في ثورة البراق، وبسبب زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين بدعم ومؤازرة سلطات الانتداب البريطاني، تنادت الفعاليات الفلسطينية الى عقد مؤتمر لها في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٣، رأسه السيد موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية الفلسطينية آنذاك، وتركزت أعمال المؤتمر على موضوعين أساسيين أولهما: الموقف من التعامل مع المندوب السامي البريطاني، وبالتالي مع الانتداب وسياساته المحابية لليهود. وثانيهما: مشكلة الاراضي الذي يسهل البريطانيون انتقالها الى اليهود خاصة من أملاك الدولة وأملاك الاسر الارستقراطية، غير الفلسطينية، والتي كانت تقيم في بيروت أو دمشق. في خلال المؤتمر طرحت أفكار كثيرة منها: اعلان الاضراب العام ومقاطعة الادارة البريطانية. وتلا ذلك اجتماع آخر في يافا للاتفاق على موقف موحد في تنفيذ الافكار التي طرحت في الاجتماع الاول، ثم نظمت مظاهرة ضخمة في يافا في ٢٧ تشرين أول / أكتوبر ١٩٣٣ تأييداً لقرارات اللجنة التنفيذية، لكن البوليس تصدى لها بالرصاص وقتل فيها أحد عشر مواطناً فلسطينياً وجرح العشرات ومن بينهم رئيس اللجنة التنفيذية نفسه حيث شج رأسه وتوفي بعد سنة متأثراً بجراحه، وماتت بموته اللجنة التنفيذية.

حركة عز الدين القسام

نزح الشيخ عز الدين القسام من بلدة جبلة السورية الى فلسطين وهناك ساءته احوال العرب ولمس جور

البريطانيين وتعديات اليهود، فدعا الى مقاومة الانتداب البريطاني فتجمع حوله عدد من الرجال الوطنيين. اتخذ الشيخ ورجاله الابطال جبال يعبد مركزا لهم، وعندما وصلت اخبارهم الى السلطات البريطانية في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر ١٩٣٥)، وكان الشيخ القسام مع خمسة وعشرين مناضلا من رجاله، حاصرتهم تلك القوات اي القوات البريطانية بقوة بلغ تعدادها نحو ٥٠٠ جندي ولكن الشيخ رفض الاستسلام، عندما طلب منه، فكانت هناك معركة ضاريه استشهد فيها الشيخ واربعة من رفاقه الشجعان. لقد رفع الشيخ شعار «موتوا شهداء» ذلك الشعار الذي ظل حيا في ذاكرة ابناء فلسطين حتى يومنا هذا.

ثورة ١٩٣٦

كانت نهاية حركة الشيخ القسام المأساوية السبب المباشر لثورة عام ١٩٣٦. كما كان للثورة السورية ضد الانتداب الافرنسي انعكاسها على فلسطين، انفجرت الثورة بفلسطين في ١٤ نيسان/فبراير ١٩٣٦ وقد بدأت بحادث بسيط عند بلدة عَنَبْتا، وما لبثت الاحداث ان امتدت الى حيفا ويافا ونابلس وغيرها من المدن الفلسطينية، اعلن على اثرها الاضراب العام الذي بدأ من ٢١ نيسان/ابريل حتى تشرين اول اكتوبر من العام نفسه، وتقرر العصيان المدني والتوقف عن دفع الضرائب، فاعلن المندوب السامي البريطاني تطبيق قانون الطوارىء لـ ١٩٣٦، فقامت بريطانيا كعادتها بمحاولة لاجهاض الثورة فاعلن وزير المستعمرات البريطاني في ١٩ أيار من العام نفسه انه سيرسل لجنة ملكية لتقصي الحقائق، والنظر في اسباب الثورة والمظالم التي يدعيها كل طرف على حد تعبيره، واضاف بان اللجنة لن تستطيع السفر الا بعد ان «يستتب النظام»، وبسبب تدخل ملوك العرب ورؤسائهم في ذلك الوقت وضغط منهم اعلن الفلسطينيون بلسان اللجنة العربية العليا في ١٠ تشرين اول استجابتهم للوساطة العربية وايقاف الاضراب، وياليتهم ما فعلوا، كما اعلن السيد فوزي القاوقجي بيانا طلب فيه من جميع المجاهدين وقف العمليات العسكرية.

ودعت جمعية العمال العرب في يافا العمال الى العودة الى اعمالهم وهكذا وقع الفلسطينيون واخوانهم من العرب الذين كانوا يشاركونهم الثورة، وخاصة من سوريا ولبنان والاردن، في الشرك الذي نصبه لهم البريطانيون الذين عرفهم التاريخ بانهم سيد من يتقن فن الدسائس ونصب الاشراك، وحز في نفوسهم ان هذه المؤامرة انطلت على الملوك والرؤساء. انتهت بذلك اول ثورة في تاريخ العرب الحديث، قبل الانتفاضة وانتهى معها اطول اضراب كذلك، وطبقا للاحصاءات البريطانية كانت حصيلة تلك الثورة ١٦٣ شهيدا و٨٠٣ جريحا واعتقال ٩٩٦ ثائرا كما نسفت الكثير من المنازل، ان الخوف اليوم ان تتكرر الاخطاء التي ارتكبت في ثورة عام ١٩٣٦، لقد كان شرط السلطات البريطانية الاستعمارية آنذاك ايقاف الثورة حتى تتمكن من ارسال لجان التحقيق، واليوم تطالب الولايات المتحدة واسرائيل ايقاف الانتفاضة (أعمال العنف على حد تعبيرهم) للتمكن من الدخول في مفاوضات سليمة بهدوء؟!!، فهل يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين؟!!.

قرار تقسيم فلسطين
٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧

كان لتقسيم القارة الهندية الى قسمين دولة هندوسية واخرى اسلامية اثره البالغ على تقسيم فلسطين، فقد كانت مجريات الحوادث في فلسطين وتصوير البريطانيين لها بأنها نزاع بين العرب الفلسطينيين واليهود، فجرى اقتراح تقسيم فلسطين وعرض على الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة، فأقرته أي أقرت تقسيم فلسطين الى دولتين بينهما اتحاد اقتصادي وذلك في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ وسارعت بريطانيا الى الاعلان أنها ستنهي انتدابها على فلسطين في ١٥ أيار عام ١٩٤٨. وفي هذا التاريخ أعلن الاسرائيليون إقامة دولتهم، في حين رفض العرب قرار التقسيم، وأعلنوا الحرب على اليهود، فدخلت الجيوش العربية وأهمها بالطبع الجيش المصري والجيش الاردني والجيش السوري والجيش العراقي، كما اشتركت بعض الوحدات من الجيش اللبناني، وبعد شهر من دخول تلك الجيوش أعلنت الهدنة، وتلاحقت الاحداث ووقعت اتفاقية الهدنة الدائمة برودس، كانت الصورة بعد توقيع اتفاقية رودس في فلسطين: قطاع غزة بإشراف القوات المصرية، الضفة الغربية بإشراف القوات الاردنية ومنطقة الحمة بإشراف القوات السورية.

حكومة عموم فلسطين

شكلت الجامعة العربية في شهر تموز / يوليو عام ١٩٤٨ ادارة مؤقتة لفلسطين وذلك لتسيير شؤون الاقسام التي تحتلها الجيوش العربية، وظل هذا القرار حبراً على ورق، وفي الخامس من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨ (عقدت اللجنة العربية العليا اجتماعاً في غزة بزعامة الحاج أمين الحسيني أقرت فيه إقامة حكومة فلسطينية تحت اسم «حكومة عموم فلسطين» برئاسة أحمد حلمي وتشكيل مجلس وطني برئاسة الحاج أمين الحسيني، كما أعلن المجلس استقلال فلسطين استقلالاً تاماً، واعترفت دول الجامعة العربية بتلك الحكومة باستثناء حكومة الاردن، وقد دعت الجامعة رئيس حكومة عموم فلسطين لحضور مجلس الجامعة في ٣٠ تشرين الاول /أكتوبر ١٩٤٨. أصدرت حكومة عموم فلسطين التي اتخذت من القاهرة مقراً لها جوازات سفر باسم حكومة فلسطين استعملها أهل غزة حتى استبدلت بوثائق السفر التي أصدرتها الحكومة المصرية. وفي خطوة معارضة لمؤتمر غزة صدر في عمان الشهر نفسه بيان يرفض فيه أن تفرض على عرب فلسطين من متزعمي فلسطين سابقاً (آنذاك) مشاريع لايرغبونها، وفي ذلك بالطبع إشارة الى الحاج أمين الحسيني ودلالة على عدم رضا حكومة الاردن عن إعلان حكومة عموم فلسطين، وفي كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ عقد مؤتمر أريحا الشهير بدعم من الاردن حيث أعلن توحيد فلسطين وشرق الاردن في دولة واحدة، إلا أن الجامعة العربية عارضت ذلك الاعلان وبادرت الى فصل الاردن من الجامعة العربية، الا أنها عادت وتراجعت عن ذلك القرار بعد شهر واحد.

بعد توقيع اتفاقية الهدنة برودس وضم الضفة الغربية الى الاردن بقي قطاع غزة الذي تشرف عليه القوات المصرية هو الجزء الفلسطيني الرئيس الذي يحمل اسم فلسطين، والذي كان يسكنه قرابة أربعمائة الف نسمة من الفلسطينيين: مواطنين ولاجئين، أصبح القطاع هو الخطر الرئيس الذي تنطلق منه الاعمال المعادية الى اسرائيل، حيث كان كثير من الفلسطينيين الذين نزحوا الى غزة، كانوا يتطلعون الى قراهم وأراضيهم عبر الحدود وهم يتألمون لفقدان البلد ويتضورون جوعاً، وعلى الرغم من قيام مؤسسات الأمم المتحدة بإغاثة اللاجئين لأن أهل غزة وخانيوس وغيرها من القرى فقدوا أراضيهم الزراعية مصدر أرزاقهم فأصبح الجميع بحاجة الى إغاثة.

عندما أفاق الناس من هول الفاجعة أخذوا يطالبون بالسلاح والتجنيد والتدريب على السلاح في المعسكرات والمدارس على الرغم من أن الجميع كان لايزال يسكن الخيام، وكثيراً ماكانت الخيام مهترئة تقتلعها الرياح خاصة في فصل الشتاء وينقل الناس الى الجوامع والمدارس والمستشفيات لايوائهم، إنها أوضاع بائسة وبالغة التعقيد، وكلما كانت الأمور تزداد سوءاً وتعقيداً كانت الأصوات ترتفع مطالبة بالسلاح والتجنيد والتحرير، فظهرت «حركة الفدائيين»، وكان التفكير جاداً في إيجاد جيش فلسطيني وبعث كيان فلسطيني تحت ضغط مجموعات الشباب التي أخذت تكون الجمعيات والنقابات مطالبة بتحرير **فلسطين** فيمكن القول أن الحركة الوطنية في قطاع غزة لم تكن مقصورة على فريق دون آخر. فعلى الرغم من وجود التجمعات السياسية الا أنها لم تكن قوية بدرجة كافية، وبالتالي لم تكن هناك حساسيات بين الناس بسبب انتماءاتهم السياسية. وكانوا يتجمعون بصورة أساسية تحت شعار التحرير والعودة. من التجمعات الوطنية ذات الصبغة السياسية كانت جمعية التوحيد بزعامة ظافر الشوا، ونقابة المعلمين (آب ١٩٥٤) وجمعية الموظفين (١٩٥٠)، وشباب الثأر، حركة القوميين العرب، رابطة الطلبة الخريجين والحزب الشيوعي.

في هذه الفترة تكثفت أعمال المقاومة ضد العدو الاسرائيلي عبر الحدود رغم منع السلطات المصرية لذلك خوفاً من الاعتداءات الاسرائيلية، الا أنها استمرت رغم منع السلطات المصرية لها، وكان طبيعياً أن تقوم اسرائيل باعتداءات على قطاع غزة وكانت تلك الاعتداءات بمثابة عقوبات جماعية لجميع المدنيين في مناطق تجمعهاتهم من تلك الغارات نذكر:

غارة شباط فبراير ١٩٥٥

اجتازت في ليلة شباط فبراير ١٩٥٥ الى قطاع غزة سريتان اسرائيليتان وهاجمت موقعا بالقرب من محطة قطار سكة الحديد بغزة ونسفت منزلاً وأربعة أكواخ ومبنى مضخة المياه وقتلت ١٤ جندياً. وفي الوقت نفسه رابطت مجموعة من الجنود الاسرائيليين لحماية المغيرين على بعد ستة كيلومترات جنوب غزة، ونصبت كميناً لسيارة نجدة من المتطوعين الفلسطينيين من عناصر الجيش الفلسطيني وقتلت ٢٢ جندياً وضابطاً منهم. اهتز القطاع من أوله إلى آخره إلى ماخلفته هذه الغارة من شهداء ودمار فقامت المظاهرات وحرق

الشعب المستودعات التموينية التي كانوا يستلمون منها قوتهم اليومي مطالبين بالتجنيد لتحرير الوطن، وهتفوا باسقاط مشروع سيناء وحكومة القاهرة، ولم تستطع السلطات إخماد تلك المظاهرات العارمة الا بعد أن جلبوا جنود الهجانة من سلاح الحدود وكانوا مشهورين بالبطش بالناس وسقط العديد من القتلى في غزة وخانيوس ورفح. وبعد هدوء الحالة نسبياً عمدت السلطات العسكرية المصرية الى اعتقال الشباب الذي اعتقدت أنهم وراء أعمال المظاهرات فاعتقلت قسماً أرسلته الى سجون مصر العسكرية ومنها سجن قنا، ومنهم من زج في سجون القطاع وكان الكاتب من أولئك الذين اعتقلوا في قطاع غزة، ثم تشكلت محكمة مخصوصة لمحاكمتهم فأخذت تحاكم السجناء مجموعة مجموعة. فحاكمت مجموعة غزة ثم مجموعة رفح وجاء دور مجموعة خانيونس التي شهدت أعنف الاشتباكات وامتدت المحاكمات عدة أشهر وجاءت الظروف لصالحهم إذ أن العدو الصهيوني قام بغارة جديدة على خانيونس في ٣١ آب ١٩٥٥. ونسف مركز البوليس وقتل العديد من المواطنين (٢٨ قتيلاً و ٢٩ جريحاً). ونظراً لأن موعد النطق بالحكم على المعتقلين صادف اليوم التالي لهذه الغارة، ونظراً لتوتر الوضع في القطاع بسبب الغارة ووصول مئات البرقيات الى الحاكم الاداري لقطاع غزة طالبه اطلاق سراحهم قررت المحكمة المخصوصة إيقاف جميع التهم المنسوبة اليهم وأخلت سبيلهم.

اشتباك (اب ١٩٥٥

كان لغارة شباط من العام نفسه التي ذكرناها سابقاً، أثر بالغ على نفوس الشباب بالقطاع فاندفعوا للتدريب والتطوع في حركة الفدائيين الفلسطينيين التي أشرنا اليها بقيادة الضابط المصري مصطفى حافظ، وبلغ عدد المتطوعين قرابة ٧٠٠ فدائي، نفذت تلك الحركة اول عملية فدائية ليلة ٢٥/٢٦ آب ١٩٥٥ داخل اسرائيل حينما هاجمت سيارة جيب عسكرية قرب مستوطنة «بارمردخاي» ثم هاجمت موقعاً اسرائيلياً قرب متسعمرة «كيسوتيم» مما أدى الى مقتل جندي وجرح عدد آخرين، وفي ٢٨ آب من نفس العام وقع اشتباك مسلح عند تل المطار شرقي غزة لم يتوقف الا بعد اتصال مباشر بين يوسف تكواع الاسرائيلي قائد المنطقة الجنوبية ويوسف العجرودي الحاكم العام لقطاع غزة. لقد كان هذا الاشتباك بمثابة تصعيد لأعمال المقاومة في قطاع غزة ضد العدو الصهيوني الرابض على حدود الهدنة.

الغارة الاسرائيلية على خانيونس آب ١٩٥٥

جاء رد الفعل الاسرائيلي سريعاً على اشتباك ٢٨ آب ١٩٥٥، أي بعد أيام فقط، فقد قام بغارة على مدينة خانيونس مركز تواجد الجيش الفلسطيني يوم ٣١ آب ١٩٥٥، ولعل ذلك جاء رداً على تصعيد العمليات الفدائية الفلسطينية، حيث قامت وحدة مدرعة بالتوغل مسافة ستة كيلومترات تقريباً داخل قطاع غزة أمام مدينة خانيونس، وصلت الى مركز البوليس (سراي الحكومة) الذي كان عبارة عن قلعة من

القلاع التي بناها الانجليز لدوائر الحكومة إبان الانتداب البريطاني، وذلك إبان ثورة عام ١٩٣٦ نزولاً عند مشورة «تيجارب». وعندما لم تستطع اقتحامه عمدت الى نسفه بمن فيه من المدافعين والمساجين وغيرهم فبلغ عدد القتلى ٣٦ وعدد الجرحى قرابة ١٣ جندياً. هنا الى جانب عدد من المدنيين من قرى عبسان وبني سهيلا، كما تضرر بناء مشفى الرحمة وبعض المساكن المجاورة. فقد الفلسطينيون في هذه الغارة عدداً من شبابهم الوطنيين كما فقدوا عدداً من افراد الشرطة الوطنيين الذين كانوا يرفضون في كثير من الاحيان أوامر الحكومة في قمع المظاهرات باطلاق الرصاص أو الضرب، فقد رد أحدهم على رئيسه الضابط المصري كيف تأمرني بضرب هؤلاء الناس؟ ومنهم من يكون ابني أو أخي أو أختي؟ إنني لن أفعل وإذا رغبتم فهذه البدلة والعمرة وأنا بغنى عن الوظيفة، فرد الضابط المصري الشاب: معك كل الحق فهؤلاء الطلاب يطلبون التجنيد لمحاربة عدوهم الذي سلب أرضهم وحياتهم. وهذا هو عمل وطني مشرف ولكنها الاوامر فماذا نفعل؟! إنها أيام بالغة الحلكة من طرف، وبالغة الاشراق من طرف آخر، ويتذكر الكاتب يوماً كيف كان هو ووالده في طريقهم الى غزة لسماع النطق بالحكم، حكم المحكمة المخصوصة، التي كانت تحاكمه ورفاقه، وكيف أن أناساً قالوا: يهود يهود!! وكان الناس لايزالون يتمثلون أحداث الامس المفجعة وهم عزل من السلاح ونزل من الحافلة للهرب، كما يفعل سائر الناس فتملكه الضحك وهو لايعرف لماذا؟ ربما للمهازل التي تتم أمامه! ويذكر أن والده المرحوم نهره وقال له: أهذا وقت الضحك؟ وهم بضربه بعصاه (باكوره) الذي كان يحملها دائماً ربما رمزاً للوجاهة. فقد كان عمدة عائلته وعيناً من أعيان البلد، لقد رأى الباحث بعينه كيف خرجت النساء حافيات الاقدام، عاريات الرؤوس، مشعثات الشعر، وهذا أمر منافٍ للعادات والتقاليد في الايام العادية ولاسيما وأن خانيونس تعتبر من المدن الفلسطينية المحافظة، لقد سارع الرجال لخلع عبيهم ومعاطفهم وإسدالها على النساء. عندما هدأت الامور نسبياً رجعت مع والدي الى بيت لنا كبير وقريب من مركز البوليس المنسوف. وهناك قابلنا الحاكم الاداري لخانيونس وكان يومها «محمد الغزالي» فالتفت الى والدي وقال: عجبي ياناس ليه الناس هربوا؟! فرد عليه والدي وكان صريحاً في أقواله بوجه عام، لقد هرب الناس لأن جيشكم هرب، فرد الحاكم العسكري ايه الكلام ده ياحاج؟! فأجابه الوالد لقد رأيت بأم عيني الضابط (فلان)، لم أعد أذكر اسمه، يركب سيارة الجيب ويلحق به العسكر باتجاه شاطىء البحر، وبالفعل وجد ذلك الضابط مع عسكره على شاطىء البحر بعد أن أجريت التحريات اللازمة.

احتلال قطاع غزة

(٢تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦ ـ ٧ آذار/مارس ١٩٥٧) تطورت الاحداث بسرعة في المنطقة العربية في تلك الفترة، فكانت صفقة السلاح التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا، وهذه اول مرة يتجرأ حاكم من بلدان العالم الثالث على عقد مثل تلك الصفقة، ثم جاء تأميم قناة السويس. وكانت تلك الاحداث احداث وطنية اثرت تاثيرا بالغا في نفوس الجماهير العربية، وان كان بعض الباحثين يعزو ذلك

الى الحرب الباردة بين امريكا وبريطانيا من اجل السيطرة على المنطقة.

بسبب تأميم قناة السويس قامت بريطانيا وفرنسا واسرائيل بالعدوان الثلاثي على مصر. لقد تجمع اصحاب المصالح الاستعمارية والعدوانية لضرب مصر عبد الناصر من اجل اركاعها، ولكن الجماهير بحسها السليم بادرت للالتفاف حول مصر وافشلت المخططات العدوانية واجبرت المعتدين على الانسحاب من مصر وقطاع غزة.

كان دور العدو الاسرائيلي في العدوان على مصر عام ١٩٥٦، اخذ قطاع غزة وسيناء بعد ان تقضي القوات البريطانية والافرنسية على القوات المصرية، وبالطبع وجد هذا الدور هوى في نفس العدو الاسرائيلي كيف لا وغزة مصدر قلق دائم له، وكانت بمثابة الشوكة في خاصرته، وكان يسعى لاخماد روح المقاومة التي تنطلق منها، لقد عامل العدو الصهيوني سكان قطاع غزة معاملة لم يعرف التاريخ مثلها هي اكثر قسوة من معاملة اتيلا لاعدائه واكثر قسوة من معاملة هولاكو وتيمورلنك وهتلر وغيره من سفاحي التاريخ. لم يفرق العدو الصهيوني بين مدني وعسكري، بين طفل وشيخ وامرأة، لقد جمع الناس في الساحات العامة وساحات المدارس واطلق عليهم الرصاص دونما تحقيق او حتى سؤال، انها الهمجية بام عينيها، فلم يتحدث التاريخ عن مجازر بشعة كتلك المجازر التي ارتكبها الجنود الصهاينة، كل ذلك من اجل القضاء على روح المقاومة التي تتحقق بقتل الناس جميعا شبابا وشيبا واطفالا ونساء، ويعتقد الباحث مما سمعه ولمسه انه لم تبق عائلة بقطاع غزة الا ونكبت بعزيز، فهل توصل العدو الى اهدافه عن طريق تلك المجازر؟ لقد كان رد، قطاع غزة مزيدا من المقاومة، فتألفت عدة جبهات ومنظمات لمقاومة الاحتلال الصهيوني منها «جبهة مقاومة الاستعمار والصهاينة في قطاع غزة» وكانت تضم كافة فئات الشعب واصدرت نشرة تحت عنوان «الحركة الوطنية» وكانت توزع سرا، كانت تلك النشرة تعمل على تطمين الناس وشد عزائمهم بقرب زوال كابوس الاحتلال، واذكاء روح المقاومة في صفوفهم وعدم التعامل مع العدو ورفض التعامل بالليرة الاسرائيلية وعدم ارسال اولادهم الى المدارس، ونجحت تلك المقاومة وكادت تتطور الى كفاح مسلح، لقد اشترك الفلسطينيون بكافة توجهاتهم بالنضال ضد الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٥٦ (تماما كما يحدث اليوم بالانتفاضة، تابع الفلسطينيون نضالهم بعد انسحاب القوات الاسرائيلية.

تعرض الفلسطينيون ايضا الى الاعتداءات الصهيونية بعد عام ١٩٤٨ في الضفة الغربية، وان كانوا قد اصبحوا اردنيين من وجهة النظر الدولية، فقد اوقع الصهاينة عدة مجازر بسكان الضفة الغربية كمجزرة قبية والسموع وكفر قاسم وغيرها، كما كانوا يشاركون اخوانهم في قطاع غزة المطالبة بالتجنيد من اجل العودة والتحرير.

اقامة منظمة التحرير الفلسطينية والعمل الفدائي:

عندما تأكد للعرب ان لامناص من اقامة النضال الفلسطيني في اطار كيان يمكن التحاور معه، بعد ان فرض الشعب الفلسطيني نفسه على الساحة العربية والدولية فكانت منظمة التحرير الفلسطينية، وكلف

المرحوم احمد الشقيري بالاعداد الى مؤتمر وطني وانتخاب لجنة تنفيذية، فكان المؤتمر الفلسطيني الاول بعد عدوان ١٩٥٦، وفي ظل التوجهات الجديدة وذلك في ٢٨ ايار/مايو ١٩٦٤. كان هذا على الصعيد الرسمي العربي، الا انه من جانب آخر كان هناك الحركات الفدائية التي كانت تنظيماتها في غاية السرية. وكانت المفاجأة الكبيرة وهي اعلان الثورة الفلسطينية المسلحة في الشهر الأول من عام ١٩٦٥ من اجل تحرير فلسطين، وتتالى بعد ذلك ظهور الحركات والمنظمات المسلحة التي تصدت للكفاح المسلح اذكر منها على سبيل المثال لاالحصر: حركة التحرير الوطني (فتح) ومن قادتها ياسر عرفات وخليل الوزير وصلاح خلف وغيرهم، وحركة القوميين العرب ومنها شباب الثأر والعودة وثم، وخاصة بعد ان تبنت الخط الماركسي في نضالها الجبهة الشعبية بزعامة الدكتور جورج حبش، والجبهة الديمقراطية بزعامة نايف حواتمة والجبهة الشعبية القيادة العامة بزعامة احمد جبريل وجبهة النضال الشعبي (الدكتور سمير غوشه) وطلائع حرب التحرير الشعبية الصاعقة وجبهة تحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وقوات التحرير الشعبية. . الخ.

لقد كان ظهور هذه المنظمات متباينا تاريخيا فبعضها ظهر بعد العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧). هذا الى جانب النضال الفكري الذي قامت به كثير من المنظمات التي لازال بعضها حيا على الساحة الفلسطينية.

تطور العمل الفدائي بعد نكسة حزيران التي ادت الى احتلال جميع فلسطين وسيناء والجولان من قبل الاسرائيليين، وحمل عبء اعادة الكرامة العربية واعادة الثقة الى الجماهير العربي بعد ان اصابها الاحباط نتيجة نكسة حزيران، وتمكنت المنظمات الفدائية من الدخول الى منظمة التحرير الفلسطينية، فوجد بذلك العمل السياسي والعمل العسكري، الا ان النضال المسلح الفلسطيني اصيب بضربتين قاسيتين احداهما عام ١٩٧٠ في الاردن والثانية عام ١٩٨٢ في لبنان، اثرت على مسيرته النضالية وهو لايزال يعاني منها.

الانتفاضة مثال حي على روح المقاومة عند شعب فلسطين

لم تتوفر لدينا بعد أدبيات وافرة عن الانتفاضة كي ننهل منها عند كتابة مثل هذه البحوث الا مانشر عنها في وسائل الاعلام الاجنبية والعربية وماتسرب عنها من الارض المحتلة. فمن خلال هذين المنهلين عرفنا أن جميع القوى الفلسطينية تشترك في الانتفاضة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، هذا ماساعد على التفاف الشعب بكل فئاته حولها. ومن الملاحظ أن عنصر الشباب بارز، كما يظهر أن هذه الانتفاضة لارجعة فيها، فيبدو أن القائمين بها مصممون على المثابرة والنضال حتى تتحقق أماني شعبنا العربي الفلسطيني في التحرير والعودة وإقامة الدولة المستقلة فوق التراب الوطني.

لقد استطاع الشعب الفلسطيني، بسبب انتفاضته في الارض المحتلة، استطاع أن ينتزع اعجاب الصديق والعدو واستطاع أن يكشف زيف الديمقراطية الاسرائيلية. إن العالم كله يقف اليوم بإجلال واحترام مقدراً نضالات أطفال وشباب الشعب الفلسطيني، أطفال الحجارة وشبابها، للرجال والنساء شيباً

وشباباً فالكل مشارك دون استثناء اليوم والانتفاضة ممتدة في فلسطين كلها،ففلسطين اليوم كلها تقاوم وتناضل من أجل استعادة حريتها.

مهما تحدثنا عن الانتفاضة فلن نستطيع اعطاءها حقها لأننا نجهل الكثير عن بطولاتها كما اسلفنا إلا أنه ظهر حتى الآن أمران هامان فرضتهما الانتفاضة هما:

١ ـ فك الارتباط الاداري والقانوني بين الضفة الغربية والاردن وقد مهد هذا الامر الطريق لمنظمة التحرير الفلسطينية للتحدث باسم أهل الضفة والقطاع وإدارة النضال في الارض المحتلة.

٢ ـ اعلان الدولة الفلسطينية المستقلة انسجاماً مع أماني شعبنا الوطنية وتحقيقاً لاهداف ثورته المسلحة.

بناء على ما استعرضناه سابقاً من محطات نضالية فلسطينية، وهي بالطبع قليلة بالنسبة للمحطات النضالية التي صنعها ذلك الشعب العملاق، نستطيع أن نخلص الى أن روح المقاومة تاريخية متجذرة متأصلة فيه، وقد رأينا ما ان يقوم احتلال أو انتداب الا وتقوم فلسطين لتثأر لكرامتها مطالبة بحريتها؛ فثورات ـ ١٩٢٠ و ١٩٢٣ و ١٩٢٩ و ١٩٣٦ و ١٩٤٧ و ١٩٦٥ وغيرها انها محطات تاريخية أثبت فيها الشعب العربي الفلسطيني قدرته على المقاومة المستمرة في سبيل الارض والهوية والحرية، وهو اليوم يستلهم من تراثه النضالي في حطين وعين جالوت وثورة عام ١٩٣٦ وغيرها القدرة على مواصلة الانتفاضة التي هي محطة تاريخية من نوع جديد بوسائلها وحركيتها وعناصرها، ونحن مطالبون اليوم بدعم هذه الانتفاضة بكل الوسائط بالمال، وبالقلم، باللسان، وبكل وسيلة تفيد حركة النضال الذي بدأه الاهل بالوطن المحتل. ونحن لاشك متفائلون ومبعث تفاؤلنا مايجري بالارض المحتلة ونشاهده كل يوم على شاشات الاجهزة التلفزيونية، ونقرأ في الكتب وصفحات الصحف، تضامناً وتصميماً ومحبة في حركة كل شاب وامرأة وطفل.

ان درب النضال طويل ولازالت أمامها عقبات لابد من التغلب عليها. فالعدو الذي نحارب، عدو من نوع آخر عن بعض الاعداء، فاذا فقد خنادقه في فلسطين سيفقدها الى الابد وفي كل مكان، لذلك نقول ان درب النضال طويل ولابد من مزيد من التلاحم والقوة لدحره، وليعلم الجميع إن إعلان الدولة الفلسطينية، إنما هو نقلة نوعية في تاريخ النضال الفلسطيني، تحتاج الى مزيد من النضال لحمايتها واقامتها فوق أرضها المحررة حتى لاتتكرر مأساة حكومة عموم فلسطين.

المراجع:

ـ الدباغ مصطفى مراد: بلادنا فلسطين. الديار اليافية ٢/٤، دار الطليعة بيروت ١٩٧٢/٤
ـ سكيك ابراهيم خليل: غزة عبر التاريخ (تحت الانتداب البريطاني)، الجزء الرابع.
ـ الموسوعة الفلسطينية: اصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية ١٩٨٤
ـ ملف الخليج، ملف أصدرته جريدة الخليج بالشارقة بمناسبة مرور ٤٠ عاماً لاغتصاب فلسطين.
ـ كيالي عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، بيروت ١٩٧٣
ـ بوصبير صالح مسعود: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن بيروت ١٩٦٨
ـ علوش ناجي: الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٩٨٢ ـ ١٩٤٨ بيروت ١٩٧٤
ـ دروزة محمد عزة: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، بيروت ١٩٥٩

اشكالية العلاقة بين المثقف العربي والسلطة والمجتمع

غالب عامر*

مدخل عام:

ليس هنـاك من اشكالية اجتماعية أو ثقافية، يمكن أن تكون مفصولة عن النسيج التركيبي لمنظومة السياق العام الذي تنبثق منه وتتموضع في إطاره، أو بالأحرى عن واقع الوضعية المجتمعية لمجتمع ما في مرحلة معينة من مراحل تطوره.

كذلك، فإنه لايمكن الفصل بين مرحلة واخرى من التطور والامتداد في الزمان والمكان. فالواقع ليس مجرّد مقولة متعينة بحدودها بشكلٍ مسبق، اذ إن التغير الدائم وفق ميكانيزمات متعدّدة ومعقدة، يغتبر الناظم المحوري لحقيقة العلاقات الاجتماعية.

---

* كاتب من القطر العربي السوري.

والواقع العربي الراهن، في لحظة الحاضر التي نعيش، والمرسومة بسيرورة تراجعية عامة، فضلاً عن تمركز آليات التخلف وحضورها الفاعل في مجمل البنى والمؤسسات المجتمعية، تجعل من الوضعية العربية تحقيقاً لأزمة شاملة ومستحكمة.

ان تمثل حقيقة هذه الأزمة وتجاوزها بآن، عبر تحديد واضح لجوانب المشروع الحضاري العربي وآليات تحققه، يقتضي، في جانبٍ منه، البحث في أزمة الثقافة العربية وحاملها الاجتماعي، بما هي غير محددة في البناء المعرفي بحدّ ذاته، وانما تندرج في اطار تمفصل الثقافي مع السياسي والاجتماعي بشكلٍ عام. وحتى يتسق المنهج مع طبيعة البحث، لابدّ بداية، أن نحدّد مجموعة من الملاحظات المنهجية:

١ ـ ابتداءً من القرن السابع عشر، وفي تزامن مع التكون التاريخي للانتلجانسيا كقوة اجتماعية، «اصبح التكـوين الفكري الحديث، يوجّه نظرة الانسان الى المستقبل وليس إلى الماضي، يحدد الحاضر في ضوء المستقبل لا العكس»(١).

إن تحديد العلاقة الزمانية الانسانية في التوجه نحو المستقبل، من شأنه أن يبيّن طبيعة المهام المرحلية والاستراتيجية للمثقف العربي، ودور الثقافة في ذلك، وأهمية وضع التصورات المستقبلية لأسس التغير ونـواظمه الرئيسة، والأهداف التي ينبغي تحقيقها كجدولٍ عام لعمل التاريخ. فلم تعد مهمة المثقف تقتصر على كشف حقيقة الواقع وثغراته، باعتباره ذاتاً أخرى مغايرة ومصادمة للمشروع النهضوي، وانما يتعداها الى استشراف آفاق المستقبل لتحديد الخطوط العامة المكوّنة لتلك الآفاق.

٢ ـ وينبثق عن ذلـك، ضرورة توصيف المثقف، وتحديد دلالة المفهوم، إذ لابد من التمييز بين شرائح اجتماعية ثلاث تتمثل الأولى في فئة التقنيين والمختصين في علم معيّن خاص من بين جميع الأمور التي ينبغي للمثقف أن يلمّ بها دون الاهتمام بما يقع خارج نطاق الاختصاص الضيق، أو محاولة السعي الى تركيب جميع أنواع المعرفة».

ويعبّر عن الشريحة الثانية شبه المثقف الذي ارتضى لنفسه الانضواء تحت لواء السلطة السياسية، التي تفترق في طبيعتها ومسارها عن طموحات الجماهير وأهدافها، حيث يركن الى التصالح مع المواقع، ومع إرادة قمعية تسعى الى توظيفه لبناء خنادقها الايديولوجية.

وفي اطار المفهوم السياسي والاجتماعي التقدمي، ليس هناك من مسافة كبيرة بين أشباه المثقفين أولئك، وبين ذلك المثقف التقليدي الذي يعبر عن التيار الفكري السلفي النابذ للأهداف العلمية المعاصرة للثقافة الانسانية.

أما الشريحة الثالثة، وهي التي تمثل مانقصده بمفهوم المثقف، ويمثلها ذلك الذي يحيا في ذاته عالمان: عالم الواقع المحايث الذي يرفضه، ويفرّ من الاندماج في مواقعه الاجتماعية والسياسية، انطلاقاً من الإدراك العميق لطبيعة هذه المواقع. وعالم المستقبل الذي يرتسم في مخيلته صورة بديلة، كلية وشاملة لما هو كائن، وفقاً لرؤيا قيمية تطمح لتحقيق مايجب أن يكون. وبذلك يكون همه الأول كما يعرفه بول باران ـ «المساعدة على معالجة الحواجز التي تقف في طريق نظام اجتماعي أحسن، واكثر عقلانية وانسانية، المثقف يصبح في دوره هذا ضمير المجتمع، والمتكلم بلسان القوى التقدمية، كما تعبر عن ذاتها في كل مرحلة تاريخية».

٣ ـ مايرتبط بذلك، طبيعة الوضع الديمغرافي للمثقفين الذين ينحدرون من منابع اجتماعية عدة ـ في اطار «العضوية المفقودة» نتيجة للعلاقة المأزومة بين المثقف والمجتمع ـ باعتبارهم فئة اجتماعية، تمتلك مواصفات متميزة، حيث يتضح التباين في التشكيل البنيوي قياساً بالفئات الاجتماعية الأخرى، مما يؤدي الى انعدام التجانس الطبقي والفكري والايديولوجي. فالعلم والثقافة كقاسم مشترك، يفترض بطبيعته تعدد المناهل الثقافية واتجاهاتها، كذلك المصالح الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالهوية الطبقية للفئات الاجتماعية التي انحدر منها المثقفون ومدى الالتزام بها، اضافة لواقع التربية والتنشئة الاجتماعية، ومنظومة الأفكار والمعتقدات السائدة.

ان لوحة النسيج التركيبي هذه، والاختلاف في المواقف السياسية والاجتماعية، وما ينبثق عنه من ضروب متعددة في السلوك والعلاقات، تدفع الى البحث في كيفية الارتقاء نحو تكون بنيوي يرفض الواقع، وما فيه من غياب للدور والمفهوم، ويتجاوزه نحو تحقيق نوع معين من التجانس الثقافي والاجتماعي، ابتداءً من تحديد المهام الاجتماعية والسياسية التي تطرح نفسها في أفق المستقبل، وبالتالي تتحقق الهوية بمفهومها الواقعي والعملي، وليس في اطارها المرجعي.

٤ ـ على الرغم من أن السؤال عن موقع المثقف العربي في الحياة العربية المعاصرة، وعن دوره في إحداث التحولات المجتمعية، أصبح سؤالاً تقليدياً، إلاّ أنه مايزال قائماً، نظراً لأن مجمل التحوّلات المستقبلية تعتمد على أسس فكرية، وعلى ضرورة وجود منظومة معرفية تستقطب الجماهير، وتحقق بناء الحامل الاجتماعي لنقلة حضارية شاملة ومتميزة.

ان التركيز الكثيف على المثقف العربي ودوره، يعني فيما يعنيه، دعوة الى أن يحتل موقعه المتميز في عملية الاعداد لتلك التحوّلات، والإسهام في تحقيقها، أو بالأحرى أن يصبح في ذات التاريخ فاعلاً وموجهاً، بدلاً من أن يبقى مجرّد موضوع من موضوعاته.

واذا كانت حالة اغترابه الراهنة، نتاج مجموعة من العوامل والظروف الذاتية والموضوعية، منها مايدخل في واقع الانتماء لمجتمع غير مثقف تسوده الأمية، وينتشر فيه الجهل المتجذر منذ قرون طويلة، وعلاقة مع الحكام أساسها المعاناة من حضور أجهزة القمع والاستبداد التي تستهدف ابقاءه معزولاً عن مجتمعه، وعاجزاً عن أداء دوره الحضاري، وتهويماً ذاتياً في عالم المثل والقيم والافكار المجردة، فان حالة اغتراب المثقف هذه، ليست في المحصلة إلا موقع الابتداء لانطلاقة إبداعية، تتجاوز الخضوع لقيود الواقع، وحالة الضياع والتيهان والعزوف عن الفعل، والتفاعل مع المجتمع وقواه الاساسية.

المتعلم والمثقف والمجتمع:

لعله من نافل القول أن نذكر، أن التطور العلمي والتكنولوجي العالمي منذ بداية هذا القرن، أوصل الانسان الى مواقع التخصص العلمي كضرورة موضوعية. ولكنه لم يكن قبل ذلك مفصولاً عن سياق السيرورة التاريخية للتحولات الاجتماعية. وكذلك التقدم الذي أصاب العلوم الانسانية. وبذلك تكونت

المنظومة المتكاملة للحضارة المعاصرة، التي حققت اندماجاً مجتمعياً في أداء الفئات الاجتماعية المختلفة لأدوارها الوظيفية بشكل عام.

أما على صعيد الوطن العربي، فإن المسألة أكثر تعقيداً بصورة متباينة. نظراً لذلك التداخل المعقّد لعناصر التخلف الحضاري واذرعته الفاعلة، بحيث لم تحقق تلك المنظومة التطورية العامة تموضعها في صيغة مترابطة ومحكمة. فالمجتمع العربي محكوم بأشكالٍ تقليدية موروثة ومتخلفة من علاقاتٍ ما قبل مدنية، من طائفية وقبلية وعشائرية وأيضاً اقليمية استبدادية لم يتم استبدالها بعد. وماتزال العلوم الحديثة، وأشكال التقدم التكنولوجي، وافدة، برّانية، مستوردة، ولم يتم إنتاجها محلياً، إضافةً لواقع التبعية الثقافية المرتبطة بآليات التبعية الاقتصادية والسياسية.

ولا ريب أن التقنية الحديثة، ونتاجها العلمي والعملي، شكلّت بطبيعتها مركز جذبٍ واستقطاب لقطاع من المتعلمين، الذين استغرقتهم تماماً معطيات الحداثة العلمية، دون أن يواكب ذلك مواجهة جادّة وفاعلة لأنماط العلاقات التقليدية المتخلفة. وفي ذلك عامل أساس من عوامل أزمة المتعلّم والمثقف بآن، والمرتبطة بأزمة المجتمع التقليدوي ومحافظته على هيكليته المتخلفة، ويتجلّى هذا العامل في محاصرة المتعلّم لنفسه في بوتقة العمل الوظيفي، أو التخصص في مجالٍ علمي محدّد، دون أن يتجاوزه إلى البحث في هموم المجتمع ومتطلباته الحضارية في جوانب الحياة المختلفة.

إن عملية المواءمة الخلاّقة بين ممارسة الجانب الوظيفي للعلم وتجلياته التقنية الحديثة، وتوظيف هذه الممارسة في الإطار المجتمعي العام، من جانب، والعمل على إحداث تحوّلات توفر استخدام التقدم العلمي لمصالح المجتمع ككل بوتائر عالية، على قاعدة امتلاك رؤيا شاملة لحالة حضارية في سياق السيرورة التاريخية، ماتزال هذه العملية جزئية في تحققها، لذلك فإن ثنائية الأداء العلمي والثقافي، تتطلب حلها في تجاوزٍ للافتراق القائم بين العلم الوافد والقاطن في زوايا التخصص كجزرٍ معزولة، وبين الجهل الذي ما يزال سائداً حول طبيعة دور المثقف في البلدان المتخلفة، مدعّماً بأذرعة التخلف الحضاري:

١ ـ من الصعب على الاقتراحات الايديولوجية أن تكون مجدية حين تبقى مجرّدة وبعيدة عن تحققاتها العملية، خاصة عندما يتحوّل الحديث سجالياً لتوجيه الاتهامات وتصفية الحساب، ولأن الحديث عن الثقافة وإشكالية المثقف غالباً ما يكون حديث المثقفين أنفسهم، ليختلط الموضوعي بالذاتي، ويتم التوجّه بعيداً عن تحديد المهام بشكلٍ أساسي[2].

إن الارتقاء بقطاع المتعلمين الى المواقع الاجتماعية، من شأنه أن يوفرّ لهم وللمجتمع امكانية الإسهام في تحقيق الانسجام والتكّامل لدور العلم والثقافة، في تأسيس ثوابت المشروع الحضاري العربي، وذلك على قاعدة امتلاك الوعي العميق بطبيعة ذلك الدور وآفاقه الاستراتيجية.

كذلك فإن تنفيذ هذه المهمة للانتلجنسيا العربية، يلعب دوراً ايجابياً في إيقاف حلقات السقوط التي تتوالى للمتعلمين، في شباك ومؤسسات الدولة الاقليمية، ورفدها بأشباه المثقفين، توظيفاً لهم لنسج الغطاء الايديولوجي لارادة القوة القمعية.

٢ وفي الإطار الأعمّ والأشمل، تبرز إشكالية الواقع القائم في كيفية النفاذ إلى الجسم الاجتماعي، واختراق

الأطر المنجدلة على محور التخلف، لأداء الدور في إحداث تحولات واسعة، تضم الكتلة التاريخية للأمة، بحيث يتم بناء القوّة المادّية القادرة على الانتقال ببرنامج عمل واضح للتاريخ إلى موقع **التحقق الفعلي**.
وفي هذا الصّدد يمكن أن نلاحظ:
ـ أن التحوّلات المجتمعية، أولاً، مرتبطة أساساً بتحوّلات منهجية في إطار العلم والثقافة، **وفي الموقف** من قضية التعليم في بلادنا. وتتبدّى في ضرورة تحويل العلم والتكنولوجيا من كونه وافداً برّانياً، **يتم التعامل معه بأسلوب التقليد والمحاكاة، إلى إعادة انتاجه محليا وفق عملية ابداعية يرتبط تحققها بضرورة احداث تحوّلات نوعية في مجمل العلاقات الاجتماعية والسياسية السائدة.**

ثانياً، لابدّ وأن تتزامن مع اتساع مساحة التفاعل الثقافي ديمغرافيا، بحيث تكفّ عن كونها مجرّد جزر معزولة، وبعيدة عن التمفصل العضوي اجتماعياً، وبالتالي فإن سبيل التحوّلات الاجتماعية، هو طريق التنمية الشاملة التي تفترض تلاحماً قومياً عربياً، بين مختلف الفعاليات التي تنشد التغير الجذري لكامل البنى التقليدية السائدة.
ـ والتحوّلات المجتمعية تتطلب، الى جانب ذلك، اختراقاً من المثقف لحدود العزلة والمحاصرة الذاتية والموضوعية، انطلاقاً من الادراك العميق لطبيعة العلاقة الجدلية بين العام والخاص، **وامتلاك الوعي** النقدي لحقيقة الواقع وتجلياته الراهنة، وكذلك الأسس الناظمة لإحداث انقلابٍ معرفي **ثقافي واجتماعي** / سياسي في الحياة العربية برمّتها.

المثقف والنظام العربي:

بين حدّي ثنائية إقصاء السلطة السياسية، واعترافها تبعاً لموقف التساكن أو التصارع، يقف المثقف العربي محكوماً بمجموعة من العوامل والأوضاع التي حدّدت طبيعة النظام العربي كبناءٍ اجتماعي، سياسي، اقتصادي[٣].
إن الحديث عن موقف هذا النظام من الثقافة والمثقفين يطول ويتشعّب، إلاّ أن ناظم العلاقة مرتبط أساساً بحقيقة موقع الدولة الاقليمية من المشروعية السياسية، وموقفها من الثورة القومية الديمقراطية ومهامها، ومن طبيعة علاقتها مع الجماهير وقواها، ومن دور المثقف الاجتماعي والسياسي.
فالحوار الفكري الحرّ والمفتوح، يفترض أساساً امتلاك الأطراف المتحاورة لمنظومات من المفاهيم والأفكار، التي تمتلك في مضامينها وأبعادها مشروعية ثقافية، في قدرتها على التعبير عن طموحات الجماهير وأهدافها التقدمية والإنسانية ويفترض الحوار حداً أدنى من نقاط الاتفاق أو بالأحرى أن يمتلك مفرداته ومقوّماته، وكذلك توافر المصداقية في العلاقة بين الفكر والممارسة. والنظام العربي، في طبيعته البنيوية وحصونه الإقليمية، يفتقد القدرة على أن يكون ممتلكاً لمقومات طرفٍ في الحوار، نظراً لافتقاده الخنادق الفكرية، واستبداله، لها بإرادة القوة، وبمجموعة من الأساليب والوسائل يحاول من

خلالها أن يستجمع حوله مجموعة من أشباه المثقفين، ليقوموا بأداء مشوّه للوظيفة الثقافية، وإضفاء شرعية مصطنعة بديلاً للشرعية المغيّبة تاريخياً.
ويتعيّن علينا، بدايةً، تحديد الخطوط الأساسية التي تشكلّ فيما بينها ناظم فعل القوى المضادة لحركة الثورة العربية، ومحور حركتها الأساسية:
١ ـ ليس جديداً أن نذكر، أن الخط الناظم للسياسة العربية الراهنة، يتمثّل في العمل على **تثبيت** الأوضاع الإقليمية السائدة في جميع مؤسسات الدولة القطرية الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والإدارية. وقد أصبح واضحاً أن التوجّه الإقليمي لمعظم النظم العربية، يمثّل قاسمها المشترك، في تجذيرٍ للبنى الإقليمية، وإعادة إنتاج مرتكزاتها بأشكالٍ متعددة، ورعاية جذورها التاريخية.
٢ ـ ما يرتبط بذلك، ويجعل فعله يسير باضطراد دائم، ما في واقعنا المجتمعي، من أمراض اجتماعية موروثة ومستوطنة، من طائفية وقبلية وعشائرية، تشكلّ بمجملها حاجزاً كثيفاً، أمام بناء علاقات مدنيّة حديثة، تتجاوز في تحققها حدود الآفاق الإقليمية تلك.
٣ ـ إن التحققات العلاقية للوضعية العربية الراهنة، في ظل تموضع القوى والفئات الاجتماعية **الممثلة** لها، تمثل التربة الخصبة والمناخ الملائم لاستمرار هيمنة الآلية الامبريالية، وتأثيرها الفاعل في **استمرار** التبعية بجوانبها المختلفة، في ظلّ تنامي قيم الاستهلاك، ومحدودية العملية الإنتاجية، **وفقاً لآليات** وبنيات التخلف الحضاري القائمة.
٤ ـ تحتلّ موضوعة التسوية الاستسلامية مع العدو الصهيوني، في حدودها وآفاقها، موقعا رافداً جديداً لضمان استمرار وتنامي مشروع الدولة التوراتية على الأرض العربية، حيث يكتسب **الخطر الصهيوني** أبعاداً جديدة، خاصةً وأن ميزان القوى المحلّي والدولي، وطبيعة التحركات السياسية **العربية النابذة** لخط التحرر والتحرير، تشكلّ قيداً كبيراً، وعقبة في طريق تطور الانتفاضة الوطنية العارمة، **داخل الأرض** العربية المحتلة.
٥ ـ ولم يعد موضع اختلاف، أن المحور الذي تنجدل عليه الأوضاع الداخلية المترديّة، مع التحديّات الخارجية، يتمثّل في الغياب التاريخي للحريات الديمقراطية، وتغييب الجماهير وقواها عن ساحة الفعل والتفاعل، وامتلاك زمام المبادرة لإعادة صياغة الأحداث وتطوراتها على السّاحة العربية.
٦ ـ ثمّة، نقطة هامة، وهي أنه ما من نهضةٍ حدثت في التاريخ الإنساني، إلاّ وتقدمّها فكر واضح لنهضةٍ ثقافية واسعة، وأن دور الانتلجنسيا كقوّة اجتماعية، يصبح أكثر فعالية ومضاء، حين تمتلك سلاح الفكر والوعي النقدي لتحديد المهام بوضوح أكثر ودقةٍ أكبر. ولكنّ التحليل السياسي يبقى محورياً[٤]، لا في الإشارة إلى الموقع الحقيقي الذي يجب على الانتلجنسيا أن تتخذه، وحسب، وانما في المساعدة على ايضاح مقوّمات النهضة الثقافية ومحدّداتها بآن، فليس هناك من فصلٍ بين الفكر وهويته، أو بالأحرى لغته الخاصة، وكذلك وسطه الاجتماعي، وليس هناك من فصلٍ بين الهوية القومية لأمةٍ ما، وطبيعة النهضة التي تطمح لتحقيقها.
على أن ذلك لا يصادر، وانما يسهم بفعالية أكبر بولادة المثقف العالمي في بلدان **العالم الثالث**. فمن

الصعب أن يخضع الانتلجنسي الحقيقي لأشكال المماهاة أو التماهي في ثقافاتٍ غازية. ذلك لأن الغزو الثقافي يجد تحققه في اوساط اجتماعية، لا تتلامح لديها صورته الحقيقة، أو الاشكال التي يتخذها والأثواب التي يرتديها، إضافة إلى حالة الانفعال الطاغي التي تصاب بها تلك الاوساط، عند اتصالها بالثقافة الوافدة، لعدم امتلاكها سويّة ثقافية تمكنّها من استخدام سلاح النقد لما يصل اليها.

ويفترض في الانتلجنسيا، بحكم موقعها الاجتماعي، ورؤيتها الشمولية، ومنهج التفكير الواعي والمنظم لديها، أن ترتقي بالمثاقفة، إلى موقع التفاعل أو التواصل الثقافي، من خلال فعلٍ ثقافي يحقق التمثل والتجاوز بآنٍ واحد[٥]، وبالتالي فإن هذا الفعل لا يتجذّر إلاّ في إطار واقع اجتماعي/ سياسي تسوده علاقات مدنية ديمقراطية حديثة، تتجاوز أطر التخلف وبنياته الأساسية. وبذلك تتبيّن أهمية أن تستبطن الثقافة العربية فكراً سياسياً، قائماً على أسسٍ عقلانيةٍ وعلميةٍ واضحة.

إن تعقيل نظام التثاقف العالمي، والكشف عن محركاته الأساسية، وعقلنة التواصل الثقافي، وتنظيم الخيارات وفقاً لطبيعة المهام المرحلية والاستراتيجية لأمتنا، يؤدي إلى ضرورة تحديد المثقف العربي لموقفه ودوره من مجموعة من القضايا الأساسية، لعل أهمها:

أ - الإقليمية والمسألة القومية:

من الصعب أن نجد إشكالية معلّقة تتطلب اهتماماً وبحثاً في جذورها لم تبلغه بعد، كالإشكالية الإقليمية، باعتبارها إشكالية مركبة، ترتبط بها وتكوّن عناصرها الفاعلة في إطار جملة واحدة، مجموعة من الإشكالات المغايرة والمصادمة لحركة التطور التاريخي.

- فعلى صعيد الثقافة، يحتلّ الفكر الإقليمي موقعه محوراً ناظماً لطبيعة التفكير لدى فئاتٍ اجتماعية معينةٍ، تعبّر في توجهاتها ومصالحها على ضرورة المحافظة على الانكفاء الإقليمي، وبنيان الدولة القطرية، الذي يتخذ موقعه وسط الآلية العامة للامبريالية العالمية في المنطقة، وتبعية هذا البنيان للنظام الرأسمالي العالمي.

- وفي الجانب الاجتماعي: أضحى واضحاً ذلك التراكب أو التداخل ما دون المجتمعي، بين هذه الفئات،

ومجموعة التشكيلات مادون الوطنية أو المدنية، التي تجد تعبيرها في العلاقات الاثنية والطائفية والعشائرية حيث يشكل ذلك التراكب عناصر اللامعقول الاجتماعي للسيرورة التراجعية التي تحكم معظم الاقطار العربية، وما يدعم النسيج التركيبي ذلك، ان مختلف الفعاليات الاقتصادية والمؤسسات والمشروعات الانمائية، وكذلك العلاقات التجارية المحلية والعربية والدولية، تشكل البنية المادية للمدفوعية الاقليمية بما هي فعاليات تابعة في منطلقها ومستقرّها.

- وفي السياسة كما في الثقافة والاجتماع. نلاحظ أن الخطوط الناظمة لسياسة الدولة القطرية. تمثلّ بمجملها ذلك الاتجاه الثابت نحو غرس وتثبيت مرتكزات الدولة ومؤسساتها في صيغتها القائمة. حيث

يحكم هيكلتها إرادة القوّة القمعية، في إطار عمليةٍ تاريخية مستمرة، تهدف إلى تحويل «المشروعية القانونية العارضة والمؤقتة» التي اكتسبتها بعد الاستقلال الوطني للأقطار، إلى «مشروعية إقليمية دائمة»، في ظل «دولةٍ مستقلة»، و «ذات سيادة»!!

وما يقوم به هواة التسوية الاستسلامية على السّاحة الفلسطينية، من اجراءات سياسية، تهدف إلى اختزال القضية الفلسطينية، إلى مجرّد «إقامة دويلة» على جزءٍ من الوطن المستلب، ليس إلاّ تعبيراً عن حقيقة الواقع الإقليمي العربي و «استحقاقه السياسي»، في مواجهة القضايا الكبرى لأمتنا العربية. لذلك لا يمكن أن يكون مفاجئاً لأحد ذلك الموقف الاقليمي العربي المؤيد والدّاعم لمشروعات التسوية، التي تشترك فيما بينها في محاولة أقلمة القضية الفلسطينية، وتحويلها زيفاً وانحرافاً من قضية قومية محورية، إلى مجرّد قضية تقع خارج إطار الهموم الإقليمية لهذه الأنظمة.

ولعلّه من نافل القول ان الإشكالية الإقليمية ليست مجرّد حاصل جمع صفاتها وتجلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وحسب، وإنما هناك ما يجمعها متمثلاً بالرابطة التركيبية، التي تكوّن منها كلاً متكاملاً في منظومةٍ واحدة هي ذاتٌ أخرى.

وعلى صعيد المعادلة البديلة، منظومة المشروع الحضاري العربي، فإنّ الأزمة لا تكمن في الفكر القومي العربي، وحسب، ذلك أنها جزء من أزمة أعم وأشمل تمتدّ لتشمل واقع القوى الوطنية والقومية التقدمية، وكذلك الانتلجنسيا العربية، حول طبيعة مسؤولياتها في بلورة هذا الفكر وتداخلاته المتعددة، مع معطيات الفلسفة والعلوم الإنسانية الحديثة، حتى يتحوّل إلى سلطةٍ يجري من خلالها تأطير وتنظيم حاملها الاجتماعي، كقوة مادية قادرة على اختراق المنظومة الإقليمية، وتحقيق مهام الثورة القومية الديمقراطية. ولسنا هنا بصدد البحث في الطبيعة البنيوية للحزب السياسي العربي وتشوّهاته الراهنة، فلذلك مجاله الخاص به، أو مناقشة ما هو معروف من مواقف لأشباه المثقفين المتخندقين في المواقع المضادّة، ولكنّ الذي نودّ الإشارة إليه، يتمثل في عملية التشويه المستمرّة التي يتعرّض لها الفكر القومي التقدمي، حيث يتحوّل الفكر الوحدوي لدى قطاع واسع من المتعلّمين، إلى صيغة توفيقية عجيبة متطابقة والمنظار الإقليمي، ويبدو مفهوم الدولة القومية، وفقاً لذلك عباره عن مجرّد تراصفٍ كميّ للأقطار العربية، يتم في لحظة تصالحٍ سياسي بين الولاة الإقليميين. فليست الدولة القومية في النتيجة، إلاّ «دولة إقليمية كبرى» بمدى جغرافي وبشرى أوسع، يتم بناؤها في حضور واستمرار التخلف الحضاري السائد. وبذلك تنعدم المسافة بين الواقع وذاته، أو بينه وبين صورة المستقبل، لتنتفي إرادة التغيير، ويتم الرضوخ لمعطيات الأوضاع المجتمعية الراهنة.

إن عملية التمثلّ والتجاوز، لا تعني الانطلاق من المفهومات التقليدية التي تركّز على التعارض المصطنع بين المصالح القطرية والمصلحة القومية، فما هو جزئي متضمَّن بما هو كلّي، وليس العكس. إضافة إلى ان هذا التعارض مرتبط... ايديولوجياً وعملياً بفئاتٍ اجتماعية، ترى تحقق مصالحها الفئوية الضيقة، يتم عبر سيادة واستمرار الدولة الإقليمية.

إن حلَ المسألة القومية لا يتم بأية حال عبر اختزالها إلى مجرّد توحيد سياسي، وإن تضمّنته

أساساً، وانما هو انتقال نوعي إلى وضعية مجتمعية حضارية متقدّمة، تتموضع فيها الحقائق الجديدة بطريقة تفترض تحوّلاً شاملاً، وتغييراً لكامل البنى والعلاقات والأوضاع المجتمعية السائدة. لذلك فإن الانتقال من وضع التجزئة إلى حالة الوحدة، يفترض بناء الحامل الاجتماعي الرافض للايديولوجيا الإقليمية والتحريفية، ثقافياً وسياسياً وتنظيمياً، عبر امتلاك المنظار القومي الكاشف لجوانب الخلل والتردّي، فيما هو إقليمي وما هو مصاحبٌ له من تشكيلات ما دون مدنيّة، أو ما قبل قومية تقدمية.

ب ـ التباين الفكري والايديولوجي:

وفي مستوى آخر من النشاط الواعي المنظَّم تعتبر وحدة الفكر العربي المعاصر أو «بوتقة الانصهار الثقافي» مسألة في غاية الأهمية، ونستبق لنقول: إنها ليست في الأفق المنظور، فعلى طريق تحقيقها تتنوع المهام وتتشابك، اذ إنّ الإشكالات النظرية للخطاب الثقافي العربي التي يتم التعرّف عليها بالثنائيات المتعدّدة من مثال «الأصالة والمعاصرة، الإبداع والإتباع، الدين والعلمانية، الديمقراطية الليبرالية والاشتراكية، الشمولية والتعددية...» تتضمّن قدراً كبيراً من اختلاف وجهات النظر والمنطلقات الفلسفية. والفلسفة العربية المعاصرة عموماً لا تزال في بداياتها، والنقل والاستنساخ، وأشكال المماهاة الفكرية، سواء كانت في ثقافات وافدة، أو في التراث مأخوذاً بقضّه وقضيضه، تسيطر على قطاعٍ واسع من المثقفين بشرائحهم المتعددّة.

وتكاد تكون الشروط الموضوعية معدومة، فحركة التثاقف العربى محاصرة بقيود الواقع السياسى والاجتماعي. إذ إن معظم مسائل الإعلام المقروءة والمسموعة ماتزال محكومة بأقنية النظم وأجهزتها ومؤسساتها، كما إن عملية التواصل الثقافي مع نتاج الحضارات الإنسانية والمعطيات العلمية الحديثة، محكومة أيضاً بسيادة الغزو الثقافي، نتاج آلية التبعية الناظمة لمعظم العلاقات مع الغرب الامبريالي.

وسط ذلك كلّه، وغيره، مما يدخل في إطار الضغوطات الاجتماعية والسياسية، تبدو قضية بلورة المفاهيم والأفكار والمعتقدات، ومن ثم إعادة إنتاج الثقافة العربية المعاصرة، وتوظيفها بكيفية صحيحة مهمّة ملحّة، لأنه من شأنها أن تحقق تموضع القاعدة النظرية الثابتة لإحداث تحوّلات في العملية التربوية والسياسية التعليمية والبناء الثقافي، وفي خلق ضروبٍ من السلوك الإنساني، تنسجم وطبيعة التقدم العلمي والاجتماعي في العصر الحديث.

لا شكّ أن للتباين الفكري والايديولوجي أهميته في إخصاب الثقافة، وتوليد الأفكار الجديدة، ولكنه ليس هدفاً بحدّ ذاته، بمقدار ماهو أساس لتموضع أنساق معرفية وثقافية متعددة، ينبثق من تفاعلها ذلك الزخم الذي يسهم في تحقيق نقلةٍ نوعية من الحالة التخلفية، إلى ارتياد مواقع العلم، وامتلاك أسس الثقافة الحديثة. وهذا لا يتمّ بوتيرةٍ وأداءٍ سليمين إلّا إذا أدركنا طبيعة الوحدة الفكرية التي نقصدُ، بما هي مرحلة حضارية متقدمة، وباعتبارها وحدة جدلية قائمة على التعددية في إطار الكل

المتكامل، وهذا ما ينأى بها عن سياط التعصب الايديولوجي وعطالته الاستبدادية، ذلك لأنها وليدة التفاعل الخلّاق والمبدع، في ظلّ توفر المناخ الديمقراطي والحوار الفكري الحر والمفتوح الذي لم تتحقق شروطه الموضوعية بعدُ.

فالهوية الثقافية المتميّزة لأمةٍ ما، إنما تنمو وتتكامل وفقاً لدرجة تفاعل وتمازج روافدها العلمية والثقافية بروافد الفكر الإنساني الحديث والمتقدم، على قاعدة الجدل المتكافىء بين العام والخاص، ممّا يتطلّب معه جهوداً إبداعية، تتمثّل المعطى الفكري المجرّد، وحصيلة التجارب الإنسانية المكتسبة، وتتجاوزه في لحظة تقدم مضطرد نحو إنتاج الحداثة في مختلف جوانبها.

وفي المحصلة:

نلاحظ أن افتقاد المثقف للقوة المادية التي تمكنّه من تحويل الأفكار والمشروعات النظرية الى واقع حي ملموس في حياة المجتمع وعلاقاته، يفقده زمام المبادرة، وينأى به عن موقع المبادرة الفاعلة في عملية التقدم الاجتماعي.

لذلك فإن فك طوق الحصار المفروض تاريخياً على حركة المثقف العربي، يفترض التقدم لتحقيق مجموعة من المسائل الهامة:

١ ـ ضرورة العمل على إيجاد صيغة ملائمة، يتم من خلالها التنسيق بوتائر عالية، بين جهود الانتلجنسيا العربية، من أجل أن يتمحور نشاطها الفكري والثقافي حول القضايا الوطنية والقومية والتقدم الاجتماعي.

إن ذلك من شأنه أن يحوّل المثقفين إلى محور قوة مادية، قادرة على اختراق حدود الواقع وقيود النظم، في الإدراك العميق لطبيعة المرحلة، والمهام التي أضحت ضرورة تحقيقها تتعلق باستمرارية الوجود العربي.

٢ ـ ويكتسب هذا المحور قوّته، فيما يمكن استقطابه من فئات اجتماعية، ترى في الحلول النظرية الناجزة دليل عملٍ واضحٍ ومنظم، يؤدي إلى اكتساب النظري جدّيته، مما هو عملي، كبعدٍ ثانٍ من ابعاد مقاربة الواقع، والإسهام في تغييره.

٣ ـ وفي هذا الإطار، فإنه لا يمكن للنهج الإصلاحي، إلّا أن يكون سبيلاً لاستمرارية التراجع والارتداد. وتثبيت بنيان التخلف الحضاري، ويبقى، الاستبدال التاريخي لما هو قائم، الشعار الذي يمكن أن يستقطب الجهود، لتكثيف النضال القومي، في اتجاه نقلة نوعية حضارية شاملة.

٤ ـ لا ريب أن جذر عملية الاستبدال تلك، يبدأ في ضرورة ترقيم العدّ العكسي، باتجاه إنهاء مواقع العسف، ومحاصرة إرادة القوة، في إشاعة الحريات الديمقراطية انتزاعاً لها، وليس في التصالح مع المواقع المصادرة لها تاريخياً. فالتربة الحقيقية للديمقراطية، ليست في تلك المواقع، وما فيها مناقضٌ للمفهوم وحيثياته التاريخية.

٥ ـ ان السبيل لتحقيق التجاوز للعلاقة القائمة بين المثقف العربي والسّلطة السياسية وتنظيمها من قبل المثقف، يمكن أن تتم في التحديد النظري الواضح لجوانب المشروع النهضوي العربي وسبل تحقيقة، وبذلك يتمّ وضع معادلة العلاقة، طبقاً لموقف السلطة من المشروع، ومن الخط الثابت، والموقع الذي يتخندق فيه المثقف، وليس العكس. وبهذا تنتزع الانتلجنسيا العربية مشروعيتها الاجتماعية والتاريخية كقوّة اجتماعية، ترتسم أمامها مهام حضارية واستراتيجية غير محدّدة، بعلاقة ترسم حدودها سلطة محدودة بمرحلة زمنية معينة.

١٩/١/١٩٩٠

الهوامش:

١ ـ د. البيطار، نديم: المثقفون والثورة ـ منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ١٩٨٧ ص ١٠٧.

٢ ـ انظر: افاية، محمد نور الدين: المثقف والسّلطة: جدل الاقصاء والاعتراف مجلة الوحدة، العدد ١٠ ص ٧٦.

٣ ـ افّاية. محمد نور الدين: المثقف والسلطة؛ جدول الاقصاء والاعتراف المصدر السابق ص ٧٤.

٤ ـ انظر بهذا الصدد: علوش، ناجي: المثقف العربي والنضال القومي، ومن ثمّ تعقيب سعيد بنسعيد على البحث تحت عنوان: **النضال القومي والواجهة الثقافية** ـ مجلة الوحدة العدد ١٠ ص. ص ٦٠ ـ ٦٥

٥ ـ حول تحديد مفهوم الغزو الثقافي وكذلك الفعل الثقافي والمثاقفة، انظر شيخ الأرض، تيسير: الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي ـ **مجلة الوحدة** العدد ٦١/ ٦٢ (اكتوبر/ نوفمبر) ١٩٨٩ ص ١٢.

الرأي العام العربي ومستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني

فايز سارة*

عبر الرأي العام العربي، ومنذ بداية الصراع العربي ـ الصهيوني في فلسطين أواخر القرن التاسع عشر عن تبنيه للقضية الفلسطينية، ووقوفه إلى جانب الفلسطينيين العرب في صراعهم مع مشروع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، واتخذ الرأي العام العربي، مؤسساته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وفعالياته ورموزه الكثير من المواقف والمبادرات التي تصب في إطار المواجهة الشاملة للمشروع الصهيوني[1].

إن بدايات الصراع بين أوائل المستوطنين اليهود والفلاحين الفلسطينيين في ثمانينات القرن الماضي، مدت آثارها نحو المحيط العربي، فنقلت الصراع مع الصهيونية من بعده الفلسطيني إلى دول المحيط في سورية ولبنان والأردن ومصر، وبشكل ما إلى أقطار عربية أخرى، والتي مالبثت بفعل آلية تطور الصراع، أن وجدت نفسها منصهرة في بوتقته، وكان في عداد هذه الأقطار كل من العراق وشبه الجزيرة العربية، وأقطار عربية أخرى اسهمت في التطورات المختلفة للقضية قبل اندلاع حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

غير أن التطورات الأبرز في مواقف العرب ورأيهم العام من القضية، جاءت مع تنامي الصراع في

* كاتب وباحث من القطر العربي السوري.

جانبه العسكري، حيث ضغط الرأي العام العربي على الأنظمة العربية للدخول في حرب ١٩٤٨ لحسم الصراع مع المشروع الصهيوني، ولم تؤد هزيمة الجيوش العربية في الحرب إلى تراجع في الرأي العام العربي في موقفه المؤيد للقضية، بل انها دفعت نحو إحداث تبدلات بنيوية من طبيعة سياسية واقتصادية واجتماعية في العديد من الأقطار العربية لوضعها على قاعدة الصدام مع الكيان الصهيوني القائم على الجزء الأكبر من أرض فلسطين منذ عام ١٩٤٨.

وقد جاءت تطورات العقود الأربعة التالية من الصراع، ومافيها من حروب ومعارك بين العرب والكيان الصهيوني، لدفع الأقطار العربية فرادى وجماعة لدخول دائرة الصراع العربي ـ الصهيوني من أوسع الأبواب، والتعامل مع معطياته ومتطوراته في المجالات والمستويات كافة.

غير أن أبرز التطورات، حدثت بعد عام ١٩٦٧، وتمثلت في انقسام الموقف العربي إزاء القضية الفلسطينية ومستقبلها، فاتجهت الرسميات العربية نحو البحث في تسوية الصراع العربي ـ الصهيوني من خلال التعاطي مع المبادرات والمشاريع السياسية لحل الصراع أبرزها قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩ لعام ١٩٧٣، في حين حافظ الرأي العام العربي بمؤسساته وتعبيرات فعالياته على مواقفه الأساسية من القضية الفلسطينية ومستقبلها في رفضه لأشكال التسوية المطروحة ومشاريعها، والتأكيد على أن بديل هذا الموقف إنما يتمثل في استمرار النضال لتحقيق الأهداف الأساسية للشعب العربي الفلسطيني في العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على أرض فلسطين.

لقد جسدت هذه الحالة واقع انقسام قائم بين الدولة ـ السلطة في غالبية الأقطار العربية والرأي العام، بإقامة الانفصال بين اتجاهين في الموقف من القضية الفلسطينية وآفاق حلها، وهو انقسام أخذ يتكرس على امتداد الوطن العربي عامة بعد أن بدأ في مصر بداية السبعينات.

وحيث ان الموقف الرسمي العربي من القضية الفلسطينية، ومستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني، يقع خارج اهتمام دراستنا هذه فإننا سنقتصر على تناول الرأي العام العربي وموقفه من القضية الفلسطينية ومستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني.

إن عرض وتحليل موقف الرأي العام العربي نحو القضية ومستقبل الصراع، أمر هام بسبب مايؤشره من احتمالات مستقبلية تتعلق بالصراع وإدارته، خاصة عندما، يتم تناول موقف القوى الفاعلة في أوساط الرأي العام العربي، والتي اخترنا أبرزها وأهمها في دراستنا.

فالأحزاب والمنظمات السياسية، وبالرغم من محدودية فعاليتها (راهنا) في الحياة السياسية العربية، وفي التعامل مع قضاياها ولاسيما قضية فلسطين، فإن هذه المؤسسات أكثر بنى الرأي العام العربي تنظيماً ووعياً، وهي تضم ملايين الكادرات والأعضاء الأكثر استعداداً للقيام بمهمام من طبيعة سياسية متميزة، وإضافة إلى ذلك كله، فهي المؤسسات التي تملك رؤية شمولية راهنة ومستقبلية للواقع العربي بمستوياته، وهي معنية بصورة رئيسية بمستقبل الصراع وتأثيراته على برامجها وخططها السياسية والإقتصادية والإجتماعية.

وينطبق ماتقدم، بصورة ما، على التنظيمات الإجتماعية والمهنية في مواقفها إزاء قضية فلسطين،

ومستقبل الصراع، ذلك أن الأخيرة كالأولى، تضم ملايين الأعضاء والكادرات إضافة لامتلاكها أجهزة ومؤسسات ذات أهمية في التعامل مع المهام السياسية والإقتصادية والإجتماعية الموضوعة في خططها واستراتيجياتها.

وانتقالاً من المؤسسات إلى القطاعات، نتناول المثقفين العرب في مواقعهم إزاء موضوعنا، ولموقفهم أهمية لاتخفى من حيث تعبيرهم عن طموحات واهتمامات الرأي العام، ثم قيامهم بترجمتها إلى لغة الحياة عبر نتاجات فكرية وثقافية وإبداعية، تسهم في تطور وعي وفهم الرأي العام، ومنه كانت أهمية استعراض موقفهم نحو القضية ومستقبل الصراع.

وحيث ان الموضوع المطروح يتعلق بالمستقبل، فإن عرض موقف الشبيبة المثقفة منه يحتل أهمية استثنائية، ذلك أن هذا القطاع، سيكون في طليعة القوى التي تتعامل مع مستقبل الصراع بمستوياته، وهي التي ستحمل بشكل مباشر النتائج المترتبة على خياراتها بتعامل مع مستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني.

واستكمالاً لاختياراتنا من أوساط الرأي العام العربي، نعرض ونحلل مواقف الرأي العام الفلسطيني تجاه القضية ومستقبل الصراع، وخيارنا لايعتمد (أصلاً) على أن هذه القضية هي «قضية فلسطينية»، بمقدار مايتصل بكون الفلسطينيين (وبخاصة سكان الضفة والقطاع) على تماس مباشر مع الكيان الصهيوني بمؤسساته ومستوطنيه، وهم الذين يقومون بعبء الصدام الميداني والمستمر مع الإحتلال وعليه فإن هناك أهمية بارزة لموقفهم إزاء تطور القضية ومستقبل الصراع.

وبعد ذلك، نجمل خلاصات دراستنا في خاتمة تلخص موقف الرأي العام العربي بمؤسساته وقطاعاته الأساسية من قضية فلسطين ومستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني.

أولاً: الاتجاه العام لموقف الرأي العام العربي:

ولدينا نتائج استطلاع للرأي العام العربي نحو القضية الفلسطينية ومستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني، اشترك فيه عرب من عشرة أقطار عربية، تمتد مابين مشرق الوطن العربي ومغربه، وهي أقطار تتفاوت في موقعها من خط التماس في الصراع مع الكيان الصهيوني، ومن تأثرها بنتائج هذا الصراع بشكله المباشر[٢].

وتشير نتائج هذا الاستطلاع إلى أن (٨٨,٦) بالمائة من المشاركين فيه، يعتبرون القضية الفلسطينية «تهمهم شخصياً» وأشار (٨٩,٨) بالمائة من المشاركين إلى أن في الموضوع ما هو أبعد من كونه موضوعاً شخصياً، فاعتبروا أن القضية الفلسطينية، تمس وطنهم أو دولتهم القطرية بشكل مباشر، وأضاف إلى هذا (٩٤,٢) بالمائة من المشاركين في الاستطلاع بُعداً جديداً، حيث ربطوا بين القضية الفسلطينية والوحدة العربية[٣].

وتشير النتائج السابقة إلى أن للقضية الفلسطينية ثلاثة أبعاد في ذهنية الرأي العام العربي، وهو أمر

يترك انعكاسات هامة على موقف الرأي العام من مستقبل الصراع، والأبعاد الثلاثة هي:

* إن قضية فلسطين هي قضية شخصية للأغلبية العربية، وبالتالي فإن مستقبلها ذو أثر شخصي على حياة الأغلبية العربية.

* وقضية فلسطين أيضاً هي قضية وطنية (قطرية) للأغلبية العربية، وهي قوة تأثير في إجمالي التطور الوطني لكل قطر عربي.

* وفي الوقت ذاته فإن القضية الفلسطينية هي قضية قومية، تهم العرب جميعاً في كل أقطارهم، وهي ذات تماس مباشر بالتطور العام للوطن العربي ومستقبله.

والأبعاد الثلاثة للقضية الفلسطينية، كما تطرحها نتائج «استطلاع الرأي» في ذهنية الأغلبية العربية، إنما توضح بشكل جلي خطورة القضية وأهميتها، وفي جانب آخر إنما تعكس هذه الأبعاد اهتمام الرأي العام العربي بمآل الصراع العربي ـ الصهيوني، وتطوراته المستقبلية، وهو أمر تناوله استطلاع الرأي الذي نحن بصدده.

وبموجب نتائج هذا الاستطلاع، فإن المشاركين فيه، كانوا موزعين على ثلاثة اتجاهات أساسية(٤):

* الأول، ويمثل أقلية ضئيلة لاتزيد عن (٣,٨) بالمائة من المشاركين وهؤلاء مع أية تسوية «سلمية مع اسرائيل بأية شروط» كانت.

* والثاني، والمنتمون إليه مع «تسوية سلمية» مشروطة، حيث أيد (٢٢,٦) بالمائة تسوية سلمية على أساس القرار ٢٤٢ والذي يعني انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ مقابل «الاعتراف» بالكيان الصهيوني، ويزيد على نسبة هؤلاء قليلاً من يؤيدون «تسوية سلمية» تتضمن إنشاء دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، وتصل نسبة هؤلاء إلى (٢٧,٥) بالمائة من المشاركين في الاستطلاع دون الإشارة إلى موضوع «الإعتراف» بالكيان الصهيوني.

* والاتجاه الثالث، وتمثله نسبة تزيد عن (٤٢) بالمائة من المشاركين. ويقول هؤلاء بتصفية الكيان الصهيوني، ومن هؤلاء (٢٢,٥) بالمائة، أيدوا أن تواصل الأقطار العربية استعدادها لهزيمة اسرائيل، وخلق دولة علمانية ديمقراطية، يعيش فيها العرب واليهود على أرض فلسطين، وقال (١٩,٧) بالمائة من المشاركين: إنهم مع «أن تواصل الأقطار العربية الاستعداد لهزيمة اسرائيل، وتصفية الوجود الصهيوني تماماً».

وطبقاً لمعطيات وأرقام الاستطلاع الذي شارك فيه (٥٠٩٩) شخصاً موزعين على عشرة أقطار عربية، فإن النتيجة العامة، تقول بأن الصراع العربي ـ الصهيوني لن يجد له حلاً في المدى المنظور ذلك أن هناك قطاعاً عريضاً من الرأي العام العربي، يعارض وجود الكيان الصهيوني، ويصر على الاستعداد لالحاق الهزيمة العسكرية به وتصفيته، وإضافة إلى هؤلاء، فإن الموافقين على «تسوية سلمية»، يربطون هذه «التسوية» بشروط الاستجابة لأهداف عربية حدها الأدنى الانسحاب من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وهو أمر يرفضه الكيان الصهيوني، ويصر على رفضه في كل الأحوال، مما يجعل الأمر في هذا الجانب متشابه مع الجانب الأول من حيث استحالة التوصل الى «تسوية» للصراع العربي ـ الصهيوني في

المدى المنظور، وبهذا المعنى فإن الصراع مستمر بأشكاله المختلفة، وعلى الجبهات كافة.

غير أن أهم أساليب خوض الصراع مع الكيان الصهيوني حسب مايراه المشاركون في الاستطلاع، يتجسد في خوض الصراع المسلح ضده، وهذا ماأيده (٧٦,٢) بالمائة من المشاركين حيث قال (٣٨,١) بالمائة من مجموع أفراد العينة البالغ (٤٧١٧)، إن الطريق لحل القضية الفلسطينية هو العمل العسكري، وقال (٢٥,٥) بالمائة، إن الطريق الموصل لحل القضية الفلسطينية هو القيام بحرب تحرير شعبية ضد «اسرائيل»، وأعلن (١٢,٦) بالمائة عن تأييدهم لاستخدام القوة العسكرية المنظمة ضد «اسرائيل»(٥).

ثانياً: الأحزاب والمنظمات السياسية ومستقبل الصراع:

وانتقالاً من عمومية موقف الرأي العام العربي إزاء الصراع العربي ـ الصهيوني ومستقبله، نشير إلى أن الأحزاب والمنظمات السياسية العربية، وهي أهم مؤسسات الرأي العام العربي وأهم تعبيراته، وقفت باتجاهاتها الأساسية إلى جانب القضية الفلسطينية، ومع نضال الشعب العربي الفلسطيني من أجل حقوقه الوطنية الثابتة، ونضيف إلى ذلك أن بعضاً من الأحزاب والتنظيمات السياسية انخرط ـ وبعضها ومايزال ـ بحماس في النضال من أجل فلسطين، وأن بعضاً آخر من الأحزاب والتنظيمات تشكل أصلاً على قاعدة القضية الفلسطينية وتطوراتها(٦).

وقد تبنت غالبية الأحزاب والتنظيمات السياسية حلاً للصراع العربي الصهيوني، يقوم على أساس الحاق الهزيمة العسكرية بالمشروع الصهيوني قبل ولادة الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ ولم يبتعد عن هذا الخط سوى تنظيمات وأحزاب سياسية قليلة، وذلك بعيد صدور قرار الأمم المتحدة ١٨١ لعام ١٩٤٧، القاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين «دولة عربية» و«دولة يهودية»، وهو القرار الذي أرتأت بعض هذه الأحزاب، إنه يصلح كأساس لحل الصراع العربي ـ الصهيوني.

وعدا الظروف المحلية والإقليمية والدولية، فإن تطورات الصراع ومجرياته، لم تساعد في إقرار «الخط السلامي» المعبر عنه في قرارات الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧، إضافة إلى أن التنظيمات التي أيدته، لم تكن قوية وفعالة في الحياة السياسية العربية، وموقفها في التعامل مع الصراع العربي ـ الصهيوني، والذي بقي قائماً على قاعدة «الحسم العسكري» بالرغم من النتائج المترتبة على حرب ١٩٤٨، ولاسيما الجانب العسكري.

حافظت الأحزاب السياسية العربي على ذات الموقف من أفق الصراع وشكل حله في عقدي الخمسينات والستينات، بل يمكن القول ان هذا الموقف كثيرا ماكان السارية التي تشد إليها الدعاية السياسية لهذه الأحزاب في سورية في الخمسينات، وفي الأردن ولبنان ومصر في الستينات، حيث كان موقف أي حزب من الصراع العربي ـ الصهيوني، يؤثر على قوته سلباً وإيجاباً، وهو أمر استمر بشكل عام حتى هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧، التي حملت معها متغيرات في موقف الأحزاب والتنظيمات السياسية العربية إزاء الصراع العربي ـ الصهيوني ومستقبله، وأهمها:

* بروز ميل «سلامي» لدى بعض الأنظمة العربية التي تحكمها أحزاب وتنظيمات سياسية، تتبنى مبدئياً خط الصراع المسلح مع الكيان الصهيوني، مما أدى الى بروز تناقضات بين اتجاه الحزب وموقفه، والنظام السياسي الذي «يقوده» الحزب.

* حدوث تبدل في مواقف الأحزاب والتنظيمات الشيوعية العربية، إذ إنه إضافة الى غياب وتغييب قرار ١٨١ لعام ١٩٤٧ المعروف بقرار التقسيم باعتباره أساساً لحل الصراع، فإن عدداً من الأحزاب والتنظيمات الشيوعية العربية، وانسجاماً مع الهبة الشعبية لحل الصراع بالكفاح المسلح، والحرب الشعبية، تبنت خط التصفية الكاملة للكيان الصهيوني، وبعضها شارك في تنظيم قوات الأنصار الشيوعية للمساهمة إلى جانب منظمات المقاومة الفلسطينية في كفاحها ضد العدو.

* غير أن التطور الأبرز والأهم في موقف الأحزاب والتنظيمات السياسية العربية باتجاهاتها القطرية والقومية الدينية والماركسية، فصار أغلبها يتبنى المواقف التي تتخذها منظمة التحرير الفلسطينية من الصراع العربي - الصهيوني وآفاق حله، وهو أمر ترسخ في السبعينات واتسع مداه في الثمانينات بعد أن حازت المنظمة على اعتراف واسع (عربياً ودولياً) باعتبارها «ممثلاً شرعياً وحيداً» للشعب الفلسطيني. وبذلك صارت مواقف أحزاب وتنظيمات سياسية عربية كثيرة محكومة بمواقف المنظمة.

واستناداً إلى هذا التطور، وعلى ضوء المسيرة «السلامية»، التي بدأتها المنظمة وبخاصة بعد حرب لبنان عام ١٩٨٢، يمكن القول أن غالبية الأحزاب والتنظيمات السياسية، تؤيد التحركات والمبادرات السياسية للمنظمة والمتجهة نحو «التسوية».

* وخلافاً للاتجاه العام السابق في موقف الأحزاب السياسية العربية من الصراع العربي - الصهيوني ومستقبله فإن هناك أحزاباً وتنظيمات سياسية عربية ومن اتجاهات ايديولوجية وسياسية مختلفة، تمتد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، أظهرت معارضة للاتجاهات «السلامية» العربية والفلسطينية، وبعض هذه التنظيمات والأحزاب - كما في النموذج اللبناني -، يعمل على استمرار الاشتباك المسلح مع العدو الصهيوني على قاعدة تصعيد المواجهة إلى حد هزيمة الكيان وتصفيته النهائية، مع تأكيد قاطع على رفض التسويات السياسية للصراع العربي - الصهيوني[7].

ثالثاً: المنظمات الاجتماعية والمهنية ومستقبل الصراع:

وتتشابه مواقف المنظمات الإجتماعية والمهنية العربية من القضية الفلسطينية وتطوراتها على نحو عام مع مواقف الأحزاب والتنظيمات السياسية العربية، بما في ذلك الموقف من مستقبل الصراع.

وعودة إلى الأساس، فإن المنظمات الإجتماعية والمهنية وهي تنظيمات شعبية - مهنية، فيها منظمات واتحادات عمالية وفلاحية، نسائية وشبابية، إضافة إلى اتحادات ونقابات مهنية للكتاب والصحفيين والأطباء والصيادلة والمهندسين والمحامين، وفعاليات أخرى وهذه المنظمات وعلى مستوياتها القطرية والعربية، اتخذت مواقف مؤيدة للقضية الفلسطينية، ووضعتها في صلب مهامها السياسية وتحركاتها واتصالاتها على

الصعد الدولية.

وأيدت المنظمات الإجتماعية والمهنية العربية نضال الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها «ممثلاً شرعياً ووحيداً» من أجل الأهداف الوطنية في العودة وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة فوق التراب الفلسطيني، وتبنت هذه المنظمات المواقف المعلنة لمنظمة التحرير الفلسطينية في المراحل المختلفة على نحو عام[8].

إن أبرز المنظمات الإجتماعية والمهنية العربية هو اتحاد العمال العرب، ويضم هذا الاتحاد المؤسس عام ١٩٥٦ في عضويته معظم الاتحادات العمالية والنقابية في الأقطار العربية، والتي يزيد عدد المنضوين في إطارها عن مليوني عامل وشغيل، وقد حدد الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب موقفه من القضية الفلسطينية ومستقبل الصراع العربي - الصهيوني على أساس استعادة الحقوق الكاملة للفلسطينيين، بما يعنيه ذلك من حق العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة الديمقراطية على كامل التراب الفلسطيني، والاتحاد في ذلك يتبنى خط الكفاح المسلح لتصفية الكيان العنصري الصهيوني، وهذا مايؤكده الاتحاد في مواقفه ومقررات مؤتمراته، ومجلته «العمال العرب».

ويضيف الاتحاد الى ذلك اعلانه «رفض جميع المشاريع السياسية الهادفة إلى تصفية القضية الفلسطينية بدءاً من قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧، وانتهاء بكافة القرارات المنفذة له»، وبطبيعة الحال، فإن الاتحاد يرفض الاتجاهات «السلامية» العربية والفلسطينية المطروحة لحل القضية الفلسطينية، وهذا ما أكده بيان الأمانة العامة للاتحاد في الذكرى الأربعين لـ«النكبة واغتصاب فلسطين» والمؤرخ في ١٥/٥/١٩٨٨[9].

إن موقف الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، مثال لمواقف المنظمات الاجتماعية والمهنية العربية المتخذة موقفاً جذرياً من الصراع العربي - الصهيوني لجهة التأييد التام للنضال الفلسطيني، والإصرار على تصفية الكيان الصهيوني بالقوة المسلحة، وعلى أرضية هذا الموقف تأتي غالبية مواقف المنظمات الإجتماعية والمهنية العربية، والقلة الباقية منها تميل نحو خط «سلامي» عربي تجسّده التوجهات الرسمية وكذلك مواقف منظمة التحرير الفلسطينية في السنوات الأخيرة.

رابعاً: المثقفون العرب ومستقبل الصراع:

والمثقفون العرب اتخذوا مواقف التأييد والدعم للقضية الفلسطينية ونضال الشعب الفلسطيني من أجل حقوقه الوطنية الثابتة، وعكسوا هذا الموقف في نتاجاتهم الفكرية والإبداعية وفي صلاتهم مع أوساط الرأي العام بمستوياته القطرية والعربية والدولية كما اسهموا في كشف جوانب القضية الفلسطينية، وتعرية الممارسات والسياسات والايديولوجية العنصرية للصهيونية وكيانها، وعملوا على تعزيز النضال العربي ضد الصهيونية وكيانها.

وخلافاً لموقف أقلية من المثقفين العرب وقفت إلى جانب المبادرات «السلامية»، فإن الغالبية الكبرى

من المثقفين العرب، وباتجاهاتهم الفكرية والسياسية، اتخذوا مواقف جذرية في رؤيتهم لمستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني، وآفاق حله.

وتشير دراسة، تم القيام بها مؤخراً لآراء وشهادات قدمها كتاب ومفكرون ومثقفون في موضوع الصراع العربي ـ الصهيوني ومستقبله، إلى أن مواقف هؤلاء تندرج في ثلاثة محاور أساسية هي[١٠]:

* مثقفو التيار القومي، وهؤلاء يرون ـ بشكل عام ـ ان الصراع مع العدو الصهيوني له ثلاثة أبعاد أساسية: بعد وطني ـ فلسطيني، وبعد قومي ـ عربي، إضافة إلى بعده العالمي ووصفوه بـ «صراع محتوم، لايقبل بتسوية أو حل وسط» واستناداً لما تقدم، فإن الحل النهائي للصراع، يتمثل في «تدمير الدولة الصهيونية وكيانها العنصري» وإقامة الدولة الفلسطينية على انقاضه، والطريق لهذا الحل، يتجسد في التدخل العسكري بمستوياته المتعددة بين حرب الاستنزاف إلى الحرب الشعبية، ثم إلى الحرب النظامية الكاملة[١١].

* مثقفو التيار الماركسي، ويجمع هؤلاء على اعتبار أن الصراع العربي ـ الصهيوني في محصلته العامة، صراع بين معسكر الثورة العالمية، ومعسكر الثورة المضادة وقواهما المحلية والإقليمية، ولهذا يتخذ الصراع طابعاً حتمياً، مآله «تصفية الكيان الصهيوني» بوصفه كياناً استعمارياً استيطانياً، وهذا يعني الرفض لأي «حل وسط نهائي» للصراع، ونفياً لامكانية التعايش مع الكيان.

ويشير مثقفو التيار الماركسي إلى أن الحل العسكري هو المدخل الأساسي لتصفية الكيان الصهيوني، وإقامة الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين مكانه، وفي الطريق نحو هذا الهدف، تبنى بعضهم شعار «إقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع» كخطوة مرحلية[١٢].

*أما مثقفو التيار الإسلامي، فيرون في الصراع العربي ـ الصهيوني صراعاً يتخذ طابعاً «دينياً ـ حضارياً» هو «صراع حياة أو موت»، يتجسد في قطبين، أولهما المسلمون والعرب، والثاني هم الصهاينة وحلفاؤهم، ويحدد هؤلاء طريق حسم الصراع بالقوة المسلحة، عبر شكلي الحرب، الحرب الشعبية والحرب النظامية لانجاز الهدف الأساسي في تحرير كامل التراب الفلسطيني ويعني ذلك بالضرورة تصفية الكيان الصهيوني[١٣].

وكما لاحظنا، فإن ممثلي التيارات الثلاثة في أوساط المثقفين العرب، إنما يشتركون في رؤية مستقبلية عامة للصراع العربي ـ الصهيوني خلاصتها، إن هذا الصراع سوف يستمر في المدى المنظور، وينبغي أن يستمر على قاعدة استعادة فلسطين، وتحطيم الكيان الصهيوني وتصفيته، وأن الطريق الوحيد لتحقيق ذلك إنما يتم بخوض الكفاح المسلح بأشكاله المتعددة ضد الكيان الذي يرفض أغلب المثقفين العرب الاعتراف به أو التوصل معه إلى اتفاقيات «سلامية»[١٤].

خامساً: الشبيبة العربية ومستقبل الصراع

وانطلاقاً من اعتبار أن للصراع العربي ـ الصهيوني بعداً مستقبلياً، فمن الأهمية بمكان تلمس موقف

الشبيبة العربية من هذا الصراع، ولا سيما وأن على هؤلاء إنما يقع عبء خوض الصراع، والتعامل مع القضية الفلسطينية وتطوراتها، ويزداد أهمية إذا كانت الفئات التي تم استطلاع آرائها من الشبيبة المثقفة.

لقد تم استطلاع آراء عينة من الشباب العربي المثقف في بعض جوانب الصراع العربي ـ الصهيوني، وأفادت أكثرية المشاركين بأن أسباب التخلف العربي ناتجة عن «وجود اسرائيل في قلب الوطن العربي»، وقال (٩٣) بالمائة من المشاركين أن «الأنظمة العربية» مسؤولة عن ضياع فلسطين[١٥].

وفصلت أغلبية المشاركين في الاستطلاع الشبابي بين الصهيونية واليهودية، فميز (٧٣) بالمائة بين الصهيونية باعتبارها «ايدلوجية عنصرية فاشية» واليهودية باعتبارها ديناً، وهذا يشير إلى وعي متميز ومتقدم في أوساط الشبيبة العربية، وتفهم أدق لطبيعة الصراع بإبعاده عن أي محتوى ديني. وقد أضاف المشاركون بعداً آخر لهذا الوعي، بإعلان (٩١) بالمائة رفضهم لشعار «رمي اليهود في البحر»، وهو شعار حاولت أوساط معينة تعميمه في الواقع العربي، واستغلته الدعاية الصهيونية والامبريالية العالمية أبشع استغلال[١٦].

وإذا كانت المؤشرات السابقة، تشير إلى فهم عقلاني وموضوعي أكثر لفهم طبيعة الصراع العربي ـ الصهيوني، فإن ذلك لايخفف من الطبيعة الصلبة للموقف العربي الذي يتخذه الشباب العربي المثقف من الكيان الصهيوني ومستقبل الصراع معه، الأمر الذي يشير إلى أن مواقفهم ناتجة عن دراسة معمقة ومتفهمة للواقع ومعطياته المختلفة، وهذا ماجعل أكثرية المشتركين تعلن رفضها لاتجاهات التسوية والصلح مع الكيان الصهيوني.

لقد رفض (٩٠) بالمائة من أفراد العينة خطوات السلام المنفرد على النحو الذي جسدته مبادرة الرئيس المصري أنور السادات عام ١٩٧٧، وقال (٨٩) بالمائة من العينة، إنهم يرفضون «إقامة صلح مع اسرائيل»، مما يعني أنهم يرفضون التسويات على نحو عام، ويؤيدون مبدأ استمرار الاشتباك المسلح مع العدو على قاعدة الحاق الهزيمة بالكيان الصهيوني وتدميره لصالح إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية مكانه[١٧].

سادساً: الفلسطينيون ومستقبل الصراع:

ويعبر الفلسطينيون بشكل واضح ـ وهم رأس حربة الصراع العربي الصهيوني ـ عن إجمالي موقف الرأي العام العربي من مستقبل الصراع، حيث تظهر في أوساطهم سواء داخل الأرض المحتلة (مناطق ١٩٦٧ ومناطق ١٩٤٨)، أو في خارج الأرض المحتلة في المحيط العربي روح مقاومة الكيان الصهيوني والنضال ضده، وهذه قضية لاتحتاج إلى قرائن على نحو عام.

ولايخفف من الحكم العام السابق، أن هناك اتجاهات «سلامية» لدى أوساط القيادة في منظمة التحرير الفلسطينية، بل وفي عدد من المنظمات والقوى السياسية الفلسطينية، حيث ان معظم المنظمات والقوى السياسية والعسكرية، بما في ذلك المنضوية في إطار منظمة التحرير، تمتلك برامج وأنظمة داخلية،

إضافة إلى أجهزة دعاوية وايديولوجية، تعمل جميعاً في اتجاه تعبئة الرأي العام نحو استمرار الصراع، بل وحسمه بالقوة لصالح الفلسطينيين، وأكثر من ذلك فإن المنظمات الإجتماعية والمهنية الفلسطينية كاتحادات المرأة والطلبة والعمال والكتاب والصحفيين وغيرها، ماتزال في بناها التحتية معبأة على أرضية استمرار الاشتباك المسلح مع العدو الصهيوني، ولايغير في ذلك كثيراً مايبدو من توجهات «سلامية» لدى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وقيادات التنظيمات المنضوية في اطارها وكذلك في بعض الأوساط القيادية من المنظمات الإجتماعية والمهنية الفلسطينية.

إن الانتفاضة الفلسطينية الباسلة في الضفة والقطاع وماصاحبها من تطورات في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨، ربما كانت خير تعبير عن اتجاه الرأي العام الفلسطيني، ولاسيما في مواقع الصدام والصراع الأساسي والمباشر مع نظام الاستيطان الصهيوني ومؤسساته الممثلة فاشية وعنصرية والتي برغم كل القوة والجبروت، لم تتمكن من تطويع واخضاع الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال، والذين ينهضون وأطفالهم من أجل حقوقهم الوطنية المشروعة في الاستقلال وحق تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية.

إن نتائج استطلاعات للرأي تم القيام بها داخل الأرض المحتلة، توضح على نحو جلي ومكثف حقيقة الموقف الفلسطيني من الصراع العربي ـ الصهيوني ومآله، وهو الموقف الذي يجد تجسيدات عملية في الانتفاضة الفلسطينية الباسلة وتطوراتها.

إذ رفضت غالبية المشاركين في استطلاع للرأي عام ١٩٨٦ في الضفة والقطاع [١٨] الموافقة على قرار ٢٤٢ لعام ١٩٦٧، وبلغت نسبة هؤلاء (٩٧) بالمائة، منهم (٥٦،٨) بالمائة، لأنه «لايعترف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير»، و (٣٣،٤) بالمائة لأنه «ليس ملائماً لحل القضية الفلسطينية»، و (٦،٨) بالمائة، لأنه يعترف باسرائيل»[١٩].

وتؤيد الأغلبية الفلسطينية استمرار الاشتباك المسلح مع العدو الصهيوني، حيث يرى (٧٨،٤) بالمائة من المشاركين، أن هناك «مبرراً» لاستخدام القوة المسلحة من أجل استمرار القضية الفلسطينية»، ذلك أن (٧٣) بالمائة، أكدوا أنه ليست هناك «فرصة» «للسلام» وللحل العادل «للقضية الفلسطينية»، التي تحتاج إلى اجراءات فعالة «من أجل حلها»، وأبرز الاجراءات الفعالة «هي الكفاح المسلح» وهو ماقال به (٦٠،٧) بالمائة من المشاركين في الاستطلاع، ثم «الصمود» في وجه الاحتلال، والذي قال به (٢،٢) بالمائة من المشاركين[٢٠].

ان «الحل المثالي الدائم للقضية الفلسطينية» حسب ماأكدته غالبية المشاركين في الاستطلاع (٧٧،٩) بالمائة، يتمثل في «إقامة دولة ديمقراطية على كل أرض فلسطين، وأقل من ربع هؤلاء (١٦،٩) بالمائة، قالوا: إن إقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، يمثل «الحل المثالي الدائم للقضية الفلسطينية»[٢١].

وفي الطريق لتحقيق «الحل المثالي الدائم للقضية»، فقد أكد (٤٩،٧) بالمائة من المشاركين في الاستطلاع، ان الحل «المثالي المرحلي للقضية» يكون في «إقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع». بينما قال آخرون، تبلغ نسبتهم (٤٣،٢) بالمائة، أنه ينبغي «متابعة النضال لاقامة دولة فلسطينية ديمقراطية

على كامل أرض فلسطين»[٢٢].

ولدينا نتائج استطلاع تم القيام به بعد نحو عام على انطلاقة انتفاضة كانون الأول /ديسمبر/ ١٩٨٧ الفلسطينية، ومارافقتها من تطورات في الاتجاه «السلامي»، وتحمل هذه النتائج الكثير من المعاني ومنها:

* إن أغلبية المشاركين في الاستطلاع (أكثر من ٨٥ بالمائة) قالوا ان الفصائل الفلسطينية المسلحة تعبر عن طموحاتهم، وقد جاءت التنظيمات الأساسية على التوالي: حركة «فتح»، ثم الجبهة الشعبية، ثم القيادة العامة، والجبهة الديمقراطية، ثم فتح ـ الانتفاضة»، وكانت نسب هذه التنظيمات من الإجابات على التوالي (٢٨،٥) و(٢٥،٥) وثم (٨) و(٦) و(٥،٥) بالمائة[٢٣].

* وتوضح النتائج السابقة، أن تيار «الرفض» التاريخي ممثلاً بالجبهة الشعبية والقيادة العامة إلى جانب معارضة قيادة منظمة التحرير «فتح ـ الانتفاضة» والقيادة العامة والحركة الإسلامية، يمثل الثقل الأكبر، حيث نال نحو (٥٠) بالمائة مقابل أقل من (٤٠) بالمائة نالته حركة فتح والديمقراطية والحزب الشيوعي الذي يمكن وضعهم بقوى التأثير المباشر في التحركات «السلامية» الفلسطينية الراهنة[٢٤].

* وبالرغم من أن الأغلبية الفلسطينية في الضفة والقطاع، تعتبر أن منظمة التحرير الفلسطينية «الممثل الشرعي والوحيد»، وهؤلاء يتجاوزون مانسبته (٩٣) بالمائة من المشاركين في استطلاع للرأي في الضفة والقطاع، فإن (٥٢) بالمائة من فلسطينيي الضفة عبروا عن اعتقادهم، بأن التحركات السياسية التي تقدمت بها المنظمة تنسجم ودعم الانتفاضة، فيما قال (٤٨) بالمائة، إنهم يعارضون هذه التحركات[٢٥].

* وإذا كان طموح الفلسطينيين نحو بروز دولة لهم وكيان يبدو عارماً، وهو بين الأهداف الأساسية، فإن لتحقيق هذا الهدف، أو الإعلان عنه شروطاً خاصة، حيث أعلن (٧٨) بالمائة من المشاركين إقامة الدولة الفلسطينية، إذا كانت مشروطة «بالاعتراف باسرائيل»، وأيد (٩٨،٦) بالمائة من المشاركين إقامة الدولة في الضفة والقطاع «دون الاعتراف باسرائيل»[٢٦].

خاتمة:

وخاتمة القول، فإن موقف الرأي العام العربي من مستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني إنما هو مرتبط بالفهم المتزايد والمتراكم لحقيقة هذا الصراع بأطرافه المختلفة المحلية والإقليمية وبالآثار الخطيرة التي يتركها في حياة المواطن العربي على الصعيد الشخصي والوطني والقومي في المستويين الراهن والمستقبل، ووفقاً لذلك ـ إلى جانب عوامل أخرى ـ فإن الرأي العام العربي بمؤسساته وتعبيراته وقطاعاته يصوغ موقفه من مستقبل الصراع وفقاً للآتي:

١ ـ التحفظ على مبدأ «التسويات السلامية» بما تعنيه من اعتراف بالكيان الصهيوني واستعداد للتعامل والتعايش معه، ومعارضة ورفض نهج التسوية الجزئية والمنفردة على غرار ماقام به السادات بزيارة القدس ومانتج عنها من خطوات تالية.

٢ ـ التأكيد على أن الطريق البديل لـ «التسويات السلامية»، إنما يتمثل في استمرار الصراع مع الصهيونية وكيانها بأشكاله المختلفة، ولاسيما الشكل العسكري الذي يتنوع وتعدد أشكاله من حرب الشعب إلى حرب الاستنزاف إلى الحرب التقليدية.

٣ ـ وأن المآل النهائي لاستمرار الصراع هو تصفية الكيان الصهيوني كبنية استعمارية ـ استيطانية، وإقامة دولة فلسطينية على أنقاضه.

٤ ـ وفي الطريق لتحقيق الأهداف النهائية للصراع، توافق أوساط معينة من الرأي العام العربي على مبدأ إقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، على أن لايكون ذلك مقترناً بالكيان الصهيوني وبالاستعداد للتعايش معه، وخلافاً لذلك فإن أوساطاً أخرى تقبل «الاعتراف» مقابل الانسحاب من أراضي عام ١٩٦٧، وإقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع.

٥ ـ إن الأوساط الأكثر وعياً وأكثر شباباً وفي عموم الأقطار العربية، وخصوصاً في أوساط فلسطينيي الضفة والقطاع، هم الأكثر إصراراً على الاستمرار في خوض الصراع مع العدو الصهيوني وقوى دعمه، ومن أجل الحاق الهزيمة به، وتحقيق الأهداف الأساسية للنضال العربي ضد الصهيونية وحلفائها.

إن هذه الخلاصات العامة في رؤية الرأي العام العربي لمستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني تؤكد ذات الطبيعة التناحرية للصراع، وهي طبيعة أشير إليها في وقت مبكر من بدء الصراع، ومن أبرز من أشار إليها الكاتب والمفكر العربي نجيب عازوري في كتابه «يقظة الأمة العربية» المطبوع في باريس عام ١٩٠٥، حيث أكد: أن العرب والصهاينة سيخوضون الصراع للنهاية، حتى يتم حسمه، لأنهما «يمثلان مبدأين متضاربين» يتعلق بهما ليس مصير المنطقة وإنما «مصير العالم بأجمعه»[٢٧].

الهوامش والمصادر:

(١) ـ انظر: د. جورج جبور، فايز سارة. البعد العربي للقضية الفلسطينية. بحث مقدم للقسم الثاني من الموسوعة الفلسطينية، وبخاصة الفصل الثالث.

(٢) ـ انظر: د. سعد الدين ابراهيم. اتجاهات الرأي العربي نحو الوحدة العربية مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠. الفصل السابع، ص٢٧٧.

(٣) ـ المصدر السابق، والجدول ص٢٨٩، ص٢٩٥.

(٤) ـ المصدر السابق، والجدول ص٣١١.

(٥) ـ المصدر السابق، والجدول ص٣٠٩.

(٦) ـ انظر فايز سارة. الاتجاهات السياسية وقضية فلسطين. الوحدة العدد (٤٤) أيار / مايو ١٩٨٨.

(٧) ـ المصدر السابق.

(٨) ـ انظر: جبور، سارة. البعد العربي. . مصدر سابق الفصل الخامس.

(٩) ـ الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب. منشورات دائرة الثقافة والنشر في الاتحاد العام لنقابات العمال في سوريا. دمشق (دون تاريخ نشر) وبخاصة ص٤٢ ـ ٤٣.

(١٠) ـ وخصصت «سلسلة كتاب قضايا فكرية» التي تصدر عن دار الثقافة الجديدة بالقاهرة كتابها السابع تشرين الأول / اكتوبر ١٩٨٨ لـ «مستقبل الصراع العربي الصهيوني» وتضمن الكتاب، إضافة إلى الدراسات (١٣ دراسة) شهادات لمفكرين وكتاب ومثقفين عرب (٥٠ شهادة)، ثم قراءة في هذه الشهادات. . والحقيقة، فإن مؤيدي الاتجاهات «السلامية» في أوساط المثقفين العرب، لم يشاركوا في هذه الشهادات، وهو أمر يجعل هذه الشهادات، وهذا «الجزء» من الدراسة، يعانيان من ضعف واضح في المؤشرات المتضمنة، ومع ذلك آثرنا، استخدام المعطيات الأساسية للشهادات والدراسة المتعلقة بها على سبيل الاستئناس.

(١١) ـ انظر: قضايا فكرية. . المصدر السابق، ص٣٣٣ ـ ٣٣٧.

(١٢) ـ انظر قضايا فكرية. . المصدر السابق، ص٣٢٩ ـ ٣٣٣.

(١٣) ـ انظر قضايا فكرية. . المصدر السابق، ص٣٢٦ ـ ٣٢٩.

(١٤) ـ المصدر السابق، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(١٥) ـ انظر: نزار ابراهيم. الوعي السياسي لدى الشباب العربي المثقف. الوحدة العدد (٤٠) كانون الثاني / يناير ١٩٨٨، ص٨١، ٨٦، ٨٧.

(١٦) ـ نزار ابراهيم: المصدر السابق ص٨٢ ـ ٨٣.

(١٧) ـ نزار ابراهيم: المصدر السابق، ص٨٢.

(١٨) تحت أيدينا استبيان للمواقف السياسية للفلسطينيين الاجراء على جانبي خط الهدنة لعام ١٩٤٨ متضمن في دراسة ابراهيم الدقاق، وآخر للمواقف السياسية «للصفوة من الفلسطينيين في اسرائيل» و «للعمال الفلسطينيين في اسرائيل» و «للصفوة في الضفة والقطاع» و «عمال الضفة الغربية» في دراسة اميل ساحلية، والاستبيانات، تختلف في دراسة وطريقة تنظيمها مع النمط الذي اعتمدناه في الاستطلاعات المعتمدة في دراستنا، ولهذا تم استبعادها، وللاطلاع عليها. انظر: شولش وآخرون. الفلسطينيون عبر الخط الأخضر. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. القاهرة ـ باريس، الطبعة الاولى ١٩٨٦ ترجمة محمد هشام ص١٤٥ ـ ٢٥٧.

(١٩) ـ استطلاع الرأي العام في الضفة الغربية وغزة. التضامن (لندن) ١٣/٩/١٩٨٦.

(٢٠) ـ المصدر السابق.

(٢١) ـ المصدر السابق.

(٢٢) ـ المصدر السابق.

(٢٣) ـ جريدة الحياة (لندن) ١٢/١١/١٩٨٨.

(٢٤) ـ المصدر السابق.

(٢٥) ـ المصدر السابق.

(٢٦) ـ المصدر السابق.

(٢٧) ـ انظر: نجيب عازوري. يقظة الامة العربية. تعريب وتقديم د. أحمد أبو ملحم. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بدون تاريخ نشر).

المتغيرات الدولية وراهنية المسألة الديمقراطية

منير الخطيب*

ان البيريسترويكا التي بدأت في الاتحاد السوفياتي، ثم تتابعت في دول أوروبا الشرقية، وبدأت باعادة ترتيب «النظام العالمي»، وتسليط سيف النقد على كل «المقدسات» و«الاوثان» السابقة، دشنت بداية عصر جديد الملامح والمعادلات، من أبرز سماته تحرك الجماهير الواسع المطالب بالديمقراطية والتواق للحرية التي صادرتها البيروقراطيات المتضخمة لزمن طويل باسم الاشتراكية، وباسم شعارات شتى، هذا التحرك يؤكد حقيقة مركزية وهي أن ضريبة المرحلة الديمقراطية تدفع الان في الدول الاشتراكية، وأن الاشتراكية كنظام اقتصادي ـ اجتماعي شامل، رؤية شمولية للعالم والكون والطبيعة و الانسان، وكبديل ونقيض تاريخي للنظام الرأسمالي، هدفه القضاء على الاستغلال والتسلط، وبناء الانسان المتحرر من الخوف والاستلاب بكل أبعاده، لا يمكن أن تكون كذلك الا اذا استندت الى جذرها التاريخي وأعني الجذر الديمقراطي الانسانوي الذي يضمن بناء اشتراكية من أجل الانسان وليس انساناً من أجل الاشتراكية.

---

* كاتب من القطر العربي السوري.

إن حركة التغيير في الاتحاد السوفياتي وفي دول أوروبا الشرقية، تخطت حدود «الاصلاح» و«الترقيع»، لتصل الى مستوى التغيير الجذري في الاقتصاد والثقافة والسياسة، وبدأت تمارس تأثيرها على العالم قاطبة، ومنطقتنا العربية في قلب العالم ولابد لها من أن تتأثر بهذه الدرجة أو تلك بما يجري من تطورات متلاحقة ومتسارعة في المركز الاشتراكي.

بادىء ذي بدء وفي وجه الشامتين بما يجري في الدول الاشتراكية أياً كان الموقع الذي ينطلقون منه ـ باعتبار أن ما يجري هو مظهر من مظاهر العودة «الى الرأسمالية» ـ في وجه هؤلاء يجب تأكيد حقيقتين هامتين:

آ ـ في وجه التيارات ذات الهوى الغزلي، والمدافعة عن مقولة «العالم الحر» والتي هللت لأحداث أوروبا الشرقية ولانعتاق الانسان فيها من قيود الخوف والتسلط، يجب التأكيد، على [أن النظام الرأسمالي ليس المراكز الامبريالية المتقدمة فقط، حيث الدخول المرتفعة، والديمقراطية السياسية، «والارستقراطية العمالية» والعقلانية السائدة في مختلف حيزات المجتمع...... الخ.].

إن هذا هو أحد وجوه النظام الرأسمالي العالمي ويجب رؤية الوجوه الاخرى، حيث النهب الامبريالي والقمع والدمار المنظم لملايين البشر في «أطراف» هذا النظام، هذا النهب الذي لم يعرف له التاريخ مثيلاً هو الذي يغذي المراكز المتروبولية على حساب عرق البشرية ودمائها.

إن الامبريالية الامريكية التي استقال زعيمها يوماً ما، بسبب حادثة تجسس على حزب سياسي (فضيحة ووترغيت)، تمتلك أكبر جهاز للتجسس والارهاب عرفه التاريخ، يقوم بمهامه في العالم الثالث بما يخدم آليات النهب والسيطرة.

ب ـ الحقيقة الثانية التي يجب تأكيدها هي: أن الخيار الاشتراكي المستند الى الجذر الديمقراطي، هو الخيار الوحيد المتاح للمجتمعات التابعة، في عصر الامبريالية المنفلتة من عقالها، لكي تبني نفسها وفق مقتضيات ومتطلبات العصر، وتحقق استقلالها الذاتي، وتنفلت من شباك التبعية.

إن التطور الرأسمالي في العالم الثالث وفي عصر الهيمنة الامبريالية، لا يمكن أن يكون الا تطوراً تابعاً، منجدلاً على حبال الخارج، يعمم الفقر والاستبداد، ولا يحقق شروط الكرامة الوطنية، لذا تغدو الاشتراكية ذات النسغ القومي الديمقراطي هي الخيار الوحيد لتجاوز أسوار التأخر والتبعية.

مما لاشك فيه أن عوامل متعددة موضوعية وذاتية، قادت الى حالة مصادرة الحريات في الدول الاشتراكية، لست بصددها الآن ولكن حسبي الإشارة اليها سريعاً:

آ ـ الظروف الموضوعية في الاتحاد السوفياتي، التي أعقبت موت لينين، والتي أملت ضرورة التصنيع والتشريك السريعين، وما يتطلبه ذلك من مركزة شديدة في آلة الدولة، بالاضافة الى الزامات التصدي للصراعات الدولية آنذاك، وتم ذلك على أرضية رواسب التأخر الروسي أولاً، وضعف المقدمات الديمقراطية للثورة الاشتراكية ثانياً، التي انتصرت في بلد أوربي ـ آسيوي نصف متقدم، كل هذا مكن الظاهرة الستالينية من النمو التي اعتمدت العنف والقمع في فرض التحولات الاجتماعية والاقتصادية، باسم ديكتاتورية البروليتاريا، مما ضخم بيروقراطية الدولة، وساعد في استفحال الاجهزة السرية، كان

لذلك انعكاس سلبي على التجربة الاشتراكية في دول أوربا الشرقية.

ب ـ انتصار الثورات الاشتراكية في بلدان ذات اقتصاد زراعي، وتصنيع خفيف قياساً بدول أوربا الغربية، ولا تمتلك التراث الليبرالي الذي تمتلكه الدول الاخيرة.

جـ ـ إن انتصار الاشتراكية في هذه الاقطار التي تتميز بضعف الطبقة العاملة الكمي والنوعي بصفتها الحامل الاجتماعي للمشروع الاشتراكي، ضاعف من دور الطليعة، وبالتالي أدى الى تضخم الحزب والدولة والاجهزة السرية التي قادت حملات القمع فيما بعد.

د ـ ارتباط بناء الاشتراكية في دول أوربا الشرقية، بالتوازن الدولي الذي رافق وأعقب الحرب العالمية، مما جعل هذه التجارب فوقية وتفتقر الى التجذر الداخلي.

اذا كانت الديمقراطية ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين، هي المسألة المركزية والملحة بالنسبة لمجتمعات قطعت أشواطاً هائلة، على صعيد التصنيع وبناء اقتصادات مستقلة ذاتياً، وغير تابعة، فكيف يجب أن تكون بالنسبة لمجتمعات تابعة، ومنها بالطبع مجتمعنا العربي؟. ان الديمقراطية في المجتمعات التابعة ليست ترفاً يهم المثقفين، انما أصبحت ضرورة ملحة لكي تخرج هذه المجتمعات، من دوامة التبعية والتأخر والتدمير الذاتي، وتستعيد حيويتها وانسانيتها وتقرر مصيرها بيد أبنائها.

لقد شهدت الساحة الفكرية العربية بعد غزو لبنان عام ١٩٨٢ ـ الذي مر دون أن يسفر عن أدنى رد فعل سواء على المستوى الرسمي، أو على المستوى الشعبي، (باستثناء مظاهرة في مدينة الجزائر خرجت أثناء الغزو للاعتراض على أداء الفريق الجزائري في مباريات كأس العالم بكرة القدم!!!) ـ وعياً واضحاً بأهمية المسألة الديمقراطية، وتم عقد العديد من الندوات حول «أزمة الديمقراطية في الوطن العربي»، وقُدم العديد من الدراسات في هذا المضمار، لكن معظمها تناولت الديمقراطية من زاوية أكاديمية، فعرّفت الديمقراطية ومبادئها وأشكالها ومدارسها.... الخ). رغم أهمية ذلك، الا أن الدراسات المذكورة لم تضع الديمقراطية في سياقها التاريخي ـ الجدلي، بوصفها مخرجاً لمجتمع مأزوم في عالم كوني ونفعي، إن الديمقراطية ـ المخرج، يجب أن تتجاوز المماحكات اللفظية، حول أية ديمقراطية يجب أن نختار؟، الديمقراطية الليبرالية أم الديمقراطية الاشتراكية؟.

إن المسألة أبعد من ذلك بكثير، لان الديمقراطية مفهوم يتلون بخصائص الزمان والمكان وينطبع بطابع الشعب الذي ابتدعه والتزم به، ولا يجوز النظر اليه كمن يود تكرار تجربة بعينها ليبرالية كانت أم اشتراكية، لان تلك التجارب وليدة ظروف تاريخية مختلفة. ان الديمقراطية بوصفها مخرجاً من حالة التأزم المجتمعي الراهنة، أكبر بكثير من أن تختزل الى مجرد ديمقراطية سياسية تطالب بالحريات العامة، وبحقوق الانسان.... الخ، رغم أهمية ذلك والحاحيته، إنها مشروع تاريخي للخروج من حالة التأخر والتبعية.

إن المد الديمقراطي العالمي الذي أطلقته البيريسترويكا من جهة، وأزمة «الدول» القطرية من جهة أخرى، هذه الازمة التي تتجلى بعجزها عن تحقيق تنمية مستقلة أولاً، وتحقيق الوحدة ثانياً، ومواجهة التحديات الخارجية ثالثاً، وبتفاقم شروط تبعية هذه «الدول» للمراكز الامبريالية رابعاً، يمكن أن يجبر هذه «الدول» على اعطاء بعض الحريات السياسية، وهذا التوجه أصبح واضحاً، (التوجه الجزائري، الاردني،

اليمني..... الخ)، ففي هذا المناخ العالمي، على القوى القومية الديمقراطية العربية، التي أدماها وحاصرها القمع والتأخر، أن تستثمر ذلك وتؤكد برنامجها القومي الديمقراطي الذي أثبت تطور الاحداث بأنه البرنامج الوحيد القادر على وضع الامة على عتبة العصر. إن تحول البرنامج القومي الديمقراطي من طور القوة الى طور الفعل مرهوناً بكسب معركتين أساسيتين على القوى الديمقراطية العربية خوضهما:

آ ـ السيطرة على الساحة الفكرية العربية، عبر تثوير وعي الانتلجنسيا العربية المستلب من خلال التصدي لتيارات هذه الساحة المعادية للتوجه الديمقراطي، بحكم نهجها الدوغمائي، وبغض النظر عن شعاراتها المرفوعة، سواء كانت سلفية، أم قومية رومانسية أو ماركسية متصخرّة، هذه التيارات التي أثبتت عجزها «الايديولوجي»، واغترابها عن الواقع واستبداديتها المنهجية.

ان الخيار القومي الديمقراطي ذا الافق الاشتراكي هو البديل التاريخي لهذه التيارات التي تصالحت مع واقع التبعية والتأخر، ويكتسب صفته الديمقراطية من خلال ارتباطه بمستقبل الامة أولاً، واعتماده على الطاقات الشعبية المصادرة ثانياً، وبحكم استقلاليته عن «الدول» القطرية والمحاور العالمية ثالثاً، وكتحصيل حاصل لاعتماده على المنهج المادي ـ الجدلي الذي لا ينطلق من المسبقات والمطلقات، بل يعتمد على صيرورة الواقع في تصويب الوعي والممارسة السياسية.

ب ـ بموازاة عملية تثوير الوعي في الساحة الفكرية العربية، يجب ممارسة التسييس كفعل تاريخي واع، صبور، طويل النفس، للقضاء على حالة العزوف والسلبية التي تعيشها أكثرية الامة غارقة في الجهل والامية، بعيدة عن الهم الوطني والمشاركة السياسية، فأزمة الديمقراطية في مجتمعنا كانت بالاساس أزمة السياسة التي واجهت تقليداً تاريخياً لافظاً لها، لذا يجب العمل على أن تمتلك الجماهير زمام المبادرة، وتقرر مصيرها بيدها، فليست الديمقراطية بأحد معانيها الا هذا الحضور الاكثر في حركة التاريخ.

مما لاشك فيه أن الستاتيكو الاقليمي الذي صاغته سيرورة التراجع العربي التي بدأت بعد هزيمة عام ٦٧، بدأ يشهد بعض الظواهر والاحداث المناكفة له كان أبرزها:

١ ـ التحرك الجماهيري العفوي الذي شهدته بعض الاقطار العربية، بتأثير حالة النهب الامبريالية التي تمارس على مجتمعنا من خلال الرأسمالية المصرفية والذي فرض حدوث الانتفاضات التالية: انتفاضة مصر في ١٩/١٨ يناير عام ١٩٧٧، ثم في ٢٦ يناير عام ١٩٧٨ في تونس، ثم في عام ١٩٧٩ في السودان، وفي عام ١٩٨١ في المغرب، ثم عام ١٩٨٣ في السودان، ثم يناير عام ١٩٨٤ في تونس، آذار/ نيسان ١٩٨٥ في السودان، ثم عام ١٩٨٦ في مصر، ثم أيلول عام ١٩٨٨ في الجزائر، وأخيراً التحرك الشعبي في الاردن.

٢ ـ الانتفاضة الفلسطينية الباسلة التي دخلت عامها الثالث، وهي أقوى عوداً وأكثر تمرساً بأعمال المواجهة مع سلطات الاحتلال الصهيوني، وقد شكلت بداية الرد الشعبي العربي على العجز الرسمي في مواجهة العربدة الاسرائيلية، وأثبتت قدرتها على مقاومة محاولات الاحتواء والتطويق من قبل الانظمة العربية وتيارات التسوية على الساحة الفلسطينية.

٣ ـ أزمة «الدول» القطرية وعجزها عن تحقيق أي شيء لشعوبها، سوى الفقر والتبعية واعادة انتاج التأخر وفقدان الامن للمواطن»، هذه الازمة بدأت تفرض بعض «التوجهات الديمقراطية» (النموذج الجزائري،

الاردني . . . . . الخ) .

٤ ـ المد الديمقراطي العالمي الذي بدأته البيريسترويكا وبدأ يغير «النظام العالمي» الذي صاغته الحرب العالمية الثانية، سوف يلقي بظلاله على منطقتنا التي هي جزء من هذا العالم.

ان المشروع القومي الديمقراطي ذا الافق الاشتراكي، مشروع تاريخي طويل الامد ـ لكنه في الوقت نفسه يتمتع براهنيه ـ يحتاج الى أجيال لتحقيقه، لكن المناخ العالمي الراهن يفرض ـ اضافة إلى الحاجة الموضوعية الملحة ـ ضرورة المطالبة بالديمقراطية السياسية التي باتت من ضرورات الشروط الانسانية في هذا العصر، وان هذه الديمقراطية السياسية بوصفها نقيض الاستبداد لا تعني شيئاً خارج اطار جدلية العلاقة مع مشروع تقدم الامة ونهضتها، هذا المشروع الذي يهدف الى ارساء القواعد المجتمعية لممارسة الديمقراطية السياسية الحقة من خلال تحقيقه للمهام التاريخية التالية:

١ ـ تصفية التأخر العام للمجتمع الذي يتجلى على كافة الصعد، اقتصادياً كون الاقتصاد العربي تابعاً للخارج ولا يلبي احتياجات التنمية القومية، وايديولوجياً بسيادة ايديولوجيا تقليدية غريبة عن العصر، وسياسياً بغياب المشاركة الشعبية وبتقليب الرأي العام ومصادرته.

يجب مواجهة هذا التأخر بالقضاء على الهيمنة الامبريالية وآليات نهبها الاقتصادي، وبنشر وعي مطابق، كوني وتاريخي وحديث، بالتعارض مع ايديولوجيا الاستلاب والاغتراب، لكي يكتسب هذا الوعي شرعيته في صفوف الانتلجنسيا أولاً ثم على صعيد حيزات المجتمع الاخرى ثانياً.

٢ ـ بناء المجتمع المدني ـ السياسي، الذي يشكل الديمقراطية بمعناها الاجتماعي والذي تنتفي فيه وتصفى سائر الانقسامات التي تدمر المجتمع وتمنع تقدمه، باقامة انقسامات جديدة تسهم عبر صراعها الجدلي في دفع عملية التقدم والنهضة.

إن مجتمعنا يعاني من انقسامات شتى (طائفية، اقليات قومية، خصوصيات محلية . . . . الخ) فالقضاء على الطائفية يتم بالعلمنة، بوصفها سيرورة توحيد المجتمع ودمجه، وبوصفها المدخل الضروري لدمقرطته وتحديثه، والتي يجب أن تطال جميع حيزات المجتمع، الفكرية والاجتماعية، والسياسية، وان وضع الاقليات القومية يعالج بالديمقراطية مع الاخذ بعين الاعتبار الوضع الخاص لكل أقلية.

إن تصفية انقسامات المجتمع ما دون المدني، يعني خلق انقسامات جديدة تسهم في فرز أكثرية سياسية وأقلية سياسية، تسمح بالخروج من وضع الاكثرية الدينية والاقلية المذهبية أو الاثنية، وتفتح امكانية نضال طبقي ـ سياسي يجدد نسغ المجتمع ويمنع تدميره الذاتي.

٣ ـ بناء الدولة القومية بوصفها تجسيد الارادة الشعبية، والنقطة التي تتقاطع عندها مصالح جميع الطبقات رغم الفوارق بالثروة والموقع والاجتماعي، وتضمن التواصل بينها وبين الشعب، وتهدم جدار الخوف القائم تاريخياً بين المواطن والدولة الاستبدادية الشرقية، إن هذه الدولة هي البديل التاريخي «للدولة» القطرية التي هي أقلية استأثرت بالحكم بواسطة خنق الحريات الديمقراطية، والدخول في شبكة النهب الامبريالي، وبالتالي أصبحت العقبة الاشد كؤدا في وجه الديمقراطية.

٤ ـ القضاء على الهيمنة الامبريالية وآليات نهبها الاقتصادي، وكسر حلقة التبعية باتباع سياسة تنموية على

المستوى القومي تلبي احتياجات المصلحة القومية وتضمن بناء اقتصاد متمحور على ذاته ومنفلت من قنوات الضبط الامبريالي.

٥ ـ القضاء على التجزئة القومية التي تشكل القانون الموضوعي لعمل الامبريالية في منطقتنا، وقلب سيرورة تطور الاقطار العربية الحالية باتجاه تكون «أمم عربية» من خلال فعل «الدولة» القطرية التي بنت أعمدتها على مناخ التجزئة المتفاعل مع آليات النهب الامبريالي.

٦ ـ تصفية الكيان الاستيطاني الصهيوني بوصفه النقيض التاريخي للمشروع القومي الديمقراطي بفصل مشرق الوطن العربي عن مغربه أولاً، وبمنعه قيام الوحدة العربية ثانياً، وبضربه لاحتمالات النهضة ولقوى الثورة العربية ثالثاً، وبمحاولته اللعب بالنسيج المجتمعي الداخلي للاقطار العربية رابعاً.

إن مشروع الثورة القومية الديمقراطية، مشروع تاريخي يحتاج الى تضحيات جسام، والى تطابق ما بين الفعالية الثورية وصيرورة الواقع لرصده، وبالتالي اقتناص ميول الواقع التي تخدم العملية الثورية.

إن المنافسة الفاصلة ما بين الواقع الحالي لمجتمعنا والطموح المرجو لتحقيق نهضة الامة ووحدتها شاسعة وشاسعة جداً، وما بين الواقع المذل والحلم الجميل، وفي مناخ هذا الصعود الديموقراطي يجب التأكيد على الاتي والممكن، الذي يندرج بالطبع في سياق الاستراتيجي ويتحدد به.

إن الديمقراطية السياسية هي المطلب الملح والراهن للشعوب، لذا فمن المناسب التأكيد على بعض مضامين هذا المفهوم بمعناه السياسي، والتي تشكل نقيضاً لكثير من المفاهيم السائدة في مجتمعنا:

١ ـ نسبية الحقيقة فهي ليست مطلقة ولا يستطيع أي طرف الزعم بامتلاكها، مفهوم النسبية يحتم مفهوم أنا والآخر في سياق حركة الواقع ويقود الى الاعتراف بهذا الآخر وعدم نفيه.

٢ ـ ضرورة اعتماد المنهج المادي ـ الجدلي، الذي يحلل ويركب في التعامل مع الواقع وينطلق من معطيات الواقع ليصل الى استنباط المفهوم، بعكس المنهج الدوغمائي الذي يحاول لي عنق الواقع وحشره في المفهوم المعد مسبقاً.

٣ ـ التعددية التي تفترض اختلاف آراء الافراد والجماعات في اطار الوحدة المجتمعية والتي تناقض «المونوليتيه» أو «التكتلية» السائدة في البنيان الايديولوجي العربي، ان تمثيل هذا المفهوم يقود الى التعددية السياسية وعدم فرض الرأي الواحد الذي هو بطبيعته رأي ارهابي مستبد.

٤ ـ المساواة أمام القانون الذي يسري على الحاكمين والمحكومين على حد سواء، بصرف النظر عن (اللون أو الجنس أو الانتماء الفكري أو الديني . . . . الخ) هذه المساواة التي لا تفترض توقف نضال البشر الديمقراطي من أجل تغيير القوانين الجائرة التي تخدم طبقة أو فئة معينة.

٥ ـ ضمان المشاركة الشعبية من خلال أطر ومؤسسات تمثيلية تقوم بنقل آراء جميع المواطنين، وتكتسب هذه المؤسسات شرعيتها بواسطة عملية الانتخاب الحر، البعيد عن الضغوطات أياً كان مصدرها.

ان هذا الانتخاب الحر يضمن حكم الأغلبية من خلال تعبيراتها السياسية بالوقت نفسه الذي يجب ان يحترم فيه رأي الأقلية.

٦ ـ المشاركة التي تفترض مفهوم المواطنية، أي أن تتخلص الكتلة الاكثرية من الامة من حالة الرعوية

والسلبية باعتبارها السياسة من اختصاص الحاكم فقط، لترتقي الى مستوى المواطنة التي تعتبر كل فرد في المجتمع عضواً في الدولة ومسؤولاً عنها له حقوق وعليه واجبات يحددها القانون.

٧ ـ القضاء على ايديولوجيا الامتثال والخنوع والاستسلام، التي تنطلق من الغيبيات والمسبقات واشاعة الوعي النقدي الذي يشكك ويجادل ويصارع في اطار القانون، هذا الوعي النقدي الذي هو قتالي وصدامي بطبيعته، يجب أن يسلط سيفه على كل «المقدسات» و«المحرمات» التي اعتدنا أن نعتبرها كذلك.

٨ ـ ضمان الحريات العامة للمواطنين سواء الحريات المدنية (حرية العمل، التنقل.... الخ) أو الحريات السياسية (حرية التعبير، التظاهر، الاضراب.... الخ).

إن المخرج الديمقراطي أصبح ضرورة ملحة لخروج مجتمعنا من حالة التدمير الذاتي والتفتيت التي دخل بها بتأثير الصراعات المدمرة التي انفجرت في جسمه، وأصبح ضرورة حيوية لإعادة بناء حركة الجماهير العربية على أسس كفاحية، بعد أن غيبت عن مسرح الاحداث لفترة طويلة، لكي تحمل قضاياها بيدها وتقرر مصيرها بنفسها، ولكي تواجه أمتنا التحديات الخارجية، ولكي يشعر الانسان بالامن والطمأنينة ويشارك في صنع الاحداث بعد أن حوله القمع والاستبداد الى كتلة خنوع واستسلام. لقد كان للمد الاشتراكي في العالم والذي أعقب الحرب الكونية الثانية أثره الواضح والمباشر على منطقتنا فهل يكون للمد الديمقراطي الراهن نفس الاثر...؟.

البرجماتية في العمل السياسي الفلسطيني

نزيه ابو نضال*

في أحد اجتماعات القيادة الفلسطينية قال ياسر عرفات مفاخراً: «أنا رجل براجماتي»، أي تجريبي. هذا التوصيف الذي اطلقه عرفات على نفسه، يفسر إلى حد كبير طبيعة الحركة السياسية لدى القيادة الفلسطينية، كما يكشف الأسباب العميقة لمأزقها الراهن.

ولكن قبل أن نبدأ، ما هي البراجماتية؟

يرتبط مفهوم البراجماتية بمقولات فلسفية شائعة كالذرائعية والنفعية. وقد ساد هذا المفهوم في الفلسفة الأميركية، على أيدي وليام جيمس، وتشارلز بيرس وجون ديوي، ويذهب هؤلاء إلى ان «الحقيقة تقع في صميم التجربة»، وإلى أن «المعرفة هي كناية عن آلة أو وظيفة تعمل في خدمة مطالب الحياة»، وإلى أن «صدق قضية ما عائد إلى كونها مفيدة أو نافعة عملياً».

ويسعى المنهج التجريبي إلى تثبيت المهارة والمبادرة والاقدام لدى الفرد، على حساب المعرفة العلمية والعمل الاجتماعي. ولذلك فهي تؤمن «بعبادة الافراد البارزين» كما عند وليم جيمس.

غير ان البراجماتية أخذت تتراجع في السنوات الأخيرة، داخل المجتمع الأميركي، مفسحة المجال للفلسفة الوضعية الجديدة، والمفاهيم الفلسفية الدينية. ولكننا لا نجد ضيراً في استخدام الملابس القديمة

---

* كاتب وباحث من الاردن له العديد من المؤلفات.

التي استغنى عنها الأمريكيون انفسهم، فيبدو اننا اعتدنا على «البالة» الأميركية، حتى في مجال الفلسفة.

نحن هنا لا نتهم القيادة الفلسطينية بأنها قرأت الفلسفة الأميركية، وتبنت مثلها ومفاهيمها. وعلى الأرجح، فإن عرفات الذي يفاخر بأنه براجماتي، يقصد بأنه تجريبي أو ذرائعي بالمعنى اللغوي لا الفلسفي، رغم انه على مستوى الفكر والممارسة، يمثل البراجماتية، كفلسفة، على أوضح صورة.

إن البراجماتية هي نقيض «النظرية» والتخطيط العلمي، سواء في مجال السياسة ام الاقتصاد. ويبدو ان مصدرها العميق مشتق من روح المغامرة الفردية، التي تشكل إحدى السمات البارزة في المجتمع الأميركي.

بالطبع نحن سمعنا بعشرات المغامرين الذين حققوا نجاحات كبرى، لكننا، على الأرجح، لم نسمع بمئات الالوف الذين افترستهم روح المغامرة. ولذلك فقد احتفظت البراجماتية ببريقها فترة طويلة من الزمن.

ولا شك أن الطبقات والقوى الاجتماعية المنتجة (الفلاح والعامل وصاحب الأرض والمصنع). هي الأقل ميلاً واندفاعاً باتجاه التجريبية والمغامرة. ولذلك فإن البراجماتية تجد أرضها الخصبة في أوساط البرجوازيين الصغار، الذين تسعى فئات واسعة منهم إلى مغادرة وضعها الاجتماعي، والصعود طبقياً إلى مصاف البرجوازية الكبيرة. ومثل هذا الصعود لا يتحقق بالطبع بصورة جماعية، وإنما نتيجة الجهود والمغامرات التي يبذلها البورجوازي الصغير. كفرد، لكي يحقق النجاح المطلوب لارتقاء السلم الاجتماعي.

بعد هذا التقديم الذي نرجو أن لا يكون قد طال أكثر مما يجب، ننتقل للحديث عن البراجماتية أو التجريبية في العمل السياسي الفلسطيني.

تنتمي القيادة الفلسطينية بغالبيتها الساحقة، وبمعظم كوادرها الأساسية، إلى عناصر وشرائح البرجوازية الصغيرة: (معلمون، مهندسون، اطباء، موظفون، طلاب، محامون. الخ..). هذه القيادة كانت مسكونة، مثل ابناء شعبها الفلسطيني، برغبات مشروعة بتحرير فلسطين، وبإنهاء زمن الاحتلال والقهر والجوع والمنافي، فطرحت برنامج الثورة المسلحة، وفق النموذج الجزائري. فالتفت الجماهير الشعبية العريضة حول هذه القيادة وهذا البرنامج، وقد قدمت تضحيات لاحد لها.

عبر مسيرة الثورة الفلسطينية، برزت حقيقتان هامتان:

الأولى: إن البنية الداخلية لمنظمة التحرير وللفصائل الفلسطينية، بدأت تشهد حالات اصطفاف طبقي، من نوع خاص. فهناك مواقع للسلطة والسطوة والنفوذ والامكانات المادية الهائلة. وهناك فئات المنتفعين والموالين، ثم هناك أخيراً القاعدة العريضة من العناصر والكوادر المناضلة.

الثانية، إن الجسم المسلح لمنظمة التحرير وفصائلها المسلحة، قد تعرض لتراجعات وهزات وهزائم قاسية:

- فشلت تجربة القواعد الارتكازية في الارض المحتلة عام ١٩٦٧.
- ضربت الخلايا المسلحة في قطاع غزة في اوائل السبعينات.
- راوحت تجربة الأغوار في مكانها (عمليات القشرة والقصف عن بعد)، بين عامي ٦٧ و ٧١.

- تلقى الوجود المسلح في المدن هزيمة ساحقة في ايلول ١٩٧٠.
- تمت تصفية الوجود المسلح في الاردن، بعد معارك جرش في تموز ١٩٧١.
- أما على الساحة اللبنانية، فقد خاضت الثورة الفلسطينية وحلفاؤها في الحركة الوطنية اللبنانية مواجهات مؤلمة: الكحالة، احداث تشرين ١٩٦٨، صدامات ايار ١٩٧٣، ثم اندلاع الحريق الكبير، نيسان ١٩٧٦، وصولاً إلى الاجتياح الصهيوني في حزيران ١٩٨٢.
- وقبل ذلك كانت القيادة الفلسطينية، قد وافقت على وقف اطلاق النار على العدو من جنوب لبنان، بعد معارك تموز ١٩٨١، بواسطة المبعوث الأميركي فيليب حبيب. وبذلك توقف الفعل العسكري الخارجي، على امتداد الحدود العربية، إلى ان حدث الاجتياح الصهيوني في منتصف عام ١٩٨٢، وما اعقبه من خروج منظمة التحرير ومقاتليها من لبنان، باستثناء البقاع، في ايلول ١٩٨٢.

كيف واجهت القيادة الفلسطينية، وفق تركيبتها البنيوية، هذه التطورات والهزات والهزائم؟

هنا تبرز البراجماتية كمنهج رئيسي، حكم اسلوب العمل الفلسطيني، منذ اوائل السبعينات إلى الآن.

إن صياغة البرامج والمواقف السياسية لدى القيادة الفلسطينية، لا يمكن فهمها وتفسيرها، في تقديرنا، إلا من خلال فهم الطابع البراجماتي لهذه القيادة.

المحطة الاولى:

في أعقاب الهزيمة العسكرية التي تلقتها الثورة الفلسطينية في الاردن، أيلول ١٩٧٠ وتموز ١٩٧١، اقتصرت حرية التحرك العسكري على الساحة اللبنانية. غير ان الساحة اللبنانية ظلت محفوفة بالمخاطر والاحتمالات، سواء بسبب التركيبة اللبنانية ذاتها، أم بسبب عمليات الاجتياح العسكري الصهيوني المتكررة في جنوب لبنان.

وفي ظل هذه المعطيات الجديدة، فإن المخرج الذي توصلت اليه القيادة الفلسطينية، قد اعتمد على مرتكزين:

أ - طرح برنامج التسوية الفلسطيني (الدولة المستقلة) بديلاً لبرنامج التحرير والدولة الديمقراطية.

وكان هدف القيادة الفلسطينية من طرح هذا البرنامج الجديد، الاستقواء باتجاه الاتحاد السوفياتي، وبدول المنظومة الاشتراكية، من خلال توفير الانسجام بين البرنامج السوفياتي للتسوية، وبين البرنامج الفلسطيني الجديد. أضف إلى ذلك أن البرنامج الفلسطيني يحمل العديد من نقاط التقاطع مع البرامج العربية للتسوية، وكذلك مع محصلة الموقف الدولي، وقرارات الأمم المتحدة.

هذا البرنامج الفلسطيني الجديد، أحدث انقساماً عميقاً في صفوف الثورة الفلسطينية، لأنه شكل أول اعتراف ضمني بالكيان الصهيوني من جهة، ولأنه اختزل المطالب والحقوق الفلسطينية بإقامة دولة مستقلة على المناطق التي قد ينسحب عنها المحتلون من جهة ثانية، ورغم ذلك، بل وبسبب ذلك، فإن هذا البرنامج قد أوصل ياسر عرفات إلى الأمم المتحدة في ١٣/١١/١٩٧٤، كما منحت منظمة التحرير

الفلسطينية صفة «مراقب» في المنظمة الدولية في نفس الفترة.

أمّا المكافأة العربية على برنامج التسوية الفلسطيني، فقد سبقت المكافأة الدولية بأسبوعين تقريباً، حيث بايع مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط منظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني.

ب ـ اما المرتكز الثاني للتحرك الفلسطيني، فقد اتخذ شكل عمليات خارجية دراماتكية فاقعة، من ابرزها عمليات ايلول الاسود والجبهة الشعبية (رغم اختلاف المنطلقات والأهداف)، وكانت قيادة المنظمة تسعى من خلال هذه العمليات، إلى إثارة أوسع ضجيج عالمي لإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية، وفق البرنامج السياسي الذي تبنته منظمة التحرير، وبات مقبولاً من الأسرة الدولية، فقد سبق لمئة وخمس دول في الأمم المتحدة، ان ايدت اقامة دولة للفلسطينيين.



لا شك ان القيادة الفلسطينية، وهي تطرح برنامجها للتسوية، كانت تراهن للخروج بحصة من صفقة التسوية العامة، التي اعقبت حرب تشرين ١٩٧٣. وكانت تبحث لنفسها عن موقع قدم في مؤتمر جنيف، إلا ان حساب «القرايا» الفلسطينية، لم ينسجم مع حساب «السرايا» العربية، فقد انفرد السادات بعقد معاهدات كامب ديفيد، فخرج القادة الفلسطينيون صفر اليدين، وهم يهتفون ضد الخيانة والتفريط. ولكن إلى حين، فقد بات عليهم البحث عن مخرج جديد.

المحطة الثانية:

منذ بداية الثمانينات، بات واضحا لدى القيادة الفلسطينية، أن إمكانية التوصل إلى دولة فلسطينية مستقلة، قد أصبحت بعيدة المنال، وأن عليها بالتالي ان تبرمج مواقفها وسياساتها، مع الممكن العربي والدولي. وجاءت الاشارة الأولى في هذا السباق، عبر التصريح الذي أدلى به ياسر عرفات، خلال زيارته لليابان، واعلن فيه تأييده لمبادرة الأمير فهد، التي نشرت وكالة الأنباء السعودية بنودها في ١٩٨١/٨/٧. غير ان الاوضاع الفلسطينية والعربية السائدة آنذاك، لم تكن تسمح بتمرير هذا المشروع، مما أدى إلى فشل قمة فاس الأولى في ١٩٨١/١١/٢٥، فالامور لم تكن ناضجة بما فيه الكفاية، إلا أنها لم تلبث ان نضجت في اعقاب الاجتياح الصهيوني للبنان في حزيران ١٩٨٢، فجاءت الموافقة في فاس الثانية (٦-١٩٨٢/٩/٩)، أي بعد أقل من اسبوع على مغادرة آخر مقاتل فلسطيني لبيروت.

إن القيادة الفلسطينية، وفق بنيتها وخياراتها السياسية، وعلى أرضية التطورات والمستجدات التي اجتاحت الساحة الفلسطينية والعربية، وجدت نفسها في الممر الاجباري للتسوية الممكنة، فراحت تبني سياساتها وتحالفاتها، بما ينسجم مع هذا الممكن. ولعل من المفيد هنا التذكير بقرار وقف اطلاق النار من جنوب لبنان، والذي التزمت به قيادة المنظمة، منذ اعلانه في تموز ١٩٨١، إلى ان خرقه العدو باجتياح لبنان بعد حوال العام، وكانت هذه القيادة قد توقفت عن القيام بالعمليات الخارجية قبل ذلك بوقت طويل. وبهذا يكون الدور العسكري للمنظمة قد توقف بصورة شبه كاملة، خاصة مع انغلاق الحدود العربية الأخرى، مما جعل خيار التحرك لدى القيادة الفلسطينية محصورا في المجال السياسي والدبلوماسي،

أي في إطار (الممكن) و(الواقعي).

فما هو الممكن في بدايات الثمانينات؟

كان واضحاً لدى القيادة الفلسطينية، أن العدو الصهيوني، وبدعم من نظام الولايات المتحدة، ليس في وارد القبول بإقامة دولة فلسطينية مستقلة، وأن التسوية الممكنة لا يمكن أن تتم، إلا من خلال علاقة كونفدرالية مع الأردن، وبرعاية واشنطن وحدها.

وعلى الفور باشرت القيادة الفلسطينية ببرمجة سياساتها وتحالفاتها، بما ينسجم مع هذا الممكن، فأعادت علاقاتها مع القاهرة، ووثقت تحالفاتها مع عمان، وبدأت تسعى لفتح خطوط الحوار والاتصالات مع حكومة الولايات المتحدة. وكانت النتيجة البرنامجية لهذا التوجه الجديد اقرار صيغة العلاقات الكونفدرالية مع الأردن، في الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني التي عقدت في الجزائر في شباط ١٩٨٣، ثم اعلان اتفاق عمان في شباط ١٩٨٥، والذي تم فيه رسمياً التخلي عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، حيث قصر الاتفاق هذا الحق «في اطار علاقات كونفدرالية مع الاردن» هذا التوجه الكونفدرالي نحو عمان والقاهرة وواشنطن، ولّد أزمات حادة وعنيفة في اطار منظمة التحرير الفلسطينية، لا تزال تعاني منها حتى الآن، ورغم ذلك، فإن هذه التنازلات الجديدة التي اقدمت عليها القيادة الفلسطينية، قد اصطدمت بدورها بالرفض الصهيوني التام لأية انسحابات من الأرض المحتلة، لا لمصلحة الدولة المستقلة، ولا لمصلحة الكونفدرالية مع الاردن. أما واشنطن، فقد اغلقت الباب بوجه أي حوار مع منظمة التحرير، مالم تستجب المنظمة للشروط الأميركية الثلاثة المعروفة:

١ ـ الاعتراف بالقرار ٢٤٢.

٢ ـ الاعتراف باسرائيل.

٣ ـ نبذ الارهاب واعلان التخلي عنه.

المحطة الثالثة:

ومرة جديدة، وقفت القيادة الفلسطينية امام الجدار المسدود. إلا إنها بدلا من ان تعيد حساباتها لتقييم حجم التنازلات التي قدمتها مجانا، وتبحث عن جدوى تقديم تنازلات جديدة، فقد مضت إلى نهاية الشوط، بإعلان استجابتها الكاملة للشروط الأميركية، أما الثمن الذي قبضته هذه المرة، فقد تمثل بالسماح للسفير الأميركي في تونس بالحديث مع ممثلي المنظمة. أما العدو الصهيوني، فلم يقدم على أي تنازل مهما كان بسيطاً أو شكلياً، بل على العكس من ذلك، فقد توالت اللاءات الصهيونية بصورة اشد صلفاً ووضوحا، وعبر عنها اسحق شامير بلغة لا تقبل التأويل:

ـ لا انسحاب من أي شبر من «أرض اسرائيل» التاريخية.

ـ لا مكان ولا دور لمنظمة التحرير.

ـ لا مكان لأية دولة عربية غربي النهر.

أما العرض الوحيد الذي تقدمه حكومة «اسرائيل»، فهو حكم ذاتي للفلسطينيين في ظل «دولة

اسرائيل»، وفي اطار مشروع الانتخابات الذي عرضه شامير.

في المقابل، فإن واشنطن التي فرضت على قيادة منظمة التحرير كل هذه التنازلات، لم تمارس أي ضغط من أي نوع على العدو الصهيوني، بل على العكس، فقد اعلنت مراراً بأنها، أي واشنطن ، ليست في وارد الضغط على حكومة «اسرائيل»، وأكثر من ذلك فقد كافأتها، قبل أيام، بتقديم «الفيتو» في مجلس الأمن، عند بحث مأساة بيت ساحور.

ولكي تصل المهانة إلى منتهاها، فقد تقدم وزير الخارجية الأميركية جيمس بيكر بمبادرتة ذات النقاط الخمس، لازالة العقبات أمام مشروع شامير، كما قال بيكر نفسه، إلا ان الزعامة الصهيونية رفضت هذه المبادرة، واشترطت إجراء تغييرات اساسية عليها. وقد استجاب بيكر للاشتراطات الصهيونية، حتى باتت مبادرته نسخة أخرى من مشروع شامير، كما اعلن ذلك عبد الله حوراني عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولكن هل هذه النسخة الجديدة والمنقحة من مبادرة بيكر، على علاتها، معروضة على منظمة التحرير الفلسطينية لإبداء رأيها فيها؟

الجواب هو: لا، فإن جيمس بيكر، ورغم الحوار المفتوح مع منظمة التحرير في تونس، لم يتقدم بمبادرته للمنظمة، وانما تقدم بها إلى الزعامة المصرية، التي تقوم بدورها بسؤال المنظمة، ثم تقوم بنقل رد المنظمة واستيضاحاتها إلى الادارة الاميركية.

ان المعنى السياسي الواضح لهذا الموقف الأميركي، هو أن واشنطن، ورغم استجابة المنظمة لكل الشروط الأميركية، لا تزال خارج عملية التسوية، حتى ولو كانت هذه التسوية اميركية أو اسرائيلية. لأن الطرف الفلسطيني المطلوب اسرائيلياً، هو من بين فلسطينيي الداخل، ممن لا علاقة لهم بمنظمة التحرير.

ورغم ذلك، فإن واشنطن تريد من منظمة التحرير، عبر القاهرة ان توافق على مبادرة بيكر، ثم تبقى خارج اللعبة، تماماً كما أرادت منها، قبل ذلك، ان تعترف «باسرائيل» وبالقرار ٢٤٢، ثم لا تحصل على شي اكثر من محادثة السفير الأميركي في تونس. فماذا فعلت قيادة المنظمة، أمام هذا الامتهان لوضعها ولدورها؟

لقد سبق. وان تم الإعلان بأن منظمة التحرير هي صاحبة الحق بتسمية أعضاء الوفد الفلسطيني، في أية مباحثات للتسوية.

إن مثل هذا الاعلان، يفترض بالضرورة ان ترفض قيادة منظمة التحرير ان يخاطبها الأميركيون من خلال القاهرة، وإن على واشنطن، اذا أرادت ان تعرف رأي المنظمة بمبادرة بيكر، ان تتوجه لسؤالها هي مباشرة في تونس، مادام باب الحوار مفتوحاً بين الطرفين. غير أن قيادة المنظمة لم تفعل شيئاً من ذلك، بل قامت بايفاد عضو اللجنة التنفيذية جمال الصوراني بتسليم القيادة المصرية استيضاحات المنظمة حول مبادرة بيكر. ومعنى ذلك انها أي المنظمة، وافقت على الغاء دورها السياسي، حتى في اطار التسوية الأميركية، التي اختارت ان تتعامل معها.

ان العقلية التجريبية لدى القيادة الفلسطينية، في تعاملها مع الممكن السياسي في كل مرحلة، ظلت تنتقل من تنازل الى آخر. دون ان تستطيع التراجع. فقد وضعت نفسها في ممر اجباري، ستكون نهايته

الحتمية التفتيش عن تسوية ما، على ارض التسوية الاسرائيلية نفسها، وفق خطة شامير، والحكم الذاتي، فهذا هو الممكن السياسي في اللحظة الراهنة، واذا كان هناك من يستبعد ذلك، فيكفيه ان يقيس المسافة السياسية الضوئية التي قطعتها قيادة المنظمة من برنامج تحرير فلسطين، عبر الكفاح المسلح، إلى الدولة المستقلة، فالكونفدرالية واتفاق عمان، فالاعتراف بالعدو الصهيوني و ٢٤٢، وأخيراً إلى مبادرة بيكر بمشروع شامير.

لقد تحولت القضية الفلسطينية على ايدي القيادة الفلسطينية إلى حقل اختبار، تجري عليه تجاربها السياسية، ولكن دون ان تتعلم شيئاً من هذه التجارب، بل على العكس من ذلك، فكل تجربة فاشلة كانت تدفعها نحو تجربة أخرى اشد فشلاً، ودون أن تحقق أي مكسب صغير، لا لنفسها ولا للقضية الوطنية.

واذا كان ثمة امكانية متبقية لوقف هذا الانهيار المريع في العمل السياسي الفلسطيني، فإن التعويل إنما ينصب على الانتفاضة الفلسطينية الباسلة، أما الانتصار النهائي فلن يتحقق إلا حين تتحول الانتفاضة الفلسطينية إلى انتفاضة عربية، وهذا على كل حال حديث آخر.



الفردية والتجريبية:

إذا كانت التجريبية في العمل السياسي هي نقيض النظرية و«التخطيط العلمي»، فإن التجريبيين أو البراجماتيين هم على الدوام الاكثر ابتعاداً عن العمل الجماعي والقيادة الجماعية ، وبالتالي فإنهم يسعون إلى التفرد، بامتلاك السلطة، وباتخاذ المواقف والقرارات.

ومن يسترجع التاريخ المعاصر للعمل السياسي الفلسطيني، يلحظ باستمرار أن اخطر القرارات والمواقف قد جرى اعلانها بصورة فردية، ثم يجري بعد ذلك فرضها على المؤسسات والهيئات الفلسطينية. ولكن بمجرد ان يتحول الموقف الفردي إلى قرار جماعي، لا يلبث ان يجري اختراقه مجدداً بمواقف فردية جديدة، وهكذا دواليك. إن العمل الجماعي عموماً لا ينساق وراء التجريبية أو المغامرة السياسية، ولكن يحرص على وضع تقديرات دقيقة نسبياً، يطرح من خلالها البرامج والسياسات المناسبة، ولكن نظراً لعدم توفر ضوابط العمل الديمقراطي الجماعي في المؤسسات الفلسطينية، فإن القيادة الفردية ظلت على الدوام، تتجاوز القرارات الجماعية، لأن مثل هذا التجاوز يتيح لها امكانية مواصلة نهجها التجريبي، دون رقابة أو ضوابط حقيقية.

وهذه الذهنية الفردية في العمل السياسي، لا تقتصر فقط على منظمة التحرير ككل، بل تجدها موجودة ايضاً في إطار كل تنظيم أو فصيل، وإن بنسب مختلفة. لذلك لم يكن غريباً اننا لم نشهد حدوث أي تغيير يذكر في مواقع قيادات الفصائل الفلسطينية، وان التغييرات التي حدثت قد اخذت شكل انشقاق تنظيمي وسياسي وسيظل العمل الفلسطيني يعاني من مسلسل الأزمات والتراجعات، ما لم يوضع حد لتجريبية القيادات المتنفذه، ومغامراتها السياسية.

حركة العلم الجذري في الولايات المتحدة

بقلم: جون باكوث

ترجمة: ابراهيم علوش

مقدمة المترجم

يتحدث المقال المعنون بـ «حركة العلم الجذري في الولايات المتحدة» عن نشأة بعض موضوعات هذه الحركة التي احدثت، ولاشك، بعض التغيير في المنهج الذي يُقيِّم به العلم، والاختراعات التكنولوجية في الولايات المتحدة. ان هذا التيار الجديد نسبياً لدى الانتلجنسيا الامريكة غير معروف تقريباً في الوطن العربي.

كما ان النضالات التي خاضتها، وتخوضها هذه الانتلجنسيا، تلقي ضوءاً على مايجب ان تكون عليه العلاقة بين الفكر والممارسة، بين العلم والعمل، وبين المثقف ومجتمعه. وهذا الموضوع على جانب عظيم من الاهمية بالنسبة للمثقفين العرب الذين قلما تُسمع اصواتهم في ميادين العمل والنضال.

ان العرب، وهم يقفون على اعتاب القرن الواحد والعشرين، لابد ان يعنوا كثيراً بالنتائج التي توصلت اليها حركة العلم الجذري بصدد العلم والتكنولوجيا. فأي نهضة حضارية، يشكل العلم احد مقوماتها، لابد ان تغربل وتمحص وتدقق ماتريد ان تتبناه من علوم وتقنيات الاخرين.

لقد ترجم هذا المقال من مجلة «المونثلي ريفيو» Monthly Reuiew وهي مجلة اشتراكية مستقلة تصدر شهرياً في نيويورك في الولايات المتحدة. وهي تنشر ايضاً بالايطالية واليونانية. وقد أخذ مقال «العلم الجذري» من العدد رقم ٣٨، صفحة ١١٨.

كان فرانك ميرر Frank Mirer يعمل لنيل الدكتوراه في الكيمياء وعينه على مهنة في مجال البحث الاكاديمي. وكان فران Fran Conrad يعلم الأحياء في ثانوية عليا وكان ريتش روزن Rich Rosen يعمل باحثاً فيزيائياً في مختبرات بروك هافين القومية. وكان ميكل جاكوبسن Michael jacobson يتابع دراساته لنيل درجة الدكتوراه في الاحياء الجزئية. اما كاثي يه Kathy yih فقد كانت تقوم بالابحاث في مجال السلوك الحيواني في اطار ابحاثها في علم الاحياء الاجتماعي Sociobiology.

اليوم، يدير فرانك قسم الصحة والسلامة في اتحاد عمال السيارات UAW ويعمل فران موظفاً في قسم الصحة العامة التابع لولاية نيوجرسي. اما ريتش فيرأس شركة استشارات خاصة للطاقة الى جانب فيزيائيين كانا اكاديميين سابقين. وتقدم هذه الشركة النصح الى مجموعات الاحياء، ومجموعات اخرى، في نضالها المتعلق بمسائل مثل الطاقة النووية وارتفاع معدلات اسعار شركات المنافع العامة. ويرأس ميكل مجموعة «مركز العلم للمصلحة العامة». وهي مجموعة حماية شنت عدة نضالات ناجحة ضد المواد الخطرة في الاطعمة، وتقوم بتزويد الجمهور بالثقافة العامة حول هذه المسائل. وبقيت كاثي يه التي تعيش الان في نيكارغوا، حيث تعمل كمستشارة بنيوية لحكومة ذلك البلد في قضايا الزراعة وغيرها.

ان واحداً من اهم العوامل التي ادت الى احداث التغيير في حياة الاشخاص الانفي الذكر، هو نمو الحركة السياسية الجذرية في الولايات المتحدة في نهاية الستينات. ولم تتمكن حركة العلم الجذري التي صعدت في تلك الفترة من تغيير حياة العديد من العلماء فقط، بل انها حوّلت مجرى النقاشات الدائرة حول القضايا العامة المتعلقة بالعلم ايضا. وقد تضمنت هذه القضايا مخاطر المهن الصحية والبحث الزراعي الاكاديمي، وتطوير الاسلحة والدي ان ايه DNA المعاد تركيبه، وعلم الاحياء الاجتماعي، وعلم الوراثة، والعلاقة بين الذكاء والعرق، والعديد من المجالات الاخرى في علم السلوك الوراثي، واخيراً، تشكك حركة العلم الجذري بفكرة الموضوعية العلمية التي طالما اعتنقها المجتمع العلمي.

اصول حركة العلم الجذري

بينما كان هناك شيء من تقليد العمل السياسي في صفوف العلماء في الولايات المتحدة، فأنه ليبدو ان هناك القليل من التواصل بين الحركات السابقة، والحركة التي صعدت في اواخر الستينات. لقد ظهر بعض هذا النشاط السابق بُعيد هيروشيما، عندما نظمت مجموعة من الفيزيائيين حملات من اجل نزع السلاح النووي، ووقف التجارب الذرية. وقد شُكلت في تلك الفترة فيدرالية العلماء الامريكيين و «نشرة العلماء الذريين»، التي لاتزال تصدر حتى يومنا هذا واستمراراً لنفس النشاط، وبينما كانت المناظرة حول سباق التسلح تزداد سخونة، قام بعض العلماء في الستينات من خلال فدرالية العلماء الامريكيين بالضغط وجمع التأييد في الكونغرس، ونشروا معارضتهم لأسلحة وطائرات معينة مثل مضادات الصواريخ البالستية Anti Billastic Missiles ووسائل النقل الفوق سمعية Supersonic وقد استخدموا خبرتهم العلمية للمناظرة ضد ملائمة او عملية سلاح معين. وشن البيولوجيون الحملات ضد الاسلحة الكيميائية والبيولوجية

ودارت المجابهات في اللقاءات الدورية للجمعية الامريكية لعلم الاحياء المجهري بصدد علاقة الجمعية بمختبر ديتريك، وهو اهم مختبر لابحاث الحرب البيولوجية. هذا ولعب العلماء دوراً بارزاً في المعارضة النشيطة لحرب فيتنام في الجامعات. فظهرت، مثلاً، الاعلانات في جريدة نيويورك تايمز، تحتج ضد الحرب حاملة توقيعات العديد من الاكاديميين، وبينهم نسبة عالية غير عادية ممن كانوا علماء.

وهكذا، تعلقت الجهود الاولى بعلماء اكاديمين اساساً، ممن استخدموا مكانتهم لمعارضة حالات محددة من اساءة استخدام العلم، او للاشارة الى النقائص التقنية لأسلحة محددة. وقد ناضلوا لتحقيق اهدافهم عن طريق الضغط في الكونغرس والعمل ضمن اطر المنظمات المهنية القائمة، ومن خلال تثقيف العـامـة، في حالات التجـارب النووية. وقد ابرزت عرائضهم للكونغرس وتصريحاتهم العامة توقيعات العديد من الحائزين على جائزة نوبل.

لعبت هذه المجموعات دوراً في رفع مستوى الوعي في المحيط العلمي بأن الامور لم تكن كلها على مايرام في ميدان العلم. على الرغم من ذلك، فأن هذه الجهود السابقة لم تكن بالنسبة لمعظم الذين صاروا نشطاء في حركة العلم الجذرية ماحثهم على الارتباط بالحركة. على الاصح، يمكن ايجاد جذور هذه الحركة في الاضطرابات السياسية التي تمحورت حول حرب فيتنام، وحركة الحقوق المدنية. اذ طور العديد من العاملين في العلم التزاماً اجتماعياً، واضحوا نشطاء سياسياً لافي قضاياهم العلمية، بل في هذه القضايا غير العلمية.

اسهمت احداث عدة عام ١٩٦٩ في تشكيل حركة العلم الجذرية ففي الرابع من اذار ذلك العام. شرع طلابٌ في جامعات عدة عبر البلاد باضراب عن الابحاث ليوم واحد ضد حرب فيتنام، محتجين بذلك على استخدام العلم لتطوير تقنيات من أجل الحرب. واحتجت مجموعة من الفيزيائيين الاكاديميين على استخدام كهذا للفيزياء في لقاء للجمعية الفيزيائية الامريكية. واتفق ان خرجت من نفس اللقاء منظمة العلماء والمهندسين من أجل العمل الاجتماعي والسياسي (SESPA) التي باتت فيما بعد جماعة «العلم من أجل الشعب». ثم دعي اعضاء من الـ SESPA الى القاء محاضرة في اللقاء الذي عقد عام ١٩٦٩ للجمعية الامريكية لتقدم العلم (AAAS) الذي كان سيعقد في بوسطن*. وحفز اجتماع الـ AAAS تأسيس جماعة في منطقة بوسطن. قامت بتنظيم عدد من المناسبات والجلسات ومنها ندوة عرضت في محطة التلفزيون العامة(٣) بعنوان «حالة العلم المؤسفة». وقد نظمت هذه الندوة من قبل طلاب الدراسات العليا، ومابعد الدراسات العليا في حقل العلوم اساساً، وشنت هجوماً في دفعة واحدة على الطرق التي يساء استخدام العلم بها. ولم تتعاط هذه الندوة مع مشاكل محددة مثل انظمة السلاح فقط، ولكن ايضاً مع الاخطاء الاساسية في العلاقات بين العلم والحكومة والقطاع الصناعي والشعب.

في غضون ذلك في اوروبا، كانت مجموعات من العمال العلميين في روما ونابولي وباريس، تحاول أن تجعـل بعض مؤسسـات الابحـاث اكثـر ديمقراطية، عن طريق المطالبة باتخاذ القرار جماعياً بصدد المشروعات العلمية، ومساواة الاجور ورفع مستوى ثقافة عمال المساندة. وتغيير اولويات الابحاث لتلبي حاجـات الفقراء والشعوب المضطهدة. وفي عام ١٩٧٠، احتلت المجموعة الجذرية في نابولي «المختبر

الدولي لعلم الوراثة والفيزياء الحيوية» طوال شهورٍ عدة، في محاولة لنيل المطالب الانفة الذكر.

ان التطورات الداخلية للحركة العلمية في الخمسينات والستينات، ربما تكون قد لعبت دوراً في توليد حركة العلم الجذري ايضاً. ففي مرحلة ميدان العلم، وتكاثر بسرعة عدد افراد المجتمع العلمي. وتحدى الشبان الجدد المزودين بدعم مالي وافر لأبحاثهم هيمنة العلماء الاقدم سناً والمترسخين في مواقعهم، ان ميزان القوى في العلم كان يتحول من مصلحة الاقلية ـ النخبة الى مصلحة هذا الجيل الجديد. وقد تعـدى هذا الـوضـع المسائل العلمية المحضة، الى تحدٍ للطرق الاقدم والاكثر نخبوية التي كان العلماء يتعاملون بها مع المجادلات الاجتماعية الناشئة في العلم. مثلاً، في ولاية ويسكونسن Wisconsin بينما شهد ملاك الكلية لمصلحة استعمال مبيد الد. د. ت DDT في الزراعة، قدم طلاب الدراسات العليا عرضاً يورد الحجج والوقائع المؤيدة لخطر الـ د. د. ت. DDT.

ان اتجاهاً جديداً في فلسفة العلوم كان يمارس تأثيره ايضاً. كان كتاب توماس كوهن Thomas Kuhn المنشور عام ١٩٦٢ وهو «بنية الثورات العلمية»، ومقالات وكتب بول فيرابند Paul Feyerabend تتحدى وجهة النظر الكلاسيكية بصدد علم موضوعي. وقد اشار هذان الفيلسوفان الى القوى النفسية والاجتماعية والسياسية التي تحدد سلفاً كيف يُفهم ويُمارس العلم.

اجتمعت كل هذه العوامل لتولد حركة العلم الجذري عام ١٩٦٩. وكانت أكبر واكثر المجموعات بروزاً مجموعة «العلم من أجل الشعب». فقد ظهرت هذه المجموعة بسرعة صفات فصلتها بشكل قاطع عن النشاط السياسي العلمي الذي سبقها، وخاصة سياستها المعادية للنخبوية. وبينما كان العديد من النشـطاء الجدد علماء اكاديمين شباناً، فان الاخرين ممن لعبوا دوراً مهماً في الحركة كانوا طلاباً. وفنيي مختبرات وأساتذة علوم في الثانويات العليا وعلماء صناعيين ومبرمجي كومبيوتر وممرضات. وانسجاماً مع توجههم اليسـاري الجـديد، فان المسائل التي اشتغلت بها هذه المجموعات اتسعت لتشمل مجالات لم تعالجها الحركات السابقة. وقد تضمنت هذه النشاطات الجديدة، فيما تضمنت، تقديم العون العلمي للبلدان الاشتراكية، والمساعدة التقنية للقطاعات الافقر في المجتمع، ومنهم العمال المهددون بالاتمتة Au-tomatem، او الـراغبين بالتعلم عن المخاطر المتعلقة بمهنهم، ومنهم المزارعون الذين يواجهون تسمم مبيدات الحشرات، التعاون مع المجموعات الجذرية مثل الفهود السود الذين يشتغلون بمشاكل الاحياء الصحية، ومحاربة الحجج العلمية المستخدمة لتبرير المركز الاجتماعي الدوني للنساء والاقليات وقد توازت هذه البرامج مع ظهور حركة الصحة الجذرية الجديدة التي احتوت مجموعات مثل «اللجنة الطبية لحقوق الانسان» Honon Rights Medical Committee For أو مجموعة Neath PAC.

بالاضافة الى ذلك، جعلت حركة العلم الجذري وجودها محسوساً في الاجتماعات العلمية المهنية المختصة، متحدية بهذا المؤسسات العلمية المختلفة التي كانت تعتبر وصيفات الحكومة والشركات. وقد عبأت منظمة «العلماء والمهندسين من أجل العمل الاجتماعي والسياسي» (SESPA) او جماعة «العلم من أجل الشعب» صفوفها بانتظام خلال اللقاءات السنوية للجمعية الامريكية لتقدم العلم» (AAAS) والجمعية الفيزيائية الامـريكية وجمعية أسـاتـذة العلوم القومية. وكانت من بين المجموعات النشيطة الاخرى في

المجموعات النشيطة الاخرى في الحركة «تقنيو الكومبيوتر من اجل السلام» و «لجنة المسؤولية الاجتماعية في الهندسة» (التي تصدر مجلة سبارك SPARK وهي تعرض دائماً المسائل التي تهم حركة العلم الجاذرية في اجتماعات «مؤسسة المهنسين الكهربائيين والالكترونيين» و «مؤتمر الكومبيوتر المتحد».

ان التكتيكات المتبناة كانت لسنوات «عديدة تكنيكات مواجهة مباشرة. فقد كانت مقاطعة المتكلمين المعتبرين رجعيين على وجه الخصوص. وكان الاعضاء يطالبون باعادة ترتيب الجلسات بما يفسح مجالاً لجمهور الحاضرين بالمشاركة. وقد يحصل احياناً ان يلغي بعض الممثلين الحكوميين خطاباتهم خوفاً من حصول تعطيل عليهم. وفي احدى المرات، اسُتدعي رجال الشرطة ووقعت على الاقل مواجهة دموية واحدة، خلال اجتماع للجمعية الامريكية لتقدم العلم AAAS اذ اصر المسؤولون على عدم السماح لجماعة «العلم من أجل الشعب» ان تضع طاولة توزع ادبياتها من عليها.

بعض موضوعات حركة العلم الجذري

١ ـ نقد العلم: شرعت حركة العلم الجذري تطوِّر نقداً للعلم ككل. وقد كشفت حرب فيتنام مدى سيطرة الحكومة والشركات الكبرى على اتجاه واستعمالات العلوم. ثم ان اساءة استخدام العلم اضحت تبدو في النهاية عاقبة طبيعية للنظام الرأسمالي. ففي البلاد، وجهت الشركات العلم نحو هدف تحقيق الارباح، بينما طفقت الحكومة تطور الة عسكرية، تطلبت احدث تكنولوجيا علمية. من أجل تشجيع مصالح الشركات خارج البلاد. وهكذا كان تطوير الاسلحة المسألة التي جذبت اشد الانتباه في البداية. اذ نُظِمت الاحتجاجات والخواطر البشرية Pickets دورياً ضد مختبرات الاسلحة التابعة لجامعات في بوسطن ونيويورك وماديسون (ولاية ديسكونسن)، وفي كاليفورنيا. وقد اجبرت الضجة الاعلامية الناتجة عن كل هذا جامعتي ستانفورد (Stanfoed) وام. اي. ت. MIT على قطع علاقاتها الرسمية مع مختبرات كهذه. وكشف الفيزيائيون في جامعة باركلي (Berkeley) وغيرهما، ودعموا بالوثائق دور بعض الاساتذة ذوي المقام في قسم جايسون (Jason Division) في معهد التحليل الدماغي (Institute For Defense Arahysis) التابع للحكومة. ثم صاغت منظمة «العلماء والمهندسين من أجل العمل الاجتماعي والسياسي» (SESPA) تعهداً بصدد الابحاث العسكرية، تَمّ تداوله عبر البلاد، وجمع توقيعات عدة. ونص التعهد: «اني اتعهد بعدم المشاركة في الابحاث الحربية او انتاج الاسلحة. كما اني اتعهد ان اقدم المشورة لتلامذي وزملائي كي يفعلوا الشيء عينه».

وكانت كلما وسعت حركة العلم الجذري بؤرة تركيزها الى ما وراء المسائل العسكرية، كانت كل مسألة جديدة تبدو مظهراً للمشكلة الاساسية، وهي سيطرة الرأسمالية على العلوم. مثلاً، كان البحاثة الذين ينظرون في اخطار الاسبستوس (الحرير الصخري غير القابل للاحتراف) (Asnestos) يموَّلون بأسراف من أصحاب مصانع الاسبستوس. وكانوا يصممون او يفسرون دراساتهم، بشكل واعٍ او خلافه، بحيث «يثبتون» ان الاسبستوس، لايشكل خطراً جدياً على الصحة. وكان العلماء الذين يدرسون

السلوك الانساني، يدّعون حيازتهم دلائل تفيد ان السود والنساء اكثر وضاعة من ناحية التركيب الوراثي من الرجال البيض. وكان المهندسون الزراعيون يطورون تقنيات زراعية، تفيد الشركات الزراعية على حساب العمال. وهكذا، في كل مرة، كان الاثرياء يستفيدون من العلم، وكان الفقراء والمضطهدين او شعوب العالم الثالث تعاني نتيجة لذلك.

وفيما يتعلق بالمرأة، واجهت حركة العلم الجذري نفس مشاكل التمييز ضد النساء التي واجهت اقسام اخرى من اليسار الجديد. غير ان مجموعة «العلم من اجل الشعب» ركزت منذ مسهل نشاطها على قضايا المرأة والعلم. ففي اجتماع «للجمعية الامريكية لتقدم العلوم» (AAAS) عام ١٩٧٠، تقدمت مجموعة العلم من أجل الشعب بثمانية مطالب، من أجل «مساواة النساء في العلم».

تمت الاشارة في فقرة سابقة، كيف قام كوهن (KUHN) وفييرابند (Feyrabend) برفع درجة اليقظة بصدد العوامل غير الموضوعية في العلم. المهم، ان حركة العلم الجذري، تبنت ووسعت تحليل كوهني وفييرابند، ثم جزمت بأن الموضوعات التي اختار العلماء الاشتغال بها، والطريقة التي قاموا بها بابحاثهم، والاستنتاجات او المنتجات التي توصلوا اليها، كانت كلها متأثرة بشدة بعوامل سياسية واجتماعية. «العلم ليس حيادياً»، اصبح هذا المبدأ أحد موضوعات حركة العلم الجذري.

٢ ـ علم الشعب: بناءاً على هذه النظرة حاولت حركة العلم الجذري ان تقلب العِلمَ على رأسه. لن يخدم العلم الموسرين بعد الان. بل يجب أن يُطوَّر «علم الشعب» ليفيد المحتاجين.

انتقلت حركة العلم الجذري من معارضة الحرب، الى تأييد شمال فيتنام بنشاط. فقام مشروع «العلم من أجل فيتنام» الذي انشأه اعضاء من «العلم من أجل الشعب في بداية السبعينات في منطقة غرب الوسط. وبُعثت المساعدات العلمية مثل الالات والمجلات الى شمال فيتنام. وزار العلماء شمال فيتنام للمساعدة في تطوير الخبرة العلمية الفيتنامية. وقد قامت مشاريع الدعم على اسا مبدأ ان النضالات التحررية والدول النامية التي تختار خطاً اشتراكياً تقدمياً تستحق الدعم.

ان هذه الموضوعية مازالت تستحوذ على الحركة اليوم، مثلاً، ان المجموعة الزراعية للعالم الجديد (The New World Agriculture Group) وهي مجموعة مؤلفة من علماء زراعيين اكاديمين، واعضاء من جماعة «العلم من أجل الشعب»، ارسلت العلماء الى نياكارغوا. ويساعد علماء المجموعة الزراعية النيكارغوين على محاربة امراض النباتات، بينما يتجنبون في الان عينه الاكثار المدمر لاستعمال مبيدات الحشرات الزراعية. هذا بالاضافة الى ان علماء الكومبيوتر شكلوا مجموعة التكنولوجيا لنيكارغوا (Technica) لمساعدة النيكارغوين على تطوير مواردهم في مجال الكومبيوتر.

لقد ركزت الحركة دائماً على المسائل التي يؤثر فه العلم والتكنولوجيا سلبيا على الفقراء والطبقة العاملة. ان تعرض العمال لمخاطر تهدد صحتهم وسلامتهم في مهنهم شد انتباه حركة العلم والصحة الجذريين باستمرار. وتشكلت «لجان الصحة والسلامة المهنين» (COSH) عبر البلاد تزود العمال بالمعلومات المتعلقة بالتلوث الصناعي والاخطار الاخرى. وقد سمح التعاون الوثيق بين اتحادات العمال ومجموعات الصحة والسلامة COSH للعمال، في حالات عديدة، ان يقاتلوا بشكل اكثر فعالية لتحسين ظروف

عملهم.

٣ ـ العلم كايديولوجيا: شهدت نهاية الستينات وبداية السبعينات اعادة احياء قصة علمية قديمة مكررة الى حد الابتذال، الحتمية البيولوجية. وابتداءاً من عام ١٩٦٩، مع ادعاء العالم النفسي في جامعة كاليفـورنيا (University Of California) البرفسور. ارثور جانسن (ARTHUR JENSEN) بأن السود اقل شأنا من الناحية البيولوجية، كان هناك تكاثر ملحوظ لافكارٍ كهذه. لقد نال عالم النفس في هارفارد (Harvard) البرفسور ريتشارد هارينشتين (Richard Herinetien) الكثير من الشهرة عام ١٩٧١ لابحاثه ان البنية الطبقية في المجتمع مُقررة بيولوجياً. وادعى الباحثون من دراسي الذكور وذي كومرسوم واي (٧) الاخصائي (الذكر الذي لديه XYY بدل XY)، ان خلفية وراثية للاجرام قد اكتشفت وبدأت تظهر نظريات تقترح ان النساء اوضع في تركيبتين الوراثية من الرجال، وان مركزهن في المجتمع وموقعهن كربات بيوت محتم بيولوجيا. وقد حظيت هذه الحجج بشعبية واسعة بعد ظهور كتاب أي. او. ويلسن (E. O. Wilso) العالم البيولوجي في جامعة هارفادر Harvard عام ١٩٧٥، «علم السسيوبيولوجيا: التركيب الجديد» (Sociobiology The New Synthesis) ان حجج ويلسن هذا بان النساء لن تتمكن ابداً من الوصول الى ما وصل اليه الرجال في مجالات «الاعمال الحرة، والعلوم، والسياسة» قدمت رداً علمياً ظاهرياً على حركة تحرر المرأة.

اذا اخذنا بعين الاعتبار حرص مجموعة «العلم من أجل الشعب» على المضطهدين، ومعرفتها بالطبيعة غير الموضوعية للعلم، فلسنا نعجب ان هي اطلقت حملة نقدٍ شامل لنظريات الحتمية البيولوجية. لقد كشفت المجموعة المغالطات العلمية في هذه النظريات، وعرضت التحيزات السياسية والاجتماعية التي تقوم عليها. وتضمنت النشاطات مجابهة خطباء مثل جانسن وويلسن، وتنظيم حملة لدحض هذه النظريات في الاجتماعات العلمية، والنشر واسع النطاق والابراز العلني للانتقادات عليها. وفي عان ١٩٧٥ اوقفت مجموعة «العلم من أجل الشعب» بالتحالف مع مجموعات اخرى، بنجاح، برنامجاً لفحص المواليد الذكور الجدد بحثاً عن كرمسوم واي (٧) اضافي لديهم.

مواقف معادية للعلم في حركة العلم الجذري

ان هنالك مواقف ثلاث على الاقل بصدد التقدم التقني لازالت تتنافس على كسب التأييد في صفوف حركة العلم الجذري. اولاً، بالنسبة لنموذج (Model) اساءة او حسن استعمال العلم والتكنولوجيا،يسهم التقدم التقني في عملية الارتقاء نحو عالم افضل، غير ان هذا التقدم يمكن ان يساء استخدامه. وتقول القوى التقدمية التي تتبنى هذا النموذج، ان اكثر حالات اساءة تشغيل العلم والتكنولوجيا، تعود الى تمركز السلطة في ايدي القطاعات الفنية من المجتمع. وبالتالي، يكمن الحل في العمل على توجيه التكنولوجيا، بحيث يمكن استخدامها لغايات مفيدة.

اما الاتجاه الثاني فيقوم على مفهوم لاحيادية العلم، اذ يعتبر ان هنالك مجالات تقنية وعلمية معينة، تنشأ فقط من حاجات الطبقات الموسرة اليها. وبالتالي، فهي اما ان تكون قد ابُتكرت كاداة للسيطرة

الاجتماعية، وانها غير ذات فائدة بالنسبة لمعظم جماهير الشعب، ان تطوير تقنيات من الضرب الذي يكون القمع او التدمير في صلبه يجب ان يعارض بقوة.

اخيراً، يبقى الموقف الذي يتجلى اكثر مايكون في خطر حركة «تخضير / تشجير امريكا» المعادية للثقافة السائدة، ويرى هذا الاتجاه ان معظم مشاكل العالم تنشأ من تطورات التقنيات الجديدة. وغالبا مايعبر هذا الموقف عن نفسه بالمعارضة الفورية لاية تقنيات جديدة.

وعلى الرغم من ان حركة العلم الجذري تتألف من العلماء في معظمها، وبالرغم من انها تدعو الى مفهوم «علم الشعب»، فقد كانت هناك بعض القضايا التي ظهر ان الحركة تتخذ موقفاً معادياً للعلم فيها. ان واحـدة من تلك القضـايا هي المجادلة بصدد الدي. ان. ايه DNA المعاد تركيبه. لقد دعم العلماء التقدميون عن وجه حق اولئك الذين اثاروا الاهتمام بصدد المخاطر الصحية المحتملة لابحاث الدي. ان. ايه DNA والذين حذروا من المعاني المتضمنة البعيدة المدى لعلم الهندسة الوراثية عند الانسان(*) لقد هاجموا مبدأ الرقابة الذاتية عند العلماء الذين يكسبون الرزق بفضل ابحاث كهذه. واشاروا الى ان العديد من المشاكل التي قال العلماء انها يمكن ان تحل بواسطة ابحاث الدي. ان. ايه DNA المعاد تركيبه، مثل المجاعة العالمية، ليست الا مشاكل سببتها ظروف اجتماعية، ويمكن حلها بالتالي عن طريق تغيير هذه الظروف. وقـالوا ان التركيز على الحلول الوراثية لمشاكل العالم تشتت الانتباه عن الجهود التي يجب بذلها من أجل احداث التغيير الاجتماعي.

علاوة على ذلـك، إن المعـارضة الدائبة لتقدم ابحاث الهندسة الوراثية، والتي عبرت عن نفسها بنداءات لتمديد فترات تعليقها ولضبطها ضبطاً صارماً، اعطت انطباعاً جلياً بأن العديدين في حركة العلم الجذري لم يكونوا بداعين الى المزيد من الحذر فقط، بل كانوا يسعون في الواقع الى وقف هذه الابحاث نهائياً. في الحقيقة، ان العديدين منا (ومنهم المؤلف) شعروا بأن الاخطار عظيمة الى درجة، تكون معها احسن حالاً بدون ابحاث الهندسة الوراثية.

ومع ذلك، فان التقنية البيولوجية (Biotechnology) ليست هدامة في طبيعتها، ولم تطور كاداة للسيطرة الاجتماعية. ان هناك الكثير من المكاسب المهملة المحتملة منها في الطب (اللقاحات مثلاً) والمنتجات الصناعية، والابحاث البيولوجية الاساسية، ان حركة العلم الجذري، بموقفها الواضح والسلبي كليا من هذه الابحاث، لم تترك نفسها في موقعٍ يسمح لها ان تناقش الاجراءات الواجب اتخاذها للتحكم باتجاه الابحاث الوراثية.

ان هناك امثلة اخرى حيث اضعف تحليل الحركة في مسائل هامة موقفاً معادياً للتكنولوجيا وتتضمن هذه المسائل التقنيات التناسلية، والطاقة النووية، ومكوك الفضاء.(٦) ان كل من هذه التقنيات يعاني من مشاكل خطيرة ناشئة عن الطريقة التي طُورت بها في مجتمعنا. ولكن هل يعني هذا انه تجب معارضتها لذاتها؟ هل يتم تجاهل المكاسب الهامة للتصوير ماقبل الولادي، بسبب القلق من الطرق التي يمكن ان تستخدم فيها التقنيات التناسلية للتحكم بالنساء؟ هل كوبا مخطئة في بناء خطط طاقة نووية؟ هل هناك وظائف مكوك الفضاء (مثل اكتشاف الفضاء والعمليات الصناعية، الخ) يمكن لها، تحت ظروف السيطرة

الملائمة، ان ترتقي بمعرفة ورفاهية الانسان؟.

ان اجوبة هذه التساؤلات غير واضحة، لكن بتجاهلنا والتركيز على معارضة التقنيات اساساً، اعطت حركة العلم الجذري نفسها احياناً مظهر المعادي للعلم.

انجازات حركة العلم الجذري

لقد كان لحركة العلم الجذري تأثيراً هاماً على مجرى العديد من المناظرات العلمية، لقد جعلت الانتقادات الموجهة ضد نظريات الحتمية البيولوجية من الصعوبة بمكان اعادة الشباب لادعاءات مثل تلك التي اطلقها جانسن (Jensen) بصدد العلاقة بين العرق ومستوى الذكاء (IQ) اما تخمينات علماء الاحياء الاجتماعي (Sociobiologsts) والتي كانت تستقطب الانتباه الواسع النطاق والقليل التمييز للجمهور، فقد جعلها تدخل جماعة «العلم من أجل الشعب» مثيرة للجدل. وبينما كانت بعض جوانب تدخل حركة العلم الجذري في مسألة الدي ان. ايه (DNA) المعاد تركيبه تحتمل النقاش، فأن افعال الحركة ادت الى المزيد من المشاركة الجماهيرية في المناظرة الدائرة. ثم ان العديد للاشراف على الابحاث موضع النقاش. وقد حدث هذا جزئياً نتيجة لضغط جماعات مثل «العلم من أجل الشعب».

هذا، وكان اعضاء حركة العلم الجذري الذين انتقدوا الابحاث الزراعية القائمة في الجامعات لانحيازها للصناعة شركاء في دعوى قضائية في ولاية كاليفورنيا سعت لتوجيه هذه الابحاث في مسار آخر. وفي اوج الحركة، كانت العديد من لقاءات الجمعيات العلمية مليئة بالندوات حول المواضيع المثيرة للجدل. وكانت هذه اللقاءات عادة مشد مجابهات حول مسائل مثل الابحاث العسكرية ومساواة النساء والاقليات.

وبينما اختفت هذه النشاطات، فان تأثيرها لايزال قائماً في العديد من هذه الجمعيات. ان لقاءات الجمعية الامريكية لتقدم العلوم (AAAS) مثلاً، اكثر اهتماماً الان بالناحية الاجتماعية في موضوعاتها. كما ان العديد من الندوات في هذه اللقاءات تفاد من اعضاء في حركة العلم الجذري. وقد حدثت تغييرات مماثلة في لقاءات جمعية الصحة العامة الاميركية (Public Healhh Associton APHA American) ان رئيس الجمعية عام ١٩٨٥ كان عضواً في المجموعة الانتخابية الاشتراكية في الجمعية. كما ان العديدين مما كانوا يمارسون، او يعلمون العلوم في ذروة قوة حركة العلم الجذري تأثروا تأثراً عميقاً بها. لقد غير بعضهم مهنته، وعدل اساليب تدريسه، واعاد توجيه عمله، املاً ان يفيد القطاعات الافقر في المجتمع او الدول النامية التقدمية.

من ناحية ثانية، لقد اخذت عملية تسيس العلم بالاعتبار في حركة العلم الجذري. ففي علم الاحياء، كان تطوير الدي ان. ايه DNA المعاد تركيبه، واندماجه السريع في النظام الصناعي مغرياً في ابعاد علماء عدة عن الصم الاجتماعي ونحو كسب المال. ان بعض العلماء الذين عملوا في الحركة، في ايامها الاولى، اضحوا الان قيادات في شركات تقنية بيولوجية.

وبالرغم من ان افول نجم الحركة التقدمية اوهن قوى حركة العلم الجذري، «العلم من اجل الشعب» (Science For The Peple) ومجموعات «لجان السلامة والصحة المعنيين» - (Commiteas on Occupa -

Tional Safety and Health (COSH) و « اختصاصيو الكومبيوتر من أجل المسؤولية الاجتماعية » - Committee For Social Responsibility و « المجموعة الزراعية للعالم الجديد » Agticuture Group و « مجموعة التكنولوجيا لينكارغوا » Technica ومجموعة Healh PAC والمجموعة الانتخابية الاشتراكية في جمعية الصحة العامة الاميركية Socialist Cambus Ofthe American Public Healh Associahon وغيرها ، وعلى الرغم من ان تكتيكات المجابهة المباشرة لم تعد في مقدمة نشاطات هذه المجموعات ، فانها ما انفكت تقدم اسهامات رئيسية في المناظرات الدائرة حول القضايا العلمية والتقنية ، وما برحت تقدم المساعدات التقنية للجماعات قليلة الحول .

هوامش

١ - جون باكوث برفسور ابحاث في قسم الميكروبيولوجيا وعلم الوراثة الجزئيين في مدرسة هافارد الطبية .

)٢) ان الجمعية الامريكية لتقدم العلم منظمة تمثل كل الاختصاصات العلمية ، وهي تصدر مجلة «العلوم» وتنظم العديد من البرامج لتشجيع العلم عند الجمهور. ان معظم المواجهة منذ عام ١٩٦٩ حتى اليوم تعلقت بالروابط القوية بين الجمعية والحكومة والقطاع الصناعي .

(٣) ان معظم محطات التلفزيون في الولايات المتحدة ملك شركات خاصة. وبالتالي عندما يقال «محطة التلفزيون العامة» يكون المقصود احدى المحطات التي تملكها مؤسسات عامة مثل الجامعات غير الخاصة او الدولة - المترجم .

(٤) أشر ارسال القمر الصناعي سبوتنك الى الفضاء الي تفوق الاتحاد السوفياتي على الولايات المتحدة في بعض المجالات العلمية. كما ان الاتحاد السوفياتي كان قد سبق الولايات المتحدة الى تطوير برامجها التعلمية، وتشجيع القطاع العلمي والاكثار من الانفاق عليه - المترجم .

(٥) علم الهندسة الوراثية علم حديث نسبياً ويهدف الى التحكم في الجينات الوراثية التي تحدد شكل المرءاو صفاته الخلقية والخلقية. وتقوم نظرية علم الهندسة الوراثية على اعادة تركيب الدي ان ايه. الذي تتكون منه الجينات الوراثية بحيث يمكن ازالة النواقص التي يمكن تحديدها في الحالة الايجابية، او خلق نواقص في الحالة السلبية. واذا تطرفنا في احتمالات تطور ابحاث الهندسة الوراثية لقلنا انه سيكون بالامكان خلق انسان كامل، او جيش من العمال بلا عقل. وهذا مايخافه اعضاء حركة العلم الجذري وهذه مجرد تعرفة عامة جداً بالموضوع

(٦) يقول بعض اعضاء حركة العلم الجذري ان معظم برامج مكوكات الفضاء جزء من خطة لعسكرة الفضاء وهي ليست بابحاث مدنية على الاطلاق.

اما بالنسبة للطاقة النووية، فيدعو بعض افراد حركة العلم الجذري الى اغلاق كل محطات المفاعلات الذرية باعتبار ان الاخطار الناشئة اكبر من قدرة الانسان على السيطرة عليها. وقد دعت مجلة الغارديان اليسارية الامريكية المستقلة الى اغلاق كل المفاعلات النووية عقب حادثة تشرنوبل في الاتحاد السوفياتي - المترجم .

الصهيونية والثورة المضادة ـ من تاريخ روسيا القيصرية

بقلم يفغيني يفسييف*
ترجمة: د. عطا الله الرمحين

ركزت البرجوازية اليهودية في بلدان أوروبا وروسيا القيصرية كل جهودها من أجل السيطرة على سكانها اليهود في صراعها الآيديولوجي ضد القوى الوطنية والتقدمية في هذه البلدان. وقد اعتبر اليهود في امبراطورية رومانوف بشكل خاص، قاعدة ومصدراً للاحتياطات البشرية، ترفد المنظمة الصهيونية العالمية، وتسهم في نشاطها التخريبي. وقد اعترفت الصهيونية، منذ القديم، بضرورة إيجاد قواعد بشرية واسعة، ليس في وسط البرجوازيين اليهود فقط، ولكن داخل الشرائح اليهودية الكادحة.

وقد تبلورت في هذه المرحلة الاسس النظرية والفكرية والسياسية «للرسالة التاريخية لليهود»، و«الجماعة الروحية الواحدة»، و«الظاهرة التاريخية»، آخذة بعين الاعتبار نشاط الأسلاف في القرون الماضية والحياة الخاصة للشرائح اليهودية الفقيرة، ولعبت الدعاية اليهودية، والحاخامون، والجهاز الخاص الاجتماعي الديني، والأشكال المتنوعة للعيش المشترك اليهودي، والطوائف اليهودية وروحانيتها، والتي تعكس بشكل واضح عرقيتها وتعصبها الديني، والطغمة المالية العليا، والتلموديون، والكليروس، أي «العلماء»، و«المفسرون» لما يسمى «القانون». الذي أسماه ماركس بالقانون الوهمي الباطل الذي يتناقض مع ظروف ومطالب الحياة الواقعية، دوراً كبيراً في تبلور هذه الأسس.

يفغيني يفسييف: كاتب وعالم ومناضل سوفياتي، صديق للعرب اغتيل يوم ١٧/٢/١٩٩٠.

● فصل من كتاب الصهيونية: الايديولوجيا والممارسة للكاتب المناضل يفغيني يفسييف. وقد ترجمه د. عطا الله الرمحين بمناسبة اغتيال المناضل يفسييف.

لقد سعت البرجوازية اليهودية التجارية، وفقاً لمصالحها الأنانية إلى تطبيع الدينية اليهودية، ونقلها إلى ظروف الحياة المعاصرة، وفرضت على الشرائح اليهودية الفقيرة «الاعتقاد الروحي الواحد». وقد لقيت العزلة الدينية والذاتية السياسية، التي تتطلب إلغاء أي شكل لوحدة الكادحين اليهود مع كادحين من معتقد آخر في صراعهم الطبقي ضد المستغلين، واستخدم البرجوازيون اليهود «الوحدة» مع البرجوازية اليهودية من أجل مصالحهم الخاصة الضيقة، ومن أجل العمل ضد المجموعات الأخرى المزاحمة في السيطرة على أوضاع وعلاقات الانتاج في النظام الرأسمالي.

وأصبحت المنظمات السياسية البرجوازية اليهودية تكوّن في أنظمة العلاقات، في ذلك الزمن، احتكاراً تجارياً مغلقاً مرابياً يضم عدداً من الاحتكارات القديمة في العالم الرأسمالي. وظهرت هذه الاحتكارات في البلدان المتطورة قديماً وحديثاً في النصف الأول من القرن الماضي، بشكل اتحادات وجمعيات تحمل طابعاً ماسونياً. وتنتمي إلى تلك الاحتكارات على سبيل المثال المنظمة الماسونية السرية «بناي بريت» (التي تأسست في عام ١٨٤٣ في أمريكا الشمالية، وأصبحت في وقتنا الحالي تنظيماً عالمياً يشمل محافلاً مستقلة، بلغ عددها أكثر من أربعة آلاف (في أكثر من خمسين دولة). وقد أسست محافلها بشكل سري في روسيا في أعوام الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر، وضمت في صفوفها أصحاب البنوك الكبار وأصحاب المشاريع مثل: إيليا كوفيخ وبرود سكيخ وبورغوف وآخرون. وقد تأسس «الاتحاد الاسرائيلي العالمي» في عام ١٨٦٠ في فرنسا تحت غطاء صاحب البنوك عائلة روتشلد، وهو يعمل حتى الآن في دول نصف الكرة الارضية الشرقي والغربي / كظل/ مؤثر تابع للمنظمة الصهيونية العالمية، ويعتبر «الاتحاد الاسرائيلي العالمي» صورة طبق الأصل عن «المنظمة الصهيونية العالمية». وقد جهز من أجل ظهورها، ليس أرضية وظروفاً مناسبة فقط، وانما أشكالاً تنظيمية، وقام عملاء «الاتحاد الاسرائيلي العالمي» بأعمال كثيرة وسط الطوائف اليهودية في روسيا القيصرية، وخلال ١٣ سنة بعد تأسيس أول خلية على حدود الامبراطورية، اتخذ قادة «الاتحاد الاسرائيلي العالمي» في باريس قراراً بتأسيس ٤٠ لجنة محلية في مناطق مجاورة لروسيا، في ألمانيا والنمسة وهنغاريا. وقد شكلت هذه اللجان في عام ١٨٨٣ «حزامين ـ يساري تحت اشراف برام ببرغير والحاخام كينغ سبيرغ، ويميني ـ تحت زعامة الحاخام زاندينبيرغ في مدينة ليفنتس» . وكانت هذه الشخصيات أعضاء في اللجنة الباريسية للاتحاد الاسرائيلي العالمي. وهي تقود وتوجه نشاط اللجان المحلية للتنظيم. وقد أعطاهم الاتحاد مهمة ادارة «القضايا الروسية»، وتحت هذه المهمة، تبنيت سياسة عزل السكان اليهود الروس عن السكان المحيطين بهم، ونشر في أوساطهم أحلاف الغيتو. وأسست اللجان المحلية على الجبهتين سلسلة كاملة من المحطات التي ضمنت لهم إمكانية التنقل عبر الحدود من الجانبين. وقد نفذوا أيضاً داخل الحدود وظائف اقتصادية سياسية محددة، كان جوهرها استمالة (وتجنيد) المواطنين اليهود من شتى الشرائح الاجتماعية للتعاون مع «الاتحاد». واستخدموا من أجل ذلك الحاخامات للمشاركة في «نشر التنوير وسط اليهود»، إضافة إلى ذلك، ضمنت لجان «الاتحاد» أمن المهربين والحفاظ على البضائع المهربة... إلخ.

وظهر على الساحة السياسية في تلك الاعوام، الآيديولوجي والطبيب الأوديسي الصهيوني ليو

بنسكر، والعميل التجاري (تاجر الشاي) فيوتسكي، و آ. جينسبيرغ الذي تحدث في كتاباته عن تركيب اليهودية الرجعية المتطرفة، ونظريات عنصرية تتناسب مع تلك الاوقات، وأشار إلى العروق «الدنيا» و «العليا». . وبرز بشكل كبير الفيلسوف الصهيوني والمؤرخ، فيما بعد، س. دوبنوف. وقد ارتبط باسم هذه الشخصيات ظهور جمعيات دينية وسياسية وثقافية كاذبة. فقد أسس الزعيم بنسكر بمساعدة الكليريكين محفل «أحباء صهيون» وخلال مدة قصيرة فتحت له فروع في مجموعة من المدن الكبرى.

لقد أقام «أحباء صهيون» صلة مباشرة مع الاتحاد الاسرائيلي العالمي، ومع منظمة «بناي بريث» و «الجمعية اليهودية الانكليزية» وتعاونوا بشكل وثيق مع «جمعية نشر التنوير بين يهود روسيا»، التي اختفى تحت يافطتها الجناح الروسي للاتحاد الاسرائيلي العالمي، والذي تأسس في مدينة بيتربورغ في عام ١٨٦٣.

لقد خرجت آيديولوجية «أحبّاء صهيون» بشكل مباشر من الدينية اليهودية، الملونة بصبغة دينية تصوفية معبئة بالكره والاحتقار «للمشركين»، وهم حسب تعاليم التلمود، كل الناس غير المؤمنين بالعقيدة اليهودية. وقد التحق في محفل «أحباء صهيون» في عام ١٨٨٤، جينسبرغ، بعد أن عاد من سفره إلى الخارج حيث عاش هناك عامين، زار فيينا وبرلين ويريسلافل، وقد تبين في هذه الفترة بأن جينسبرغ أقام علاقات رسمية مع مجموعة من الشخصيات البارزة في قيادة الاتحاد الاسرائيلي العالمي، وأقام أيضاً علاقة خاصة مع ك. بيتير. الذي شارك بنشاط في تأسيس وتوسيع نشاط هذه المنظمة. وقد رأي جينسبيرغ بعد خمسة سنوات من العمل المشترك مع ل. بينسكر في أديسا في إطار محفل «أحبّاء صهيون»، إمكانية التوقف ونقد طرق عمل «أحبّاء صهيون»؛ الذي حسب رأيه لم يقيم أهمية للعمل المشترك الموحد، وإنما أعطوا تفضيلاً للفردية، وقد نشرت الصحيفة اليهودية «غاميليشن» مقالة جينسبيرغ :/ هذا طريق غير صحيح / موقعة باسم أحدها عام/ أي واحد من أبناء الشعب /. وأثارت هذه المقالة وسط قرائها نقاشاً حاداً. ففي هذه المقالة، اقترح أحدها عام على اليهود الاعتراف «بأفضليتهم»، وطلب منهم أن يضمنوا لنفسهم «النشاط» المستمر، وتحقيق المهام الموضوعية المحددة في التاريخ «لقيادة العالم»، منفذين بذلك مطالب المركز الباريسي للاتحاد الاسرائيلي العالمي في تأسيس جمعية سرية باسم «بناي موشي» (أبناء موسى) تقر قوانين قاسية للحصول على العضوية، وأشكال خاصة للطقوس والتنوير، بما فيها الواجبات وتنفيذ الأوامر دون تردد، وتطبيق أراء قائد الجمعية السرية. لقد كان أحدها عام مطلعاً على التلمود وعلى العلوم الصوفية اليهودية بشكل جيد. وكان مرتبطاً بشكل وثيق مع الحاخامات المؤثرين، وعزز هذا الارتباط زواجه من ابنة الحاخام ميناحيم مينديل حاخام مدينة ليوبوفيتش، وهذا أعطاه دفعاً كبيراً وبالتالي شهرة عالمية.

وقد تطورت بسرعة شهرته الذاتية كأيديولوجي وقائد سياسي لجمعية جديدة. وظهر محفل «بناي موشي» في مدن كثيرة من روسيا والنمسا وهنغاريا وفرنسا وانكلترا وألمانيا وبلدان الشرق الأوسط. وقدم الاتحاد الاسرائيلي العالمي الدعم الكبير لنشاط أحدها عام في توسيع «جغرافية» تنظيميه، ولكن لم تستطيع اللجنة الباريسية للاتحاد الاسرائيلي العالمي، رغم كل الجهود أن تقيم قاعدة جماهيرية في روسيا لأنها لم تستطع التغلغل في عمق الشرائح اليهودية، وإنما عملت فقط وسط المستغلين والطفيليين اليهود. ويمكن النظر إلى نشاط الاتحاد الاسرائيلي العالمي والجمعيات السرية المرتبطة به في روسيا في أعوام السبعينات

والثمانينات من القرن التاسع عشر. ففي هذه المرحلة، نرى الإعداد الصهيوني الدعاوي المكثف للدعوة اليهودية، حيث أصبحت الشرائح المالكة من السكان اليهود مصدراً للوسائل المادية الضرورية من أجل نشاط جمعيات قومية وأحزاب برجوازية يهودية مختلفة. وقد وصفت هذه الأعوام بأعوام التعزيز لمواقع الرأسماليين اليهود في أنظمة اقتصاد روسيا القيصرية، أما ما يخص المضايقة؛ التي فرضها الحكم المطلق على السكان اليهود، وظهور العداء للسامية في أعوام الثمانينات، فقد عرقلت توسع نشاط البرجوازية اليهودية في روسيا. ومنذ بداية القرن العشرين وقع في أيديها السوق المحلية في أوكرانيا وبيلاروسيا ولاتفيا . وقد اتخذت البرجوازية اليهودية من أجل الحفاظ على مواقعها الاقتصادية تدابير سياسية خاصة، واضعة أمامها هدف تحييد الأوضاع الثورية وعرقلتها وسط الكادحين اليهود، وذلك بمساعدة التحريض المعادي للاشتراكية واشعال نار العداء الديني والتعصبي.

وقد بدأت منذ عام ١٨٩٧، أي بعد مؤتمر بال الصهيوني، وتأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، مرحلة جديدة من نشاط البرجوازية اليهودية الخارجية. وقد رافق الوحدة السياسية وحدة اقتصادية، وتشكلت سنديكات وكونتريات وتروستات وكارتيلي يهودية، وشغلت القوى البرجوازية اليهودية مكانة بارزة في قطاع المال والقروض المصرفية. وكان من الشخصيات المالية البارزة في روسيا البارون جوراتس وجينزبيرغ؛ وهو أحد ملاكي المناجم الذهبية وفي عام ١٩١٢، المصرفي المسكوفي بولياكوف . الذي ساهم بقتل العمال بشكل جماعي. وقد دعم عمله هذا كل من المليونير فافيلسبيرغ، وارشافسكي وفيسوتسكي وجورفتش، وتوغان، ستيليزبيرغ وآخرون.

لقد أثرت البرجوازية اليهودية تأثيراً كبيراً في المؤسسات التجارية الكب في روسيا، وسيطرت على البنك الروسي الآسيوي الذي ظهر بعد إفلاس البنك الروسي الصيني، وعلى البنك الشمالي. وأقامت علاقات وطيدة مع الجهاز الحكومي ورأس المال الأجنبي ووقع البنك التجاري الأوديسي تحت السيطرة الكاملة للبرجوازية اليهودية. وملكت جمعية الضمان الاجتماعي «مولغا» مواقع مؤثرة في البنك الروسي الانكليزي والروسي الفرنسي، والأزوفو- دانسكي، والبنك التجاري السيبيري والبنك التجاري الوارسي. ومن الواضح، أن الأسس المالية التي تقوم عليها البنوك، هي ملكيات خاصة لآلاف المؤسسات الصناعية والتجارية. وملكت أيضاً البرجوازية اليهودية امكانية التأثير الفعال على الحياة السياسية في البلد. وقد أشار الباحث الامريكي من أصول روسية ب. سموليار في كتابه «اليهودية الروسية اليوم وغداً» /١٩٧١/ إلى أن «الارستقراطية اليهودية الروسية لعبت دوراً هاماً في العاصمة القيصرية» .

لم تتعرض الارستقراطية اليهودية إلى الفقر والحرمان، ولم ترَ فقر ومصائب الشرائح اليهودية الكادحة، ولم تتعرض إلى المذابح الجماعية ولا للتنظيم السياسي. وقد كتب ماركس عن أوضاع أوروبا المتشابهة في القرن التاسع عشر قائلاً «إن التناقض بين السلطة السياسية لدى اليهود، من حيث الممارسة وحقوقهم السياسية، هو التناقض بين السياسة والسلطة النقدية، وبنفس الوقت رأى أفكار السلطة السياسية ترتفع فوق السلطة الاقتصادية وهذا في الواقع جعل هذه الأفكار عبدة لها» .

وبشكل كامل تعززت آراء ماركس بحقائق الواقع الموضوعي في روسيا القيصرية المعادية لليهودية،

وفلسفة «ملامح الحضارة». رغم ذلك برزت السلطة الحقيقية للبرجوازية اليهودية أكبر من حجمها رغم تحديدها من قبل الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا. وقد حدد الخوف من الثورة الناضجة، سلوك الصهيونيين حيث عملوا مع السلطة لضرب أيديولوجية وممارسة البلاشفة المعبرة الحقيقية عن المصالح الجذرية للطبقة العاملة والفلاحين الروس.

وقد أعلن الصهيونيون بأن الاشتراكية عدو مميت، وبدأوا يعملون بكل الطرق والوسائل، وعلى المستوى العالمي، لاضعاف تأثير الأفكار الاشتراكية مع الجماهير الكادحة. وقد اقترحوا على العمال اليهود نوعاً «خاصاً» من الاشتراكية يقوم على قاعدة الانفراد والانعزال الديني العنصري و «جماعة المصالح اليهودية». وقد تشكل على الفور بعد تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية الاتحاد العمالي اليهودي العام في ليتفا وبولندا وروسيا ـ البوند. وقد فسر الصهيونيون ولادة البوند بأنه «هدف» يُراد منه تأسيس تنظيم يهودي عمالي خاص» . وقد أعلن القائد الصهيوني جابوتينسكي بشكل مباشر عن حقيقية وأهمية البوند وعن علاقته الوطيدة الفكرية والسياسية والتنظيمية مع الحركة الصهيونية العالمية في كتابة «البوند والصهيونية» الذي صدر في مدينة أوديسا عام ١٩٠٦.

وبنفس الوقت، فرض نمو الحركة الثورية الاشتراكية في روسيا على القادة الصهيونيين الركض وراء الجمل الاشتراكية، حيث أسسوا تنظيماً اشتراكياً داخل الحركة الصهيونية». وبشكل طبيعي نتيجة لهذه الظروف ظهر تنظيم سمي «الحزب اليهودي العمالي المستقل». وقد وضع الصهيوني فيليوشيفتش، وتشيمرنيسكي وغولد بيرغ وفولين قاعدته الفكرية والتنظيمية ـ وهؤلاء انتسبوا بوقت مبكر الى المنظمة الديمقراطية الاشتراكية، وقد أعلنوا في حزيران عام ١٩٠١ في مدينة مينسك عن تأسيس حزب جديد مشيرين إلى برنامجه، مؤكدين بأن «الحزب اليهودي العمالي المستقل»، لا يضع أية أهداف سياسية كاملة، ويستطيع الالتحاق بهذا الحزب أناس يحملون قناعات مختلفة مؤمنين بالحركة العمالية اليهودية التي لا تملك أي شيء عام من التناقضات الثورية. وبدأ الحزب اليهودي العمالي المستقل ينمو بسرعة وسط الشرائح اليهودية. وهذا النمو لم يدم طويلاً حيث تم كشف الوجه الحقيقي للاستفزازيين السياسيين وقادة الحزب اليهودي العمالي المستقل، وتحولوا فيما بعد «إلى رعاة دون قطيع». وقد استمر هذا الحزب بالتحريض المعادي للثورة، وساعده في ذلك عقيد الشرطة فاسيلوف، وبدعم من أموال الشرطة المسخرة لدعم هذا الحزب، من جديد عادت له عافيته وأخذ وزنه المعقول. لقد سعى الصهيونيون بعناد لإبعاد العمال عن الأعمال السياسية الثورية، ودعوا إلى النظرية الاقتصادية، وفي تقرير القسم الخاص لادارة الشرطة جاء: «فقط بفضل العقيد فاسيلوف الذي أعطى الحرية للحركة الاقتصادية في مينيسك، استطاع الحزب أن ينمو ويتعزز ويوسع مواقعه، وهذا ساعد بشكل كامل على سحب (!) البساط من تحت أرجل الثوريين. . . وأشار التقرير فيما بعد. . وفي الوقت الحاضر يستطيع الحزب أن يقف ضد الحزب الاشتراكي الديمقراطي».

وتنفيذاً لبلاغ الادارة السرية في مدينة مينسك، أرسل الى المدينة نداء «الحزب اليهودي العمالي المستقل» وعمم هذا النداء على أصحاب «الدكاكين والمتاجر» كي لايحرضوا العمال ضد أصحاب العمل

وضد الحكومة. وقد تبين من البلاغ فيما بعد بأن المناشير التي وزعت، ونشاط الحزب اليهودي العمالي المستقل، كانت باشراف قائد ادارة الشرطة العقيد فاسيلوف الذي كتب الى زوباتوف، بأنه شخصياً «يقود نشاط الحزب».

وكما جرى في مينسك، بدأ «عناصر الحزب بأعمالهم التخريبية الاستفزازية في أديسا، منفذين دور العملاء للحرس القيصري، وعلى أثر تأسيس الحزب اليهودي العمالي المستقل، عقد في مينسك بزعامة عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية س. روزينباوم مايسمى بمؤتمر «الخلايا العمالية»، حيث أعدت خطة التنظيم المركزي، المدعو لتوحيد الخلايا العمالية الصهيونية تحت اسم «بوالي تسيون» (عمال صهيون). وقد أخبر مدير ادارة الشرطة في مينسك بسرور في بلاغه بأن «تعاضد «بولي تسيون» هو الطريق الصحيح للوقوف ضد الحركة الاشتراكية الديمقراطية. وأن أعضاء «بولي تسيون» يكونون الأغلبية الساحقة من عمال المهن الحرة، مثل النجارين والناجرات والخياطين والخياطات وكذلك الشغيلة المثقفين وطلاب الدراسات العليا والمتوسطة ومثقفين يهود كثيرين ويهوديات متزوجات .

وفي عام ١٩٠٤ انضم أغلبية «عمال صهيون» إلى الحزب الاشتراكي العمالي الصهيوني. . وقد جاء في برنامج هذا الحزب مفهوم «الطريق الخاص» في بناء «المجتمع اليهودي الاشتراكي الخاص». ودعا الحزب الاشتراكي العمالي الصهيوني للتعاون الطبقي مع البرجوازية اليهودية، والمنظمات الصهيونية الأخرى؛ التي تدعو إلى عزل العمال اليهود عن الحركة الثورية الروسية العامة والبروليتاريا العالمية.

قد ظهر في نهاية عام ١٩٨٣، وبداية عام ١٩٠٤ في لوزدي مايسمى بمنظمة «كيريس» (الحرية). وقد سمي مؤسسوها أنفسهم «بالعمال الصهاينة». وقد أدخل مع هذه المنظمة نظام القسم «برفع الأيدي نحو الشرق والقسم بصهيون ورايته وبالأرض المقدسة» . . . إلخ. وقد تحولت بسرعة هذه المنظمة إلى جزء من حزب «بوالي لتسيون» الذي انضم بشكل رسمي إلى الحزب الاشتراكي اليهودي الديمقراطي (مع الاحتفاظ بتسميته «بوالي لتسيون») وأعلن هذا الحزب بأنه لاينتظر من الثورة الحلول الجذرية «للمسألة اليهودية»، لذلك يعتذر الحزب عن المشاركة في «التجهيز للثورة».

وقد أقرَّ برنامج الحزب الذي أعده بروخوروف في المؤتمر الأول؛ الذي عقد في مدينة بولناف في عام ١٩٠٦، وقادت أفكاره الأساسية إلى أن اليهود الذين يعيشون في بلدان مختلفة، عليهم مهما كانت الأنظمة الموجودة هناك، أن يعملوا بشتى الوسائل لتوفير امكانية تطورهم القومي والاجتماعي. وأعلن مؤسسو الحزب بشكل مكشوف في برنامجهم بأنهم يقفون على أرضية البروليتاريا الصهيونية؛ التي تشارك كما أكدوا بأنها لاتنفصل عن «البرجوازية الصهيونية» في عملية تحقيق الاهداف الصهيونية. ومن هذا المنطلق رأوا ضرورة المشاركة في نشاط المنظمة الصهيونية العالمية، وفي حضور مؤتمراتها. وقد كتب المنظرون الصهاينة «تحتاج البرجوازية اليهودية إلى قوة تحررية للبروليتاريا من أجل تنظيم وظائفها في العمليات العفوية لتحقيق أهداف الصهيونية» . وكان دور عملاء الصهيونية في نشاطهم وسط الشرائح اليهودية الفقيرة على الشكل التالي؛ أي كما جاء في وثائق منظمة «بوالي لتسيون».

وقد عملت تحت قيادة بروخوروف مجموعة من منظمة «بوالي لتسيون» بشكل نشيط في منطقة القرم،

وبشكل خاص في منطقة بغيارتوريا، فيودوسيا، سيفاستوبل، سمغيروبل، يالطا وكيرتشي .

وقد أسس في اواسط عام ١٩٠٦ في مدينة فيلنو تنظيم صهيوني أطلق على نفسه تسمية «غاتهيو» (البعث) وقامت عقيدته على العمل ضد الاشتراكية. إن تنظيم غاتهويد لايشابه المنظمة المماثلة (البعث)؛ التي تواجدت في وسط المثقفين اليهود في عام ١٩٠٤ - ١٩٠٥ في سانكت - بيتربورغ (فالأخيرة لاتملك اية تسمية خاصة).

وقد تحولت بالتدريج إلى الحزب الاشتراكي اليهودي العمالي . وقد قيم الأيديولوجيون الصهاينة ظهور الصهيونية (كالصباح الربيعي)، ووصفوا مهمة «التعاضد الوطيد بين أجزاء الأمة اليهودية المزروعة في كل أنحاء العالم» .

وقد كون قسم من منظمة (غاتهيو) ومجموعة من (بولي لتسيون) حزباً جديداً في بداية عام ١٩٠٥، أطلقوا عليه تسمية «الاشتراكيون الصهيونيون»، وبنفس الوقت سعوا إلى تأسيس منظمة سياسية أخرى تحت العلم الصهيوني للعمال اليهود. وبعد أن شعر الصهاينة بأن كثير من العمال اليهود، قد أدركوا الأهمية الاجتماعية للصراع الطبقي، الذي عممه الاشتراكيون الديمقراطيون، ردوا على ذلك للحفاظ على التوازن في تأسيس حزب الاشتراكيين الديمقراطيين. وهنا المؤتمر الدوري للحزب الجديد لم يتبنَ برنامجاً محدداً، إلا أن الاتجاه العام لسياسة الحزب تحدد بعد نشر بيانه؛ الذي أكد على وضع دستور الحزب وفقاً للمفاهيم الأساسية لحزب الاشتراكيين الصهاينة؛ التي تؤكد ضرورة تحقيق الهدف الكامل بالاستيلاء على «أرض حره» لتهجير وتسكين اليهود كل «اليهود» عليها. وقد رأى الحزب أنه بدون تحقيق ذلك لافائدة من كل الاصلاحات والتحسينات التي تطرأ على حياة اليهود بشكل عام. لقد حمل البيان المواقف الأساسية للصهيونية، أخذاً بعين الاعتبار الوحدة التنظيمية مع المنظمة الصهيونية العالمية، والالتزام بتنفيذ قراراتها (في دفع النقود وجمع الضرائب، والوسائل الأخرى، وإرسالها إلى الخزينة القومية اليهودية، والمشاركة في مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية، ودعم الصلات مع كل المؤسسات والجمعيات الصهيونية في روسيا وفي الخارج).

وقد جاء في المؤتمر الأول لحزب الاشتراكيين الصهيونيين المنعقد في نيسان من نفس العام. ضرورة نشر النظرات الصهيونية في أوساط المجموعات البروليتارية اليهودية، وبنفس الوقت التأثير على البروليتاريا في البلدان الأخرى بأن تساعد اليهود على الهجرة والاستعمار، وفيما بعد النضال ضد طموحات الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي في جذب الجماهير العمالية اليهودية إلى صفوفه. لذلك لابد من القيام بدعاية نشيطة ضد تجنيس أيديولوجية الانتلجنسيا اليهودية التي تعرقل البروليتاريا الروسية من تحقيق أهدافها. وهذا التجنيس يقضي على استثنائية البروليتاريا اليهودية . وقد عبر الحزب الاشتراكي الصهيوني في مؤتمره الثاني عام ١٩٠٨ عن «تمنياته الحارة للحزب بتحقيق واجباته في تسريع أعمال الهجرة وقد فتح من أجل تحقيق مهامه مكتباً تنظيمياً اعلامياً تهجيرياً للدولة؛ التي تستوعب الهجرة، وتأسيس جمعية استعمارية تهجيرية في روسيا، وأعلن في مؤتمر النيويورك الذي عقد في نيسان عام ١٩٠٩ ممثلي الأحزاب الاشتراكية الصهيونية عن تغيير تسمية حزب الاشتراكيين الصهيونيين الى حزب الاشتراكيين الاقليميين (اي

حذفوا يافطتهم «الصهيونية».

وهذا التغيير لم يحدث صدفة. ففي الحادي عشر من شهر تشرين الأول عام ١٩٠٨ اكد المكتب الاشتراكي العالمي رفض انضمام «الاشتراكيين الصهاينة» إلى المكتب في الوقت الحاضر ، ونذكر بأن الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي استطاع الحصول بفضل تأييده لبرنامج حزب الاسيسيري على دعم الحزب الاشتراكي الثوري، حيث توجهت اللجنة المركزية لهذا الحزب بنداء خاص دعت فيه المنظمات الحزبية المحلية التابعة للحزب «بأن تتعامل بود مع هذه الظاهرة الجديدة» . وفي عام ١٩٠٧ جعل الصهاينة من أعضاء اللجنة المركزية لحزب الاسيسيري القضية على الشكل التالي: بأن اللجنة المركزية لحزب الاشتراكيين الثوريين، تقترح على شخصيات من أعضاء الحزب الاشتراكي اليهودي العمالي الدخول في «نقاش» روحي، وأن يقيموا فيما بعد صلات فكرية، وإقرار الوحدة التنظيمية المحلية للحزبين. ويمكن أن يقدم الممثل السابق للحزب الاشتراكي اليهودي العمالي الذي عاش في امريكا حاييم جيتلوفسكي مثلاً واضحاً، إذ أعتبر بنفس الوقت أحد مؤسسي حزب الاسيسيري، وفي عام ١٩٠٨، لعب دوراً ملحوظاً في مؤتمر الحزب الذي عقد في لندن بتقارب الحزبين.

وقد تحدث عن هذه الحقيقة في مجلة «الاشتراكيون الثوريون» (١٩١١ العدد ٢ ص ١٩٧٩) في مقالته عن أزمة «الاشتراكية اليهودية» التي نشرها تحت اسم مموه سيريبست، وعن دخول الاشتراكيين اليهود إلى حزب الأسيسيري، ومؤلف هذه المقالة دخل حزب الأسيسيري تاركاً الحزب الاشتراكي اليهودي العمالي، وهو صاحب فبريكة واصبح بسرعة عضو اللجنة المركزية لحزب الاشتراكيين الثوريين وباسم مموه دالتي، أما اسمه الحقيقي فهو «جونسون» .

لقد ملك «الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي» برنامجه الخاص، مضافاً إليه بعض المواقف المتشابهة مع مواقف حزب الاسيسيري . وفي برنامجه أوضاع تحمل طابعاً صهيونياً حيث طالب «بإقامة افتونومبا وطنية سياسية لليهود» في البلدان التي يعيشون فيها، وكانت مطالبه على الشكل التالي: ١ - الاعتراف بوحدة الارادة الذاتية في المناطق التي تعيش فيها الطوائف اليهودية ٢ - تشكيل جهازها الخاص - مجلس الطائفة - ٣ - الاستقلال والانتشار على أرض البلد وتكوين اتحادات طائفية محلية ٤ - يعتبر المجلس الاتحادي الطائفي جهازاً للتمثيل ٥ - يعتبر الجهاز العالي للادارة الذاتية اليهودية/ الاجتماع القومي اليهودي ٦ - تنفيذ قرارات الاجتماع من خلال اللجنة التنفيذية الخاصة، ومن خلال الأجهزة الادارية الذاتية اليهودية. ويقوم الاجتماع بحل مسائل العرائض والمطالب في المؤسسات الحكومية العامة والمحلية، ويعتبر الاجتماع الممثل الوحيد لليهود في القضايا التي تحمل طابعاً قومياً عاماً» .

لقد خطط الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي من أجل اقامة برلمان يهودي عالمي، واقر مسودة عمل حول تركيب الدولة اليهودية المستقلة، وطالب بتعاضد يهودي في اطار افتانوي في هذه او تلك من البلدان، بما فيها روسيا، قائم على أسس الافتونوميا السياسية القومية ذات الطابع العالمي.

واقترح برنامج الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي مع اعضائه، ان يروا الوطن ليس في «الوطن» ولكن في اليهودية العالمية» . لقد بلغ عدد اعضاء هذا الحزب عام ١٩٠٩ اكثر من ١٢ الف عضو، وقد

تواجدت منظمات هذا الحزب في كل من المدن التالية : ياكترينا سلاف، فيلنو، القرم، رستوف، خاركوف، مينسك، ماغيلوف، سمولينانسك، كييف، فينسك، بيلوستوك ومجموعة اخرى من المدن في الجنوب الغربي والشمالي من الامبراطورية .

وكان الحلفاء المقربون من هذا الحزب «عمال صهيون» حيث يعيش وسطهم صهاينة اشتراكيين، طالبوا بالتعاون الشامل في النضال من أجل الهدف العام. وقد حققوا اللقاء العام في عام ١٩١٧، بعد ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية. وهنا حدث ذوبان تنظيمي بين الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي وحزب الاشتراكيين الثوريين والحزب الاشتراكي العمالي الموحد الذي دخل بشكل مباشر في الحركة الصهيونية العالمية .

وفي عام ١٩٠٦، أيد جزء من العمال والمثقفين اليهود برنامج الحزب الاشتراكي البولوني، وشكلوا مجموعة مستقلة دخلت في الحزب الاشتراكي البولوني، وأطلقوا عليها تسمية «التنظيم اليهودي للحزب الاشتراكي البولوني»، وقد انقسم أعضاء التنظيم حسب المواصفات المهنية، إلى عمال ورشات، حذائين، خياطين، معلمين في صناعة الجلود، سائقين، وكذلك إلى اتحادات تجارية، صيدلية، أطباء أسنان، طباعين، ماليين، وانضم إليهم أطباء ومحامون ومهندسون وطلاب وكل ورشة تشكلت أو اتحاد انتخب لنفسه فورشتير (ممثلاً) ومساعده والممثلون المنتخبون (فورشتيربين) انتخبوا بدورهم ستة رجال والرجل السابع عينته اللجنة المركزية للحزب، وهؤلاء شكلوا اللجنة اليهودية الوارسية للحزب الاشتراكي البولوني، يتبع اليها كل قضايا التنظيم الجديد الذي كان في الواقع كان معزولاً عن الحزب الاشتراكي البولوني. فقط في مواقف اضطرارية «تذكروا» بأنهم في وحدة مع الحزب الاشتراكي البولوني. وكان للحزب ميزانيته الخاصة، وصندوق لجمع التبرعات من اعضاء الحزب، ووسائل ومساعدات خارجية من خزينة المنظمة الصهيونية العالمية لقد كان قسم من أعضاء الحزب في لجان سرية خاصة بعيدة عن أنظار الجماهير واعضاء الحزب. وقد عملت لجنة الممونين بمسائل المواصلات والأسلحة والمتفجرات . وشغلت اللجنة التكنولوجية في تمويل المطابع، والبحث عن نظم خاصة وفقاً للأوامر الحزبية، وراقبت وضع الاعلانات والمناشير، وجهزت الصحافة الحزبية، وعملت على تغيير شكلها وحجمها. وراقبت اللجنة التحريضية مخازن الكتب، وشغلت في بث الدعاية الشفهية في الاجتماعات، وقامت لجنة أخرى متخصصة بالتنظيم العسكري الثوري، وهذه اللجنة شغلت بالدعاية وسط الجنود والضباط، وجهزت لهم أدبيات خاصة. ويمكن أن يكون أعضاء هذه اللجنة من الروس، وأعضاء لجان أخرى من قوميات أخرى، قادرين على التحدث باللغة الروسية» . وقد تم اجتماع هذه اللجان في شقق خاصة، وبرنامجها اليومي لم يكن معروفاً لأعضاء التنظيم اليهودي العادين التابع لحزب العمال البولوني.

وانطلاقاً من الفهم العملي للنضال، شكل الصهاينة قبل انتخاب الحكومة الثانية «مجموعة يهودية شعبية» مهامها الدفاع عن المصالح اليهودية في الدوما. وقد تشكلت هذه المجموعة من أكثر من خمسمائة عضواً، ترأسها الصهيوني البارز فينافير عضو حزب الكاديت، وهذا الرجل تمتع بتأثير كبير في مدينة بيتربورغ، فهو وصاحب المناجم الذهبية البارون جنسبيرغ أصدروا مجلة «الحرية والمساواه» في عام ١٩٠٦ -

١٩٠٧، الناطقة بلسان «المجموعة الشعبية اليهودية» وأقاموا فروعاً لها في كل من المدن التالية مينسك، غرودنو، نوفنو وغوميل .

وهكذا في عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦، أي في مرحلة النهوض الثوري العاصف في روسيا، أقامت الجهود الصهيونية قواعد مختلفة وعضائد كبيرة في الطائفة اليهودية، حيث شكلت احزاباً وجماعات ذات طابع قومي. وقد حاول الصهاينة في هذا الوقت تجسيد مبادىء واوضاع أعدتها الحركة الصهيونية العالمية، على قاعدة مبدأ التعددية السياسية؛ التي اقرها المؤتمر الصهيوني الروسي غيلسفورس في كانون الثاني عام ١٩٠٦. وقد تبين فيما بعد بأن التعددية هي شكل، واتّباعها لايهدد ولايعرض الحركة الصهيونية إلى خطر الانقسام. فالجوهر في كل مكان واحد؛ خدمة الأهداف والمصالح الصهيونية.

وأكدت إحدى الوثائق الصهيونية «بأن تقسيم الصهاينة إلى مجموعات داخل المؤتمرات وخارجها يعتبر ضرورة لابد منها». لقد عكست هذه الأوضاع نهج القيادة الصهيونية في تأسيس تنظيمات متعددة الشرائح وسط كل الطبقات في بداية هذا القرن وفي كل بلدان العالم. وقد قاد تطبيق مبدأ التعددية في الممارسات الصهيونية في روسيا إلى تقسيم المنظمات الصهيونية إلى خمسة مجموعات. أربعة من هذه المنظمات اشتركت في المؤتمر الخامس للمنظمة الصهيونية العالمية، والمجموعة الخامسة، تكونت بعد المؤتمر الخامس يتبع مركزها الأساسي التنظيمي لبرنامج بازل. وانحصرت أعماله في «جمع (الشيكلات)، وبيع الأسهم في البنك اليهودي، ونشر الفكر الصهيوني بشكل واسع. لقد تميزت هذه المجموعة بتنظيم مركزي منظم وقوانين قاسية. وبحث هذا التنظيم مسألة «تعميق الثقافة» مضيفين إلى ما أسميناه سابقا أعمال «النظام الروحي الثقافي». والمجموعة الثالثة هي ما يسمى بالحزب الاشتراكي الديمقراطي؛ وهذا الحزب يتستر تحت شعارات ديمقراطية كاذبة، قاد ديماغوجية اجتماعية من أجل تغطية جوهره وجذب «الدهماء» إلى السياسة، والمجموعة الرابعة هي «الاشتراكيين الصهاينة» «ويتكون هذا الحزب بالأساس من الشباب، وفي النهاية المجموعة الخامسة كونها الصهاينة الأودثوركيسين في شباط عام ١٩٠٢. في مدينة فيلند. وقد اجتمع الحاخامات والصهاينة الاوثوذكيسين، وشكلوا مركزا جديدا من أجل نشر الفكر الصهيوني وسط اليهود الروس على أسس «الثقافة الاوثوذكيسية» ومبادئها وأطلق هذا المركز على نفسه تسمية «ميزراهي».

إن اقرار هذا المبدأ قصد به تسليح الصهاينة الروس وتعميق انتمائهم للصهيونية، والقيام بنشاطات أخرى، وبالاعتماد على هذا المبدأ سعت قيادة المنظمة الصهيونية العالمية لتوسيع إطار التنظيم. وانطلاقا من ذلك وقف الصهاينة بشكل دائم في صفوف الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية والثورية، ليس كصهاينة كما هو معروف، ولكن كجواسيس يخفون وجهات نظرهم.

وفي نيسان عام ١٩٠٩، اجتمعت الأحزاب الصهيونية والتي لبست قناع الاشتراكية في روسيا، كالحزب الاشتراكي العمالي اليهودي و«بوالي تيسون» والحزب الاشتراكي الاقليمي، في النيويورك بمبادرة من الحزب الأخير، من أجل نقاش مسألة الوحدة، ليس فقط في تعزيز الجهود ولكن الوحدة في التنظيم. وقد أعد ممثلو هذه الأحزاب الثلاثة برنامج المؤتمر. ودعى الاشتراكيون الاقليميون ممثلي البوند إلى النيويورك، ولأسباب غير معروفة، لم يظهر هناك أي ممثل للبوند. وبيّن رئيس المؤتمر ج. جيتلوفسكي بأن

الثلاثة أحزاب موحدة بالأساس، واقترح ممثل الاشتراكيين الاقليميين سيركين دعم هذا الرأي، وأعلن ليون خازاتوفتش ممثل (بوالي تيسون) بأنه سعيد جدا بحضوره هذا المؤتمر التاريخي. وقد أقر بالاجتماع البيان التالي: «يجد المؤتمر برغبة كاملة؛ لأن امكانية توحيد الأحزاب القومية الاشتراكية الثلاثة في حزب قومي يهودي اشتراكي».

لقد نفذت المسرحية في المؤتمر حسب المخطط. حيث أظهروا في البداية التفاوت في الآراء (التي لم تكن موجودة في الحقيقة)، ومن ثم حصلوا على قرار جماعي بوحدة روحية منسجمة كاملة.

وقد تحقق في الحياة بيان مؤتمر نيويورك بعد ثورة شباط البورجوازية الديمقراطية في روسيا وذلك بتشكيل الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي الموحد. ودخل فيه الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي والحزب الاشتراكي الاقليمي.

لقد كانت بعيدة عن الحقيقة تأكيدات الصهاينة، بأن الصهيونية دخلت الجماهير اليهودية في روسيا بسهولة وبدون عوائق. فقد قاومها، في كثير من الأحيان، مقاومة عنيفة يهود معروفون، وشيء مثير للدهشة ما ادلى به منديل روبينشتاين عن الصهيونية والصهاينة: «إن غزارة الكلمات الكبيرة البراقة ـ هي من نظام الحياة الدارج لدى الصهاينة. لقد غطت عند الكثير العيون، وأعمت القلوب والعقول، حتى عند الناس المتطورين، نحن لسنا لوحدنا نحتج ضد الصهيونية ونشجب أعمالها. . . فالإنسان الشريف نحن نعرفه بعقيدته المعادية للصهيونية» .

إن أعداء الانعزال الديني والاجتماعي لليهود في روسيا دعوا إلى مؤتمر مناهض للصهيونية، تحت اسم «المؤتمر الروسي العام للشخصيات اليهودية». وهذا المؤتمر بعث في معسكر الصهاينة القلق الشديد. وبهذا الخصوص كتب أحد القادة الصهاينة في روسيا نوغان بيرنتستاين في إحدى مقالاته الموجهة إلى كل الحلقات الصهيونية «ليس بامكاننا الآن تقدير الضرر الذي يلحق بشبابنا والذي يعمل ويخطط له أعداؤنا الألدّاء. والذين يعملون الان لبعث رأيٍ مغاير. . . نحن نقول رأيين لايمكن أن يتعايشا معا. فعلينا القضاء على كل رأي مخرب يهدف تشتيت الشمل» . وبكلمة أخرى أعلن الصهاينة حربا لاهوادة بها ضد الآراء والأفكار النيرة.

لقد انطلق توغان بيرنشتاين من مبادىء هرتزل، وركز على «خصوصية اليهود»، مكرراً كلمات هرتزل؛ الذي يرفض عملية التجنيس، ويعتبرها موتاً وقضاء على الأمة. لذلك يركضون في وقتنا الحالي ليس وراء الحفاظ على القومية وتطورها، فقط، وإنما أيضا منع الذوبان والانصهار مع الشعوب الأخرى، التي يجب النضال ضدها في المجالات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية. فالصهيونية المعاصرة، بغض النظر عن شكلها الناعم الدمث ، هي اعتراف وتنظيم معاد لكل القوميات» .

ومن هذه المواقف الهرتزلية، انطلق البوند في نشاطه مرتديا لباسا ماركسيا. وبالنسبة إلى البوند كانت أفكار القومية اليهودية «الخاصة»، و«استقلالية الاقتصاد اليهودي». إلخ، وعدم الثقة بقدرة البروليتاريا في إعادة بناء المجتمع على أسس التعاون الأخوي بين كل الكادحين في كل البلدان. محاولين إخفاء تضامنهم وعلاقاتهم الاكليريكيّة في مجموعة من المسائل.

وفي ما يسمى بالمدارس الايديشية، احتفل أعضاء البوند بالأعياد الدينية وأنشدوا التراتيل الدينية اليهودية. ودعا برنامج البوند القومي إلى تحقيق الوحدة مع البورجوازية اليهودية والكليريكيين الصهاينة. «وفي جماعة يهودية قومية» وهذا نشرته بشكل صريح اللجنة البوندية «فيكير» حيث أكدت على امكانية الدخول إلى صفوف البوند لكل من يعتبر نفسه يهوديا وعضوا في القومية اليهودية .

وقد اشار لينين في مقالته «وضع البوند في الحزب» إلى أن الأفكار الصهيونية عن الأمة اليهودية، «هي افكار كاذبة تماما ورجعية بجوهرها» ، وشجب لينين بشدة البونديين لجمودهم القومي كأقلية.

وعند نقده للبوند ومواقفه الفكرية، أشار لينين إلى الوضوح الكامل في الفكر الصهيوني، وقال إن «أفكار الأمة اليهودية» معادية بشكل صريح للأفكار الثورية، وتتناقض مع مصالح البروليتاريا اليهودية»، وترى فيها أوضاعاً بشكل مباشر او غير مباشر، معادية للتمثل، وتمجيدا «للغيتو» . مع ذلك حدد لينين في أعماله عن المسألة القومية تلك المفاهيم مثل «التجنيس الطبقي» و«التجنيس العنصري». وعندما أجاب على اتهامات البونديين للبلاشفة لدعم الشعار الماركسي للتماثل في مقالته «ملاحظات نقدية حول المسألة القومية» أشار إلى أن «التمثل نهج تاريخ عالمي وخاصة من خصائص الرأسمالية، وهذه الخاصة قطعت الحواجز القومية وقضت على التفاوت القومي وفتحت الطريق للتجانس القومي، الذي يظهر كل عشر سنوات بشكله العظيم، والذي يكون أحد المحركات الكبرى للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

لم يكن تقدميا اشتراكيا وديمقراطيا كل من لايعترف ويدافع عن المساواة بين الأمم واللغات، ولم يناضل ضد كل اضطهاد قومي وعدم المساواة. وهذا بدون شك كل من يدعي بأنه اشتراكي ديمقراطي، وبنفس الوقت يهاجم ويشتم اشتراكياً وديمقراطياً من قومية أخرى، لأنه يدعم عملية التمثيل. . في الواقع مثل هذا الإنسان يبرز نفسه ببساطة كقومي برجوازي. وبالتالي كل من ينغمس في سائل التعصب القومي الشوفيني، لايمكن أن يرى في هذه العملية اندماج القوميات التي فتحت الرأسمالية الطريق أمامه، وأعطت دفعا للتطور التاريخي التقدمي، وهدمت الجمود القومي وتركت له أمكنة مختلفة مهجورة، لاسيما في البلدان المتخلفة مثل روسيا» .

لقد قادت المواقف القومية الصهيونية البونديين إلى الذوبان في الحزب الاشتراكي العمالي اليهودي (والذي سمى نفسه فيما بعد بالحزب الاشتراكي العمالي اليهودي الموجه).

وهكذا ظهرت البرجوازية اليهودية، قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧، منظمة جيداً. وقد تحكمت بشكل كبير في أنظمة حزبية ونقابية كبيرة وواسعة، وملكت آلية لينينية مؤهلة لإقامة صلة مع أي حزب سياسي تقريبا، بدءا من الاكتوبريين والكاديت منتهية بالحزب الديمقراطي الاشتراكي والاشتراكيين الثوريين. ان مبدأ «افتانوميا المجتمع اليهودي» أقرته كل الأحزاب القومية اليهودية، التي وسعت صلاتها العالمية من أجل توحيد العمل في مركز صهيوني واحد وعبر الحلقة القائدة الممثلة «باللجنة المركزية الصهيونية في روسيا» .

وفي النتيجة، بدأ الأخطبوط الصهيوني متماسكاً بشكل كبير، حيث سيطر على شرائح كبيرة من الانتلجنسيا اليهودية والبورجوازية الصغيرة والممثلين البارزين من البروليتاريا اليهودية قليلة العدد، وقاد نضالاً لاهوادة فيه إلى جانب الصهيونية العالمية واضعا كل نشاطه في خدمة الصهيونية العالمية.

تاريخ
وتراث

حصار دمشق ثبات رائع في وجه الغزاة الصليبيين

ابراهيم الزيبق*

منذ أن استولى الصليبيون على أنطاكية والرُّها وبيت المقدس ، وتمكنوا في الساحل ، وهم يطمعون ان يملكوا إحدى أهم مدينتين في بلاد الشام : حلب او دمشق . ففي الاستيلاء على إحداهما تنفتح أمامهم بلاد الشام كلها ، ومن يدري ربما بغداد ايضاً . ومن ثم قاموا بحصارهم الاول لدمشق سنة (٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) بعد مناوشات طويلة معها . وحين أخفقوا حاولوا الاستيلاء على حلب غير مرة ، أخطرها الحصار الذي أحكموه حولها سنة (٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م) مع الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين . وايضاً فشل هذا الحصار ، لأن المسلمين وقتئذٍ كانوا واعين تماماً لمكانة حلب ودمشق في ميزان الصراع مع

* كاتب ومحقق من القطر العربي السوري.

الصليبيين ، حتى إن عماد الدين زنكي قال اثناء حصار حلب : « إن أخذ (العدو) حلب لم يبق بالشام إسلام »[١] .

هذه الاطماع تجددت ، واتخذت صورة أعنف بعد سقوط مدينة الرُّها بيد المسلمين سنة (٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م) . فكانت الحملة الصليبية الثانية[٢] ، وزَحْفُ جيشين كبيرين مخترقينأوروبا وآسية الوسطى ، هما : الجيش الالماني بقيادة الامبراطور كونراد ، والجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع .

ورغم ما أصيب به هذان الجيشان من هزيمة منكرة ، على يد السلاجقة الروم في آسية الوسطى ، فقد بقي منهما جيش ، كان مع جيش بيت المقدس ، أضخم جيش أعده الصليبيون لخوض معركة[٣] .

وما ان وصل الجيشان الالماني والفرنسي الى بيت المقدس ، حتى دعي القادة الى اجتماع في عكا ، قرروا فيه بالإجماع الزحف نحو دمشق ، وفرض الحصار حولها[٤] .

ولم تكن دمشق في ذلك الحين على عداء مستحكم مع الصليبيين ، فحاكمها الفعلي الامير معين الدين أُنر ، كان متحالفاً مع بيت المقدس ، خوفاً من نور الدين الذي يتابع سياسة أبيه زنكي ، الرامية الى ضم دمشق مع حلب لتكوين جيش قوي ، يستطيع الزحف نحو بيت المقدس ، فدمشق هي مفتاح بيت المقدس .

ومن ثم فوجىء معين الدين أُنر بخبر الزحف نحوه ، فراح يستغيث بأعداء الامس : سيف الدين غازي حاكم الموصل ، ونور الدين محمود حاكم حلب .

وهنا يثار سؤال : لماذا اختار الصليبيون دمشق هدفاً لحملتهم ، وعدلوا عن حلب ؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال بعدة اسباب :

اولاً : كانت دمشق في ذلك الوقت أكبر مدن الشام ، وهي مركز تلك المنطقة[٥] .

ثانياً : تعدّ دمشق مجالاً مهماً لتوسيع رقعة مملكة بيت المقدس .

ثالثاً : في السيطرة على دمشق ، تنقطع الصلة نهائياً ، بين المسلمين في مصر وافريقية ، وبين المسلمين في شمال الشام والشرق[٦] .

رابعاً : اعتقاد الصليبيين بضعف دمشق ، وأنها ستسقط سريعاً في أيديهم .

خامساً : لدمشق مكانة دينية ، وخاصة عند الصليبيين القادمين من الغرب ، فقد ورد تبجيلها في الكتاب المقدس ، لذا فان استخلاصها من أيدي المسلمين ، سوف يردد مجد المسيح في سائر الأنحاء[٧] .

ومن ثم نفهم لماذا رفض ملك فرنسة لويس السابع اقتراح أمير أنطاكية بمهاجمة حلب[٨] .

وما ان حل اليوم الخامس والعشرون من شهر أيّار/ مايو سنة (١١٤٨ م) ، حتى زحفت الجيوش المتحدة : الجيش الالماني والجيش الفرنسي ، وجيش بيت المقدس ، يتقدمهم صليب الصلبوت[٩] .

في الطريق الى دمشق :

أخذت الجيوش الطريق نحو طبرية ، وحين وصلتها توقفت ريثما يتم تحشدها ، ثم سارت حول البحيره

حتى بانياس ، وهنـاك عقـد اجتماع بين القادة الثلاثة للتباحث حول أفضل السبل لانجاح الحصار ، واستمعوا الى عدد من ذوي المعرفة الكبيرة بالأحوال داخل دمشق ، والمناطق المجاورة لها ، واتفقوا أخيراً على أن خير السبل للاستيلاء على دمشق ، الاستيلاء اولاً على البساتين التي تحيط بالجزء الأكبر منها[١٠] .

والمعروف أن دمشق كانت تحيط بها غوطتها ، وخاصة من الجهة الجنوبية والغربية ، حيث يخترق نهر بردى بساتينها ذات الاشجار الكثيفة والممرات الضيقة ، التي يفصل ما بينها جدران ترابية ، كان الدمشقيون يسمونها في ذلك الوقت « الفطائر » ، وهي في عاميتها الدمشقية الآن تسمى « الدكك » .

هذه البساتين مع وادي الربوة الضيق الذي يرتفع على جانبيه قريباً من أسوار دمشق تلان ، هما : الشرف الشمالي والشرف القبلي ، كانت خط دفاع ممتاز عن المدينة ، إضافة الى سورها وقلعتها ، ويكاد يستحيل على الجيش ان يجتازهما ، وللتدليل على منعة دمشق من خلال غوطتها صمودها أمام غُزاتها ، وأنها لم تكن تؤخذ الا صلحاً او مكيدة .

وكان الصليبيون يرمون من وراء استيلائهم اولاً على هذه البساتين إضعاف ثقة أهل دمشق بحصانتها ، وهم اذا تمكنوا - على صعوبتها - من الاستيلاء عليها يكون ما بعدها أيسر منالاً ، إضافة الى استفادتهم أثناء الحصار من ثمارها ومائها الغزير .

أتم معين الدين في هذه الأثناء أهبته للحصار ، حصن الجهات الضعيفة من السور ، ورتب الرجال المسلمين في ممرات الغوطة الضيقة ووراء الأشجار ، وقطع مجاري المياه عن داريا ، وطمّ آبارها ، مداريا وهي قرية كبيرة في الغوطة تقع في جنوبي دمشق - كانت على الأغلب منازل العساكر القادمين لحصار دمشق لقربها من المدينة اولاً ، ولأنها تتيح رؤية دمشق ، وما يحيط بها[١١] .

ترك الصليبيون بانياس ، وتابعوا زحفهم ، فاجتازوا جبل لبنان القائم بين بانياس ودمشق ، ونزلوا - كما هو متوقع - في داريا ، يوم السبت السادس من ربيع الاول سنة (٥٤٣ هـ) الموافق لـ (٢٤ تموز/ يوليو سنة ١١٤٨ م) ، وهناك وجدوا الماء معدوماً فيها ، مقطوعاً عنها ، قد طُمت آبارها[١٢] ، فقام الملوك الثلاثة على الفور بتعبئة قواتهم استعداداً للزحف نحو قرية المزة التي تقع غربي دمشق لتوافر الماء فيها ، ولقربها من نهر بردى الداخل الى دمشق . وكان في مقدمتهم جيش بيت المقدس لدرايته بالمنطقة ، وسار خلفه الجيش الفرنسي ، وفي المؤخرة الجيش الالماني[١٢] .

المعركة :

ولمنع الصليبيين من الوصول الى الماء بأي سبيل ، شن المدمشقيون حرب عصابات من خلال الممرات الضيقة التي أُغلقت بجذوع الاشجار الضخمة ، ونصبوا لهم الكمائن ، وصبوا عليهم سيلاً من النبال ، وكان للجدران الترابية (الفطائر) أهمية قصوى ، اذ كمن خلفها رجال مسلحون بالرماح ، ومن خلال فتحات صغيرة أعدوها في هذه الجدران ، قاموا بطعن من يحاولون العبور في خواصرهم وأطرافهم ، وقتل من الصليبيين عدد كبير بهذه الطريقة .

وتحت وطأة الشعور بالحرارة وشدة العطش ، وإزاء هذه المقاومة الباسلة ، قام الصليبيون بحملة تدمير شاملة ، فهدموا الجدران الترابية ، وأزالوا الحواجز ، وقطعوا الأشجار . وتمكنوا من الوصول وقت الظهيرة الى أرض قرية قينية قرب باب المصلى جنوب دمشق ، وهو مكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً ولا حديثاً منه[١٤] . وفي الجهة الغربية في المزة والربوة دارت معركة لا تقل عنفاً ، تمكن الصليبيون في نهايتها من زحزحة المسلمين عن نهر بردى ، واستولوا عليه ، وتقدموا حتى وصل الامبراطور الالماني كونراد الى الميدان الاخضر[١٥] .

جهاد :

وكان ممن قتل في ذلك اليوم في الربوة ، دفاعاً عن نهر بردى عالمان جليلان ، أحدهما قادم من المغرب ، وهو يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي ، والآخر أصله من قرية حلحول في الخليل هو عبد الرحمن بن عبد الله الحلحولي .

قدم الفندلاوي الشام حاجاً ، فسكن بانياس مدة ، ثم انتقل الى دمشق فاستوطنها ، وراح يدرس في جامعها الفقه المالكي . وممن كان يتردد الى درسه ابن عساكر مؤرخ دمشق الكبير . حين سمع الفندلاوي بزحف الصليبيين الى الربوة - وكان وقتئذ شيخاً طاعناً في السن - ترك حلقته في الجامع الاموي ، وخرج مع تلاميذه الى القتال راجلاً ، فرآه في الطريق معين الدين أُنَر ، وقد بدت على الفندلاوي مشقة المشي ، فقصده وسلم عليه ، وقال له : ايها الشيخ الإمام ! أرجع ، فأنت معذور للشيخوخة . فقال : لا أرجع ، بعنا واشترى منا . يريد قول الله تعالي : إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . ومضى نحو الربوة ، فلما ظهرت له طلائع الصليبيين التفت الى صديقه عبد الرحمن الحلحولي ، وقال له : اما هؤلاء الروم ؟ فقال الحلحولي : بلى . قال : فالى متى نحن وقوف ؟! سر على اسم الله تعالى ، فما انسلخ النهار حتى وجد قتيلاً وصديقه الحلحولي في مكان واحد في النيرب تحت الربوة ، على طرف الطريق[١٦] .

ليلة المعركة :

تعالت اصوات البكاء والعويل في ازقة دمشق ، فقد هال أهلها ما رأوه من شدة القتال ذلك اليوم ، وهـا هم الفرنجة تحت أسوار مدينتهم ، وكعادة أهل دمشق كلما حز بهم امر ، اجتمعوا في مسجدهم الكبيـر ، فاخرجـوا مصحف عثـمان ونشروه في وسطه ، واخرجوا صدقات اموالهم ، وتضرعوا الى الله بالدعاء[١٧] ، وكان قرارهم تلك الليلة مواصلة القتال .

اما الصليبيون ، فكانوا لا يشكون انهم آخذون مدينة دمشق صباح اليوم التالي ، فراحوا يتشاحنون فيما بينهم حول مستقبلها[١٨] ، ويتبايعون ضياعها وجهاتها[١٩] .

اليوم الثاني :

مع أول خيوط فجر يوم الاحد السابع من شهر ربيع الاول خرج الدمشقيون الى قتال الصليبيين ، وشنوا هجمة مضادة بقيادة اميرهم معين الدين أُنر، أوقعت في صفوف الصليبيين مزيداً من القتلى، دون ان تستطيع زحزحتهم عن مكانهم، ولم يقم الصليبيون بهجومهم المتوقع، فعاد كل فريق الى مكانه، الدمشقيون وراء أسوار مدينتهم، والصليبيون تحتها.

اليوم الثالث :

طوال ليل الأحد ، وحتى صباح يوم الاثنين ، وطلائع المسلمين تتوافد الى دمشق لإنقاذها ، وكان جيش الموصل وحلب قد وصل الى حمص ، وأرسل سيف الدين غازي الى معين الدين يقول له : « قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح في بلادي ، فأريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق ، لأحضر والقى الفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد ، واحتمينا به ، وان ظفرت على الفرنج فإنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها الا مقدار ما يرحل العدو عنها » ، وارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا من البلد[20] .

لم يقم الصليبيون بهجومهم خوفاً من اضطرارهم قتال سيف الدين ، وقد كثرت الجراح فيهم[21] .
ووجد معين الدين نفسه في وضع حرج ، اذا قدم سيف الدين ونور الدين الى دمشق فلن يحل الدمار فحسب بكل الجيش الصليبي ، بل ستؤخذ منه دمشق ايضاً ، فحاول ان يكسب الوقت ، وقد لمس ضعف الصليبيين ، فأرسل اليهم « إن ملك الشرق قد حضر ، فان رحلتم ، وإلا سلمت البلد اليه » وأرسل الى فرنج الشام يقول لهم : « بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا ، وأنتم تعلمون ان ملكوا دمشق اخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ؟! وأما أنا ، فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين ، وانتم تعلمون انه إن ملك دمشق لا يبقى لكم من مقام في الشام »[22] وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم .

اليوم الرابع :

قويت نفوس الدمشقيين بما جاءهم من إمدادات ، وقد طمعوا بانخذال الصليبيين عنهم ، فعاودوا شن هجماتهم عليهم ، متسترين وراء الأشجار ، راصدين لهم عبر الممرات الضيقة ، وكان الصليبيون قد كثرت الجراح فيهم ، وبدأ يفتك بهم المرض[23] ، وضايقهم ضيق المكان الذي نزلوا فيه ، وخافوا ان يؤتوا من قبل جيش الموصل وحلب ، فآثروا الانسحاب الى الجهة الشرقية من المدينة .
سكتت المصادر العربية عن تحول الصليبيين الى الجهة الشرقية ، وذكرته المصادر الغربية .

وهذا التحول غير مستبعد ، لأن ركود الحصار من الجهة الغربية ذات الاشجار الكثيفة والممرات الضيقة ، والتي أتاحت للدمشقيين شن حرب عصابات ناجحة ، جعل الصليبيين وهم يحاصرون دمشق محاصرين بالغوطة .
فالجيش ، وخاصة الفرسان منه ، بحاجة الى ارض مكشوفة ليستطيعوا الجولان فيها ، وهذا ما تتيحه لهم الجهة الشرقية ذات الارض المنبسطة .
ومن قرأ تاريخ دمشق يعرف انها غالباً ما تؤتى من هذه الجهة ، فمن الباب الشرقي للمدينة دخل خالد بن الوليد ، وعبد الله بن علي العباسي ، ونور الدين فيما بعد .
ولضعف الموانع الطبيعية في هذه الجهة ، أقيمت التحصينات القوية التي وقف أمامها الجيش الصليبي ، المنهك من القتال ، يعاني من البعد عن الماء ، وقلة الطعام . وقد عُد هذا الانتقال خطأً عسكرياً مميتاً ، مما حمل المؤرخين الغربيين ، على ان يفسروه بخيانة ملك بيت المقدس لامبراطور المانية وملك فرنسة .
فهل نفهم من عبارة ابن الأثير « فأجابوه الى التخلي عن ملك الالمان »[24] هذا التحول من الجهة الغربية الى الجهة الشرقية ، حتى يرغموا الامبراطور على فك الحصار . وقد تبين لهم عجزهم عن الاستيلاء على دمشق ، وهم بين صمودها وجيش سيف الدين ونور الدين ، فان عادوا ببانياس خير من ان يعودوا بهزيمة محققة .
وهكذا أعطيت لهم قلعة بانياس مقابل دمشق .

اليوم الخامس :

ففي فجر يوم الاربعاء العاشر من ربيع الاول سنة ٥٤٣ هـ ، الموافق ٢٨ تموز سنة ١١٤٨ م ، رحل الصليبيون عن دمشق مخذولين ، مغلولين ، تاركين وراءهم حرائق في الاشجار والمنازل ، مخلفين موتاهم تنبعث منهم روائح نتنة ، وفي اعقابهم كمن لهم رجال مسلحون خلف الأشجار والجدران الترابية ، يلاحقون بسهامهم فلولهم المهزومة[25] .

خاتمة :

لو ان معين الدين أُنر تحرر وقتئذ من انانيته وشهوته للحكم ، ومكن جيش حلب والموصل من تحطيم الصليبيين على أسوار دمشق ، اما كنا شهدنا معركة من تلك المعارك الفاصلة التي كان من الممكن ان تقرب لنا فتح القدس اربعين عاماً ؟! . . ولكن لا مكان لـ « لو » في التاريخ .
وبقيت قلعة بانياس اسيرة في يد الصليبيين سبعة عشر عاماً ، حتى فتحها نور الدين سنة ٥٦٠ هـ ، وكان ممن حضر فتحها مسعود بن معين الدين ، فالتفت اليه نور الدين وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة ،

ولك فرحتان ، فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن اليوم برد الله جلدة والدك من نار جهنم[٢٦] .

هكذا في التاريخ ، يأتي القائد العظيم ليمحو اخطاء من سبقه من قادة صغار .

موارد البحث

(١) « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » لابن الاثير : ٦٢ .

(٢) هذا مصطلح غربي ، اذ إن الامداد الصليبي لم ينقطع على امتداد قرنين من الزمان .

(٣) « تاريخ الحروب الصليبية » ستيفن رنسيمان : ٢/ ٤٥٣ .

(٤) « تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار » تأليف وليم الصوري . القسم الخاص بالحملة الصليبية الثانية المنشور في كتاب « الحروب الصليبية » للدكتور سهيل زكار : ١/ ٤٣٢ .

(٥) المصدر السابق : ٤٣٣

(٦) « تاريخ الحروب الصليبية » : ٢/ ٤٥٢

(٧) المصدر السابق : ١/ ٤٥٣

(٨) « تاريخ الاعمال المنجزة » : ١/ ٤٢٣

(٩) المصدر السابق : ٤٣٢

(١٠) المصدر السابق .

(١١) المصدر السابق : ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(١٢) المصدر السابق ، و« ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسي ، تحقيق د . سهيل زكار ٤٦٣ .

(١٣) « تاريخ الاعمال المنجزة » : ٤٣٤ .

(١٤) « ذيل تاريخ دمشق » : ٤٦٣ .

(١٥) « الكامل » لابن الأثير ١١/ ١٣٠ .

(١٦) تاريخ ابن عساكر ، اختصار ابي شامة ، ورقم ١٤٢/ ٤٢ ب ، مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق ، و« الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، تحقيق د . قاسم السامرائي : ١١٧ .

(١٧) « المنتظم » لابن الجوزي : ١٠/ ١٣١ .

(١٨) « تاريخ الحروب الصليبية » : ٢/ ٤٥٥

(١٩) « ذيل تاريخ دمشق » : ٤٦٣

(٢٠) « الكامل » : ١١/ ١٣٠ ، و« التاريخ الباهر » : ٨٩ .

(٢١) « الكامل » : ١١/ ١٣٠ .

(٢٢) المصدر السابق .

(٢٣) « مرآة الزمان » سبط ابن الجوزي : ٨/ ١٢٠ .

(٢٤) « الكامل » : ١١/ ١٣٠ .

(٢٥) « ذيل تاريخ دمشق » : ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(٢٦) « التاريخ الباهر » : ١٣١ ، توفي مسعود بن أنر سنة (٥٨١ هـ) كتاب الروضتين ٢/ ٦٧ .

الجذور الأسطورية في أغنية «الطير الأخضر»

محمود مفلح البكر*

تستوقفني مراراً حكاية، أو أغنية ترهش بطفولة البداءة، كاسية بالخضرة، مزهوة بالحناء، مرخية العنان لجموح الخيال الأول العملاق، معلنة موقفها في معمعة الصراع بين قوى الموت وبين قوى الحياة.

ومن هذه التي تدهش ببعد مرماها، واخضلال جانبها، وغور جذورها، لتمتع نسغها من معادنها الاسطورية الأم . . من هذه النصوص أغنية «الطير الأخضر» التي كانت شائعة على ألسنة الاطفال في المناطق الشمالية من فلسطين، كما تترامى في دائرة واسعة من بلاد الشام ومصر . . ومازال الرواة يذكرونها في مروياتهم الى اليوم[١]:

«أنا الطير الأخضر
أمشي واتمختر
مرة ابوي المجنونة[٢]
ذبحتني، وطبختني
وابوي أكل لحماتي
إجت اختي الحنونه[٣]
لملمت عظيماتي
ولفتهن بكفيناتي[٤]
وحطتهن تحت الزيتونة[٥]

وتنتظم هذه الأغنية ضمن حكاية تقول: «إن رجلاً ماتت امرأته تاركة وراءها طفلين، بنتاً، وولداً أصغر منها، فعانى الرجل من وضعه، ومسؤوليته، ولذلك تزوج امرأة ثانية علها تساعده في شؤون الحياة.

* باحث في الفولكلور من فلسطين.

أظهرت امرأة الأب محبة لزوجها، لكنها في الوقت ذاته راحت تسوم الطفلين صنوف الحرمان، والعذاب، وتفتعل المشكلات، وتختلق التهم التي تجلب للطفلين غضب الأب وعقوباته.

ولم تكتف المرأة بذلك فانتهزت غياب زوجها يوماً، وذبحت الولد، وقطعته وطبخته، ورمت ماتبقى منه بعيداً لتخفي أثر الجريمة. وهددت أخت الطفل - التي رأت كل شيء - بأن مصيرها سيكون مثل مصير أخيها اذا باحت بكلمة.

وعند عودة الأب مساء قدمت له اللحم مدعية أنها اشترته من البائع، فأكل الاثنان حتى شبعا، بينما امتنعت الاخت عن أكل لحم أخيها.

وفي غفلة من امرأة الأب، لملمت الأخت عظام أخيها في كيس صغير، ودفنتها تحت شجرة الزيتون، وما لبث الطفل الميت - القتيل - أن تحول الى طائر أخضر، لجأ الى شجرة الزيتون ذاتها، وشرع يغني كل يوم أغنيته «أنا الطير الأخضر» الى أن تنبه الأب للأمر اخيراً، وجازى امرأته القاتلة بما تستحق.

جبهتا الصراع:

الصراع هنا بين جبهتين، الأولى: جبهة الموت، ورأس حربتها امرأة الأب، والقوة المساعدة لها الزوج والد الطفلين. والثانية جبهة الخضرة، ورأس حربتها الطائر الأخضر - أي الطفل - بينما تمثل الأخت القوة المساعدة له.

وهناك قوى أخرى شاركت في الصراع سنتحدث عنها في مناسبتها.

فالطفل وأخته يكتنزان بذرة الخصب المعبأة في طراوة الروح، وفتوة الجسد. وانجاز الخضار ايذان بفتح بوابة الفرح المترعة بزهاء اللون، وبهجة الامتلاء التي عبر عنها الناس بأعياد الربيع بدءاً باحتفالات «تموز»[٦] و «أدون»[٧] و «أوزوريس»[٨] والتي استمرت الى أيامنا بمظاهر احتفالية متنوعة، من أبرزها أيام «الرابع» في جبال الساحل السوري، واحتفالات المقامات في فلسطين، و «نيروز» في مناطق واسعة من آسية، و «شم النسيم» في مصر.

أما امرأة الأب - في الحكاية هذه - فليس في حوزتها إلا خواء القحط، ونضوب الروح، ويباس العاطفة. ولم ينقذها زواجها برجل منجب، ففي داخلها تدوي أنفاس الابادة، ودمار الحياة، التي تشبه أنفاس «أريشكيجال»[٩] و «موت»[١٠].

ومن الطبيعي أن تصب امرأة الأب موتها أولاً على الطفل دون أخته، فتذبحه، وتطبخه، وتأكل لحمه، وتُغَرِّقُ عظامه، إمعاناً في إفنائه، وبذلك تقذفه الى عالم الظلام، العالم الأسفل - الغياب - كما قُذفَ «تموز» على يد عفاريت العالم الأسفل، و «بعل» على يد «موت». و «أوزوريس» على يد «ست»[١١]. لأن ذكورة هذا الطفل هي الند لأنوثتها القاحلة، وربُّهُ نقيضُ جدبها - وبقاؤه

حياً سيؤدي الى إخصاب اناث فتية غيرها، مما يعني تلاشيها أو تلاشي دورها على الأقل في مسرح الحياة، وهذا ماترفضه، وتحاربه بضراوة.

ولذلك سعت الى التفريق الابدي بينه وبين أخته - رمز الأنثى المخصبة أو الواعدة - وفي ذلك تفريق بين الذكورة الواعدة، وبين الأنوثة الواعدة والحياة برمتها وعد.

وحين يكون الصراع جبهوياً، وبهذا الخطر، فلابد للقوى المساعدة من أن تلعب دوراً هاماً، وربما حاسماً أحياناً اذن مادور القوى المساعدة هنا؟

أولاً: دور الأب - الزوج -

يعتبر موت الأم الطيبة - والدة الطفلين - تمهيداً لظهور شخصية جديدة تملأ الفراغ، وتنتقل بالحدث نقلة جديدة بغض النظر عن نوع هذه النقلة، كما يعد ارهاصاً للدور الجديد الذي سيلعبه الأب، والذي سرعان ماتجلى بزواجه من امرأة تستبطن الشر، حلّت محل الأم، فأصبح الأب بذلك حاضناً للشر، مهيئاً الظروف للشخصية الشريرة كي تخطط لجريمتها، كما ساعدها بغيابه المتكرر عن البيت في أن تنفذ خطتها المبيتة، كما ساعدها في اخفاء آثار الجريمة، عندما شاركها في أكل لحم ابنه.

ولايغير من جوهر الأمر شيئاً كونه يعلم أو لايعلم بما ارتكبت امرأته، فجهل المرء بأمر مالا يحميه من التبعات.

ثانياً: دور الأخت:

لعبت الأخت دوراً نقيضاً تماماً لدور أبيها، فقد رفضت أولاً مقتل أخيها، فهناك اشارة الى هذا الموقف، في تهديد امرأة الأب لها بقتلها اذا تكلمت، ورفضت ثانياً المشاركة في اخفاء آثار الجريمة عندما امتنعت عن أكل لحم أخيها، وقامت ثالث بدور عملي شديد الأهمية، هو جمع عظام أخيها في كيس صغير، فلمت بذلك شتات روحه، ثم دفنت هذه العظام في مكان حي مبارك - تحت زيتونة - لأن احتضان هذه التربة لشجرة زيتون دليل على احتفاظها بمادة الحياة، وسر خضرتها. فساعدت الأخت بذلك كله في تهيئة الظروف المناسبة لبعث أخيها حياً من جديد في هيئة طائر أخضر يجد في الزيتونة حضناً يلوذ به، وحصناً يتمترس فيه ليتابع كفاحه في سبيل خضرة الحياة.

وحرص الأخت على اعادة أخيها الى الحياة هو في جوهره حرص الأنوثة الفتية المخصبة على بقاء الذكورة الفتية المخصبة، ولا ينأى هذا عن كفاح عناة - ربة الخصب الكنعانية، في سبيل بعث بعل - أخيها وحبيبها، مرسل الغيوم، وراعي الخضرة. وهو حرص على ديمومة الحياة، وبقاء

خضرتها.

ولهذا الحرص دوافع من اهمها، أن الأب الذي كان مخصباً فيما مضى قد انتقل الى معسكر القحط بزواجه من امرأة قاحطة، وبذلك أصبح في حكم المجدب، مما يعني أن تجدد الحياة رهن ببعث الطفل القتيل من كومة العظام، كما بُعثَ الفينيقُ من كومة الرماد [١٢] وكما كانت خضرة النبات رهناً ببعث تموز.

نافذة على الواقع

رغم العمق الأسطوري الواضح فان لهذا النص نافذة مفتوحة على الواقع بأبعاده الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية.. المتجددة مع الزمن.

فالأب، بعد موت أم أولاده، وزواجه من امرأة ثانية يعشش الشر في صدرها، يمكن أن يمثل السلطة التي افتضح دورها الرباني، وانهارت هيبتها الإلٓهية، مما دفعها الى التمسك بدورها الدنيوي لتنساق وراء مصالحها ورغائبها، فتلتهم دون رحمة حتى أقرب المقربين اليها، مما يجعلها حاضرة وغائبة عن الرعية في آن واحد.

وحالة القطيعة بين السلطة، وبين شعبها حين تتأكد، وتتكرس غالباً ماتدفع السلطة الى مد يدها الى أعداء شعبها، أو على الأقل، الى قوة خارجية تتوخى منها حماية هيكلها من التحطم. الا أن القوة الخارجية مصيرها الى زوال لأنها طارئة.. وعلى أية حال فان شرخاً مهما سُتر أو مُوِّه يظل باقياً بين السلطة وبين القوة الخارجية لان هذا التحالف مبني على أساس غير طاهر لاينفك يغذي نزعة السيطرة، وحب الامتلاك، ويثير المطامع، وأي ظرف تاريخي طارىء قد يؤدي الى توسيع الشرخ، واشعال نار الصراع بين ركني التحالف غير الشريف، ولن يتورع الأقدر منهما عن ضرب حليفه ضربات موجعة، وربما قاضية اذا ماااستشف ان ذلك يحفظ وجوده، وهذا ماحدث مع الأب في هذه الحكاية.

لكن تصدع جبهة الموت وتآكلها لم يحدث هكذا دون مقاومة، وانما نتيجة كفاح طويل مرير خاضته قوى الحياة والخير. والشعب الذي يمتلك نسغ الخضرة في عروقه، ويدفعه نزوع الى النور لايساوم، لابد له في النهاية من أن ينتصر على قوى الموت والظلام.

وهذا مايؤكده الطائر الأخضر، وأخته في هذه الحكاية.

سر الزيتونة

ليس عبثاً أن تختار الأخت شجرة زيتون لتدفن عظام أخيها في كنفها. وليس عبثاً أن يتحول الطفل القتيل الى طائر أخضر، ثم ليس عبثاً أن يلجأ الى الزيتونة ليطلق أغنيته المناضلة الدؤوب

عن منبر أغصانها.

فما سر الزيتونة اذن؟

نتلمس الجواب في حكاية ثانية نراها على صلة بأغنية «الطير الأخضر» ونرجح ان هذه الأغنية كانت في مرحلة مضت جزءاً من لحمة هذه الحكاية، انفصلت عنها بمرور الأيام على يد الرواة، وقد ساعد على ذلك التطور العقيدي، والتغيرات السياسية المتلاحقة.

تروي الحكاية الثانية: «أن أماً طيبة شعرت بدنو أجلها، فأوصت زوجها ان يحتفظ بيدها بعد موتها، ويعالج اليد بما يحفظها، ثم يلفها بالقماش، ليعاقب الأولاد بها اذا أذنبوا ذنباً يستوجب الضرب.

بعد فترة ماتت الأم، تاركة بنتها، وولدها برعاية أبيهما، وقد نفذ الأب الوصية، لكن الرجل مالبث أن تزوج، وأوصى امرأته الجديدة قائلاً:

ـ أترين هذه العصا الملفوفة بالقماش؟ اياك أن تضربي الولدين بغيرها اذا أذنبا في غيابي.

اتبعت المرأة ماطلبه زوجها منها، إلا أنها في أثناء غيابه كانت تضربهما بقسوة شديدة، لكن الذي أدهشها أن الولدين لم يتأثرا، أو تتراجع صحتهما نتيجة هذا الضرب، والتجويع الذي تفرضه عليهما، بل على العكس من ذلك كانا ينموان، ويملأن الدنيا مرحاً، فاحتارت امرأة الأب واستشارت جارتها الخبيثة في أمرها، فباحت لها هذه الجارة بسر العصا الملفوفة، فسارعت امرأة الأب، واستبدلت يد الأم بعصاً حقيقية لفتها بالقماش ذاته، ودفنت يد الأم في الأرض كي لايراها أحد.

نتيجة الضرب بالعصا ساءت حال الطفلين، وشحب لونهما. الا أن يد الأم تحولت الى شجرة زيتون».

لشجرة الزيتون في هذه الحكاية مهمة أساسية، ففي ظلها سيجد الأخوان ـ البنت والولد ـ الراحة، والطمأنينة، ويستمدان البركة منها، ويتزودان بالقدرة السرانية التي تذخر ديمومة الخضرة ـ الحياة ـ حتى أثناء الموت، وهي القدرة ذاتها التي كانت لتموز، وبعل.

فرغم غياب (بعل) في العالم الأسفل، عالم الموتى، والظلام، فقد عاد الى الحياة، أو بكلام أدق احتفظ بسر الحياة إلى حين انتصار عناة، فتهيأ السبيل لبعثه أخضر من جديد، فعاد سائقاً غيومه، مرسلاً نداه، جاراً أذياله البهية، المزدانة بألق الربيع[١٣].

إذن، شجرة الزيتون التي عاد بها «الطير الأخضر» لم تكن خارج الصراع، وإنما في المواجهة إلى جانب البنت وأخيها، فخضرتها الشمولية، الأمومية الدائمة كوّنتْ ملاذاً حصيناً يتمترس فيه الطائر الأخضر ليواصل نضاله المتمثل بأغنيته الجريئة التي فضحت جبهة الموت.

كما يمكن اعتبار شجرة الزيتون روحَ الحياة، ورايتَها، وما الطائر الأخضر، إلا هيئتها المنفلتة من المكان. كما يمثل الطائرُ وأختُه الجنودَ المحامين عن هذا الرمز العظيم.

أي سر نستشف من هذا كله؟

موت الأم خلق الزيتونة التي تحتفظ بسر الحياة.

ومقتل الطفل خلق الطائر الأخضر، وفي الوقت ذاته افتدى خضرة أخته المبشرة بالخصب.

ودم «أدون» قبلاً خلق الشقائق المشرَّبة بلون الدم حين انبعاثه.

وهذه الشقائق. أليست رايات الحياة الثائرة، المندفعة بعنفوان من صمت التربة؟

إنه سر الحياة العظيمة. لا انتصار لخضرتها إلا بالألم والدم. وأي حياة بغير هذا الطريق لاتستحق أن تعاش.

أخيراً..

أنحن أمام حكاية سياسية محكمة وذكية صاغها في مرحلة مضت قاص شعبي بارع؟

أم نحن أمام حكاية اجتماعية نسجتها امرأة ذكية مظلومة من معاناتها، ومعاناة المرأة عامة في زمانها تدين فيها الزواج من امرأة ثانية؟ وتكره الرجال به؟

أم هي تسرُّبُ أسطوري شبه متكامل احتفظ بسر خلوده، وظل قادراً على التعبير عن الواقع بتفاعلاته الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.. في كل زمان ومكان؟!

الإحالات

١ ـ عن روايات شفوية عديدة من شمال فلسطين، والجولان، وحوران.

٢ ـ مرة: امرأة. المجنونة: صفة لايقصد بها هنا معناها الحرفي، وإنما يقصد بها اللعن بأسلوب تقريري.

إجت: جاءت

٣ ـ كفينات: تصغير أكفان.

٥ ـ حطتهن: وفي رواية ثانية (دفنتهن).

٦ ـ تموز: يمثل روح النبات في بلاد الرافدين قديماً، ومنها انتشرت طقوسه في دائرة واسعة من العالم القديم. انظر مثلاً: انطون موركارت / تموز/ تعريب توفيق سليمان / دار المجد/ ١٩٨٥/ ط١

٧ ـ أدون: وجه من وجوه تموز، انتشرت طقوسه في بلاد كنعان، ومنها امتدت الى أوروبا وغيرها. انظر مثلاً فراس سواح ـ لغز عشتار ـ دار سومر ـ نيقوسية ـ ١٩٨٥ ـ ط١ ـ ص٣٠٥ ـ ٣٠٨

٨ ـ أوزرويس: وجه آخر لتموز، تركزت طقوسه في مصر القديمة. انظر مثلاً: سليمان مظهر ـ قصة الديانات ـ دار الوطن العربي ـ القاهرة / بيروت ـ ١٩٨٤ ـ ط١ ـ ص٣٣ ومابعدها.

٩ ـ ربة العالم الأسفل في الأساطير السومرية.

١٠ ـ إله الموت في الأساطير الكنعانية، والكلمة العربية تدل على جوهر معناها الكنعاني.

١١ ـ أخو أوزرويس، وعدوه اللدود.

١٢ ـ الفينيق: طائر أسطوري يحترق على ذروة معبد من معابد بلاد كنعان ثم يبعث من رماده.

١٣ ـ انظر مثلاً: هـ. ي. ديل ميديكو ـ اللآلىء من النصوص الكنعانية ـ ترجمة مفيد عرنوق ـ منشورات مجلة فكر ـ ط١ ـ ١٩٨٠ ص٦٠ وغيرها من الصفحات.

ادب ونقد

الأحرف الأولى

امين مازن*

أبداً تظل العلاقة بين الاديب ورسالته الثقافية، وعطائه الفكري، غير خاضعة للظروف الحياتية، غير مرتبـطة بما يملأ الواقع من أنواع الاحباط، وما يتعدد فيه من أسباب الاخفاق، وعوامل الضعف والضمور، ذلك أن ما يميز الاديب الحق، هو ارتفاعه المستمر الى تلك العوامل الشفافة التي تمنحه ذلك الاحساس القوى، بأنه فوق الأمور الدنيوية، فوق تلك المسائل الصغيرة التي كثيراً ما تشغل غيره من البشر، فتغلب لديهم أنواع الطموح البسيط، وتملأ عوالمهم بالاطماع السريعة، والتطلعات الحياتية الزائلة.

ان هذا لا يعني أن الاديب ليس له مطالبه الحياتية، أو أنه يمكن أن يتحول الى راهب منعزل في صومعة بمنأى عن مشاغل الناس وهمومهم المختلفة، فهو لا يكتسب صفة الاديب الحق، الا اذا انغمس كلياً في معركة الحياة ومشكلاتها المعقدة، وهو لا يسمو عن البشر، ان صح التعبير، الا بما يتحقق له من عمق الالتزام الصادق المسؤول بقضايا الناس اليومية ومطالبهم العادلة. من احتياجاتهم يستوحى الهامه، ومن مطالبهم يصوغ كلماته وحروفه.

---

* اديب من الجماهيرية، رئيس رابطة الكتاب والادباء والصحفيين.

ومن هنـا، فان ما نقصده بالاعتصام من تلك الظروف الحياتية، هو عدم الخضوع لها خضوعاً كاملاً. هو عدم التوقف أمام تلك الظروف الطارئة، التي كثيراً ما تعوق رحلة الاديب أو تعترض طريقه، أثناء أدائه لرسالته، أي ان الاديب الحق، هو ذلك الذي لا يسمح لهذه المصاعب أن تفت في عضده، أو تمنعه من مواصلة رسالته المقدسة، رسالة الابداع الصادق والعطاء الملتزم، والاصرار الحاسم على المضي قدماً الى ذلك الدرب الشاق الطويل.

انه يرصد تلك الظواهر والسلبيات ويعطيها ما تستحق من التحليل والتمحيص، ويعود بها دائماً الى أسبـابهـا الحقيقية وعواملها الموضوعية، لكن أبداً لا يتوقف عندها الى ما لا نهاية. . . أبداً يتجاوزها، ويواصل رحلته الكبيرة، رحلة الاكتشاف المستمر، رحلة العطاء الدائم اللامنقطع.

ان رائحـة الحـبر دائـماً، أحب الى الكـاتـب الصـادق من عطور باريس، وأثمن من حلي بقـاع الارض. . . وان أكوام الكتب والمجلات تظل أكثر جاذبية من بُدَل سان لوران. وهو كلما مرت في حياته لحظة من لحظات الاخفاق، أو حلت به حالة من حالات الفشل، أو لفحته لفحة من رياح الجحود، لا يملك أن يبتسم ابتسامة عريضة، تتجاوز كل هذه الاشياء، ذلك أن خياره الابدي أن يقول كلمته على مهل، ويرسخ رؤيته في تؤدة، ويؤسس منهجه في فسحة من الوقت، وبمنأى عن كل مغنمٍ عاجلٍ، أو عرض زائل.

ومن هنا تجده دائماً، وكلما تنوعت المصاعب، وتعقدت الامور، وكاد اليأس أن يسيطر، كلما ازداد اصراراً على مواصلة مسيرتـه، والمضي في رحلته الشاقة الطويلة، فهو كالبحار الذي لا يهاب الانواء، كالفارس الذي لا يقبل بالموت الا في قلب المعركة. . انه عاشق ولهان لتلك المحبوبة الجميلة التي يدعونها الكلمة، سقيم لا شفاء له الا بقبضة من تراب الوطن.

والذين عرفوا تاريخ الثقافة الوطنية، وأدركوا دور الاديب الوطني، يعلمون حق العلم هذه الخصال الرفيعة التي يتحلى بها ذلك النموذج المتميز، فتراهم ينأون به عن مواطن الشبهة، وينزهونه عن مكامن الخطأ والخطر، ويرون فيه الثروة التي لا تضاهيها ثروة، والفاعلية التي تضؤل أمامها كل فاعلية أخرى بل انهم يذهبون الى أبعد من ذلك بكثير، حيث يقيسون مصداقية الانظمة الوطنية بما تتيحه للمثقف من فرص المشاركة الحقيقية في معركة الحياة، وتحديد ملامح الغد الافضل.

ولا عجب، فالاديب الحق الذي يفلح في أداء رسالته على الوجه الاكمل، يعتبر بحق، هو القيمة الباقية والرحلة المستفادة. والدليل الاول في المعركة الطويلة.

رواية «وجع البعاد» ووضع الفلاح المصري على مشارف القرن الواحد والعشرين

• شمس الدين موسى

طالع الكاتب الروائي «محمد يوسف القعيد» قراءة في الفترة الأخيرة بروايته الجديدة «وجع البعاد» التي صور فيها الكاتب كثيراً من أخبار آخر ماجرى في قريته، أو العزبة التي تلتحق بقريته الضهرية، والتي تدعى عزبة العتقا، وهي عزبة من آلاف العزب، التي عاش فيها الفلاح المصري منذ آلاف السنين، لكي يروي الارض بعرقه وآلامه ودموعه، وكأن الأرض لاترتوي أبداً، فهي دائماً عطشى لتلك الدماء، والدموع وقطرات العرق تعطى أكلها أضعاف مضاعفة، منتزعة البسمة من هذا الفلاح البائس، وأسرته البائسة العاملة دوماً في الارض، متمثلة كل ماعرفناه عن ظلم إقطاع القرون الوسطى، ومعاملتهم للأقنان الذين يعملون في أرضهم. . وإلى أين يذهب عائد تلك الأرض، التي تعبت كثيراً، واكتظت بأبنائها ذوي الأفواه الجائعة والمفتوحة؟ فلقد أصبح نتاجها لايكفيهم، على الرغم من أن حياتهم لاتختلف كثيراً عن حياة قن

ناقد من مصر

الأرض، مع عدم وجود نبلاء أو سادة ، متعبدون هؤلاء الأقنان وفقاً للحقوق المترتبة لهم كنبلاء وسادة من القـرون الـوسـطى، أو بمسئولية تبعية الأقنان لهم، فلقد تفتتت الاراضي الى قطع صغيرة تناثرت على الفلاحين الفقراء، الذين لايستطيعون العمل فيها لانباتها قبلما يستدينون الديون الكثيرة التي يستخدمونها حتى يبقوا مجرد أحياء، ولانبات تلك القطع الصغيرة، والتي عندما تأتي أكلها يتسرب نتاجها من بين أصابع أصحابها من الفقراء سداداً لديونهم بالكاد، والسعيد هو الذي لايبقى عليه دين حتى لايبدأ الاستدانة من جديد.. فالفلاح أو ملايين الفلاحين الفقراء الذين عنى «يوسف القعيد» بتصويرهم في أعماله، وخاصة عمله الأخير «وجع البلاد» ملاك صغار جداً، أي أنهم مربوطون لتلك الارض، أو للطاحونة التي تطحن عظامهم ولحمهم، حتى يستمروا أحياءً. ولعل رواية «وجع البلاد» تشي بشيء ربما الكاتب لم يقصده عند كتابتهـا، فهي تشي بأن المشكلة لاتـزال قائمـة، على الـرغم من حدوث ثلاث ثورات في أقل من مائة عام ثورة ١٨٨٢، وثورة ١٩١٩، وثورة ١٩٥٢ بكل ماأقامته من إصلاحات، وهي ثورات برجوازية في كل الاحوال تعمل لصالح البرجوازية بين الصغار بشرائحهم المتعددة. وعلى الرغم من كل ذلك إلا أن «وجع البلاد» تعلن بكل السبل والاشارات، أن حال ذلك الفلاح الصغير أو المالك الصغير / بطل القصة، وهو واحد من تلك الملايين، كما هو. ولايزال قناً للأرض، أو قناً للملكية المجزأة المهترئة الذي يشقى طوال يومه كي يأتي أكله ويسد دينه في نهاية العام حتى يومنا هذا، وهو باختصار ماصورته الرواية.

الخطاب الروائي في الرواية...

يذهب يوسف القعيد بالقارىء لروايته في رحلة لتلك العزبة الصغيرة الكائنة في مكان متميز على النيل بمحافظة البحيرة، لنعيش معه حال تلك الأسرة المالكة لقطعة أرض صغيرة جداً يعمل بها الأب «عبد بركات»، على الرغم من أنها ليست أرضه، فهو غريب عن الناحية.. هي أرض زوجته «ست الدار» يشقى فيها طوال النهار مع ولديه، لكي تعيش أسرته في ذلك البيت أو الكوخ الصغير الملحق به مندرة. كما تعمل «ست الدار» في تربية عدد من الدجاج بالشرك مع إحدى جاراتها كنوع من المساعدة على الحياة، فها هي المرأة المصرية كما عرفناها فوق الجداريات الفرعونية تساعد زوجها على الحياة إما في الحقل أو في البيت، فكلها أعمال تصب في نهر حياتهم اليومية، و «ست الدار» تمثل ذلك الأنموذج، الذي انتزع كل مفردات وعيه من حياته اليومية البسيطة والمركبة.

تبدأ الرواية بحضور ذلك الزائر / الشاب والغريب عن العزبة، فهو قادم من البلدان العربية حاملاً رسالة خاصة لعبده بركات من ابنه الذي يعمل في الخارج بعد أن نال الشهادة الاعدادية، فلقد تحايل من أجل الهجرة كي يساعد أهله للخروج من دائرة الفقر، والقضاء على مشاكلهم اليومية، وهو الحلم الذي غزا مصر كلها ريفها وحضرها طوال سنوات السبعينيات، فلقد صوروا أن الأمل للخلاص في الخارج، وليس في الـداخل، ولِمَ لايصدر أبناء مصر مشكلتها للخارج؟ الحل لن يكون بالتنمية أو بالتعليم، أو بالقضاء على الفقر والأمية وتحديث الريف. لن يكون الحل إلا بتصدير القوى العاملة للخارج، ومن ثم

على من يريد أن يجد حلاً لمشكلة ما أن يذهب الى الخارج. وكما يقول الكاتب في الرواية:

«كانت ذاكرة عبدة بركات مجروحة، عقد العمل، الغريب الذي جاء، الأموال التي أخذها منهم.

قال بركات الصغير لوالده: إن الذهب في تلك البلاد البعيدة يملأ الشوارع، كل المطلوب أن تنزل وتلم الذهب حتى يتراكم عندك وتعود.

قال بركات.. إنه سيعود ليغطي البيت بالذهب الأصفر، والذهب الأبيض..».

ذلك هو ماصوره بركات الابن لأبيه قبل سفره، حتى يدفع له مايريده الغريب مقابل ترحيله الى بلاد الرمال الصفراء. فلقد صدق أبوه ذلك المنطق.. ولم لا؟؟ ألم ير في القرية والقرى المجاورة من نجح في جلب الكثير من الأموال نتيجة للهجرة والعمل في البلدان العربية؟ كما رأى كيف تحولت بيوت القرية من الطوب الأخضر، الذي كان يجمعه الفلاحون بعد ترسيب مياه النيل، إلى الخرسانة المسلحة.. ألم ير كيف غزت وسـائل الاستهـلاك الحـديثـة ثلاجـة، وغسالة، وتليفزيون ملون، وفيديو القرية والقرى المجاورة؟؟ وهذا هو مالم تقله الرواية.. فلقد عنى الكاتب بتصوير جانب واحد فقط تمثل في مأساة عبده بركات، وأسرته التي ظلت تنتظر الفرج من ابنها المسافر، الذي انتزع قبل سفره كل مالديهم حتى يحقق رغبته. فالأب على المستوى الشخصي له أحلامه الخاصة، فهو يحلم بأن يرتدي جلباباً صوفياً وصديري نظيفاً، وعمامة بيضاء كالأعيان، كما ينتظر أن يبني بيتاً بدلاً من الكوخ الذي يعيشون فيه، على أن يلحق به دورة مياه بدلاً من قضاء حاجاتهم في الخلاء والغيطان، كما يتصور ضرورة أن يقيم مدفناً لأفراد أسرته، حتى لاتعايره «ست الدار» بأنه غريب، ولسوف تدفنه في مقبرة أسرتها.. كما يحلم بأن يرفع رأسه في مواجهة أهل سكان عزبة العتقا، الذين يعايرونه بنفوذ زوجته عليه، وينتظر أن يكون سيداً من أسياد القرية، ويرفع رأسه أمام شيخ البلد، الذي يتنازع معه دائماً، فهو يستهزىء به لأنه شيخ بلد ويطالب الناس بأن ينادوه كعمدة.

كان الرسول القادم هو القدر، الذي حط على أفراد الأسرة، فاستدعى مجيئه كل أحلامها الخاصة والعامة، وكان زيارة الشاب، صديق ابنهم القادم من الصعيد لتوصيل رسالة ابنهم هي الأمل، ولعلها تذكرنا بمسرحية «زيارة السيدة العجوز» لدورينمات، والتي كان ينتظرها الجميع فهي ستحل كل المشاكل، وتقضي على جميع الحـوائج وتيسر كل الرغبات التي لم تسد، أو كأنها تمثل القصيدة الرائعة للشاعر عبد الوهاب البياتي «الذي يأتي ولا يأتي»، فلقد أتى الزائر لتوصيل الرسالة كما تبدأ الأجزاء الأولى من الرواية التي يستغرق زمنها الروائي ٢٤ ساعة فقط، لكنها تحتوي زمن القرية المصرية كله بكل مايحمل من نكسات وخيبات وأحلام مجهضة لأبنائها الفقراء.

عنـدمـا يصل الرسول تحيطه كل العيون المتطفلة حتى يصل الى بيت عبده بركات، الذي يقرر أصحابه إكرام الضيف رغم فقرهم المدقع، فأولوا له أفخر وليمة لم يعرفها بينهم بالاقتراض من الجيران والفـلاحـين أمثالهم، ولن يستمعوا الى ماأتى من أجله قبل تكريمه. وكان الوقت يمر متسرسباً حتى العشاء، عندما قرروا أن يستمعوا الى الزائر، الذي اكتشفوا أنه أحضر رسالتهم، ولم يحضر أموالاً أو ذهباً أو فضة، كما كانوا يتعشمون ليحلوا بها مشاكلهم، وكلما حاول إخبارهم منعوه لأن الكلام لايكون إلا بعد

العشاء، والشراب والمسامرة. وعندما يأتي الوقت الموعود ويتركون له الفرصة كي يفك لسانه بما عنده، وكان قد رأى ظروفهم ولمسها، مما جعله لايتفوه بشيء عن أحوال ابنهم المأزومة في البلاد الغربية، وقرر أن يكون كلام ابنهم لهم مباشرة وبدون وسيط، وفي حضور الجميع: وبينهم عبده بركات والد بركات صديقه صاحب الرسالة، وخاصة زيدان، وشقيقاه عسران وهمام، وشقيقاته وازواجهم، وابنة خال خطيبته..

ويدور الحوار التالي:

«سأل زيدان بالحاح

- بركات جاي امتى؟

أجاب أسامة على السؤال قبل أن يكون هناك سؤال آخر:

- قريباً إن شاء الله.

سأل عبده بركات:

- معقول الشغل يمنعه عنا.
- الغايب حجته معاه.
- طيب ما انت جيت
- كل واحد وله ظروفه.

كان السؤال هذه المرة عتاباً

- والجوابات؟! سنين ولا كلمة واحدة.

تنحنح أسامة، اقترب من المنطقة الخطرة، لاسبيل أمامه سوى أن يأخذ زمام الكلمات، يتحدث خوفاً من أن تكشفه الأسئلة والاجابات قال:

- ياعمي البوستة بين البلاد وبعضها مابتوصلش الحمل زيدان
- فعلاً

ولكي ينهي أسامة هذا الموقف الصعب، مد يده تحت قميصه، تسللت أصابعه الى المنطقة التي يوجد فيها...

أمسك عبده بالظرف، اكتشف أنه ليس مثل كل الجوابات الأخرى، محشو عن آخره، ومن زحمة الفلوس فيه يبدو صلباً. القرشينات جاءت أخيراً، هل أموال هذه البلاد مصبوبة من الحديد؟ أم أن الذي في الظرف عبارة عن حته من الذهب. عيار أربعة وعشرين قيراطاً؟ تحسس الظرف، ارتفاعات وانخفاضات، ولامفر من السئوال، ولو سمعت العتقا كلها..

- إيه ده؟
- جواب.. افتحه ياعمي»

فوجىء الجميع بأن الجواب يحتوي على شريط تسجيل، أي أن ابنهم لم يرسل لهم نقوداً، ولاذهبا أو فضة، وإنما أرسل لهم شريطاً كي يسمعوا صوته مباشرة بدلاً من الكتابة والأوراق، وهو ماأصبح من

تقاليد عصر الانفتاح..

وتتعقد الأزمة عندما لايجدوا جهازاً لتشغيل الشريط مما يسبب حيرة الجميع، فدار العمدة يجب ألا تعرف، كما يرى بركات الأب، وفلان يجب ألا يعرف، وفلان الفلاني - أيضاً - يجب ألا يعرف. وفلان، وفلان. وفلان.. وفي النهاية يقع الاختيار على نطاط الحيطان، الذي يعيش خارج العزبة، وهم مدينون له كي يقترضون منه جهازاً لتشغيل الشريط، ويذهب شقيقا المسافر الى نطاط الحيطان، وهو أكبر نصاب في الناحية، لكي يقترضوا منه جهازه لتشغيل الشريط، لكنه يشترط الرهينة. فجهازه - كما يعلن - لايوجد مثله في مصر الا ثلاثة فقط. واحد لدى الرئيس، وثانٍ لدى مليونير كبير، والثالث لديه هو، وثمنه خمسمائة جنيه، ولايقبل التفريط فيه إلا مقابل رهينة تساوي قيمته، حددها في الجاموسة الشرك التي لديهم، ويأكلون منها الجبن والزبد، ويشربون اللبن الذي تدره. كما تساعدهم في أعمالهم اليومية بالحقل.

ويعود الرسولان الى أبيهما الذي يقرر رغم أنف زوجته «ست الدار» إرسال الرهينة الجاموسة، وعلى الصباح يكونون قد قرأوا الرسالة، وفهموا مضمونها، واسترجعوا جاموستهم قبلما يرى الناس في العزبة مايجري في دارهم. ويذهب الشقيقان بالجاموسة ويحضران الجهاز الذي لايعرفون كيفية تشغيله، وبينما هم حائرون يدفع بركات الأب قبضته بعد أن ينفذ صبره، فيخبط بها الجهاز مستنطقاً إياه، كي يقص رسالة ابنه التي ستحل كل مشاكلهم، لكن المفاجأة غير المنتظرة أن الجهاز يتحطم تحت قبضته التي تجرح، ويتحول الى قطع متناثرة، مما جعل الجميع يفيقون الى ماحدث، وقسوته، فلقد ضاعت الجاموسة ولن يعيدها «نطاط الحيطان» ولاينتبهون الى جرح بركات الذي كان يؤلمه، ودمائه المنهمرة.

وتنتهي الأحداث بالمأساة التي حبكت خيوطها حول أسرة بركات، ويقوم نطاط الحيطان بإرسال عدة شكاوى، واحدة لعمدة الضهرية قريته، وثانية لشيخ البلد، وثالثة لضابط الشرطة بالنقطة، كي يحتفظ بحقه، وأنه لن يسلم الجاموسة الا بعد عودة جهازه سليماً، ولما كان الجهاز قد تحطم. وأصبح من المتعذر عودته كما كان، فإنه يريد واحداً آخر مثله ومن بلده، ومن نفس الموديل.. إذا فلقد أصبح نطاط الحيطان صاحب حق في القضية، التي تشعبت فروعها. وتنتهي الرواية بضياع «عقل بركات» الذي يفضل الحلم، فيصاب بحالة ذهان، ويرفض كل ما جرى امامه، وتسبب فيه، ولم تجد «ست الدار» - رمز الوعي في الرواية، والتي كانت ترفض ارسال الجاموسة - إلا الدموع ترسلها مطراً، كما تقرر آخر سطور الرواية.

وجدير بالذكر أن القارىء والمتأمل لأجزاء الرواية الأخيرة، لايمكن أن يغفل الميلودرامية الزاعقة التي وضعنا فيها الكاتب، فكل الطرق أصبحت مسدودة، ولا مناص من ضياع تلك الأسرة الفلاحية الفقيرة، إنهيارها تماماً، فبعد أن كان يراود أفرادها نوع من الأمل في الخلاص، تلاشى ذلك الأمل وسط ظلام المأساة التي وقعوا فيها في نهاية اليوم، وقبل بداية اليوم الجديد، وقبلما تمر ٢٤ ساعة على حضور الزائر الغريب... وعلى الرغم من تلك الأجزاء الميلودرامية التي جاءت في آخرها، والتي عرضها الكاتب وبالطريقة التي صورها بها كي تحمل خطابه الخاص للقارىء، فلقد تعمد الكاتب الميلودرامية كي يجسد مأساة تلك الأسرة، التي وقعت عليها المصائب من كل ناحية، فالأصوات تعبر عن مأساة متشعبة ومركبة

لهذه الأسرة الفقيرة البسيطة، وربما يشاركه بعض القراء في ذلك الحكم لأن ماحدث يشكل مأساة كاملة الأركان، فلقد فقد الأب ابنه الذي علمنا من التفاصيل أنه لم ينجح في الغربة، بل إنه وقع في مشاكل في أثناء وجوده في البلد التي سافر إليها، ولم يجد الذهب الذي كان يحلم به، وحمل صديقه اسامة رسالته إلى أهله لكي يحاولوا مساعدته، بينما هم في مسيس الحاجة لمساعدته لهم، وينتظرون أي عون منه، فهم يعيشون على أمل عودته أو العمل على إنقاذهم من هم فيه بعد ذهابه... ولكنني أظن أن الكاتب باستخدام للميلودرامية كان يقصد توصيل خطاب معين، فهو منذ البداية يدين الانفتاح، كما يدين العلاقات التي قامت بين مصر و«اسرائيل»، وإن كان قد عرض ذلك كنوع من المشاهدة السريعة، ويدين خروج الناس مع عدم وجود البدائل التي تحل مشاكلهم، ومايؤخذ على خطاب الكاتب أنه لن يسمعه أحد في بر مصر كله، ولا شك أن ثمة رباطاً غير مرئي بين الانفتاح وما أدى إليه، وإقامة علاقات طبيعية بين مصر و«اسرائيل»، لكن ربط ذلك بانهيار تلك الأسرة كان يحتاج إلى نظرة أخرى، وهو ماكان يحاول الكاتب توصيله، لأنه يمثل فكرة أساسية تشكلت داخله. والمؤكد أن الرواية لم تقم تلك الرابطة، ولم تستطع إظهارها من خلال التطور الدرامي للأحداث وتفريعاتها، وما أسقطه الكاتب حول التغييرات التي شاهدها أسامة في المدينة عن وجود «الاسرائيليين»، لم يكن عضوياً، ومندمجاً ضمن الخيوط الدرامية في الرواية، وهو مايمثل رؤية الكاتب، أو بيانه، أو الخطاب الذي تحمل روايته.. ومادام الناس يرون أموال الانفتاح تغير وجه الحياة ـ على المستوى الفردي ـ في مصر، فمن أراد أن يهدم بيته هدم، ومن أراد ترك الزراعة تركها وذهب إلى التجارة، وجنون الاستهلاك الذي وصل إلى الربوع والكفور والقرى، فما دام لن يوجد البديل، فإن هذا الخطاب لن يجد الآذان الصاغية التي تسمعه، فمصر منذ بداية السبعينات تعيش زمن الحلم الفردي، الذي يتحقق عن طريق الهجرة، ولا يزال الفلاح كما هو في وجه من وجوهها، وهو الوجه الأهم، والذي لم يقصده الكاتب بشكل مباشر، فالواقع الذي صورته الرواية للعزبة، متخلف، ومتدنٍ من كل شيء، البساطة، الفقر، وانخفاض المستوى العام في التفكير والممارسات اليومية، والتخلف في البنى الأساسية، مما ترك السيادة في النهاية للحلم الفردي، على الرغم من أن الأحلام الفردية هي التي أوصلت أسرة بركات للهاوية، بل إنها أوصلت اقتصاد مصر كله، وحياتها للتشتت والاستدانة، والفقر، مع وجود مظاهر الاستهلاك الجائرة، التي لم ينج منها الفقراء، بل إنهم يعيشون الأحلام الملونة على شاشات التلفزيون كل ليلة... ومن المسئول عن كل ذلك ونحن في نهاية القرن العشرين، هل هو الانفتاح بعشرات السنين؟ـ وإذا كان ذلك هو حال الفلاح المصري الذي صورته الرواية يعيش في مستنقع من البؤس والتخلف... من المسئول عن ذلك؟ ـ أهو المسئول؟ ـ أم تفتيت الملكية؟ ـ أم عدم جدية إصلاح حال؟ أم السبب يتركز في اتباع أسلوب تمليك الأرض كقطع صغيرة، والتأكيد على قيمة الملكية؟ أم الانفتاح؟ ـ أم هجرة ابنه؟ أم النظام السياسي والاجتماعي الذي يسمح للاستغلال بأخذ صور عديدة؟..

والمفارقة في الرواية تتمثل في أنه على الرغم من أن ملايين الفلاحين المصريين قد هاجروا طوال السنوات الاخيرة، وعملوا على تغيير وجه الحياة في مصر، ولدى أسرهم ـ إلا أن الرواية لم تتعرض لذلك،

بل تناولت تلك الأسرة سيئة الحظ، والتي عاشت المأساة بكل أبعادها، والتي يوضح الكاتب أنه لامحالة ـ من هلاكها وضياعها نتيجة لحلم الانفتاح والاستهلاك ـ لكن ملايين الاسر الاخرى لم تهلك، بل أصابها الانتعاش، وربما فترات التغييرات الكبرى في حياة الامم لابد أن يذهب بسببها بعض الضحايا. ولقد عرفنا إنه باختراع الآلات الحديثة في الصناعات المختلفة، ذهب ضحية ذلك آلاف، بل ملايين الأسر التي كانت تعيش على الصناعات اليدوية كالنسيج وغيره. فالمشكلة في رواية القعيد شديدة التعقيد لأن حال تلك الأسرة قبل الانفتاح لم يكن أفضل، وهي مشكلة مصر كلها، وما أصابها من تغييرات.

وإذا كانت الرواية لم تجب عن كل تلك الأسئلة التي فرضت نفسها ـ بطريقة غير مباشرة ـ على القارىء ـ إلا أن مجرد قراءة سطور الرواية، والوقوف على زواياها المختلفة يطرح مثل هذه الأسئلة وغيرها الكثير عن حال الفلاح المصري والأسرة المصرية، ولعلنا نبحث لها عن اجابة.

ومايعيب الرواية من وجهة نظري أربعة عيوب هي:

١ ـ كثرة التفاصيل التي زادت عن الحد، وكان بالإمكان تركيز العشرات منها.

٢ ـ استعمال الكاتب لغة أبطاله أثناء سرده لأحداث الرواية، على الرغم من أن سرده كان خارجياً في كثير من الأجزاء.

٣ ـ الاسراف في استعمال الأمثلة الشعبية لدرجة عالية.

٤ ـ التركيز على أشياء خارج الأحداث الأساسية، مثل مشاهدات أسامة بعد عودته من الخارج للاسرائيليين وتعليقاته عليها.

ويبقى في النهاية للكاتب طرقه لموضوع أساسي وهام جداً نعيشه منذ أوائل السبعينات، وإن كان الكاتب استخدم في ذلك لغة الرواية وفن الرواية، وهو مايجيده ولاغرو في ذلك، فالرواية فن الجماعة والقعيد من كتاب الرواية الواقعية التي عنيت بمناقشة تفاصيل الحياة في مصر والقرية المصرية منذ روايته الاولى «الحداد» وحتى آخر أعماله «وجع البلاد».

ويبقى للكاتب في النهاية ذلك التصوير الواقعي لحال القرية المصرية والعلاقات التي تسود بين أفرادها، على اختلاف مستوياتهم. فضلاً عن همه الخاص بما يجري هناك، وطرحه للعديد من القضايا التي فجرت مالم يكن يقصده ويركز عليه، فمسئولية تلك الاسرة، وضياعها بعد انتهاء الثمانينات، وبعد حدوث ثلاث ثورات في أقل من مائة عام، وفي وجود مثل شيخ البلد الذي يزعم أنه عمدة، والنصاب نطاط الحيطان، الذي أصبح صاحب حق يشكو من أجل الحفاظ عليه، ليس مسئولية ذلك الفلاح، الذي لايعرف حرفة غير بذل الدموع والعرق والدم لري تلك الارض وانباتها، إنها مسئولية من ادعوا أنهم حرروا الفلاح وإرادته، ومصيره بتمليكه الأرض بينما هو لايزال يعيش حياة لاتختلف عن حياة الأقنان في ظل أبشع النظم استغلالاً وهو ما طرحته الرواية.

ادب ونقد

الراية في نماذج من القصة الفلسطينية القصيرة

بين الرمز والواقع

صادق عبد الرحيم*

ان من يراقب مسيرة القضية الفلسطينية وشعاراتها منذ نكبة عام ١٩٤٨ وحتى يومنا هذا، يلاحظ أنها طرحت في الساحة السياسية ـ منذ البدء ـ مقولات واضحة تتجلى في العودة الى الوطن وتحريره، كحق طبيعي من حقوق الانسان عامة، والمواطن خاصة والفلسطيني بأدق خصوصيات قضيته.

وعلى الرغم من اختلاف العرب أحياناً والفلسطينيين فيما بينهم، في فترات من مراحل نضالهم، حول الوسيلة التي يتوجب عليهم استخدامها للحصول على هذا الحق فان هدفهم جميعاً لم يتغير، وظل كما كان، رافعاً شعارات العودة والتحرير.

ويمكننا القول ـ بناء على هذا ـ ان الراية الفلسطينية التي رفعوها لم تنتكس، ولايبدو في الافق، خصوصاً بعد اندلاع الانتفاضة، ما يشير الى انتكاستها.

وعلى الساحة الادبية، وفي ديوان الشعر العربي، يقرأ الراصد خلال هذه الفترة وما قبلها وبعدها ويسمع دوي طبول المقاومة، وهو يرى الراية الفلسطينية تتقدمها.

---

* كاتب من فلسطين.

ومع ذيوع القصة القصيرة وانتشارها في أدبنا العربي، الذي يمثل الادب الفلسطيني شريحة من شرائحه، ترتفع الراية خفاقة، كمقولة أساسية ثابتة من مقولاتها التي التزمت بالثورة ونضالات الامة.

واذا كانت الراية لم تنتكس سياسياً، حتى في أصعب مراحل القضية التي لسنا بصدد الحديث عنها الآن، وظلت ثابتة تثير غيظ الاعداء الصهاينة وتقلب حساباتهم، وهي تنتقل من جيل الى جيل، حتى تصل الى أبطال الانتفاضة/ الثورة، فانها في الساحة الادبية قد واكبت هذه النقلات، لتلقي بمرساتها أخيراً في أيدي هؤلاء الابطال وتتكلم لغتهم.

ولما اخترنا لدراستنا أن تكون مقصورة على الراية، كما تناولتها القصة الفلسطينية القصيرة، فلا بأس أن نبدأها بالحديث عن القصة القصيرة جداً، وهو الفن الاحدث في هذا الميدان، ونضع بين أيدي القارىء نموذجاً اخترناه لاتفاقه مع هدف هذه الدراسة، فالقصة تقول: انه «في اللحظة ذاتها التي ارتفع فيها سرب من الحمام يحمل العلم الفلسطيني في سماء مدينة نابلس أخذ جنود الاحتلال يتجادلون حول خداع البصر، وما أشبه ذلك من أمور. . صاح أحدهم محتداً: كيف يمكن لسرب من الحمام أن يحمل هذا العلم الكبير؟ أصر آخر: لقد قرأت كثيراً عن خداع البصر، ولا يمكن الا أن يكون كذلك. . ضحك الطفل الذي يحمل بيده الصغيرة حجراً، وما قال أي شيء. . وعندما اشتد النقاش واحتد، قرروا أن يطلقوا الرصاص على سرب الحمام، فعلوا، تكاثر الرصاص، سقطت حمامة واحدة، وبقي العلم الفلسطيني مرتفعاً في السماء»[١].

وقصة «الحمام»، كما عرضناها كاملة، تشير ـ كما يرى القارىء ـ رغم قصرها الشديد الى عدد من مفردات القضية الفلسطينية، سوف نعرضها بعد الاشارة الى تاريخ كتابتها (١٩٨٧) الذي سبق اندلاع انتفاضة/ الثورة، وما الاشارة الى «الطفل الذي يحمل بيده الصغيرة حجراً» الا نبوءة أطلقها الكاتب في قصته، كما أطلقها في شعره[٢]، وقد برهنت الايام الحبلى التي تمخضت عن ميلاد الانتفاضة صدق نبوءته.

والقصة تقدم عناصرها وشخصياتها بين أيدينا عن طريق الرمز حيناً، كما في سرب الحمام الذي يعني به الكاتب الشعب الفلسطيني، وعن طريق الصفة الحقيقية حيناً آخر، كما هو الحال في ذكر جنود الاحتلال الصهيوني والطفل الفلسطيني.

ومما يلاحظ أن استثناء الطفل، لا من انتمائه الفلسطيني، بل من الرمز، ووضعه وجنود العدو الصهيوني في مستوى واحد من الواقع قد جاء نتيجة النبوءة التي أطلقها الكاتب، والتي كانت ضرورية لاستمرار الصراع، ولو لم يفعل الكاتب ذلك لحملت قصته في ميلادها سبب مطعنها وموتها فنياً وفكرياً، لان التنازع بين الشعب الفلسطيني (الرمز) وبين الجنود الصهاينة، الذين كانوا سيمثلون وحدهم، لولا وجود الطفل الفلسطيني (الواقع) لن يكون صراعاً حقيقياً، بل سيكون عملية مطاردة القاتل للمقتول. فالقصة حينما تعمد الى الرمز وتشبيه الشعب الفلسطيني بالحمام، تهدف إلى تقديم طبيعة هذا الشعب المسالمة، بلغة تفهمها كل شعوب العالم وأممه، اذ ان الحمام هو رمز السلام لديها جميعاً. وما حمل هذا الشعب للعلم الفلسطيني عالياً في سماء مدينة نابلس التي يريد بها الكاتب فلسطين كلها، الا دلالة على هوية هذا الشعب وانتمائه من ناحية واعلاء لراية مطالبه المحقة والعادلة من ناحية أخرى.

وإذا كانت هذه هي رؤية الكاتب بصفته العربية والفلسطينية، والتي تمثل العنصر الاول في القصة، فان رؤية الصهاينة المستغربة والمنكرة لقدرة هذا الشعب على حمل هذه القضية الكبيرة وحده «كيف يمكن لسرب من الحمام أن يحمل هذا العلم الكبير؟». لاتمثل رؤية العنصر الثاني المقابلة والمناجزة للرؤية الفلسطينية والعربية، ولكن الكاتب قد قدمها ـ كما يبدو لنا ـ ليشير الى مساعدة الاشقاء العرب للفلسطينيين، أو ليستنهض هممهم في هذا السبيل، اذ ان الرؤية الصهيونية، وهي الموقف المناوىء للعرب والفلسطينيين، تتجلى في أعمال القتل التي يقوم بها الاسرائيليون، فقد أطلقوا الرصاص على سرب الحمام الاعزل الا من انتمائه، وهم حين فعلوا ذلك، لم يفعلوه الا بعد أن «قرروا» فعله.

وهكذا نرى أن الطفل الفلسطيني المسلح بالحجر هو الذي أحال عملية المطاردة والاغتيال هذه الى عملية مواجهة وصراع حقيقي وواقعي في ظل الراية التي ظلت مرفوعة.

وفي القصة الاحدث «حمام وخميرة وقمح . . . وأعلام»(٣)، يخالف القاص الفلسطيني رشاد أبو شاور زميله طلعت سقيرق، ويتخلى عن الرمز الى الشعب الفلسطيني بالحمام ليحرك أشخاص قصته بأسمائهم أو كناهم، فنرى أم العبد وأبا العبد ومريم وعبد الله وزينب ومحمد ومحمود و. . . . . الخ، ولكنه لا يستغني عن الحمام، فيستخدمه في رمز آخر، ويأتي ذلك على يدي محمد بطل القصة، حين يصطحب معه حبيبته زينب الى بيته في فترة غياب أهله عنه، واعداً إياها بمفاجأة «وصعد الدرجات القليلة الى سطح الدار ثم أخرج الحمامات، وهي تراقبه، وصار يربط علماً صغيراً في رجل كل حمامة ويطلقها في الفضاء. وقال لها: انظري هذه اسمها غزة، وهذا علم فلسطين يرفرف. . أطلق واحدة أخرى: وهذه القدس وطارت ورفرف العلم، وهذه أريحا وطارت ورفرف العلم، وهذه نابلس، وهذه حيفا، وهذه يافا، وهذه عكا، وهذه. . . وهذه. . . الناصرة، الخليل، الرملة، ورفرف الحمام عالياً، ورفرفت الاعلام».

فالقاص يستخدم الحمام هنا ليرمز به الى المدن الفلسطينية، واذا كان القاص سقيرق قد حمّل هذا الرمز علماً فلسطينياً كبيراً، ليشير به الى انتماء هذا الشعب والى حقوقه، فان القاص أبو شاور قد رمى من وراء تحميله لكل حمامة في سربه علماً مماثلاً للاعلام التي حملها باقي السرب الى اعلان وحدة الانتماء الفلسطيني للمدن المحتلة قبل عام ١٩٦٧ وبعده، اذ كاد يأتي على ذكرها جميعاً وبشكل متداخل أحياناً.

وهنا نرى السبب الحقيقي الذي جعله يستنكف عن اسقاط أي طائر منها رغم اطلاق العدو لرصاصه عليها «ويطلقون نيران بنادقهم على الحمام والاعلام والفضاء، ولكن الحمام بأعلامه انتشر في الفضاء»، اذ ان اسقاط أي طائر منها لا يعني ما يعنيه اسقاط طائر واحد في قصة سقيرق، فهو يعني الاعتراف للعدو الصهيوني باخراج رقعة من الوطن من دائرة انتمائها الفلسطيني وادخالها في دائرة انتمائه الصهيوني، وهذا ما لم يقر به أبو شاور.

واذا كان القاص طلعت سقيرق قد أسقط حمامة واحدة فلأنه أراد ابراز معنى مغايراً تماماً، وهو الاشارة الى أعمال القتل التي يرتكبها الصهاينة، والتي تزهق أرواح عدد من الشهداء، ولكنها لا تقدر على افناء الشعب كله.

والقاص أبو شاور لم يغفل هذا المعنى، ولذلك أورده في مكان آخر من قصته، فحينما سألت زينب

حبيبها محمد، وهما في طريقهما الى بيته الخالي: «أين أهلك»؟. أجابها قائلاً: «معزوزة صاحبتك في المظاهرة، والدتي في بيت الشهيد محمود، أخي الكبير عندهم في السجن، أبي في حقلنا».

وحينما نكتشف أن دهشة واستغراب الجنود الصهاينة هما اللذان شحنا حجم الراية الكبير بالرمز في قصة سقيرق، والذي سبقنا الى تفسيره، فاننا نعجز عن اكتشاف موقف ما، يمنح حجم الراية الصغير أي مدلول رمزي وغير واقعي في قصة أبي شاور.

ومقابل هذا الخلاف بين القاصين في حجم الراية، واستخدامها على صعيدي الرمز والواقع، نرى اتفاقاً بينهما في اللجوء الى التنبؤ، فالقاص سقيرق، وكما رأينا، يتنبأ بميلاد الانتفاضة من خلال تصويره للطفل الذي يحمل بيده الصغيرة حجراً، بينما يتجاوز القاص أبو شاور بنبوءته لحظة ميلاد الانتفاضة، التي سبقت ميلاد قصته، ليتحدث عن المرحلة التالية لها. ويتجلى ذلك فيما فعلته أم العبد مع زينب: «هاتي يدك اليسرى، اليمنى لتحملي بها الحجارة، ووضعت قطعة عجينة خميرة طوت راحة البنت عليها، وما فعلته مع محمد وقد «نهضت مستندة الى الحائط، ثم رشت الملح والقمح على رأسه» بينما كانا يمران بها في طريقهما الى خلوتهما، لاطلاق الحمام.

واذا علمنا أن ما فعلته أم العبد هو من التقاليد الشعبية في الزواج الفلسطيني التي ترمي الى التآلف والانجاب، فان نبوءة القاص تصبح جلية لدينا، فهو يبشر بما يمكن تسميته بالوحدة الوطنية التي نشهد تمسك شعب الوطن المحتل بها، كما يبشر باستمرار الثورة ونمائها وتصاعدها.

وقد عبرت أم العبد عن هذه النبوءة بقولها للشابين وهي تودعهما، وكأنها تدفعهما الى الثورة: «ستنجبان أولاداً وبنات كثيرين. والآن، اذهبا».

وبهذه النبوءة يبرر القاص أبو شاور التطابق الكامل لنهاية قصته مع نهاية قصة سلفه اللتين تحافظان على الراية مرفوعة.

وفي قصة أخرى، يستبدل الكاتب الفلسطيني جمال جنيد «بالونات أبي نواف»(٤). بحمام الكاتبين سقيرق وأبي شاور، وبعد أن يلونها بألوان العلم الفلسطيني «وحينما جاءت الورود الصغيرة ضاحكة .مادت الأيدي الصغيرة، ابتسم لها أبو نواف، تركهم يتجمعون ويتجمعون. . وعندما حمل كل طفل بالونه صاح فيهم أبو نواف: اتركوها تعلو نحو الشمس. . . سأعطيكم غيرها. تلونت السماء أعلاماً مزغردة. . اختلطت بأصوات الاطفال وضحكاتهم وتصفيقهم. . تقاطر الجنود من كل صوب. . والتهبت السماء. . وصارت السبطانات مثل الجمر. قبل المغرب بقليل طرق الجنود بيت أبي نواف: «البالونات المدهونة أعلاماً التي طارت هذا الصباح لم تنفجر كلها. . ستصعد روحك لاحضارها». نفذ رصاص الدمدم الى جسد أبي نواف، انفجرت الشرايين، تحولت الى بالونات لا تحصى ارتفع بها بالون كبير».

فاذا كنا قد رأينا أن الحمام الذي حمل الراية في كل من القصتين السابقتين لم يكن، كأداة لحملها، متطابقاً في مدلوله الرمزي الا بمقدار ما تسمح به المطابقة بين الشعب والمدن الفلسطينيين، فانه حري بنا أن نشير في قصة الكاتب جنيد الى مفارقتين تبدو احداهما واضحة في طبيعة الاداة التي حملت الراية، أما الثانية فستتبدى لنا خلال البحث عن المدلول الرمزي لهذه الاداة.

ونظن أنه من نافلة القول التذكير والتأكيد هنا على أن الخلاف والمفارقة في الاداتين، الحمام والبالونات، والذي استتبع اختلافاً وتنوعاً في مدلولاتهما الرمزية لم يقتض الاختلاف والتنوع في مدلول الراية التي حملتها هاتان الاداتان في القصص جيمعاً، لان ذلك ليس من ضروراته، بل نراه ـ لو حدث ـ من أخطائه، فالراية هي الراية، ومدلولها لم ولن يتخطى معنى الانتماء والمقاومة، سواء كانت مصنوعة من قماش بأبعاد صغيرة أو كبيرة، أو كانت مصنوعة من بالون مطاطي ملىء هواء، وهي في كل القصص التي أتينا على ذكرها، وفي كل الاحوال التي عرضناها لم تنتكس، سواء حملها الشعب أو المدن أو ما يرمز اليه القاص جنيد، مما سنأتي على تفسيره.

واذا كان سرب الحمام، أداة الرمز في القصة الاولى، فقد اقتضته الطبيعة العامة لفن القصة القصيرة جداً، القائمة على التكثيف والتركيز، وتطلبته الطبيعة الخاصة للقصة ذاتها، التي بشرت بثورة الشعب الفلسطيني المسالم.

وكان سرب الحمام الذي يحمل أسماء المدن الفلسطينية، أداة الرمز في القصة الثانية مما فرضته كثرة المدن الفلسطينية المحتلة قبل وبعد عام ١٩٦٧، فجاء عرضه بشكل يتفق مع غاية ابراز وحدة هذه المدن في انتمائها ونضالها، ولا يتنافى مع طبيعة القصة القصيرة، فان أداة الرمز في القصة الثالثة (البالونات) قد جاءت منطقية ومناسبة تماماً لتحقيق غايتها التي ترمي اليها، وهي انتقال هذه الراية من الجيل الفلسطيني السابق الى الجيل الفلسطيني اللاحق، اذ كانت الاداة الانسب لنقل الراية بين جيلين لكل منهما عالمه الذي يفرضه عليه سنه وطبيعة تفكيره دون أن تقع على الارض منكسة «وعندما حمل كل طفل بالونه صاح فيهم أبو نواف: اتركوها تعلو نحو الشمس.. سأعطيكم غيرها».

وبوضوح المدلول الرمزي لهذه القصة يمكننا رصد مطابقتها أو مفارقتها للقصتين السابقتين، فهي به تؤكد صدق نبوءة الكاتب طلعت سقيرق حينما رشح الاطفال لتسلم راية الثورة، فنرى الطفل الذي كان يحمل بيده الصغيرة حجراً هناك وقد قبض بذات اليد على علم الثورة هنا، ليطلقه في السماء عالياً. كما أنها تتفق مع ما ذهب اليه القاص رشاد أبو شاور في استمرار الصراع مع العدو الصهيوني، من خلال الاجيال الفلسطينية المتعاقبة التي لن ينحسر مدها زمانياً أو مكانياً، فنرى خميرة الثورة ورايتها قد نمت وعمت حتى شملت الاطفال الصغار الذين مازالوا يلهون ببالونات أبي نواف، فيرفعون الراية مثلهم كمثل أي جيل من أجيال الشعب الفلسطيني، شيوخاً أو فتياناً، نساءً أو رجالاً.

وقصة البالونات ـ كسابقتيها ـ لا تغفل عن تصوير أعمال القتل المحرمة وبالوسائل المحرمة التي يقوم بها الصهاينة، وان كانت أكثر مقاربة مع قصة «الحمام»، فسقيرق يشير الى هذا القتل المحرم من خلال قتل الصهاينة للحمام في قصته، بينما يشير اليه جنيد من خلال قتل الطفل «ابن الحاج مصطفى» في أول القصة، وقتل أبي نواف برصاص الدمدم المحرم في نهايتها. وربما كان سبب اغفال أبي شاور لذكر هذا التحريم، رغم اشارته الى حوادث القتل كامناً في غايته التحريضية على الموت في سبيل القضية الذي يعطيه صفة الشهادة (الشهيد محمود)، وهو بهذا يلتقي مع الكاتبة ايمان محمود السعدي في قصتها «لن يسقط العلم»[٥]، والتي تنحو فيها الكاتبة، بصفتها الانثوية، وبأحداث قصتها نحواً مغايراً في طريقة ايصال

مقولتها حول الراية الفلسطينية، ضمن اطار فن القصة القصيرة، اذ يرتمي «عائد» على صدر أمه ووجهه معمد بالدماء، يحكي لها ما حدث له مع جنود العدو: «كنت أنا واحد، بل كلنا نقذفهم بالحجارة... اقتربت أكثر.. أمسكوني.. قيدوني.. ضربوني.. أمروني أن أصعد الى سطح دار خالتي أم محمود لإنزال العلم عن حبل الغسيل.. وصعدت، ولا زالوا يوجهون بنادقهم الى ظهري.. مددت يدي نحو العلم.. أحسست بأنها قصيرة، مددتها أكثر فقصرت أكثر.. وكنت كلما مددتها أحسست بأنها تقصر ولن تصل الى العلم أبداً.. يداي ترتجفان.. لا أستطيع أن أفعل هذا.. وصلت يداي الى العلم، الروح غالية، شعرت بهذا للحظات، نظرت الى أهل الحي المجتمعين عند رأس الحي، كلهم ينظرون الي، ينتظرون مني الكثير، وهذا الكثير هو حياتي.. وتذكرت ما قاله لنا استاذنا في احدى المحاضرات: الشرف أولاً. فقررت وأسرعت الى حافة السطح وصرخت في وجوههم: لا.. لا.. ورميت بنفسي.. يمه لم يكن أمامي الا أن أموت ليبقى العلم مرفوعاً».

لقد حاولت في عملية التلخيص التي قمت بها لهذه القصة ألا أغفل رمزاً أو حدثاً يلعب دوراً، أي دور، في توجيه مسارها وابراز غاياتها، فاذا رأى القارىء أنها قد خلت من أية أداة رمزية، أو أي مدلول رمزي، فهي كذلك في مصدرها، وكما وضعتها الكاتبة، فالعلم فيها هو العلم، والناس هم الناس، والحدث هو الحدث، أوردتها الكاتبة جميعاً دون الاتكاء على رمز يحتمل أو يقتضي التفسير والتأويل، وربما كان حرياً بها وبطبيعتها الانثوية، الاميل غالباً الى معايشة الرمز، واستخدامه للدلالة على ما ترمي اليه، أن تبتعد عن الاسلوب الواقعي في معالجتها، لولا أن لديها من الاسباب التي حملتها على التخلي عن طبيعتها الانثوية تلك ـ كما يبدو لنا ـ ما هو أكثر وأكبر من حداثة سنها وتجربتها القصصية، فهي حينما تضحي بطبيعتها الانثوية في حدود القصة، تعرف أن هذه التضحية لا تقاس ولا تذكر الى جانب تضحية عائد بروحه وحياته في سبيل أن يبقى العلم مرفوعاً، لا في حدود القصة وحدها، بل في واقع الحال الذي مد في عمر الانتفاضة حتى يومنا هذا، رغم وقوع عدد كبير من الشهداء ويبدو أنه سيظل يمد في عمرها مادامت الراية بين يدي الكاتبة، وبناء على معطيات الواقع، لم تنتكس.

ولدى مقارنة أحداث القصة بما سبق عرضه من قصص، نلمس التباين الواضح بين الطريقة التي سلكها العدو لإنزال العلم الفلسطيني في تلك القصص، والطريقة التي اتبعها في هذه القصة، فهو هناك يطلق الرصاص على الاعلام والادوات التي تحملها، بينما نراه هنا يحاول تنكيس العلم بأيدي أبنائه الذين رفعوه، مما يشير الى محاولة العدو ضرب الوحدة الوطنية التي رمز اليها القاص أبو شاور من ناحية، كما يشير الى المشكلة الحقيقية التي تتصدى لها الكاتبة، والامتحان الصعب الذي يتعرض له بطلها من ناحية أخرى، حينما تصل يداه الى العلم في لحظة احساسه بغلاء الروح، حيث تصبح هذه اللحظة حاسمة لقرار البطل الذي ستتمخض عنه، سواء كان في التخلي عن الراية التي وصلت يداه اليها، كما في القصص السابقة، أو في قراره بالحفاظ عليها مرفوعة، فهنا تلتحم خيوط القصة لتبرز غايتها.

ويتخد عائد قراره، ويقترب من حافة السطح ليقول: «لا» ويرمي بنفسه أرضاً، فقد كان يعرف أنه «لم يكن أمامي إلا أن أموت ليبقى العلم مرفوعاً». وهو حين يتخذ هذا القرار يفشل على العدو الصهيوني

محاولة ضرب الوحدة الوطنية التي رمز اليها القاص أبو شاور، ولا يخيب أمل أهل الحي المجتمعين عند رأس الحي «كلهم ينظرون اليّ، ينتظرون مني الكثير، وهذا الكثير هو حياتي».

ويستشف من اختيار البطل لهذا السلوك للحفاظ على العلم مرفوعاً تحديه للعدو واستعداء بني قومه عليه، الذين لم يغب عنهم ما عناه، فنراهم وقد جللوا جثمانه بنفس العلم الذي ضحى من أجله، عامدين الى سلوك آخر وطريقة أخرى في ابقاء الراية مرفوعة.

وهكذا يتضح لنا أن مفارقة هذه القصة لسابقاتها قد انحصرت في طريقة المعالجة الفنية التي نجحت الكاتبة في اقصائها عن التدخل، وفرض مفارقة أخرى موازية لها على مستوى الفكر. فلو أنها مثلاً جعلت الطفل عائد متخاذلاً في الدفاع عن رفعة العلم «الروح غالية» لانكرت عليه كفاءته في مقارعة العدو، ناهيك عن انكارها لجدارته بتسليم الراية وقيادة النضال. ولو أنها جعلته يرخص روحه في سبيله دون أن تصل يداه اليه «وكنت كلما مددتها أحسست بأنها تقصر ولن تصل الى العلم أبداً» لاقرت بقدرته على النضال في الوقت ذاته الذي أنكرت فيه عليه أهليه القيادة وحمل الراية، ناهيك عن قدرة هذا النضال على الانتماء، ولنزعت الى مفارقة فكرية مع زملائها الذين أجمعوا على انتمائه الفلسطيني وأهليته للنضال وترشيحه لقيادته.

ويمكن القول أخيراً بأن كتاب القصة الفلسطينيين قد استخدموا القصة القصيرة والقصة القصيرة جداً على مستوى الرمز والواقع ليحافظوا على موقع الراية الفلسطينية بدلالتيها الانتماء والثورة عالياً، وذلك بأدوات مختلفة ترجمت عدوانية الحركة الصهيونية ومحاولاتها للقضاء على الهوية الفلسطينية والوجود الفلسطيني باغتيال الانسان وابتلاع الارض، وأن هؤلاء الكتاب قد بشروا بميلاد انتفاضة الثورة، كما بشروا باستمرارها ونموها زمانياً ومكانياً في ظل الوحدة الوطنية وتحت قيادة الشباب والفتيان من الجنسين الذين غدوا عنصراً أساسياً وطليعياً في عملية الصدام مع هذا العدو، بعدما آلت اليهم الراية بتعاقب الاجيال، فحافظوا على نقائها وبقائها ورفعتها، ساعين بها الى هدف شعبهم الفلسطيني وأمتهم العربية الذي وضعوه نصب أعينهم ممثلاً في العودة والتحرير.

كما يمكننا القول أيضاً بأن قصاصينا الذين استبقوا الحدث وواكبوه وتنبؤوا بعقابيله، دون أن يخطئوا في شيء من هذا أو ذاك، قد حازوا على ثقتنا بسلامة مسيرة القصة الفلسطينية القصيرة وقدرتها على التحدث بقضايا شعبها ومواكبة ثورته ورفع رايته.

هوامش:

(١) طلعت سقيرق «الخيمة»، نشر خاص، ١/ ١٩٨٧، ص٢٠

(٢) انظر دراستنا «حجر الشاعر طلعت سقيرق، نبوءة أم تأريخ»، القبس، ٥/ ٨/ ١٩٨٩ العدد (٦١٩١)، ص٨.

(٣) رشاد أبو شاور «حمام وخميرة وقمح . . . وأعلام»، مجلة الهدف، ٢٣/ ٧/ ١٩٨٩ العدد (٩٦٧)، ص٥٠.

(٤) جمال جنيد «بالونات أبي نواف»، مجلة صوت فلسطين، تموز ١٩٨٩، العدد (٢٥٨)، ص ٤٢.

(٥) ايمان محمود السعدي «لن يسقط العلم»، جريدة الاسبوع الادبي، دمشق ٢٧/ ٧/ ١٩٨٩، العدد (١٧٤) ص١٠.

أزمة الحرية في المسرح العربي

فوزي البشتي*

نتحدث كثيراً عن غياب الحرية في مجتمعنا العربي، وعندما تظهر أعراضها، تتاح لنا بسرعة فرصة أن نشهد مقتلها، أو القضاء عليها، فنعود نتحدث عن أزمة الحرية تحت مسميات ومصطلحات متعددة نطوع فيها اللغة للتعبير عن رعبنا ومهادنتنا وتبريريتنا. ولعلنا في هذا الملتقى الثاني للإبداع العربي لا نبتعد كثيراً عن هاجس التعبير عن تبرير مواقفنا عندما نعتقد أن الحرية يمكن أن تكون طرفاً في معادلة تحتشد فيها كل فنون الإبداع. من رواية وقصة قصيرة ومسرحية ونقد أدبي ومقالة وقصيدة شعرية، في حين أننا نعرف جميعاً أن هذه الفنون الإبداعية جميعاً هي مسميات متعددة للفظ الحرية. فالإبداع بصفة عامة هو الحرية. وليس هناك إبداع لا ينحت قسماته من الحرية بمعناها المطلق والعام والشامل.

لعلنا إذن نريد أن نتحدث عن أزمة المسرح أو أزمة الرواية والقصة والشعر لأننا نحس أن المبدع قد تحول إلى (روبوت) - إنسان آلي - ينفذ ما يطلب منه ويكتب وفق ما تمليه عليه أجهزة السلطة. ولا بد أن نعترف بأن هذه السلطة لم تقمع المبدع دائماً، وإنما تركت له أحياناً حرية أن يستجيب لأوامرها وأن يخون ضميره ورسالته الاجتماعية.

ومعذرة أيها الأخوة، إن كنت قد ابتعدت عن الموضوع الذي اخترت الحديث عنه وهو:

كاتب من ليبيا.

● بحث قدم في ملتقى الابداع الثاني - طرابلس ٤ - ٦/ ١١/ ٨٩.

(أزمة الحرية في المسرح العربي المعاصر)

لقد قيل كلام كثير في هذا الموضوع، وعقدت مجموعة من الندوات، وكتبت دراسات كثيرة ومقالات أكثر عن أزمة المسرح العربي. فهل يمكن أن يضاف شيء جديد في هذا الموضوع؟ نعم اعتقد أننا لو نظرنا الى أزمة المسرح العربي المعاصر على أنها إحدى أزمات الثقافة العربية، بل والحياة العربية المعاصرة كلها، وفي الوقت نفسه نظرنا اليها على أنها تضم أزمات عناصر الفن المسرحي، من تأليف وإخراج وتمثيل، الى إدارة ورقابة وعمارة.

إذا استطعنا أن ننظر الى الأزمة، هاتين النظرتين معاً دون أن تغيب عن أذهاننا - في أية لحظة - النظرة الشاملة للمشكلات العامة للأمة العربية، أو خصائص المسرح واختلافه عن باقي الفنون فإننا نستطيع أن نصل الى اتفاق على نوع الأزمة وشدتها وكيفية الخروج منها.

كذلك لابد أن نتفق أولاً على معاني الكلمات المستعملة. ماذا نقصد بكلمة الأزمة؟ هل نقصد بها إعراض الجماهير عما يقدم؟ أم عدم تقديم النصوص الجيدة التي يكتبها المؤلفون الجادون؟ أم عدم إقبال المؤلفين على الكتابة للمسرح؟ أم تخلف المعمار المسرحي عن متطلبات العصر؟ أم هجرة العاملين في الفن المسرحي - في بعض الأقطار العربية - لغياب مايحفزهم لخدمة هذا الفن؟ أم سيطرة الرقابة الحكومية وخنقها لكل جهد إبداعي حر؟ أم غير ذلك؟ أم كل ذلك؟.

ثم ماذا نقصد بكلمة (مسرح). . أعني ماهو المسرح الذي نعنيه ونقول عنه أنه يعاني أزمة حرية؟ طبيعي أننا لانعني المسرح التجاري الذي يقدم البهجة واللهو، سواء أكان لهواً بريئاً أم لهواً مثيراً للشهوات والغرائز، وبدون أن نقلل من أهمية الأسباب الأخرى والعديدة لأزمة المسرح العربي فإنني أميل مع أصحاب الرأي القائل بأن أهم أسباب أزمة المسرح العربي المعاصر هي الرقابة الحكومية. . وأصحاب هذا الرأي هم أكثر الناس عدداً، وهم يتهمون الحكومة بمنع كل ماهو جيد والسماح بعرض كل ماهو تافه وهابط، اذ يرون أن الأعمال المسرحية الجيدة، هي كل مايهدد سلطة الحكومة، وان الأعمال المسرحية الهابطة هي كل مايؤازرها أو يقف منها موقف المحايد، فهم يؤمنون بأن المسرح الجاد لايظهر ولا ينتعش الا اذا عبر عن المشكلات الحية والجادة التي يحس بها معظم الناس وأن الحكومة لايمكن أن تسمح بعرض هذه المشكلات أمام الجماهير الكبيرة، لأن هذا العرض يؤثر على أمن البلاد واستقرارها.

وقد كتب أصحاب هذا الرأي العديد من البحوث، يستشهدون فيها بما فعلته السلطات الحكومية بالمسرحيات التي تتسم بشجاعة الرأي والجرأة على النقد وكيف أدى ذلك الى وقوع الفرق المسرحية في أزمات متلاحقة، كما يستشهدون بالفترات التي تمتع الناس فيها ببعض الحرية، وكيف كانت فترات انتعاش للمسرح وازدهار للعاملين فيه. ويقولون إنه حتى بعد خروج الاستعمار من البلاد، وتولي الحكومة الوطنية مقاليد الحكم، لم تسمح هذه الحكومات الا بمهاجمة (العهد البائد) ورجاله وأحزابه وإقطاعه. فإن سمحت بعرض بعض المشكلات على منصة المسرح فهي المشكلات التي نتجت عن أخطاء العهد السابق، والتي تعمل الحكومة الحالية على علاجها بكل صدق وإخلاص. ويوافق آخرون على أن السبب الرئيسي

للأزمة هو تعنت السلطة. ولكن السلطة ليست كلها سلطة الحكومة، وإنما هناك سلطة بعض رجال الدين التي هي أشد وأعنف من سلطة الحكومة. وأرجو أن تسمحوا لأحد هؤلاء، وهو الباحث المسرحي (حافظ أحمد أمين) بأن يروي لكم هذه القصة التي جاءت في مقالة له نشرت بمجلة (قضايا عربية) العدد الخاص بالمسرح - ديسمبر ١٩٨٠م.

(عندما سئل المفتي عن رأيه في الفن المسرحي - وكان ذلك بمناسبة رفض عرض مسرحية عبد الرحمن الشرقاوي عن (الحسين)، قال: ان التمثيل مباح اذا كان الغرض منه الدعوة الى الاخلاق الفاضلة والاقتداء بالصالحين والاتقياء، ونشر الحكم والمواعظ، فإن كان شائناً كتمثيل الأنبياء ونحو ذلك فهو ممنوع. .

فلما سمع الشيخ الحافظ أبي الفيض أحمد بن الصديق كلام المفتي، ثار وهاج وقال: إن المفتي حين أباح تمثيل بعض الروايات، قد اقترف جرماً فظيعاً، ذلك أن فن التمثيل في حد ذاته (منكر) ابتلى به المسلمون بسبب الاستعمار الفرنجي. ثم رجع الى بيته ليكتب كتاباً أسماه (إقامة الدليل على حرمة التمثيل) يسوق فيه الدلائل على أن التمثيل من أعظم المحرمات وأكبر الكبائر، مناف للمروءة والعقل، منابذ للأخلاق والفضيلة، لايرضاه لنفسه الا دنس الأصل، وضيع النفس، فاقد الشعور والكرامة، الى غير ذلك من الصفات التي لايصح نقلها الى هذه الصفحات.

والكتاب مليء بالأحاديث التي يزعم صاحبه أنها نبوية صحيحة مثل: من تشبه بقوم فهو منهم، ويفسره بأن من يقلد هيئة السكارى - مثلاً - فهو في حقيقة الأمر سكران فاسق فاجر، ولعنت الواصلة التي تصل الشعر في الرأس والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة (الناتفة لشعر الوجه) والمتنمصة من غير داء، ويرى أن (الماكياج) في المسرح ليس الا من هذه المحرمات.

ويقول الشيخ الحافظ في كتابه: ان المتفرجين يشاهدون النساء الفاجرات الجميلات، وطرق المغازلة والحب وكيفية ذلك مفصلة، فتخرج المرأة من ذلك وهي متشوقة الى ذلك، راغبة فيه، باحثة عمن يعشقها وتعشقه ويفعل بها كما رأته من الممثل مع عشيقته، ولو كانت متزوجة فإنها تمل الحياة الزوجية، حيث لاترى فيها من الزوج ما رأته من الصاحب والعاشق.

ويفرد المؤلف في نهاية الكتاب فصلاً، لعله يكشف السر وراء ضيق صاحبه بالفن المسرحي كله يقول فيه: إن أحط الأعمال التي يقوم بها رجال المسرح هو تصويرهم لأهل العلم والدين بصورة شائنة مشوهة وينسبون اليهم الأفعال القبيحة الساقطة ويسخرون من كلامهم ولغتهم فينفر الناس من أهل اللحى والعمائم ويبتعدون عنهم، وهذا كفر وارتداد عن الدين، اذ الملتحون هم المتمسكون بدينهم وأوامر نبيهم، فالمزدري بهم لذلك كافر باتفاق أهل الاسلام.

وبالاضافة الى سلطة الحكومة وسلطة رجال الدين، هناك سلطة القائمين على ادارة الفن المسرحي نفسه سواء أكانوا من رجال الحكومة أو كانوا أشخاصاً سمحت لهم الظروف باحتكار الفن المسرحي لأنفسهم والقيام بدور الواشي والرقيب والظهور بمظهر الحريص على مايسمونه المصلحة العامة وهي في نظرهم مايسمى النظام او يتعرض له، فهم المفسرون والمتابعون، وهم الذين يضعون البرنامج الثقافي

الذي يتوافق مع المسار العام للأنظمة الحاكمة. وحتى عندما ترتفع شعارات الحرية وتنعكس على مرحلة زمنية محددة للثورة الاجتماعية وتتجسد هذه الشعارات في أعمال ابداعية تتوجه الى الجماهير وتكشف جوانب الضعف والانـدحار وتحذر من تفشي الفساد والميوعة والقهر. فإن هؤلاء الموظفين يظلون متحفزين ولا يكفون عن الهمس تارة والصراخ تارة أخرى. بأن الحرية قد أتاحت الفرصة لأعداء النظام، ويرفعون شعارات تعطي تفسيرات مختلفة للحرية تقود في نهاية المطاف الى عودة الرقيب وهيمنة الموظفين على البرنامج الثقافي.

اسمحوا لي أن أقدم أمثلة من مصر. اخترت مصر لأنها بؤرة الاشعاع الثقافي في الوطن العربي ولأن ثورة الثالث والعشرين من يوليو قدمت أخصب فترات الابداع والتألق، وقد ولد في كنفها جيل من المسرحيين عبروا بصدق عن الرسالة الاجتماعية للمسرح، وانتقل (توفيق الحكيم) من مهاجمة الاستعمار في (الضيف الثقيل) في بدء حياته الفنية الى مهاجمة الاقطاع في (الأيدي الناعمة) و (الصفقة) بعد ثورة الثالث والعشرين من يوليو، وانتقـل يوسف وهبي من التهكم على المتفرجين عند بدء اتصال المجتمع العربي بالحضارة الغربية الى مهاجمة الاقطاعيين والرأسماليين، وانتقل (علي سالم) و (محمود ذياب) من مسرحيات النقد الاجتماعي الى مسرحيات النقد السياسي التي تصور سلطة المخابرات وانتشار عمليات التجسس وغسيل المخ. . وأبرز مايميز المسرحيات في تلك المرحلة هو التغيير الذي تقترحه على مفهوم المسرح نفسه ووظيفته ودوره. ويتجلى هذا التغيير فيما تقدمه هذه المسرحيات من حيث هي وحدة لا انفصام فيها بين البناء والرؤية، من فهم لوظيفة المسرح أولاً باعتباره تجمعاً سياسياً يهدف الى تعميق ردود الأفعال لتحويلها الى مواقف، ومن تحديد لدوره ثانياً باعتبار موقف الكاتب السياسي، هذا الموقف الذي سيمنح وظيفة المسرح هويتها السياسية ايضاً، فحيث يقف الكاتب يتحدد مسرحه، مسرح تنفيس أم تحريض، مسرح يدعو للفوضوية أم مسرح يدعو الى العمل المنظم، مسرح نضال أم مسرح إخماد؟

لقد تعرفنا خلال هذه الفترة على مسرح (ميخائيل رومان) و (سعد الدين وهبة) و (نعمان عاشور) و (يوسف إدريس) و (علي سالم)، لقد قدم ميخائيل رومان مسرحاً يتناول الواقع السياسي والاجتماعي من خلال العلاقة الجدلية بين الوضع العام والوضع الخاص. ففي مسرحيته (الزجاج) يقول إن عوامل الانهيار والهـزيمـة قائمة في أساس البناء الاجتماعي نفسه. والمسؤولية في القضاء على هذه العوامل (الواجهات المزيفة) لاتقع على الجالسين في تلك الواجهات البراقة رغم زيفها، وانما على أولئك الذين يحيون بعيداً عن بريقها وزيفها. أولئك الذين خدعتهم الشمس التي تنعكس عليها، كما تنعكس على الوحل. فصورت لهم الفساد لمعاناً، والعفن بريقاً، لابل إن العفن والفساد لايمكن أن يتم على يد أية جماعة أخرى غير هؤلاء ولو كان منها من اكتشف الخديعة بعد حين وحاول رفضها، لأنه لن يلبث بعد ذلك أن يقع ضحيتها من جديد.

وعلى نفس المسار أخذ علي سالم يناقش الواقع الاجتماعي من خلال الاسطورة تارة، والمزج بين الواقع والخيال تارة أخرى، فمسرحيته (كوميديا أوديب) التي عرضت تحت عنوان (أنت الذي قتلت الوحش) تقدم رؤية للواقع الاجتماعي عبر معالجة كوميدية وعصرية لأسطورة أوديب اليونانية، التي عاد بها علي سالم

الى أصولها الفرعونية، والفكرة الاساسية التي تقوم عليها المسرحية هي أن أوديب الذي أنقذ (طيبة) من الوحش وغدا حاكماً لها، انصرف بعد ذلك الى تغليف المدينة بغلاف حضاري براق، بدلاً من أن ينصرف الى صنع الانسان الذي يصنع الحضارات، ولذلك هزم شعب طيبة عندما عاد الوحش من جديد يهددها، لأنه لم يكن مهيأ لمواجهتـه، وقد كانت مسؤولية تهيئته تقع على عاتق (أوديب) ومهما قيل عن الأصول التاريخية لهذه الأسطورة أو عن الدوافع الفنية وراء معالجتها، وذلك باعتبار اللحظة التاريخية الراهنة التي تسقط الضـوء عليهـا عبر هذه المعالجة، هذه الدلالة السياسية تعكس رؤية خطيرة جداً للواقع العربي المعاصر، تتجلى في محاولة العزل الجغرافي والتاريخي، بدعوى تاريخية، لمصر عن باقي المنطقة العربية، والحق أن هذه الرؤية تنعكس تماماً في تضاعيف المسرحية التي تتحدث عن (طيبة القديمة) مع بعد معاصر يجعلها مصر الحديثة، وليس في هذا التفسير محاولة لفك الرموز الحسابية، فنحن نستطيع أن نعيد كل أبطال هذه المسرحية الذين يختفون وراء أسماء فرعونية الى أصولهم الواقعية الحية في الواقع العربي المعاصر، دون أن نخشى هذا الاتهام الذي يوجه للنقد عادة بتحديد رموز العمل الفني ضمن تفسير واحد. مادام المؤلف لم يترك لنا خياراً في ذلك.

اما مسرحية (المخططين) ليوسف ادريس، فإنها تقدم رؤية من منظور أكثر شمولاً وعبر مفاهيم واسعة جداً، ولأنه قد عبر عن ذلك باستخدامه لأساليب بنائية مسرحية متعددة. مازجاً في الوقت نفسه بين الواقع والخيال، فانه قد أتاح الفرصة لتفسيرات متباينة لهذه المسرحية تتراوح بين اتهامها بأنها ضد النظم الاشتراكية والواقع أن رؤية يوسف ادريس في هذه المسرحية لا تنفصل بحال عن رؤيته في مسرحية سابقة له أثارت عند صدورها في أوائل الستينات نقاشاً واسعاً حول التطور الفكري في رؤيته وأعنى بها (الفرافير) اذ يبدو أن يوسف ادريس قد انتقل منذ تلك المسرحية من رؤية (الانسان في المجتمع) الى رؤية (الانسان في العالم)، في ـ الفرافيرـ رأى ان العالم مقسم الى سيد ومسود وان هذا التقسيم قدر ومصير لا مفر منه، وفي (المخططين) يرى أنه من المستحيل تخطيط العالم الى أبيض وأسود، وأنه لابد من وجود ألوان كثيرة، لقد قال يوسف ادريس عن مسرحيته بأنها ترسم نهاية عالم الزيف الذي خدعنا به العالم المصطنع. وان بدايات العالم الجديد تعنى دوماً نهاية عالم قديم، عالم كامل من الأسود والأبيض والارغام واللا اختيار والاحساس بتجاهل الانسان على حساب الخطط والقوانين، وأنه قد ثبت من ذلك كله أنه لايمكن صناعة الثورة مالم يصنعها الانسان وتصوغها الجماهير.

كل هذه الامثلة، التي عبرت عن مناخ سياسي حر في مرحلة، كان الحوار الدائر في المجتمع كله حول التأميم وآثاره وحول القوى الاجتماعية التي خلقتها وتخلقها، ينعكس في شكل صراعات ثقافية عنيفة، القوى المناوئة تشدد قبضتها وتستشعر الخوف وتحشد قواها والقوى الصاعدة تتقدم من ظرف عام لم يكن سهلاً في مجمله رغم وجود القيادة الناصرية في قمة مجدها.

وكان المسرح التجريبي (الجيب) هو الذي استضاف التجارب الأولى لبريخت. في نفس الوقت الذي استضاف فيه تجارب مسرح (العبث) من ـ أونيسكو ـ و ـ بيكيت ـ وكان الفنانون الذين راقبوا هذه الظواهر الوافدة جميعاً من الغرب يختارون المسالك الجديدة لتنمية قدراتهم وتأصيل مناهجهم في الكتابة المسرحية،

ففي حين كتب (توفيق الحكيم) - ياطالع الشجرة - على نهج العبثيين، قدم (نجيب سرور) - قصيدة الدرامى - يسين وبهية - ولم تكن التباينات الشديدة في تناول القضايا تعكس فحسب صراع الأجيال والمدارس الفنية، وانما تعكس بشكل أكثر عمقاً صراع القوى الاجتماعية والأفكار المعبرة عنها . .

حقاً ان العالم يتغير، ولكن تبقى الاختيارات الجوهرية الأولى تحت سطح التغيرات العابرة، قائمة وفاعلة، ولكن يبدو أن قوى النكوص تحقق انتصارات على مهل وفي هدوء شديد، لانها تؤمن دائماً أن السلطة مهما ارتدت من أقنعة ومهما خضعت لمتطلبات مرحلة ما، فلا بد أن تنتزع أقنعتها وتستعيد قسماتها الحقيقية وجوقتها المعتادة .

وهكذا، أخرج (كرم مطاوع) القصيد الدرامي - يسين وبهية - واضطر بعد ذلك الى الهجرة وأخرج (جلال الشرقاوي) - ياطالع الشجرة - فعين عميداً لمعهد الفنون المسرحية وأصبح مقرباً من الدكتور رشاد رشدي، مهندس التوجه الرجعي في كل أشكال العمل الثقافي والمنظر الرئيسي للدولة في هذا الميدان. واستنفد (نعمان عاشور) كل امكانيات بطله البورجوازي الصغير الساخط والعاجز عن تجاوز عالمه حتى وصل فيما بعد الى مسرحية تعليمية مباشرة هي (رفاعة الطهطاوي أو بشي التقدم) أما يوسف ادريس فقد وضع كل أسئلته الميتافيزيقية على لسان بطل شعبي فر من (الفرافير) فبدا له العالم مغلقاً، ثم ترك المسرح دون رجعة حقيقية الى ان كتب (المخططين) سنة ١٩٦٩ ليطرح مأزق السلطة القائمة في عزلتها وتمنع المسرحية من العرض وليترك المسرح كلية الى كتابة المقالة والقصة من حين الى آخر . وبلغ (الفريد فرج) قمة ابداعه في - سليمان الحلبي - ثم طرح قضية فلسطين بصورة مباشرة، تحريضية - على حد قوله - في - النار والزيتون - واعتزل المسرح بعد كل الامكانيات التي كشفت عنها مسرحياته ليعيش خارج مصر، وآثر (سعد الدين وهبة) اللجوء الى المسرح التجاري . وكان هو الآخر قد استنفد ذخيرته من الخبرة الريفية. ولم تكن الحياة الشعبية تكشف له الا عن بعض ألوان النكت او المواقف العابرة، فكف عن الكتابة، أما (محمود ذياب) فقد قال في - باب الفتوح - رأياً مسرحياً سياسياً وكان يستشعر الكارثة الى أن كتب (رسول من قرية تميرة للاستفهام عن الحرب والسلام) ولكن رسوله الذي جاء متأخراً بعد حرب اكتوبر وجد المدينة - الهيئة الطبقية - وقد غرقت في ملذاتها ولم تجب عن أسئلته، فعاد ليجد قريته وقد خطت لنفسها مشروع إجابة - لم تنته الحرب - هل كانت هذه هي حقاً آخر الحروب؟

ودافع عبد الرحمن الشرقاوي عن حرية الانسان المجردة وقدم أبطاله ثائرين رومانسيين تغلبهم الحياة قبل أن يغلبهم التاريخ، لكنه وهو المدرك جيداً لمعضلة حرية التعبير في ظل الأنظمة الشمولية وظف مسرحه بارادة كاملة لخدمة أهداف مغايرة تماماً، وأصبحت الحرفة ممكنة في كل شيء حين كتب (النسر الأحمر).

واعتزل المسرح أيضاً كاتب مسرحي لامع هو (مصطفى بهجت) الذي توفر على حس عميق بالتاريخ سواء في (حكاية شركان في بيته زارا) او في - محاكمة عيلة حنبش - التي قدمها المسرح القومي وكانت وهي تعرى الطبقة الوسطى وتحاكمها تسدل الستار على مجدها ولا تبشر بشيء، والتقط (توفيق الحكيم) الذي أدرك طيلة عمره الفني مدى سحر الحدوتة، وهضم جيداً مقولة (أرسطو) ان القصة هي روح الدراما الجانب الهزلي في المأساة وكتب في هذا المناخ المفعم بروح الحرب والاحزان - الدنيا رواية هزلية - بعد أعوام قليلة

من النجاح المدوي لمسرحية (ليلة مصرع جيفارا) التي كتبها ميخائيل رومان، والتي ساندها الطلاب والمثقفون وهاجمته المنابر الرجعية .

يقرأ بطل توفيق الحكيم كتاباً عن تناسخ الأرواح، فيبدأ حلمه وتبدأ الرواية الهزلية، لاشيء جدير بالدفاع عنه او لمحبته . الحياة لعبة سواء ونحن نعيش فيها هنا، أو حين نعبر بحر النسيان - الموت - لنحيا من جديد. وهو يخرج من تأملاته هذه بدعوة الى الهزل والبساطة، دعوة أخرى تعدم جدوى الأجيال الجديدة، فرحلة الحياة رحلة عابثة لا طائل من ورائها، وكانت رحلة بحر النسيان، قد كشفت عن موقف آخر. اذ قدمت (جون كينيدي) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، كمخلص، وبات مقتله كمقتل المسيح . . الخ .

كانت هزلية توفيق الحكيم تسخر من النضج الذي بلغه المسرح السياسي والملحمي في مصر، وكان خروجها مقروناً الى حد بعيد ومبشراً كذلك بالراجعات التي أخذت تتوالى في الحياة الاقتصادية والسياسية وكان موقف المتفرج الذي يدعى الحياد ومراقبة الصراعات الدائرة دون أن يكون طرفاً فيها، قد أسفر عن وجهه في أكثر من شكل الى أن جاء تأييده الأخير الكاسح للاتفاقية المصرية الاسرائيلية صريحاً دونما حاجة الى مسرحيات بعد أن أصبح أدبه متحفياً ومثيراً للسخرية .

لقد أسفرت التوجهات الجديدة في ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية بالتالي الى انهيار الأسس العامة التي انتعش في ظلها مسرح التقدم والتحريض، وأصبح صمت كتابه أو هجرتهم تعبيراً مأساوياً عن الأزمة العامة في المجتمع، وأخذت التساؤلات تتوالى في التعليقات الصحفية العابرة، إن كل الذين صنعوا نهضة المسرح في الستينات مازالوا يعيشون . . أين هم؟ لماذا لايكتبون؟ وأين تلاميذهم؟ والحقيقة إن القليل من النصوص قد استطاعت في تلك الفترة المجيدة أن تمد بصرها عبر الأفراح الغامرة بالتحقق لتستشرق المستقبل . أما بقية النصوص فانها سوف تنتمي دائماً الى تاريخ الأدب، أو أنها على الأقل لابد اذا ماأتيح لها أن تقوم وأن تقدم نظرة ناقدة وجديدة، والا أصبحت مثاراً للشفقة. وكما هو الحال بالنسبة لكتاب ومسرحيين كثيرين في هذا العالم، تراجعت أعمالهم لتنتمي الى المتاحف .

ثمة قوى جديدة في المجتمع لم تمت، وهؤلاء الذين فتحت لهم الاجراءات الناصرية أبواب الحياة مازالوا يعيشون، ولكنهم ليسوا بقادرين على بعد على حسم مسألة التعبير والديمقراطية التي تفتح للتوجهات الجديدة في كل ميادين الفن وخاصة الفن المسرحي أن تجد جمهوراً يحميها ويرعى تطورها مادياً ومعنوياً بحيث تفرض هذا الجمهور نفسه شروطه ومواصفاته .

وبعد، ان أزمة المسرح العربي، هي أزمة الحرية، وهو مايمكن ان يوصلنا الى محصلة نهائية تقول لنا: إن كل المحاولات التي بذلت حتى الآن ظلت قاصرة لأسباب كثيرة أهمها على الاطلاق التناقض بين مستوى نضج القوى الاجتماعية الجديدة ومستوى التعبير عنها. وهو مايمثل أزمة الحرية وتشبع المناخ الايديولوجي بالشمولية اي بفكر السلطة السائد وسدنتها وحدهم بحيث يستحيل على أي ابداع مناوىء ان يصل الى الجمهور من خلال المشروعية القائمة. وهنا تلوح التنازلات شديدة الجذرية في معظم ماتم انجازه في هذا الميدان.

ادب ونقد

«التوبة»
قراءة في فيلم من الموجة السينمائية السوفييتية الجديدة

وليد قشبري

من المعروف أن مقولة التجدد التي تبناها الزعيم غورباتشوف، تعيد النظر في السياسة الداخلية للاتحاد السوفييتي استكمالاً لمتابعة تجربة الثورة البروليتارية. فهي تراجع وتنقد وتقيّم التجربة وتضع المستجدات لتصحيح المسار. وذلك تم الاعتراف به من خلال المؤتمر الأخير للحزب الشيوعي السوفييتي فقد أكد الأمين العام للحزب بأن حزبه «وقع في أخطاء خلال مسيرته وأنه يتحمل المسؤولية لأنه لم يستطع أن يمنع عمليات تشويه الاشتراكية في عهد الستالينية كما أنه يتحمل المسؤولية على ان هذه التشوهات والاختلالات في نشأته أدت إلى فقدان التقاليد الديمقراطية التي ارساها لينين»(١).

وقبل المؤتمر الأخير وفي مجال الفن السابع أكد المخرج السوفييتي «تولوموش أكييف» اثناء زيارته دمشق بأنه «بوصول القيادة الجديدة ومن خلال طروحات غورباتشوف الأمين العام للحزب نستطيع ان نقول أن

تفكير الناس سينفتح على النقد والنقد الذاتي وان تفكير الناس يجب ان يؤكد اننا سنعيش بواقعية ويجب أن ننجز خلال (١٥) السنة القادمة ما يحقق الكثير. إن وضع شعبنا هو الذي يحدد أهداف ومواقع السينما السوفيتية وليس من «مخططات» و «أوامر» تدعو لذلك. ستمثل في البال الروح الديمقراطية في العمل. إن السينما كفن رائد ستكون كذلك»(٢).

ومن خلال هذا المنحى الجديد هل استطاع المخرج «تنغيز ابولادزه» تحقيق ديمقراطية التعبير عبر نقده لمرحلة من مراحل بناء الدولة؟ أهي الدولة السوفيتية! أم أنه قصد عرض صورة عامة تنطبق على أمكنة متعددة عندما يتخذ بناء الدولة مساراً مشابهاً لما رسمه ويعرضه الفلم!!

على كلٍ فإن كثيراً من مشاهدي الفلم اسقط ما شاهده على الوضع في الاتحاد السوفييتي فيما بعد الثورة البلشفية ويمكن في هذا المجال ذكر وجهة نظر الشاعر السوفييتي الكبير «روبرت جدستوفسكي» نقلاً عن المجلة الادبية السوفييتية :-

«في مملكه ما، وفي دولة ما . . . . . لا.

لايكفينا تجاهلاً وتظاهراً بأن أحداً لا يفهم ولا يذكر؟ نعم في دولتنا انا وانتم في السنوات الأخيرة نادراً ما تعرضنا لهذا الموضوع المأساوي الفائق الجدية ولكن الماضي لا نقبله نحن.

يقوم اعداؤنا وبرغبة شديدة بتقليبه وكيف يقلبونه بسعادة شريرة وهدهدة!!»(٣) ويمكن للقارىء تذكر الأفلام الغربية الكثيرة والتي وجهت لغرض معادٍ للسوفييت بشكل رئيسي.

لقد اهتمت السينما السوفييتية كثيراً بافلام الحرب، والتي خاضها الروس ضد النازية. فقد عرضت ومن خلال هذه الافلام ما دار من أحداث في الحرب العالمية الأخيرة «مؤامرات، معارك، صور عن النازية. . . . الخ. بينما أخذ القائمون على صناعة السينما الغربية بانتاج بعض الأفلام بقصد الاساءة للاتحاد السوفييتي أولاً وللنظام الاشتراكي برمته ثانياً والأفلام كثيرة ويمكن ذكر فلم «الرئيس» على سبيل المثال عن رواية «لجاري ر. كنيدي» والسيناريو من وضع «بن مادو» واخراج «لي طوسون» والفلم يتعرض لقصة بالغة التعقيد عن عملية تآمر ويقوم «جريجوري بيك» بدور عالم بارز وحائز على جائزة نوبل يذهب إلى الصين كجاسوس للحصول على سر علمي محاط بتكتم شديد وبعد أن يلعب تنس الطاولة في الصين مع «ماد» يدخل معه في محادثات طويلة وبعد ذلك يتعاون في الابحاث مع زميل صيني في معمل العالم الصيني وأخيراً ينجح في العثور على السر المنشود وتتولى ادارة المخابرات الامريكية ادارة العملية كلها بالتعاون مع مثيلتها السوفيتية التي يشارك ممثلها في واشنطن في تخطيط العملية والتي يقوم عميلها الخفي في الصين بانقاذ البطل من أسر محقق ويوصله الى الحدود حيث يتسلل تحت تغطية ستار من نيران المدفعية من الجانب السوفييتي.

هذا وحده يبين أننا نتعامل مع استفزاز سافر تستخدمه هوليود لإضافة بعض الحنطة الى طاحونة الدعاية المعادية للسوفييت»(٤) ويذكر في هذا المجال ايضاً فلم «معركة على البولجي» الذي قام صانعوه على تقديم «فلم في صورة وثيقة تاريخية يشوه التاريخ لاغراض دعائية»(٥)

وبمقارنة كثير من الأفلام الغربية الدعائية الموجهة مع فلم «تنفيز ابولادزه» نجد أن الأخير لا يوجه

عيوبه نحو هذا المعسكر أو ذاك لكنه يبحث «في ازمة الانسان في ظل بناء الدولة»[٦] والتوبة فلم يعرض «بصورة كاريكاتيرية وبمشاهد مصنوعة بذكاء قام بعض اخطاء رجال السلطة السياسية والمتمثلة بتوجيه الاتهامات الكاذبة والاعتقالات اللاانسانية يديرها رئيس بلدية إحدى المدن الصغيرة متذرعاً بمصلحة الشعب وبناء الدولة . الفلم يصور توبة رجل سلطة اساء في حياته إلى كثيرين متعللاً بأنهم اعداء الشعب .

ينزوي هذا الرجل في منزله عندما يصل لنهاية العمر محاولاً التكفير عن أخطائه بمحاورة حفيده الصغير مظهراً الحنان والعاطفة الطيبة متجاهلاً ماضيه المأساوي .

«التوبة» بحث فلسفي واسع يعرضه «لادزه» عبر مفارقات غريبة تبعث الضحك احياناً ولكنها تخط في النفس خطوطاً عريضة وعميقة تدوم فترة العرض وما بعدها بكثير»[٧] ويدرك الجميع بشكل متزايد أن «فلم التوبة حتى لحظه منحة جائزة لينين هو عمل فني صادق ذو مستوى فني رفيع وليس ظاهرة في الحياة الاجتماعية والسياسية او فلماً يذكر بمرحلة عبادة الفرد ويدرس أو يبحث» ظاهرة عامة معادية للانسانية .

ان الموجة الأولى للاهتمام المنقطع النظير بفلم التوبة ترتبط بتاريخ صنعه والمصاعب التي رافقت ظهوره على الشاشة أما اليوم فقد هدأت هذه العواطف الجياشة بينما لا يزال نسيج الفلم الفني «اذ اخذ بارتباطه العضوي بالثلاثية»[٨] وليس على انفراد يدرك ويظهر ويعبر عن ذاته بشكل متزايد»[٩] .

فإذا كان شعار السينما السوفييتية في العشرينات من هذا القرن «فلنضرب بالقبضة السينمائية على الرؤوس فلنضرب حتى الانتصار النهائي فلنضرب أكثر من أي وقت مضى »[١٠] فإن شعار السينما السوفييتية اليوم النقد والنقد الذاتي والمراجعة وتقييم التجربة وتصحيح المسار «فالبيريسترويكا تجري في الاستديوهات رغم انها ليست في ذلك الاطار الواسع والعميق . لقد جرت بعض الاصلاحات المحددة لكن العديد يتحدثون ويتساءلون عن الأفلام! فهل صيغة السؤال المطروح صحيحة دون أن يعني ذلك إننا نستعجل الامور»[١١] .

المخرج السوفييتي «اليم كليموف» رئيس اتحاد السينمائيين السوفييت وصاحب الفلم المشهور «تعال وانظر» يقول عن هذه المرحلة : فالواقع إن السينما السوفييتية اليوم وبعد القفزة الطويلة التي حققتها في اطار البريسترويكا من الافراج عن مجموعة من الافلام الهامة وطرقها لأبواب كانت مغلقة لفترة طويلة ومعالجتها بشكل واضح وواسع لمشكلات وتطلعات الشباب السوفييتي في ايامنا الحاضرة[١٢] .

ولكن «الكساندر روشكين» له وجهة نظر حول اسلوب النقد المطروح حالياً فيقول «اريد أن أبدأ بقضية الشباب . اشاهد برنامج الطابق الثاني عشر وأسمع أحد المتعصبين للبيريسترويكا يصيح برجل كبير السن «اعترفوا انتم مذنبون بحقنا» وما إلى ذلك بكلام بذيء هذه المناقشة الديمقراطية تعرض على كل البلاد اعتقد اننا نخلط في كثير من الاحيان بين مفهوم البذاءة والانحلال وبين مفهوم الديمقراطية في المجتمع . اذا كان المجتمع بدأ يعاني من المرض منذ فترة بعيدة والآن بدأت علائم الصحة تظهر فإننا بحاجة الى التوليف وليكن للانسان في مثل هذه البرامج شخصية محترمة وذكية ولبقة لاننا يجب أن نتحدث بموضوعية عن السلبيات والايجابيات»[١٣] .

لقد تأثر «الكساندر روشكين» من صيحة الشاب وطالب بموضوعية وعلمية النقد .

ولكن اغلب من شاهد فلم التوبة خرج وهو متأكد أن اسلوب «لادزه» في الطرح لم يخرج عن منحى النقد الموضوعي عبر مشاهد يمتزج فيها الهزل بالجد لتوصيل الفكرة المبتغاة .

---

١ ـ البعث السورية . تاريخ ١٥/ ٨/ ١٩٨٨

٢ ـ الحياة السينمائية العدد (٢٨) شتاء ١٩٨٦ ص ٨٩ وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية «المؤسسة العامة للسينما»

٣ ـ البعث السورية تاريخ ١١/ ٧/ ١٩٨٨ .

٤ ـ السينما والايديولوجيا . كاراجانوف ترجمة اسامة الغزولي اصدار دار الثقافة الجديدة «القاهرة» .

٥ ـ نفس المصدر

٦ ـ البعث السورية ١١/ ٧/ ١٩٨٨ مصدر سابق .

٧ ـ تقرير عن مهرجان دمشق السينمائي الخامس وليد قشبري ١٩٨٨ تقرير غير منشور .

٨ ـ ثلاثية «تنفيز ابو لادزه» «شجرة الشوق» ، «التوبة» ، «الدعاء»

٩ ـ عن نوفوستي منشورة بجريدة البعث ٢٧/ ٦/ ١٩٨٨ .

١٠ ـ جولة في عوالم سينمائية . سعيد مراد ص ١٦ دار الفارابي ١٩٨٧

١١ ـ تشرين السورية ٩/ ٨/ ١٩٨٨ ندوة مترجمة لبعض المخرجين السوفييت

١٢ ـ البعث السورية ١٩/ ٩/ ١٩٨٨ .

١٣ ـ تشرين السورية ٢٤/ ٩/ ١٩٨٨ .

قصة

همس الحلم الآتي

زهير جبور*

ماتت همس، ولم تمت، نهضت فرزها البحر نقية، لم يبرد جسدها ظلت عروقها تنبض، بقي حبها للحديقة لمراتها، للمنعطف المحاذي لمعمل التبغ، وشجرة الياسمين التي تتوسط طريق المساء. حيث وقع خطواتها فوق أرض حفظت تفاصيلها، وهي تستمتع بموسيقا الضفادع، وتشاهد حارس حقل الخس يعدُّ لنفسه الشاي.

تضحك حين يقول: حبيبها

- ماذا لو صرخنا وسط هذا الزحام؟

- دعيني أقبلكِ هنا.

- هيا لنمارس طقوسنا كما نشاء.

لونها يشبه لون القهوة، وابتسامتها شمسية، وكانت تحيك الأمال من نظراتها المتوثبة، وتعشق بساطة الحياة، وتدخل البيوت الحزينة لتلغي الحزن، وتغرس مكانه بذور فرح ترعاها لتكبر، وهي في طريقها الى الضياء، وكانت تحب الرجال الذين يعانقون الصباح، ومعهم زوادتهم المتواضعة، وشموخهم المتعاظم، وهم يصنعون بعرقهم المدى الذي يكبر فيه حبها.

كانت تحب البحر، ترسم، تكتب، تمحو. فوق رماله، وقمرها يحول الليالي الى اعراس

* كاتب وقاص من القطر العربي السوري.

رائحة تعبق من جسدها الرائع.

لم تكن قصة حبها عادية. كانت اغنية ردَّدتها اشجار الزيتون، اضواء العربات، باركتها الحناجر، وكانت الزعتر النقي الذي انجبته غابات الغار من أعالي الجبال.

شهدت عجوز الحي ميلاد همس في دقائقه الأولى، احبتها، رعتها، وحين كانت تراها تقفز في الهواء من مكان الى آخر تداعب شعرها الاسود القصير بوداعة، وتقبلها بحنان ثم تجلس القرفصاء كعادتها تراقب ما يجري بصمت.

دهشت همس حين رأت العجوز ذات يوم حزينة. سألتها بغرابة

- لماذا الحزن ايتها العظيمة؟

ردت العجوز

- ستقتلك الخيانة يا همس.

صرخت:

- أنا ايتها الجبارة. لماذا؟ لقد أحببت الجميع.

هزت العجوز رأسها هزاتٍ متتاليةً. وبصوت واهن قالت:

- لأنها الخيانة يا بنيتي.

بكت همس. وراحت منذ ذلك الوقت تنجز تطريز حلمها، بيتاً ريفياً، زقزقة عصافير، ظل شجرة توت، وتتنازعها لحظة الاحساس بمرارة الخيبة. فجعت همس حين علمت أن أمها تسعى لقتلها. تلك التي انجبتها تبغي قتلها. ارتدت الأم ثوباً بدا على جسدها كالكفن. زينته ببصمات خفاياها ومشت في طريق قتلها.

حاولت الموجودات، الأشياء، الحجارة، التراب، الدقائق إبعادها عن تنفيذ القتل، وصرخت العجوز بغضب.

- لا..

زمجرت الطبيعة، وهبت ريح غريبة، لكن الخيانة كانت الأقوى بعد ان تملكتها فلم تستجب.

لون همس يشبه لون القهوة حولته الى لون دم. داست فوق قلبها وتقافزت جنيات حقدها متراقصة فوق الجسد.

صرخت همس:

- يا أماه.. اماه.

قالت: الأم

- انتهت لعبتك أيتها الفاجرة.

رددت الطبيعة ما قالته العجوز:

- الخيانة.. الخيانة.

حلق جسدها في سماء زرقاء. أمسى نجمة بعيدة تروي حكايتها كل مساء لزوار من البشر يعرفون الحقيقة.

عزفت الدنيا لحن حزنها. وغصت الحناجر، وتجمدت الدموع في الأحداق.

قالت: العجوز.

- ألم أقل لكم أيها البشر.

بكت النجمة، دفنت وجهها في صدر العجوز، رحلت معها صوب البحر صنعت الأم همساً أخرى من الوهم، علّمتها فنَّ تعدد الوجوه، تحويل الورود الى خناجر تطعن ضحكات الأطفال، ظهور الأحلام، تفاصيل الأيام العادية فغابت رائحة الزعتر النقي الذي انجبته غابات الغار من أعالي الجبال.

كانت العجوز تجلس القرفصاء، وتتابع ما يجري، لكنها لم تفكر مرة بمداعبة الشعر الأسود القصير المزيف، لأنها تعرف الحقيقة جيداً. سخرت الأم لهمسها المصطنعة كل الوسائل كي تظهرها. تحدثت عنها اجهزة البث، الأقمار، وكالات الأنباء، الشاشات الملونة، أخذت صورتها مساحات واسعة في الصحف، الاعلانات، كتبت عنها قصائد شعر مستهلكة. ثم احتفلت الأم بعيد انتصارها.

قتل، احلام مخدوعة، كذب ثمة طفل مذبوح، فوهات بنادق احذية رصاصية، قلاع، حواجز، امهات يذبحن، كانت همس لا تحب هذه الممارسات، ودموع العشاق لا تجدي حين ينقلب ازدحام الصباح الى حوارات من البؤس، ويصبح قمر المساء قطعة مذبوحة من اجساد الرجال الذين عرقوا كي يعيشوا مع الهمس الربيعي القادم اليهم من صفاء الينابيع وتحليق النسور.

- ٢ -

لم ترحل العاشقة التي نسجت من زهور الزمن.

هنا كتبت. هنا ازهرت الجدران همسات من الحب.

لتعيد ترتيب الفصول، وموسيقا الضفادع، ووجه حارس حقل الخس.

كانت رائحتها تتغلغل في خلايا البلاد. تلامس كل هواء.

لم تمت، نهضت، نقلها البحر نقية.

أزهرت شجرة الياسمين التي تتوسط طريق المساء. ضحكت العجوز حين عادت الى الحديقة ممراتها.

ضحكت همس حين قال: حبيبها.

- ماذا لو صرخنا وسط هذا الزحام؟

والرجال يعانقون الصباح، ومعهم زواداتهم وشموخهم.

اللاذقية ١٩٨٨

قصة

الفندق

عامر الديك*

وضع وجهه بين كفيه وانفجر ضاحكا، ترددت اصداء ضحكته في ذلك المكان المستطيل، اختلطت ضحكته بضحكات السكارى وصراخهم.

داهمته شهوة في البكاء، لأن يضع رأسه على صدر أمه ويبكي، اختلطت روائح المطر بروائح الخمر، الأغاني بأصوات الكؤوس.

نقّل نظراته في أنحاء المكان، في الوجوه، غامت أمامه الرؤية، الأصوات ترتفع، والدوار يحاصره، أغمض عينيه، بدأ ينسحب من هذا الضجيج، وتوارى كل شيء أمامه خلف ستارة سوداء.

★ ★ ★

الشوارع السوداء امتدت في داخله، الدوائر ازدادت ضيقا على عنقه، كان حزينا جدا هذا اليوم، وجهه ينبيء بتراكمات الألم، بالأحزان القادمة، غسل الكاسات والفناجين المتراكمة أمامه، أعد أباريق الشاي رتب زجاجات المشروبات في مكانها، جلس على كرسيه داخل «البوفيه» فتح الكتاب الذي أحضره معه لم يستطع القراءة، أغلقه، نهض، الوجوه نفسها، العيون نفسها، كل شيء في مكانه كل شيء غارق في نشوة غريبة، ووجهه مكسر يعكس الضوء بشكل غريب.

★ ★ ★

* قاص من القطر العربي السوري.

النزيف لم يتوقف، الدموع انفجرت في داخله حمما، الصرخات تعالت، كاد ان ينفجر، لكنه تحامل على نفسه هذه المرة، انتظر، انتظر. . كانت الأرصفة فارغة تماما، عندما قرر أن يغادرها امتلأت بالرواد والمساكين.

انطلق في شوارع «المدينة» يبحث عن عمل، الأضواء تبهر البصر والوجوه مكفهرة، النوافذ مفتوحة على آخرها، اخترقت منخريه رائحة انثى ارتسمت في مخيلته صورة لها، كاد السور الأخير في داخله أن يتهدم، كاد أن ينتهي في لحظة من اللحظات.

أحاطت به العيون، تابع سيره، اقتربت منه الوجوه، تابع سيره، توقف أمام لائحة على باب الفندق قرأها بعينين متعبتين: «يلزمنا عامل ليلي للبوفيه».

★ ★ ★

الأبنية بقاماتها الممطوطه، وبطونها الممتلئة، ووجوهها الساخرة ضحكت منه وهو يتدحرج على أحد الأرصفة متجها الى الفندق.

كان المطر غزيرا في تلك الليلة، ابتل شعره وثيابه، وبدأ المطر يسيل فوق وجهه بنقط كبيرة انحدرت من شعره تشق طريقا للسقوط.

لم ينتبه لأحد، وضع يديه في جيبي بنطاله الجامعي، تجمعت أفكار كثيرة في رأسه، شق طريقه بين الناس بخطوات سريعة مطرق الرأس، منهك الجسد انعطف على يمينه وتابع في الشارع المؤدي إلى الفندق، الوجوه بدأت تتغير، الروائح اختلفت، عادت رائحة الانثى إلى منخريه، كان الشارع مزدحما بالسيارات، غريب هذا الشارع بمداخله ومخارجه، بروّاده، بكل شيء فيه، الفنادق متراصة الى جانب بعضها البعض، تجتذب القادمين اليها بإغراء، تتلقفهم بشهوة غريبة، تختزنهم في غرفها، وتلفظهم الى الشارع عراة تماما مع زجاجات الخمر الفارغة.

★ ★ ★

امتدت اصابعه، تحسست وجهه، أغمض عينيه، استيقظت في مخيلته أيامه الماضية، الذكريات تزاحمت كقطع الثلج، وجه أمه يبتسم وهي تدعو له بالتوفيق وتوصيه أن يتجنب «أولاد الحرام» قلبها المتعب لم يعد يحتمل أكثر من ذلك.

تصور نفسه غنيا، امتلأت جيوبه بالنقود، وزّع الكثير على الفقراء والمتسولين، عالج أمه عند أحسن الأطباء، اشترى كل الكتب التي يحلم بها، ابتسم له الجميع واختفت نظرات السخرية من عيونهم، قدم المهر لوالد فاطمة، رحب به جميع افراد الأسرة، كانت النجوم تبني قلاعا من الضياء، والأشجار ترسم مساحات من الخضرة، احتضنها، تحولت بين يديه الى حمامة بيضاء، ضمّها إلى صدره، قلبّها، فامتلأت الأرض حولها بالأزهار وراحت العصافير تنشد أغنياتها الجديدة.

وفجأة سمع صوت تحطم، فتح عينيه كانت ضحكاتهم موسيقى صاخبة وكانت عيناه عصفورتين تهربان بعيدًا، تبحثان عن مكان هادىء وجميل لتبنيا أحلامهما فيه من جديد.

★ ★ ★

دلف الرجال الستة الى داخل الفندق، ضحكاتهم نبهت الجميع فاتجهت العيون اليهم، تدحرج صاحب الفندق نحوهم بقامته القصيرة ووجهه المنتفخ رحب بهم بحرارة، وقف الجميع لهم، تقدم ابو فراس الكاتب بوجه باش يخفي خلفه كل أنواع الخبث والملق، ازدادوا اعجابا بأنفسهم، استقامت ظهورهم أكثر وتحسسوا أردافهم.

تحلقوا حول الطاولة، أطلقوا ضحكات متقطعة ارتفع صوت أحدهم صاحب البطن المنتفخ، والرأس الأصلع:

- أهلين ابو النور

- ميت أهلين

- لك أنت أحلى أبو النور

مسح على صلعته، وتحسس بطنه عندما امتلأت الطاولة بأصناف الطعام والشراب امتلأت الكؤوس، ضربوا الكؤوس الستة ببعضها وأفرغوها في حلوقهم، ولم تمض الاساعة حتى سكر صاحب البطن المنتفخ وراح يغني بصوت نشاذ هل ر. . أ . . ى . . ال . . ح . . ب . . سكا . . ر . . . ى . .

حاول أن ينهض، لوح بيديه وسقط على الكرسي وهو ينفجر ضاحكا:

- «أنا اللي بحكيني الله ما خلقو»

ونظر حوله وهو يرفع سبابته ويشير الى كل الموجودين

- «أنا . . . . سقط على الكرسي قبل أن يكمل هدأه الآخرون فأطلق ضحكة أثارت ضحكهم وصمت.

وعندما اقتربت الساعة من منتصف الليل غادر الرجال الستة الفندق متجهين كعادتهم بسياراتهم إلى نادي الفلك ليتابعوا سهرتهم مع الغناء والرقص حتى الصباح.

ازداد تساقط المطر في تلك الليلة، اغتسلت الشبابيك، واستحمت الأشجار التي عراها الخريف، وكانت «شوارع المدينة» في تلك الليلة كأمرأة عارية، وزجاجات فارغة، وأصوات سكارى، وضحكات مرتفعة ورجال ستة يبحثون عن جسد امرأة يلتصقون به حتى الصباح.

قصة

أحلام الجندي يعكوف

علي المزعل

قال يعكوف لرفيقه: ليفي أرجوك.. أريد أن أنام ولو للحظة..... فهذا حلمي منذ أيام.

لامجال للنوم يا يعكوف، ولا يغرنك هذا السكون، فهذه المدينة حين تسكن فإنها تفيض على بركان، وسكونها يرعبني أكثر من أوقاتها الباقية.

أرجوك لم أعد قادر على الحركة... لحظة واحدة فقط و... وقبل أن يكمل كانت زجاجات المولوتوف تلتهم الحافلة التي احتمت بجدار قديم، واحتضنت الأزقة والشوارع آلاف المتظاهرين الذين أحاطوا بالجنود من الاتجاهات كلها، وبدا يعكوف متثاقلاً... يحاول عنوة الفرار من حجارة المتظاهرين، وبعد عراك طويل، ابتلعت المدينة موجها استعداداً لسيل جديد.

ألقى يعكوف جسده المتعب على جدار قريب، وبعينيه المتعبتين حاول التهام الفضاء.. متى كان النوم حلماً يا يعكوف!؟ الناس كلهم يعلمون أن الأحلام تولد في طيات النوم.. أما أن يكون النوم حلماً، فهذا لم أكن أتوقعه على الإطلاق..!. قالوا لنا: نابلس قطعة حلوة يسهل

مضغها، نابلس فاكهة لذيذة يسهل اعتصارها.

وهاقد مرت الشهور ولم نفعل شيئاً، حتى فياض الأعور الذي أرعبنا بهجماته المتلاحقة لم نستطع القبض عليه... رغم علمنا الأكيد انه موجود هنا أو هناك... ولكن ماذا نفعل اذا كان الجميع في هذه المدينة هم فياض..؟ ليس فياضاً فقط، العجوز أم دحام قاتلتنا بحذائها المهترىء، والولد العفريت ابن الطنبرجي أقلق راحتنا أيام بلياليها.

إنهم جميعاً هكذا ولاجدوى من محاربتهم.

استدار برأسه قليلاً، وسرحت عيناه في الشارع المقابل، تثاءب، وضع رأسه بين يديه، اعتصر دماغه، فرك عينيه براحتيه، شاهت رؤيته، ثم اسند رأسه للجدار. أطبق جفنيه، اختزن فيهما ذاك الوجه الأسمر الذي هاجمه آخر لحظات العراك.. ارتعش جسده، حاول التخلص من هذا المشهد، قذف الوجه الأسمر خارج جفنيه، ثم اسبلهما في محاولة جديدة لسرقة لحظة من الهدوء، عاوده المشهد من جديد ولكنه في هذه المرة وجه فياض الأعور تحديداً.

أرعبه المشهد، ارتعدت اوصاله، ثم دفع بقدميه نحو رفيقه على الرصيف المقابل.

ليفي أرجوك... أريد أن أنام، لم أعد قادراً على الرؤية.. هل أنت كذلك؟.

منذ أيام وأنا أحاول دون جدوى، وكلما نجحت في اختلاس لحظة طوقتني وجوههم، يبدوا أن هؤلاء سكنوا جماجمنا.

ابتعد.. ابتعد يا يعكوف.. دولاب مشتعل يطوي الشارع نحونا، عاد يعكوف الى مكانه ويده على الزناد.. رقص الدولاب وسط الشارع ثم التوى وهو يلفظ احشاءه لهباً متواصلاً كشف وجوه الجنود الموزعين في أرجاء المكان، ومع آخر الذبالات المشتعلة كانت عينا الجندي يعكوف تمسك بقايا بريقها، ورغم قساوة الجدار الذي يتكىء اليه، طار بأحلامه الى مخدعه.. وراح يغمغم منهمكاً، أحاط بذراعيه جسد زوجته.. التهم وجهها، وباندفاع محموم حاول وصلها.. وحين هم بها وجد حجراً يسد فرجها. انتفض مرعوباً.. عرك وجهه براحتيه، جال بنظره زوايا المكان.. بقايا النار ما زالت تبص وسط الرماد الذي خلفه الدولاب المحترق.. وصوت حذاء ليفي ما زال ينبعث متعبا على الرصيف المقابل، نهض من مكانه حاول مغالبة النوم.. ودّ لو يمشي قليلاً للتخلص من كوابيسه، حمل قدميه ببطء شديد وقبل أن يبتعد عاد مرة أخرى.. تسمرت عيناه في الفراغ، حاول استعادة هدوئه.. هاله منظر زوجته، عصفت به رغبة جامحة لمشاهدتها... لا.. لا ليس معقولاً ما رأيت، لحظة واحدة من النوم تكفي، سأفعل، وليكن ما يكون.

تثاءب، أطبق جفنيه، تباعدت شفتاه، في خياشمه تزاحمت أنفاس محترقة.. وقبل أن يطير بأحلامه، تدلى شاب ملثم من أعلى الجدار. صرخ.. ليفي.. أرجوك.

وغاب صدى الصوت وسط الامواج الجديدة التي ولدتها المدينة.

قنيطرة ـ كانون ثاني ـ ٩٩٠

قصة

ابن فولة الميمونة

علي عبد الله سعيد(*)

ـ ١ ـ

ماذا قلت . . ماذا قلت . . ؟! ها . . أعد! أعد! .

ـ ٢ ـ

عجلات السيارة تلتهم المسافة، شبراً . . شبراً، الطريق الطويل . . المتعرج، يطول، ويتعرج وينحني بوجهه الاسفلتي .

ـ ٣ ـ

ـ مئة مرة قلت لك: يا بن الكلب، لا تكبّر رأسك أمام هؤلاء الأوغاد! .

(*) قاص من القطر السوري.

ـ ٤ ـ

استمر السيد (ب) في شروده .

صحيح أنه لا يملك من ثروات الكرة الأرضية وهباتها، إلا ثيابه التي يرتديها لاثني عشر شهراً في العام، وعلى التوالي .

لكنه لا . . ولن يفرط بذرة واحدة من كرامته أو مواقفه، حتى ولو على حساب لقمته . أكثر من مرة حاولت زوجته، أن تدفعه الى مواقف (انبطاحية) أمام مديره . لأنه وعلى حد قولها معرض للجوع والموت . إن هو حاول أن يرفع رأسه زيادة عن الحد اللازم .

ـ ٥ ـ

السيد (ب) تعتبر مفصولاً من عملك اعتباراً من تاريخه . .

كانت السيارة الصغيرة ماتزال تنهب المسافة والسيد (ب) يدخن، ويدخن . يشعل السيجارة من أختها .

/ لم تكن زوجتك مخطئة كل الخطأ . حين دفعتك الى مواقف انبطاحية أمام مديرك . لأنك وعلى حد زعمها، معرضٌ للموت والجوع . تضحك في أعماقك ساخراً .

لا . . . لا . . كانت مخطئة كل الخطأ .

جاره في المقعد الخلفي . . أغمض عينيه، ونام ملء جفنيه .

لم يتكلم أحدهما الى الآخر . المسافة طويلة . . طويلة، لا يخالها ستنتهي أبداً .

ـ كم تبدو الحياة مملة ورتيبة! .

ـ انتحر اذاً!! .

وقهقه عبد الباسط الصغير كعاهرة حمقاء .

أنا . . أفكر بخبزي قبل كل شيء، وزوجتي اختلفتْ كثيراً عما كانت عليه قبل الزواج .

هكذا المرأة دائماً يا سيد مغفل . . ما إن تقاسمك خبزك وفراشك، حتى تأمرك وتنهاك، وتحكمك إنها كالله تماماً .

ـ اللعنة . . .

التفتَ اليه السائق الذي يراقبه عبر مرآته . كان مازال يدخن، ويتابع شروده، محلقاً بخياله، جامحاً باحلامه، بعيداً عن الأرض .

متعب هذا الرجل . . .

قال عنه سائق السيارة في سره، وهموم الحياة أكثر من أن تعد .

ـ أنت . . . . يا أخ . . من أي بلاد أنت . . ؟! .

لم ينتبه لسؤال السائق. مادام حزيناً، كئيباً، شارداً، ويدخن. لن ينتبه لأحد.
عيناه تهربان من النافذه، تتابعان دوران الأرض من حوله.

- ٦ -

ابن خالتـه المسكينـة (فوله) أصبح من الذوات، وصار يكسب أموالاً طائلة من مشاريع استثمارية. ابن فوله، جاء ليدافع عن الوطن هنا.. أم ليتاجر ويسمسر باسم الوطن؟! ماله.. ولابن فوله؟!. لا.. لا.. ابن خالته، ابن فوله الميمونه لا يسمسر، إنه فقط يتقاضى رشاوى من عباد الله طلابٌ الوظائف، والحاجات، والقضايا الصعبة أو العاجلة.

صديقه سالم، تناول عن كل مواقفه، وأقام علاقة صداقة حميمه مع رئيس البلدية، فأثمرت تلك الصداقة عن كنوز. استثمرها سالم بخبث ومهارة فائقين.

- ٧ -

- لماذا لا تصبح كسالم وأو كابن خالتك (الفوله؟!) تاجرْ مثلهم! اشتغلْ!.
الزوجة النكود. دائماً تصفعك بقسوة، بعبارات لم تطق سماعها. لذلك قليلاً ما تأتي الى البيت، إلا في أوقات متأخرة من الليالي الجوفاء، خوفاً من لسانها. الذي لا يكف عن الثرثرة المزعجة.

- ٨ -

قبل أن يفصل السيد (ب) من عمله. كان ينام بمرارة، يلوك الهواء بمرارة، يفكر بمرارة، ولا يضحك أبداً. حتى أحلامه، أصبحت محض أوهام مرة مخيفة.
تقطع آخر الإذاعات بث برامجها، والسيد (ب) أي «بغل» بمفهوم الزوجه. لا يتوقف لحظة واحدة عن الشرود والتفكير.

- ٩ -

- هل يستقبلني ابن فوله المهبوله؟!.
- هل يستقبلني ابن خالتي في مكتبه الفاخر. من ثم ليؤمن لي عملاً ما؟!.

بالتأكيد سيفعلها! ابن فوله، رجل طيب، كنا أصدقاء طفولة، وأقرباء دم، وأخوة رضاعة، لن أزوره في مكتبه، سأزوره في البيت، إنني مازلت أحتفظ بعنوانه، سيحتفي بي، لكن.. من يدري؟!.
أصحـاب المنـاصب مصابون دائماً بداء الغرور، وتضخم الأنا، العظمة الفارغة، مرض مشرش في أدمغتهم حتى النخاع.

- ١٠ -

ماذا قلت؟!. ماذا قلت؟!. أعد!. أعد!.
- قلت طز عليك، وعلى مديرك، وعلى مؤسسته التي يعبث فيها اللصوص، سلباً ونهباً، وفساداً انهم يسرقون عرقنا ودمنا.
- طيب.. ستدفع الثمن..
- أي.. سيدي، طز عليك مرة أخرى.
- هكذا اذاً يا سيد (ب) خبزك تأكله من تحت نعالنا، وتشتمنا..!!.
- اللعنة..!!.
في الثالثة بعد الظهر. أية ظهيرة كانت، وصل السيد (ب) الى منزله، كانت زوجته قد أعدت له طعاماً متواضعاً، لكنه لم يستطع أن يمضغ لقمة واحدة، الحزن يتوغل في أعماقه، أفقياً وعمودياً ديونه تراكمت، وأحزانه تراكم، كيف تريده أن يأكل؟! وهو الذي فُصل من عمله اعتباراً من تاريخه.
والمدير... لن يعيده.. حتى لو.. توسط الله شخصياً.

- ١١ -

- الحمد لله على سلامتكم.
أذهلته العبارة. انتفض قلبه في مربضه، وقبل أن يفتح باب السيارة، أيقظ جاره الذي كان مايزال نائماً رغم أن عينيه مفتوحتان.
استقبلته الأرصفة التي يعرفها رصيفاً.. رصيفاً، منذ أيام الخدمة، تجول في الشوارع، ينتظر ميلان الشمس الى الغروب. رياح خفيفة تهب على أجفانه التعبى، وأحياناً تملأ عينيه بالغبار. أوراق تتناثر هنا.. وهناك، يمتع ناظريه بأفخاذ بنات الغروب، اللواتي خرجن لابتياع حوائجهن، أعجبته مؤخـرات بعضهن المكتنـزة، أعجبتـه نهود بعضهن، تمنى.. لو يلثم «حلمات» النهود حلمة.. حلمة، المصيبة، كل المصيبة أن زوجته النكود.. لم تعد جميلة، لم تعد حارة كما كانت.

يا لها من حمقاء. كم سببت له من المشاكل والعقد النفسية، التي يدين من خلالها كل نساء الارض، ولعله يحتقرهن، ولا يعتبرهن الا مجرد حيوانات مطبخية، أو أدواتٍ يبعثن في أعماقه لذة ومتعة آنيتين.

كم مرة وقف مسائلاً ذاته عن مسألة المتعة محللاً. . مناقشاً. . عدم فهم المرأة الشرقية لقضية تحررها.

ـ ١٢ ـ

استقل السيد(ب)سيارة متوجها حسب العنوان الذي بحوزته، الى بيت ابن فوله، حاملا بين يديه هدية رمزية متواضعة الثمن. فوله؟! لماذا سمى جده خالته بهذا الاسم؟! ايامَ كان صغيرا، كان يغني لها خالتي فوله. . المهبولة. . تأكل زيت. . وتبوله.

سيقص على مسامع ابن خالته كل ذكريات الطفولة وشغبها. عبرت السيارة شوارع متسعة، الأبنية متراصة، مترامية، على مسافات طويلة، بأرصفة حديثة، ومداخل زجاجية عريضة، أبنية مرتبة، مرفوعة، شامخة، بأشكال هندسية معمارية راقية. قل أن رأى مثلها، حتى في الصور التذكارية لبعض المدن الاوروبية الجميلة. اوروبا هنا. . هنا غرب اوروبا صرخ بذهول ودهشة. تساءل في سره. من أين لهؤلاء كل هذه الثروة؟! لم يكن يتخيل أن ابن خالته يملك، أو يسكن أحد هذه القصور، والسائق نفى نفيا قاطعا أن يكون قد أخطأ العنوان. وقال له. انه سينزله على باب بيت (ابن فوله) توقف السائق بغتة، قال له: تعبر الشارع، ثم الشارع في تلك الدخلة (الاولى) اي نعم. عند الكوكبة، بيت ابن فوله. واخيرا يابن فوله وصلت اليك.

ـ ١٣ ـ

إن استقبلني ابن خالتي، وهو حكما سيستقبلني، سوف لن أعرف استعمال الادوات والتجهيزات التكنولوجية الحديثة التي يستعملها. كم ستكون خجلا ياسيد (ب)، من الأفضل لك أن لاتستعمل شيئا. لأنه الحل الافضل، والموقف الأسلم من التكنولوجية. الموقف الذي ينقذك من سخرية ابن فولة. في حال عدم معرفتك بسر من أسرار استعمال التكنولوجية المنزلية.

ـ ١٤ ـ

تجتاز القسم الأول من الشارع العريض، ذاكرتك تضطرب، بقي عليك أن تعبر القسم الثاني لتصل الى الرصيف، سيل سيارات لايتوقف عن التدفق. تمل وقوفك هكذا. ترى أناسا

يعبرون الشارع العريض بمهارة، ومن بين السيارات.

تحاول أن تعبر مثلهم. كادت أن تصدمك سيارة مسرعة، تعود الى مكانك مرتبكا. خائفا كحيوان محاصر، تدس يدك في جيبك، تتلمس نقودك، تعرف أنها قليلة.

لكن اطمئن!! ان. . ابن فوله سيعطيك مبلغا يكفيك طيلة وجودك هنا، دون ان تطلب منه ذلك. حتى يؤمن لك عملا تستطيع من خلاله أن تعيش وزوجتك النكداء عيشة متواضعة. خفَّ تدفق السيارات، تمالكت جرأة اضافية تعبر وانت ترتجف، تميل قليلا لدى مرور اول سيارة بالقرب منك. سيارات أخرى قادمة من بعيد. أسرع!! يصفر وجهك، ترتعد، تخاف من أن تدركك سيارة ما، في عرض الشارع العريض فترديك صريعا. تثب، تركض، بغتة. . تجد نفسك على الرصيف الثاني. تتقدم بخطوات متسارعة في الشارع الفرعي، الذي على جانبه اليميني يقع بيت ابن فوله. قال له السائق: الكولبه، غرفة صغيرة من خشب بلون الكامي، على مدخل البناية الشاهقة، غرفة تحتوي على أسرة نوم صغيرة، وأربعة رجال، اثنان منهما مسلحان. حيا الجميع تحية مقتضبة، يهم بالدخول، يوقفه احدهم بصوت غاضب، فلم يجرؤ ان يخطو خطوة الى الأمام.

ـ من تريد. . ؟!

ـ ابن خالتي. . ابن. . كاد أن يلفظها. . اللعنة.

ـ ماذا تريد منه. .

ـ جئت لزيارته. . انه ابن خالتي

ـ انتظر. .

ـ الو. .

ـ ايوه. .

ـ سيدي هناك من يود مقابلتك، يقول: إنه ابن خالتك سعديه

ـ ماأسمه. ؟

ـ ماأسمك. . ؟

ـ السيد (ب)

ـ إنه السيد (ب) سيدي.

ـ قل له: ان يذهب الآن. ليس لدي وقت لاستقبال أحد.

ـ ١٥ ـ

ابتسم لك رجل الكولبه.

قلبك مازال يخفق مضطرباً، وأنت تنتظر أوامر ابن فوله التي تسمح لك بالدخول لمقابلته.

فكرت أن تقول له: بعد ان تتصافحا، وتتعانقا اوه يابن الخالة. . يابن فوله! هاانت وقد اصبحت

مسؤولاً كبيراً. حرّاس على الباب. حرّاس على الطرقات، هاتف قبل الدخول، و. . و. . الخ.
حدجك الرجل الكولبي، قطع عليك سلسلة افكارك.

ـ ابن خالتك ليس هنا. .

ـ لكنه تكلم اليك في الهاتف. .

ـ أخي قلت لك انه غير موجود، أتفهم. .

ـ انه ابن خالتي، وأنا مصر على مقابلته، انها لمهزلة، لقد سمعت صوته، من قال لك بأنه غير موجود. . هو لايفعلها أعوذ بالله أنتم. . وات سأشكوكم له. انتظروا يا. .

تهم بصعود الدرج، يمسك بك أحدهم من قفاك، يجذبك الى الوراء. تزل بك القدم، تسقط فوق الرصيف، تحمر عيناك. أردت أن تضربه، تحوطك البنادق. تخاف أن يطلق عليك أحدهم رصاصة. تسقط من يدك الهدية الرمزية، تتراخى عضلات جسدك عضلة. . عضلة، تستدير الى الوراء، دون أن تفوه بكلمة تدوس الهدية بقدميك، تقفل عائداً، تبادلهم نظرات الاحتقار، تبدو لك القصور ركاما مترامياً، تتورم ذاكرتك، ينطفي ضوء عينيك. . حينا تبصر الرجل أربعة، وحينا تبصر الاربعة. . قزما يضمحل. . ابن فوله يفعل بك هذا. . ؟ ياله من كلب، نسي الخبز، والملح، والطفولة، نسي الجوع، والسراويل الممزقة، والثياب المرقعة نسي الحرمان، و. . تفوه. . تفووووه. . يظن أنه تحول الى إنسان راق بعد أن اتخم، وهو لم يتحول الا الى ذئب حقير، سيأتيه زمن يكتشف فيه نفسه. إنه لم يكن إلا جرذا يعيش في مرحاض فاخر. يسمى حسب اللغة الحضارية (قصر) كم أنت غبي ومخدوع بابن فوله. لماذا اشتريت لك هدية؟ ليتك لو اشتريت حمالة اثداء لزوجتك النكود. ليتك لو. . آه. . اللعنة ياسيد (ب). اللعنة مرة أخرى. . وأخرى. مادام هؤلاء الاناس يقطنون في مراحيض الحضارة الفاخرة، ولا أحد يطلق رصاصة واحدة صوب صدورهم. . أليس كذلك؟ اعترف ياسيد (ب) اعترف لذاتك أنت الذي قلت للمدير. طز ولم تخف على لقمة عيشك.

- ١٦ -

ليل المدينة تبدده الاضواء. لاتعرف أين تنام، لا تعرف كيف تعود. مازالت الريح تصفع وجهك بالخزي والعار. نم هذه الليلة على رصيف ما!! كأي كائن مشرد، لايملك من العالم وثرواته وكنوزه غير ثيابه التي يرتديها عشرين شهرا في العام.

- ١٦ -

ماذا قلت؟ ماذا قلت؟ أعد! أعد

ـ طز في شواربك، في المدير، في ابن فوله، في العالم

ـ أنت مجنون سترى. .

ـ هكذا قال السيد (ب) اذاً.

١ ـ يعتبر السيد (ب) مفصولا من عمله، اعتبارا من تاريخه. ذلك لسوء سلوكه.
٢ ـ يعتبر السيد (ب) مفصولا من الحياة، اعتبارا من تاريخه. ذلك لسوء سلوكه.
٣ ـ يعتبر السيد (ب) مفصولا من عقله، اعتبارا من تاريخه. ذلك لسوء سلوكه.

- ١٧ -

أينما اتجهت، أينما سرت، في مداخل المؤسسة، في مخارجها، تصدمك العبارة اللعينة ذاتها، مفصولا، مفصولا، قرار طويل عريض، اتخذه المدير، كان يطيب لك أن تقرأه في كل الزوايا، وكنت تردد بصوت عال. . العمل، العمل، الحياة، العقل، يعتبر السيد (ب) مفصولا عن العمل لسوء سلوكه.

- ١٨ -

توقف زميلا لك. تريد أن تتحدث اليه، يتملص منك الزميل مشمئزا، تدخل الى مكاتب ومكاتب اخرى. ينفر فيها منك الزملاء، دون أن يردوا لك التحية. وذلك لسوء سلوكك.

- ١٩ -

جن جنون السيد (ب)، أخذ يصرخ بكل ماتملك حنجرته من قوة. سأعود. . سأعمل إنني أتضور جوعا، إنني أموت ياكلاب، سأعود. . يجب أن أعيش، ليست المؤسسة للمدير العام، إنها لنا ياحمقى. . ليست له.

- ٢٠ -

تهرع ياسيد (ب) الى غرفة المدير. مستجمعا كل قواك، تدفع الباب بقدمك، لم يجذبك أحد الى الخلف، لم يوقفك أحد، كم كانت خيبتك مريرة. لم يكن المدير في مكتبه، تراهم يضحكون، يقهقهون سخرية من عقلك الذي طار.

- ٢١ -

من زاوية ما . . علا صراخ السيد (ب) مرة أخرى لا أيها السادة. لن أكون انبطاحيا لن أنبطح أمام أحد. الانسان يموت مرة واحدة. إما أن يموت أبياً، أو. . أن يموت ذليلا حقيراً، لكل منا حرية الاختيار.

- ٢٢ -

سقط السيد (ب) مغشيا عليه، صبوا الماء على وجهه، لم يصح، ظنوه مات، او في طريقه الى الموت. كانت قصاصة ورق قد سقطت من جيب سترته. انتشلها احدهم، واخذ يقرأ ماكان قد كتبه السيد (ب).

ليس من السهل أن تكتشف شيئا، وليس من الصعب أن لاتكتشف. قبل أن تصحو من إغماءة ممضته، او من نوم دبق وطويل. . طويل، وقبل أن تنام أو يغمى عليك. فكر بما قد تستطيع أن تفعله أنت إنسان، معنى ذلك. أنت قوي ولديك المقدرة الكافية على تغيير كل شيء.

أنت قادر على الفعل. ان كنت قادرا على الحياة. فافعل!! فكر دائما أنك في جبهة مواجهة مفتوحة مع عدوك! لاتغفل لحظة، عليك ان تبادله الرصاص دائما. هو العدو الذي يبني أمجاده وقصوره على أنقاض عظامك. حينما تنبطح أمامه. ثق تماما إنه لن يرحمك، لن يتوانى لحظة عن إطلاق الرصاص الى رأسك، وهو يقهقه، دون أن تأخذه بك رأفة، بل على العكس تماما. قد يروقه ذلك كثيرا. لكن. . حينما تشهر رصاصك في وجهه سيدير لك قفاه هاربا. ان عدوك الطبقي أجبن من ان يستمر في مقاومتك.

دمشق ١٩٨١

قصة

درس التاريخ

غازي قدور

رنّ جرس الدّخول، حمل حقيبته الصغيرة، خرج من غرفة المدرّسين، تلكّأ في الممرّ قليلاً، مازح زميلاً مازالت آثار النوم عالقة بأهدابه. علّقت إحدى الزميلات:

«أقترح إلغاء الحصّة الأولى».

المطر يتساقط بغزارة. مئذنة الجامع وأعمدة النوّر في الجهة الأخرى من الشّارع مخلوقات أسطوريّة جميلة تستحمّ بماء المطر. نكهة قهوة الصّباح مازالت تمارس على أعصابه سحر الرّشفة الأولى. يحسّ بها تتسرّب من مسامّه، فتشيع حوله هالة من دفء ومودّة.

أطفأ لفافة تبغ كانت في يده، فتح باب الصفّ، دخل، وقفت الطّالبات كالعادة، مسح الصّف بنظرة شاملة وسريعة كالعادة أيضاً.

- صباح الخير.

ردود مبعثرة وشبه هامسة:

ـ صباح الخير ياأستاذ!

ـ شكراً. جلوس.

كلمة (جلوس) إيذان بانتهاء المراسم الرّسمية لبداية الحصّة. شاعت على الفور حركة حياة عفويّة بين الطّالبات، يعرف مذاقها جيّداً. ضحكة خافتة.. همسات متناثرة.. يد تمسح جانب مقعد بمنديل ورقيّ.. يد تسّوي خصلة شعر فوضويّة.. يد تنزع غطاء الرأس بنزق. أشياء صغيرة، تشكل بمجموعها عالماً أليفاً وقريباً من القلب.

كتب عنوان الدّرس على السّبورة، استدار إلى طالباته، نظر في الوجوه التي بدأت تتشكّل في حالة انتباه تدريجيّ. وأطلق الشّريف حسين الرّصاصة الأولى، وانطلقت قوّات الثّورة باتجاه دمشق. واحتضن الشاب ابراهيم الصيداوي، البالغ من العمر ستّة عشر عاماً، والذي لايحمل رخصة قيادة، مقود (المرسيدس). وكان المقود ناعماً ودافئاً مثل ضفيرة سعدى. وسعدى كانت ياسمينة، وعندما قبّلها ابراهيم مرّة تحوّلت إلى قرنفلة حمراء، وتناثرت بين كريّات دمه. رجله تضغط على البنزين أكثر. السّرعة تزداد. سيل من العذوبة يتدفّق في عروقه. الأرض خضراء.. خضراء. عينا سعدى زرقاوان. (المرسيدس) امرأة جسدها ساخن كانت تزوره في الحلم. يضغط أكثر. يسرع أكثر. (المرسيدس) تعلو. الأرض تعلو. السّماء قريبة. البحر أزرق. سعدي في الأفق. ثوبها أبيض. سعـدي تناديه. سعدي في حضنه. (المرسيدس) ترتعش (المرسيدس) ترتطم. (المرسيدس) تنفجر. الشمس برتقالة. الأرض شمس. العالم أخضر. آه سعدي.

وقال أحد المراسلين: يبدو أنّ نتائج العمليّة الانتحاريّة كبيرة. وأن عدد القتلى الذي اعترفت به قوّات الاحتلال في الجنوب أقلّ بكثير من العدد الحقيقيّ.

رفع صوته قليلاً في محاولة لإسكات الأصوات السّاخرة والأصوات الغاضبة والأصوات وأصوات أخرى كثيرة في أعماقه.

«وهكذا سقط أوّل حكم عربيّ في دمشق، وأخفقت أوّل ثورة في تاريخ العرب الحديث» لكنّ الصّوت السّاخر في أعماقه يستمرّ: «أنت يابنيّ أرض جافّة. صحراء أنت. أنت الرّبع الخالي. أنت ياأستاذ شيء يابس، ليس في داخله نقطة واحدة ظليلة».

وتذكّر أنه نسي دفتر التّحضير في البيت، وتذكّر أنّه لم يدفع ثمنه لصديقه صاحب المكتبة بعد.

وقالت شيرين:

ـ هل تعتقد أنّنا يجب أن ننتظر الاشتراكيّة لكي نتزوّج؟

ـ ليس تماماً لكن يجب أن تتحسن الأحوال قليلاً.. قليلاً فقط.

ـ لابأس. الفكرة معقولة طبعاً. لكن تصوّر معي مثل هذا العنوان لخبر طريف في الصحف:

«تحابا في العشرين، وتزوّجا في السّبعين.» وتحت العنوان صورة لنا. أنا بنظّارات طبيّة ومعطف فرو مستعمل، وأنت «ببدلة» أسنان أنيقة وعكّاز.

آه شيرين. كالوشم على سواعد البدويّات سكنت رئتاي وقلبي. ومنذ تسلّل صباك إلى حياتي صيفاً وهّاجاً ومزيجاً من الفاكهة والظلّ والعرق المالح والندّى أحسست بأنّي أجمل. لكن هل يكفي مايتبقّى من راتبينا بعد الأقساط والحسميّات ثمناً للقهوة وعلب التّبغ؟

وشعر بأنه محروم وبائس إلى درجة لاتطاق. وحوّمت في سماء الغرفة غيمة شفّافة. وكما في أحلام الأطفال تتشكّل الغيمة فتاة حلوة.. ناعمة وذكيّة اسمها شيرين. ويتساقط المطر في داخله غزيراً، وينمو في أعماقه عشب أخضر مندّى، ويحسّ بطعم الكلمات في فمه لذيذاً وحارّاً، وتغمره موجة تحمل غامض.

ويرفع صوته مرّة أخرى:

«وكان المؤتمر السّوري قد انعقد في آذار، واتّخذ قراراً بتتويج فيصل ملكاً على سوريا»

ويجيب الصوت السّاخر في داخله:

«واتخذ الملك قراراً بعقد المؤتمر في عمان».

ويعلّق صوت غاضب في داخله أيضاً:

«كانت المؤتمرات تصنع ملوكاً، فغدا الملوك يصنعون المؤتمرات».

ويتذكّر أنّه لم يدفع أجرة البيت عن الشّهرين الماضيين. وتسأل إحدى الطّالبات:

«أستاذ! لماذا ساوم الملك فيصل الحلفاء؟»

ويجيب الصّوت البارد الرّتيب الذي مازال يتحدّث عن تاريخ فقد طعمه:

ـ إنّها طبيعة المرحلة وموازين القوى و...

ـ لكّن يوسف العظمة لم يساوم، أستاذ!

ويردّ هذه المرّة صوت من داخله ليس بارداً ولا رتيباً:

ـ بصراحة؟ يوسف العظمة كان محروماً وبائساً، ويعاني من حالة يباس.

ـ حالة يباس!؟ عذراً أستاذ! لم أفهم.

ـ لا عليك يابنتي. باختصار. يوسف العظمة كان عاشقاً، لذلك قاتل واستشهد.

جلست الطّالبة متظاهرة بالفهم. كانت السّبّورة قد امتلأت بمعلومات تاريخيّة لايعرف من أين جاء بها، ولا يعرف متى كتبها. لاحظ أنّ الأنظار المشدودة إليه بدأت تفتر، وعضلات الوجوه تتراخى. أعقب ذلك تململ في المقاعد وهمسات جانبيّة وإغلاق كتب. عرف أنّ الحصّة قد انتهت. استغرب كيف لم يسمع صوت الجرس. حمل حقيبته، وخرج.

انتهت

تشرين الثاني / ١٩٨٤

شعر

مقاطع من كتاب الحجارة

ادم فتحي*

■ خبر الحجر والمسرح ■

الصبايا الكحيلاتُ بالخجلِ المُنْحَني للسهَرْ
يَتَوَسَّدْنَ عُشّاقهنّ ويَضْحكْنَ
اذ تصلُ المسرحيةُ آخرها المنتظرْ
وأنا في مكانٍ من المسرحَ البلديّ
حَجَرٌ
وأبي حَجَرٌ
كانَ في زمنٍ ما حكيمَ الحجرْ

■■■

الصبايا المليحاتُ يأخذنَ عُشّاقَهُنّ ويَرحِلْنَ ثاني
صوبَ أوجاعهنَ
ويسألن جمرَ العمرْ
هل ستأكل أحبابهنّ المنافي الجديدةُ
أم يرجعون
الى المقعد الخشبيّ
نفسهِ

* شاعر من تونس له اكثر من مجموعة شعرية.

والى موعدَ العشق
تحت لحافِ الشجرْ؟..

■■■

وأنا حَجَرٌ
في مكانٍ من المسرح البلديّ
أتمنى اذا لفّني الليلُ كالحوْصلةْ
وخَلَوْتُ الى وجعِ الصمتِ
لو أنني مثلهنّ أخافُ ولي أسئلةْ

■■■

فاذا ضغطت اصبعٌ ما على الزرِّ في جسدي
وخبَا الضوءُ في قاعة المسرح المقفلةْ
التجأتُ الى وهمِ نديةٍ ما
بأن لمثليَ أنْ يطفىءَ النورَ أو يشعلهْ
هكذا.. مثل لمحِ البصرْ
ثمّ يتركني الوهمُ دونَ عزاءٍ
ولوْ أن يشاركني فيه كلُّ البشرْ...

■ خبر الحجر والنحات ■

في ناصرةِ الزيتونْ
أخفيتُ سكاكيني في الرملِ سنينَا
كيْ لا أحفرَ في قدميْ رجلٍ يدعى عيسى
كانت عيناهُ مشققتين بما سيكونْ

■■■

لكني حين سمعتُ الفرحةَ تبكي ذات مساءْ
غادرتُ الرملَ
لعلَّ الصِبْيَةَ يحتاجون الى جسدي المجنونْ

كي يخترعوا بشراً أحْرَى بالعلمِ وبالاسماءْ
غادرتُ الرملْ
فعلقتُ بنعلِ حذاءْ

■ ■ ■

وحُملتُ طويلاً أبعدَ ممَّا يعرفهُ حجرٌ مثلي
شاهدتُ الارضَ تدورْ
وبحاراً فوق الحصرِ وطرتْ
في طوَّافات كالتابوتْ
ونهاراً ماتَ النعلُ بشيءٍ ما فنزلتْ
في ناصرةٍ أخرى تدعى بيروتْ

■ ■ ■

الحقَّ أقولْ
من تلك اللحظةِ سميتُ العودةْ
قمحاً والمنفى ظلَّ حقولْ
وعلى تلِّ ما شاهدني نحاتْ
فبراني حتى أخرجَ من جسدي ورداتْ
الحقَّ أقول
أنا الحجر الرحّالة والمجنون
من تلك اللحظة أسألُ كمْ انساناً يحملُ رحلتهُ كالسقفْ
ويُخبَىءُ ورداتٍ في القلب ولكنْ
ليس يصادف نحّاتاً
يتعهدها بالكشفْ.

■ خبر الحجر وفرعون ■

كنت في جبلي هانئاً بمرور السنين وطيب المعادن
الشمسُ تفضحني للسماءِ وللبهجة الانثويّةِ

والطيرُ تغسلني بطهارةِ أمعائهَا
كنتَ أسمع ثرثرةَ الماءِ من بحرِ قزوينَ حتى المكونغ
رمن شعر أوليسَ حتى خطى الجاريةْ.

■ ■ ■

فاذا أرسل الوقتُ شلالهُ في الوهادِ وسرحت الارضُ
أعصابها الخضرَ ألقمتُ ثديي صغارَ الأناس وقلتُ
أنا حَجَرٌ
وأحبُّ
كلوا ذهبي ونحاسي وأشجار نَفطي
أنا اللقمةُ الباقيةْ

■ ■ ■

ورأيتُ البشرْ
كلما حوصرَ الحُلمُ في حجمِ قطعةِ خبزٍ
وجفَّ الوطنْ
في فناجين قهوتهمْ
وارتوى الملكُ من دَمِ أيامهم واحتقنْ
من كمونةِ باريسَ حتى اخضرار الحرائق في العسلِ الكرمليّ
ومن رفةِ الجوزِ في قاعِ افريقيا لليمنْ
لم يطيقوا سوى الحجرِ الصلدِ في كفهمْ
لغةً عاليةْ

■ ■ ■

ليلةً جاءَ فرعونُ في جنده قال أحلمُ أنْ لا أموتْ
بك بانٍ أنا هرماً لا يطالُ
ولمْ يُرَ مثل جلالتهِ في البيوتْ
فصبرتُ عليه الى أن أقيم الهرمْ
ثمّ سلمتهُ للعدمْ
وبقيتُ أنا شاهدَ السنوات

على ما بنتهُ السواعدُ لا ما بنى الكهنوتْ

■ ■ ■

وعلى غفلةٍ من أزقة تونس وزعتُ نفسي على العاشقاتْ
قال صاحبها:
آهِ يا راضيةْ
أصبح الخبزُ أكبر من حجمهِ هذه السنواتْ
أصبح الخبزُ في كلِّ أذْنٍ
فمن يسمع الاغنياتْ؟..
هذه لغتي صحتُ فاتخذوها قناديلَ كفٍّ وحلماً
لخلخلةِ الزاويةْ

■ ■ ■

ثم قامت فلسطينُ فاخترتها وطناً وصرختُ فلسطينُ إسمٌ
لاكثرِ منْ أرض وفلسطينُ إسمٌ
لآخر معنى الوطنْ

■ ■ ■

ليس(بالوردِ)يُفتكُ هذا الزمنْ

■ ■ ■

ليس بالوردِ لكننا لن نقول لهم ارحلوا للبحارِ
وموتوا كما نحن كدنا على شفةِ الهاويةْ

■ ■ ■

الذين أتوا دارَنا فأباحوا صناديقهاوأرتأقوا اللعبْ
لن نرحِّلهمْ ليعودوا الينا بأحصنةٍ من خشبْ
سنعلمهمْ كيف ينكشفُ اللهُ في قشر زيتونةٍ
ويقاسمنا كسرةَ الزيتِ في آخرِ الخابيةْ

■ ■ ■

وسندخل حرب فلسطين من أجل أمنيةٍ في الصباح
سندخلها

مثلما تحت قشرته يدخلُ الحلزونُ اذا روعتهُ الرياح
ومن أجل أعدائنا هذه الحرب
أيضاً
لعلّ خطى العصر تخلقُ انسانها من جديدٍ
على تلةٍ ما، وراء العواصفِ
أو في انفجار الجناح

■ ■ ■

والذين روتهمْ خطانا لرحلتنا الآتيةْ
سيغنونَ...
ماذا فعلتَ بنا أيها الطفلُ
حين رميتَ الحجرْ؟
أيَّ وهمٍ كسرتَ وأيَّ قلاعٍ من الماءِ
أهرقتَ بين الحفرْ؟
هكذا، كلما صارَ همُّ البشرْ
أن يعود الى نفسهِ من شقوقِ الحياةْ
لم يجدْ مسرباً
غير أن يرتقي من جديدٍ لعصرِ الحجرْ

■ تونس

شعر

تهوي ولا تريم

جان الكسان*

الى أحمد محمود مبارك، صاحب قصيدة «شهيد» المنشورة في «الوحدة» «المغرب.. العدد ٤٢ ـ آذار، مارس ـ ١٩٨٨.

* ناقد من القطر العربي السوري.

«وكان يحب القصيدة»(١)
لكنني... أحبّر القصصْ
استحضر الأحداثَ
استغفلُ العسسْ
استنطقُ الأحياءَ والأمواتْ
أكدّس الحروفْ
أسوّد الورقْ
وفي الحنايا تنشج الغَصَّةْ
أخاف أن تخذِلني القِصَّةْ
فتصبحُ الحروف من عجينْ
تهوي.. ولا تريمْ
أخافُ أن تحولْ
غزالةً أليفةً.. فتستكينْ

★★★

أعود للتذكيرِ من جديدْ
استجوب التاريخَ والأيامْ
استجوب الأزلامْ
من كان في الساحِ ومن هَرَبْ
استنهض الخيامْ
استنطق الأوتادَ والأسيافْ
عن سيرةِ الأسلافْ
عن غابر الفتوحِ
وعنْ....

معاكِ العربْ
فها أنا أعود للزمنْ
من تالدٍ أعودْ
لطارفِ الزمنْ
أريدُ أن أفجرَّ الحروفْ
قصائدَ تطوفْ
وتعتلي منابرَ الوطنْ
تخاطب الجمهور والنظّارةْ
عن فتيةٍ قد خرجوا
من جرحنا قد خرجوا
من سورةِ الحجارةْ

★★★

أعود للزمن
أحدث البنين
عن راجمي «شيطانة صهيون»
عن الذين استشهدوا
أو سجنوا
أو شُرّدوا
عن أهلنا
عن حيّنا
عن بيتنا
عن فاطمةْ وزوجها الشريدْ
عن فاطمةْ وطفلها الوليدْ
عن بيتها المنسوفِ من جديد
عن حقلِها السليبْ
عن حقها المهدورْ
عن نقطة الحليبْ

تجف في الصدور

★★★

أعودُ للزمن
من رحلة المِحَنْ
من «أربعين» قد مَضَتْ
من «نكبةِ» الخيامْ
من «نكسةِ» الأيامْ
من خندق الوطنْ

★★★

أعودُ للزمنْ
أحدِّثُ الركبانْ
عن سيرة العدوانْ
وهجمة استيطانْ
عن «النشامى» السادرين
في غفلة الوسنْ

★★★

أعود للزمنْ
أحبّر القصصْ
أكدّسُ الحروف
استغفل العَسَسْ
وفي الحنايا تنشجُ الغَصَّةْ
فتلتوي أواخر الحروفْ
تهوي... ولا تريمْ
وتسقط القِصّةْ.

(١) مطلع قصيدة الشاعر محمود مبارك

تتماثلينَ لروعةٍ بيضاءْ
وتغازلينَ نقاوةَ الأشياءْ
طهرٌ بليدٌ
قبةٌ خضراءُ تقتسمُ الملامحَ
تخرجينَ من الجسدْ
لاصاحباً يأتيكِ من أحلامِهِ
لا وجهَ يحملُ شارةً
لاتطفئين بقبلةٍ شوقاً
ولا تمتدُّ يدْ
راياتُنا بيضاءُ...
تصدرُ في البكاءِ
ولا تؤوب بغيرِ لونِ الدّمعِ
اتعبَنا اصفرارُ الوجهِ
لايرسو بمرفئنا أحدْ

■

شعر

امتداد للأرض تجاه اللحم والذاكرة

عبد الكريم عبد الرحيم*

* شاعر من فلسطين.

شكلان من ثلجٍ
ومحرقةٌ.. هي الأيّامُ
لا الماضي تراجعَ من مخيّلتهِ المواقدِ
لاغدٌ بالحلمِ يُقْبِلُ في المقاعدِ
هجرةٌ للموتِ
تختزل المسافة والملاعبْ
«خذني الى قلبي المشاغبْ
افتحْ لعينيَّ المنارةَ والمتاعبْ
اصعد الى صدري دخاناً...
خنجراً
اصعد الى عينيْ سواداً دمعةً
لابدّ...
تنطلق المواكبْ»
تتماثلين لروعةٍ
ودمي يشاكلُه الخرابْ
وتغازلين نقاوةَ الأشياءِ
تهتفُ من مَسام الجلدِ
اعلامُ اليبابْ
لابدّ يا جسدي توزّعنا الجسور على الترعْ
ننجو من الصمتِ.. الوجعْ
لابدّ
ترجعُ نخوةُ المصلوبِ
يبسمُ للغرابْ
منقاره في الصدرِ يأكُلُ
لاينزُّ الماءُ
يا جسدي الترابْ

اخرجْ من الطينيّ
بعدُ..... محاولة..
منقاره يقتاتُ بسمتَه
ويصفعُني حديدُ السجنِ:
قالوا:
مركبٌ.. يجتاز قضبانَ الحديدْ
ينشقُّ بعضُ البابِ عن وجهٍ حليبيٍّ مُنَوَّرْ
ينشقُّ اكثرْ
فتحطمتْ أشياءُ عالمنا
وزخَّ الثلجُ أحمرْ
منقاره في القلب
يغمدُ صرخةً: «اللهُ أكبرْ»
نصحو جميعاً
وجهه مرساةُ نورٍ
فجوةٌ من شمسْ
ودماؤُهُ.. نهرٌ ضفافُ خُضْرْ
لاقبر يسكنُ قامةَ المذبوحِ منذ الفجرْ
لاقبر غير العرسْ

■

تتنابُني الألوانُ هادئة ودافئةً..
فأهدأ
من لي بأنثى مثلِ مرفأ
من لي بأجوبةٍ
أسائلُ دائماً:
عيناكِ أم هذا الشهيدْ؟
جسدٌ أم الترتيلُ

أيُهما الترابُ؟

■

تتماثلينَ.. وياسمينُ دمشقَ
يُخْرجُ
أيُها العبقُ الكنارْ
من يصطفي «قزحاً»؟
وينشرُ ريشَه في اللحمِ من أشهى القصائدْ
من يحمل البحرَ
المعطّرَ بالبخورِ الى المعابدْ
من قال: أنثى تستحيل فراشةً
وتغازلُ الممتدَّ من جسدي
الى النحويّ والصرفيّ في دكّانِ أحرفِنا البليغة
حَيُّ الطفولةِ في دمشقَ
ومولدي يتقمّص النصَّ الشهيدْ
أبعادُ جذري سنديانُ الحبّ
ما جمّعتُ أضلاعي من المدن البعيدة
زبدٌ يقاومني...
يحاولُ خارج النصّ الولادهْ
أفيونُ أعراقٍ وألوانٍ وموتْ

■

تتماثلينَ أحنُّ من عكّا الى أحلى ترابٍ في صفدْ
تتوحد الأحجار في جسدي..
أيا حلم الجسدْ
كل الخلايا من نسيمِك من غصونِك من خدودك يابلدْ
نبضاتُ قلبي من رفيفِ الماءِ في مجرى «العيونْ»
ودمي خلاصتُكِ البهيّه

تتوحّدُ الكلماتُ والصخرَ المعاندَ
والشفاهُ تذوب في ملح البحيرةِ
ثم تُرسَمُ قامةُ الانسانِ... شكلُ الارضْ
بعضٌ يشدُّ البعضْ
زرعٌ نما....
تتماثلينَ.. يدي جدارٌ كانَ في أعلى الجبلْ
عيني نوافذُهُ
وقلبي طلّةُ الأحباب فيهْ
مَنْ يخرج الطينيَّ من روحي
ومِنْ طيني الأمل؟...
اشتقُّ لون الشعر والعينين من سهلٍ
تقاسمَني الجذلْ
أختارُ من لغتي خريرَ الماءِ
لا أنسى المخيّمْ
نصحو..
اقول لموج أحلامي تقدّمْ!
من أنت
وجهٌ
رايةٌ؟
ببنادق المحتلِّ تبحثُ عن تقارير الجنود المُعْلَنَهْ؟!
في السِجن أغمضتُ السماءَ
فما عرفتُ حدودَ أمسِ من الربيعِ
وضاعَ شعري في المقابرِ.. والسجونِ المقفلة
لكنّ شاهدةً على خدّ السماءِ
أرَحْتُ عمري عندها
فعرفتُ عنواناً لارضي المقبلة

■

هل يحزم «القرنُ» الحقائبَ
والجراحُ تطلُّ من نجدٍ الى وجه الجليلْ
وجهٍ جميل!!
وجهٍ جميل!!
أحلى من النفق المعلّق بين رملِ
البحر والسفنِ ال تهاجرُ كالسنونو
بالتوابلِ والزيوتْ
توباد من عشق يموتْ
توباد تزرعه البيوت لشمس أمسِ
ولا تغادره البيوتْ
فلربّ ليلى.. آه يا توباد.. تسألُ
عن قميص العزّ والشرفِ الرفيعْ
ولربّ قيس في أماسينا يضيعْ
ويعيده الراوي الى نجدٍ
ويسأل: أين ليلى؟!!
آه ياوجةَ الجليل
أشتاقُ لو هربتْ أصابعُنا.. القلوبُ
الأعينُ.. الألوانُ...
لو قُطعَتْ هُويَّتُنا عن الوجه الجميلْ
حمّادُ يروي أكذبَ الأشعارِ
لكنّا كذبنا بانعكاس الوجهِ في المرآةِ
شاهدنا دمَ الحلاجِ
شيّعنا مراسيمَ الأمومةِ
لم نقل: لا
فانتشى الطينيُّ في اللحم «الفتيل»
هل وحدها النار الدليل؟!
هل وحدها النار الدليل؟!

شعر

من يوميات مثقف عربي

عزت الحصري*

اليَوْمية الأولى:
في زَمَنٍ تزاور فيهِ الشمسُ كَثيراً...
عَنْ كَهْفِ المَوْتِ العَرَبي..
في زَمَنٍ عَسَسيّ
لا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُوقِفَ طُوفَاناً قَدَرياً هادراً من خَدَمِ للسلطة
والناسُ... في مَقْهايَ المُتْعبِ.. في الشارِعِ
فَوْقَ الارْصفة الليليَّةْ
تَخشى ان تُسْلَبَ هَدْاتَها..
ان تَكشفَ في سِنَةٍ من نَوْمٍ، عَوْرَتَها
آهِ مَنْ يُخْرِس إيْقاعَ الشُرْطَةِ في لَحْنِ اليوم.

***

اليَوْمية الثانية:
مَا نامَ صَاحِبُنا الشَاعِرُ حَتّى الليلةْ
مُذْ تكَسّرَ امْنُ اللحظَةِ.. بينَ أصابعِ عَسسيّ ماهِرْ
هَذا زَمَنُ الأمنّي الساهِرْ
ومواسمُ تسقط الاثمار
في تَقْرير يَخْرجُ مِنْ جَوْفِ مدينَتنا لَيْلاً

* شاعر من مصر.

بَيْنَ نُجيْماتٍ وبشور
وَيَدورُ.... يَدورْ..
لِيدقَّ البابَ العالي
يداعبُ أجْفانَ السُّلْطانْ
مَوْلانا... مازَالَتْ عَيْناه مُغْمَضتيْن
ومَازَالتْ.. كَفّاه عَابثَتين
فيمَنْ.. مَلَكَتْ يُمْناهُ..
حيْنَ تيقن اكْبَرُ اصحابِ الشُرْطة
مِنْ فشَلٍ جِنْسيٍّ آخَرْ..
الشاعرُ مَصْلوباً في خانِ الشُرْطَةِ مَازَالَ..
تُهمة عِشقٍ مُعْتَاده..
يا سادةُ في مَمْلَكةٍ يَحْكُمُها مَوْلانا التَقْرير
مَوْصومٌ شاعِرُنا ثَرْثَارٌ هدّامُ الافْكارِ
وَعَاهِرْ..

***

اليومية الثالثة:
يا صاح .. إنّكَ في الزّمَنِ العَرَبيِّ الساكتْ
فاخلع نعليك.. الفكره..
وَتَوضّأ إنْ شئْتَ صَلاةُ للقادمِ بالحرْفِ الصامتْ..
وتقيأ العُته من جوفك ما بين المطلق والتجريد
وَتَحرّزْ هَوْناً مِنْ خَوْفِكْ
وَحَذارِ انْ تَسْقُطَ في إثْمِ التَحْديد القاطعْ
فاللونُ المائعْ..
مَلك الألْوانْ..
اشْعَارُكَ في كلِّ الأحْوالْ..
سَقط الأثمار..
فَحَذارِ... حَذار

***

اليومية الرابعة:
في هداة فَجْرٍ شَتَويٍّ صامتْ
دَقّت خَطواتُ الهجّانَة ناقوسَ الحَرْب
واقتحمت - في غزوٍ عِلْمي مَدْروسٍ - شُقّةَ جارَتِنا
فَتحطّم سَتْرُ الحُجُراتِ الليلية
- وَمَتاريسُ ما بَيْنَ الصالة و الحمّامْ -
وتفزع كَلْبُ الجيران..
إذْ صَرَخَتْ طِفْلةُ جارَتِنا
إذْ غاصَتْ قَدَمُ العَسسَيِّ في قَلْبِ عَروسَتِها
وانْتَثَرت هَدْأة طِفْلتها
واسوّدت بَعْضُ الاحلام ..
- ما كَانَت جارَتُنا بَغيًا -
كانَت تَتَوضّأ للقادمِ بالكَلِمَة..
تَغْزل مِن صَلَواتِ الحقِّ طيرَ النُور
وَيَمورُ بها عِشْق القادمْ..
وَتُحبّ الشِعْر..
في تقريرٍ للشرطة كانت كاتبةً ثورية
والكف الكلبية.. كف بالخبره كلّابه..
اوْما اكْبَرُهم... إني اعْرِفُهم
افْهَمُ مَنْهَجهم
دَرَجاتٍ تِسعُ من سُلّم
سَقطت جارَتُنا فأُصيبتْ بالشلَل النِصفي.. ومَاتَتْ..
- مَا كَانت جارَتُنا بَغيًا -
آهٍ مَنْ يُخْبِر مَوْلانا السادِرَ في غيّ الوَهْم..
بِسقُوط الدَرَجاتِ التِسْع ..
والمُوْتِ بأُسْلوبِ السُلّم..
وسُكارى الدم..
من يُخْرِس إيقاعَ الشُرْطَةِ في لَحْن اليوم... مَن؟؟؟.

شعر

الوقت حجر

علي صدقي عبد القادر*

خارج الحجر، «يلعب العالم الورق» ويغش
يذبح الشمس حمامة «ليعلمها الصمت» والانطفاء
والحمامة ترفض الموت
وتطير بألف شمس جديدة
خارج الحجر «حطاب يشج رأس الفرح
يطلق النار على حليب الأم

---

* محام وشاعر من الجماهيرية (ليبيا) له عدة مجموعات شعرية.

يبيع حلم التاريخ، وزوجته بالطريق
وأغنية من بعيد، تأتي بقميص ممزق
أسمع الآن ارتطام اللون، بالكرة الأرضية
أضع أبجدية باصابعي، لتقرأ الضوء
فمخيلة نافذتي تقف عسكريا في انتباه
ويدخل البحر طفلا غاضبا
يخترع عرائس جزر مسحورة
ويظهر لسانه
ياامرأة «أحببتك» حتى رمية حجر
هذه يدي، عصفور باخرة، مرآة لك
تتهجى دوائرك، والليالي الممطرة
فليقف الريح أمام بيتي ويخصف نعله
ويسأل حجارة الاطفال، ما الوقت بساعاتك؟؟؟
حجارتنا، تنبض بالاطفال، بالنهارات الجديدة
حتى المطر، يدخل الافق مطرا، ويخرج أطفال حجارة
حاذر، حاذر الحجارة تمر فوق رؤوسنا
النقود، التيجان، النياشين، صارت عقارب
والحكام تلقيهم ثيابهم، أوراقا في الريح
حدق بالحجر جيدا وناده هو طفلك
حان آذان الفجر
الوقت حجر، الماء حجر، الزيت حجر
لا حي سوى أطفال الحجر

شعر

ثلاثية الرموز المسقطة..!

فتحي الكواملة*

(١)

«حَنْظلة.. والأشعار.. والنار..!»

أعلمُ أني أقتحمُ النارَ..
ازجُّ بنفسي في الأخطارْ..
إذْ أنحو هذا المنحَى..
في نظم الأشعارْ
أعلمُ ما حلَّ بمن سبقوا:
(غسانَ)..
و (ناجي)..
وحُماةِ الكلمةِ.. من تُجّارِ (الحَرْفِ)..
صيارفة الأفكار
لكنْ.. أُمّي..
(زرقاءُ يمامةَ) غذَّتْني..
بلَبان الحَذَرِ من الآتي..
يتموَّهُ في هيئة أشجار
وأبي.. (حَنْظَلَةُ إيادٍ) في (ذي قار)..
قَدْ قَطَّعَ وُضُنَ حرائِرنا..
حتى نتصدَّى للتيار

● ● ●

* شاعر من فلسطين.

أعلمُ أنّي أقتحمُ النارَ..
أجُوسُ الخَطْبَ..
أغالِبُ أمواجَ الإعصارْ
لكنّي أومِنُ أنَّ (الحَرْفَ)..
شراعُ نجاةٍ..
نُورٌ هادٍ للأحرارْ
ودمي زيتٌ لسراج الحقِّ..
يَراعي سيفٌ..
أشعاري..
أنشودةُ مجدٍ خالدةٌ..
ترنيمة نصرٍ للثوار

عجمان ٢٦/١/١٩٨٨ م

● ● ●

(٢)

«تأشيرة دخول الى القدس الشرقية..!»

عندما يُحقِّقُ (النخّاسُ) حُلْمَهُ..
وتنتهي رُتوشُ صفقة الضَّياع..
فَتَنْضوي أسوارُ قُدْسنا العتيقة..
على مقرِّ سائسٍ..
لدولةٍ ممسوخةِ الكيانْ..!
مَجْدوعةِ الأوصال..!
نُكْتَةِ الزمان..!
مِنْ أينَ - يا تُرى - ينال..
أمثالُنا..
أبناءُ (يافا) و (الجليل)..
و (الرملة البيضاء)..
تأشيرةَ الدخولِ للبكاء؟!
أَمْ أنّها تكونُ من سفيرِنا الجديد..
في (أوشليم)؟!
أَمْ مِنْ مُساعد السفيرِ في (جافا)..!
و «بير شيبع»..!
و (أَشْكَلُون)..؟!
فهذهِ الأسماءُ..
في زماننا العجيب..
ضرورةٌ مُلِحَّةٌ..
ليسعدَ الأقزامُ والطَّغام..
بالأمن.. والهدوءِ.. والوئام..
في طبخة السلام..!

عجمان ٢٧/١/١٩٨٨ م

● ● ●

(٣)

«لقيط».. والبراعم الحمراء..!

أحبابيَ الصغار..
براعمَ الحجارة الحمراءْ
يا ومضة الفداءِ..
يا إشراقة النهارْ
هذا «لقيطٌ» جَدُّكم..
يعودُكم صداه..
من ألف عامٍ أو يزيدْ
فقد رأى بأُمِّ عينهِ (التّجار)..

بباب (كسرى) جاثمينْ..
يساومونهُ على دمائكُم..!
على حجارة الصمودِ والإصرارْ..!
وَبَيْدَرِ الثوّارْ..!

• • •

أحبابيَ الصغارْ
لا تأمنوا (النخّاسَ) عابدَ (الدولار)
أو تَنْطَلي عليكمُ..
نصائحُ (التُّجار)
هذا (لقيطٌ) جَدُّكم يقول:
«يا قومُ.. لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُراً
على نسائكمُ كسرى
وما جَمعا»

• • •

أحبابَنا..
براعمَ الحجارة الحمراءْ
تَجذّروا في تُرْبكم..
فأنتمُ الرَّجاءْ
تشبّثوا بالأرضِ..
بالصخورِ..
بالأشجار
فأنتمُ الشراعُ والرُّبّانْ
وأنتمُ الخميرةُ الذخيره
ونبضةُ الحياةِ..
خفقةُ الوُجدان

• • •

لا يَخْدَعَنْكُمْ لَغْوُنا وَدَمْعُنا
فنحنُ مخمورونَ خارجَ الأسوار..!
مُخَدَّرونَ..!
لا نُحِسُّ..!
لا نثور..!
لا نملكُ اليدَ التي تحاولُ النُّشور..
من غيهب القبور..!

• • •

هذا (لقيطٌ) جَدُّكم يقول..
مُحَذِّراً من خُدْعة الرُّكون للدُّمَى...
ومن ثعالب التسويفِ بالوعودِ
والعهودِ:
«إنْ يظفروا.. يَحْتَوُوكمْ والتِّلادَ
معا»..!
فأسقطوا من دفتر النضالِ والفداءْ..
مُخَضْرَمي رُموزنا...
في لُعبةِ السياسَةِ العَجْفاءْ
سياسةِ (الحرباءِ) في الخريف
والشتاءْ
«وقلِّدوا أمْرَكُم ـ لله دَرُّكُمُ ـ
رحبَ الذراعِ.. بأمر
الحربِ مُطّلِعَا»

• • •

عجمان ٢٨/١/١٩٨٨ م

شعر

الحجارة الحمر

محمد الريماوي*

يا ظاربين الحجر ما أحلى حجارتكم
تمشون كرج الحجل يازين مشيتكم
يا ظاربين الحجر وحجاركم نجوم
تلمع بعالي السما يا ريتني معكم

يا ظاربين الحجر شيلوا حجركم شيل
ابقدر ما في عزم وبقد ما في حيل
يفقع برأس العدو كنه طلق بارود
يدوي دوى الرعد يهدر هدير السيل

اجمّعوا يا اخوتي ضربة ورا ضربة
هذي فلسطين وما لنا غيرها طلبة
بالدم نفديها ونفدي ترابها
ونظمها بالجفن والرمش والهدبة

طفل صغير على يد ميمته يركي
بعده رقيق لايمشي مليح ولا يحكي
قال احملوني معاكم يوم بتغيروا
ولمن مشوا وظل غص بدمعته يبكي

يا ظاربين الحجر صبوا حجركم صب
حتى كلاب العدى في جحورها تنضب
لمن اجا الحبشي تيهد ركن البيت
ما رده الا حجر مذكور عند الرب

يا ظاربين الحجر خلي الحجر سجيل
يقدح عليهم قدح طير الأبابيل
يا ملثمن بشماخ ومشمر ذيالك
مالوا اصحابك عليهم يا ملثم ميل

ابو شوارب قطن متخبي جوا الدار
والناس في المعركة تظرب دبش وحجار

* شاعر وروائي من فلسطين.

وان كان باله عيون الناس ما شافت
العار طامر ذنيه وين يهرب من العار

ابو شوارب قطزمتكمكم بشاله
والناس في المعركة عالقوم صيالة
باله المصدى عيون الناس ما تشوفه
يا شينها حالتك يا نذل من حاله

ابو خواتم تنك امعنكر عقاله
شغال في اسرائيل وعاجبته احواله
عايش حياة الهون ويا شينها عيشه
وما يرظى عيشة ذل الا الردى خاله

وابو خواتم تنك حابب يهودية
قلبه مع الزين ومعبّا بقنيه
يا شين ما خلفت أمك وما جابت
أصلك نذل يا نذل ابن الحرامية

ابو الشوارب قطن مبسوط ومكيف
الشغل ماشي وحاله رقيق ورهيّف
يا ريت امك بدالك خلفت عنزة
كانت بتشرب حليب منها وبتظيف

والّي ظميره خلق مهري بقى له زمان
باعه لخواجه يهودي بعلبتين دخان
شايل عجنبه فرد عينك اخت عينك
ذبحه حلال يا هلي مكتوب في القرآن

وقتل العميل الصحيح كله حلال في
حلال
لكن حرام القتل عمّال في بطّال
لا تخلطوا وتغلطوا ساس الفتن مخلوط

والّلي بنى من تراب بيته عراسه هال

يا ظاربين الحجر خلٍّ الحجر دغرى
يمرق على رأس اليهودي يفلق ويفرى
ظرب الحجر شغلنا من يوم كنا اولاد
نرجم على بعظنا في لعبنا ونجرى

يا ظاربين الحجر خلي حجركم صيب
وان اخطا ظرب الحجر مرات ما هو
عيب
العيب عالّي بيكشف للعدى ظهره
ويترك صويحب وقع مرمي لرجم
الغيب

مسيك بالخير يا مسلح بنكافه
تهجم على القوم مكشوف الصدر حافي
ومفرع الرأس لاتخشى ولا ترهب
رصاص العدوين يا بدر السما الوافي

مسيك بالخير يا محزم بمقليعه
يا مدوخ الكون يوم الهده والهيعه
اللي وراك طملوا واللي وراك هانوا
ونزلوا على السوق تبيعوا لهم بيعه

مسيك بالخير يا رايح على غزه
ظايف أجاويد أهل الباس والعزه
سلم على أهلها ومن حين ما توصل
قول البلح زين وناطور البلح بخزى

مسيك بالخير يا رايح عا رام الله
دار الوفاء، والوفا في ناسها خله
وقول الوعد بينا مع طلعة الميزان

وهذي نجوم الزهر طلعت بعون الله

يا حامل المقلاع وملثم بحطة
خايف عليك تنباع في آخر محطة
خليك دورى حذر ومفتح عيونك
واصحا من البياع لينطلك نطه

الله يحييك يا متلثم بفطره
يالّي كفوفه تحنت دم من صغره
الله يحيك يا محشوم يا طيب
يالّي أيام الخنا ما يعد من عمره

من يوم جونا العدى ومعهم بلاويهم
ما ظل ساعة فرح لينا ولا ليهم
يا عاقد المحرمة عالراس ومعصب
شمر زنودك وقوم نظف تواليهم

هذي فلسطين وما في غيرها زهرة
تشمشم شذاها ولا في غيرها مهرة
منا الحذاها ومنا الكان فارسها
واطعمها لحمه ودمه وما كسر صفره

هذي فلسطين عجبين الزمن غره
حرة وبتحمل مثل ما بتحمل الحرة
فيها الحبيبات تصبر عالجفا مرات
لكن على الظيم ما تصبر ولا مره

هذي فلسطين حايطها بحر مالح
فيها الحبيبات ما ابكي على الرايح
فيها الحبيبات في ساح الوغى وردات
الندى مزرر عليها والعطر فايح

هذي فلسطين مهرة بتتعب الخيّال
يا عنقها ميذنة ويا عرفها شلال
ان حمحمت يوم وصاحت وين عزوتي
وين
جوها النشامى مره بتسابق الرجال

هذي فلسطين نوارة في قواره
فيها الصبايا حمام يطير عالغارة
اللّه محيّ الحمام ومبارك بأصله
طير الحمام اللي عشش باب المغارة

هذي فلسطين جنه ومالها آخر
فيها الرجاجيل أمواج ابّحر زاخر
وفيها الحبيبات وردة خالفت وردة
يمشين مشي الزراعي بمرج ابن عامر

يا ظاربين الحجر شوطوا حجركم شوط
وخلّي الحجر بيدكم يبقى لتالي الشوط
ما في ظمانه لكم الّا حجارتكم
هذا لباب الحكي والباقي شم ازعوط

حجارنا الحمر من دم العدى تشرب
والسمر في المعركة تظرب ولا تتعب
يتناوشون العدى رده بعد رده
والبنت قبل الشب تنزل على الملعب

ياام الشهيد ارفعي رأسك وهاهي له
وبعد المهاهاه عاقبره زغرتي له
يحرم على العين تبكي والدمع ينزل
قولي شهاب ومرق ظاوي قناديله

ياام الشهيد البسي مطرز ما بين ناسك

لا طرحة سوده تحطيها على رأسك
اليوم طير السعد هدّى على الشباك
ورفرف حواليك ومن بين العينين باسك

ياام الشهيد افرحي وحنى بنان الكف
اليوم يوم العرس قومي ارقصي بالدف
قومي امسحي جبهته ورشي عطر عالراس
بعده جبينه ندى وعنه العرق ما جف

ياام الشهيد اسندي ظهرك بدياتك
ومرفوعة الراس امشي بين خياتك
قالوا الجدع ان وقع تدمع عليه العين
وانتي ليوم الفرح خبيتي دمعاتك

ياام الشهيد اطلعي عالباب لاقينه
جابوه محمل على الكتاف شالونه
قومي افرشي فرشته وهاتي مخداته
نام العريس وغفي وتغمظو عيونه

ياام الشهيد افردي شعره وكدي له
ورشي على قذلته كافور حطي له
اليوم عرسه حبيب الروح المدلل
هاتي ثياب العرس هاتي مناديله

طاير بظهر العلالي يا حجر يا احمر
ياللي بدم العدى منقوش ومعفر
يا ظارب الحجر بوسه قبل ما تظرب
يا بوسته كعكبان مغمس بسكر

ياللي هواكم حلو ياللي هواكم مر
ياللي تغيروا على السكناج كر وفر
ان كان بدكم بنات العرب تهواكم
هاتوا بديكم حجر ياللي حجركم در

ابو الحطيطة على خده نزل دمعه
وولاد العمام لاشافوا ولاسمعوا
متروك وحدك ويا حسرة على المتروك
واللي العرب عزوته راح ينكسر ظلعه

يا معصب الراس بالحطة لحالك قوم
أولاد عمك نعب في ديارهم البوم
أولاد عمك عرب خلوك لوحدك
لكن اذاعاتهم بترن طول يوم

يا ناس راعي غنمكم غير دروبه
خوفي على الطرش من ذيب الفلا يصيبه
روّح عن العين قبل الناس ما تشرب
وغيّر طريقه بعد ما اتعبت جيوبه

يا ناس راعي غنمكم شال الحطيطه
ولبس على الراس كلوسه وبرنيطه
بدو يلقط عنب من شجرة الزعرور
راعي متيس وماشي بدرب زحليطة

ومشربش الحطة هاللي سحنته من نحاس
هاللي الغرب حابّه من بين كل الناس
لو تدري يا ابن الحزينة ليش بحبوك
لتظل بين الخلق ماشي موطي الراس

ومشربش الحطة لا أرعد ولا أبرق
رمى سلاحه وبداله شال له مطرق
كذاب وطبعه الكذب من يوم ما عرفناه

وفي شبر ميّ في آليوم الصعب يغرق

ومشربش الحطة هاللي بايع الصحبه
يطوف حول الهرم ومدشر الكعبه
مشتاق يجاور هناك ويقظي خواتيمه
والشوق يكوي على مقدار المحبه

ومشربش الحطة ما بيفعل فقط بحكي
بحج في مصر ومدشر حرم مكة
لا احنا طلبناه ولا نحنا سعيناله
وجوزك ويريد الله وماله عننا فكه

ينشد حزاين جبر ويقول يا جباره
يا شوم راعي الغنم راكب في طياره
دشر دوالي الخليل قطوفها طابت
وسافر يجيب العنب من سوق العطارة

ينشد حزاين جبر عاللي جرى فيها
بلاد العرب امحلت نشفت سواقيها
عربانها كركروا وخيامهم شالوا
وخيولهم صارت الكره تباريها

ينشد حزاين جبر ويقول يا خالي
بلاد العرب امحلت والحالة مش حاله
ازروع قش ونشف وشروشها ماتت
ونسوان مثل التبن ورجالها نخاله

مسيك بالخير يا رايح عابيت ديما
المشنشلة بالعنب واللابسة ديما
سلم على اهلها وبوّس بيادرها
واقرأ عليها السلام وزيد تسليما

ماسعد لياليك يا نايم في بيت ريمه
لو كان فرشك قصل ولحيفتك غيمة
يسعد لياليك لفّت لي حواليك
تلقى حبايب بلاهم ما لنا قيمه

حن الورق للشجر حن الولد له
في حظنها توخذه في صدرها تظمه
طالت عليه غربته وحاله بحال الرمل
رمل انتثر في واد ياما أصعبه له

شعر

في ذكرى الانتفاضة

محمود صبحة*

من كهوفِ التاريخ يُولَدُ آتٍ … مثْلَمَا يَنْبتُ الشذى في الرُفاتِ
عِبروا في السُطور مشْعَل حُلْمٍ … عانقوهُ على صدى الذكرياتِ
يصنعونَ الجديدَ في الامس، لكن … قومنا البيدُ أوغلوا في السباتِ
جعلوا وحيهم دماءً وغصباً … فغدونا نظيرَهم في الشتاتِ
طمعوا في الوجود بعد اندثارٍ … فإذا الغرب مركبُ الأمنياتِ
فنضونا عنّا غبار التواني … نسكب الضوء في جفون الغفاةِ
بعد دعوى قومية تنطح الافق … تناهت الى الذئاب الرعاةِ
فغدونا في ردّةٍ مثلما كنّا … كأنّا في متحف المومياتِ
خذلتنا الوصاةُ في مفرق الدرب … ومدّت أكفّها للزّناةِ
حنقت صحوة الجهاد قنوطاً … وتباكت على شعار الثباتِ!
فرغت جعبتي فيا مال لِمَ … كبريائي، فالامر للشرذماتِ
قد نكرنا جذورنا، وانتهينا … لفراغٍ، فأين شأوُ البزاةِ؟!
يتبدى الرمز ثائراً، ثمّ يهوي … تاجراً، لاهثاً ورا المغرياتِ
في وفاقٍ ما بين آخيل وهكطور … مدننا الايدي لبعض الفُتاةِ
واذا نحن لم نزل في ارتهانٍ … للذي كان خصمَنا في الغداةِ!
جمعونا على أكفّ رياحٍ … أين صرنا من انتقاض البناةِ؟!
خرست ألسن اللهيب فشبّت … نار موسى وحيدةً في الفلاةِ

* شاعر من فلسطين له عدد من المجموعات الشعرية.

حين تهوي كلُّ الجياد سيبقى … مهرُنا الدهرَ رائع الوثباتِ
سوف يبقى ناقوسنا الاحمرُ الطُّهْرُ … وميلادنا نداءَ الحداةِ
جرح أمي - وقد تبخر صحواً … بين قومي - يظلّ مسرى الدعاةِ
سوف تبقى أزاهرُ اللوز، والوزال … نوراً ينشقّ في الظلماتِ

* * *

يا وفاءً، يشدّنا لعهودٍ … عاثراتٍ، أكفُّنا في ابتهالِ
نبتت من أضالع الصخر … والوعر لدينا مستلهماتُ النضالِ
وارتوتْ من دمائنا بتلاتُ … الزهرِ زهواً على جبين المعالي
كيف ننهي نضالنا لنكوصٍ … ونداءُ القتلى، ونوح الاهالي..؟!
هينماتُ الثوّار يطرقن سمعي … وهزيجُ الخنساء خلف الرجالِ
في ضمير الأبعادِ مولدُ سربٍ … يتهافتن رغبةً للوصالِ
أيُّ وهْبٍ هذا الذي كان يوم … الارض، عرساً على مدى الاجيالِ
زرعَ البذرةَ الجليلُ فهبتْ … لاحتضان البذار كلَّ المجالِ
فتلقّتْ ترَ الجموع انتفاضاً … يصفع البغي، بالاذى لا يبالي
وبحار العداةُ: هل من سبيل؟ … فيجيب الصدى، وصمتُ الرمالِ
ربّ أمٍّ طارت وراء بنيها … لا لصدٍّ، وإنّما للنزالِ

وفتاةٍ مثلَ الزنابقِ طهراً … حلمَ فجرٍ ترودُ بعد الدلالِ
ذهب الاقدمون عن معجزاتٍ … وترى معجزاتنا في الطِّفالِ!
كم غلامٍ مضى ليبقى امتداداً … عاد جرحاً مهدَّلَ الاوصالِ
وألوفٍ من الأسارى تعاني … من فنون الإرهاب كلَّ ابتذالِ
جعلوا الارضَ والكيانَ بعينٍ … وبعينٍ أخرى اعتناقَ الزوالِ
وإذا لم يكن من الأمر شيءٌ … ليس بدٌّ من اعتناق المحالِ
ليس بدٌّ من أن يُتِمَّ مداراً … موكبُ البدرِ بعد طول الليالي

١٩٨٩/١٢/٧
عين الحلوة

شعر

قصة

مسرة شاكر*

كان لي طفل وسيم، مثلما الاطفال في الحيّ وفي الحيّ المجاور
يحمل المقلاع يصطاد العصافير التي حطّت على أرض البيادر
كان مقداماً عنيداً، مثلما الاطفال يهوون المخاطر
إنما ـ والحق أولى ـ كان دوماً ناجحاً في المدرسة.

كل صبح أوقظ الطفل أحنيّه بماء فيه طيب
كل يوم كنت آتية بكوب من حليب
والفّ الخبز والجبن وأوصيه لئلا يتلهى عن طريق المدرسة

كنت أقضي اليوم في شوق وخوف وانتظار
ربما جاع الحبيب الطفل أثناء النهار
ربما ـ يا ويلتا ـ شُجّت جبينُ الطفل في حوم شجار
فارتمى مغمى عليه في طريق المدرسة

طالما كانت ظنوني خائبة
يرجع الطفل سليماً قافزاً كالجدي يثغو ضاحكاً أو غاضباً
يقذف الالفاظ سبّاً وهو يُلقي بجراب المدرسة

ذات يوم لم يعدْ

---

* قاصة من القطر العربي السوري.

صاحت الجارة ـ ويلي ـ ان طفلي لم يعد
قال جاري: لا تخافي أنا أيضاً ولدي لمّا يعد
ربما كانوا جميعاً يلعبون الآن قرب المدرسة.

سُمعت أصواتُهم تهدر من فجّ عميق
اندفعنا راكضين
ثم بانوا قادمين
بعضهم يحمل بعضاً هاتفين
شبّت النار بقلبي أين طفلي؟
كان محمولاً مدمى
عينه مفقوءة، والعظم في الفخذ انكسر
يقبض الكفّ على المقلاع محشوّاً حجر

يا حبيبي ما جرى؟ ماذا فعلت
كل أمّ صرخت مثلي: حبيبي ما فعلت

كان ليلاً ظالماً قد عشته بالقرب من طفلي الجريح
خلته نام فأغمضت قليلاً، برهة كي أستريح
كان فجراً حينما استيقظت من حلم غريب
ورأيت الطفل يمشي ناهضاً قد نبتت عين مكان العين رؤياها حديد
يا الهي! عاد عهد الانبياء
بُعِثَ الطفلُ نقيّاً غُسلت عنه الدماء.

كنتُ كالمأخوذة الحمقاء لا أعرف سره
قلت: آتيه بكوب من حليب ثم أستفهم أمره
لوّح الطفل بكفيه وولّى رافضاً كأس الحليب
بُحّ صوتي، لم يفكّر بعناقي أو وداعي.
فجأة أحسست أن الطفل قد لبّى نداء كان أقوى من ندائي.

عاد لي وقت الغروب
عاد محمولاً مدمّى، مثخن الجسم بألوان الجراح
كُسرّت أضلاعه ضرباً ونالوه عدوّاً مستباح
كان حيّاً يقبض الكفّ على المقلاع محشوّاً حجر

عشت ليلي عجبا صاحية حتى الصباح
أرقب الطفل الجريح المعجزة
كيف يقوى، يتنامى، تنبت الاضلاعُ في الجسم وتنمو فيه ساق وذراع
بُعِثَ الطفلُ شديداً وتخطّى النزع في أقسى صراع

كيف أضحى ذلك الناعم في حضني مقاتل
كل يوم يُطعن الطفل ويُشفى ثم يمضي ليقاتل
كل يوم كانت الآلام تضنيني وأبكي وأسُائل
فمتى يرتدّ لي طفلي، الى صدري، متى أملك أمره؟
قال: يا أمي نداء الارض أقوى أنا لا أسمع غيره

رحت أجري خلف طفلي أجمع الاحجار من كل مكان
أحمل الجعبة، أسقيه، أضمّ الجرح، أفديه إذا عزّ الامان
وأنادي أمهات الارض في كل زمان
من تفاخر؟
من تفاخر؟
ان لي طفلاً تحدّى، صرع التنيّن رمياً بحجر
أعزلاً يحمل مقلاعاً وخبزاً وحجر
تنشب النار.. يدبّ الذعر، تعلو صرخة الابواق ان القى حجر

يا ضمير العالم استيقظ، أما آن لهذا الفارس الطفل، أما آن له أن يترجّل
يا ضمير العالم استيقظ، جريح ومعنّى، لن يحيد الطفل ـ لا ـ لن يتحول.
قال لي يوماً نداء الارض أقوى هو لا يسمع غيره.

قصائد مختارة
للشاعرة البلغارية الكبيرة
بلانما ديمتروفا

ترجمة: ميخائيل عيد

شاعرة واديبة بلغارية معاصرة خرجت قصائدها إلى العالم وحظيت بإعجاب القراء والنقاد.

ولدت بلاغا ديميتروفا عام ١٩٢٢ في بيالا سلاتينا. ترعرعت في فيليكو تورنوفو ودرست الثانوية وعلوم اللغة السلافية في صوفيا. أكملت دراستها الأدبية في معهد غوركي في موسكو.

عملت في دور النشر البلغارية وفي هيئات تحرير الصحف والمجلات وزارت بلداناً كثيرة في اوربا كما زارت فييتنام سنوات الحرب وزارت كوبا وانعكس ذلك في ماكتبت وهي بين ابرز من عكس في شعرهن عالم المرأة العاطفي.

اصدرت العديد من الكتب الشعرية والنثرية وقد أعيد طبعها أكثر من مرة.

مقتطفات من
«البحر المحظور»

يوجعني البحر-
الحقيقي،
مفتول العضلات، القوي
الذي تركته مراراً
من أجل بحر الكلمات المخترع
....
أحدهما، الطروب
يشدني
إلى ضوء الشمس المعرّي
والثاني يبقيني
تحت عين المصباح
المراقبة
....
الآن ألتحمُ مع الرمل
ويخيل إليَّ
أنني أسمع
ضحك الأمواج الإنتقامي
....
طيف حب
منكسر في الذاكرة-
طحلب ماء بلا جذر

جرفه من بعيد
تيار حار ما.
....
كم نقاش مع الظروف
كم من الدروب الملتوية
أي نضال مع أنفسنا
كم مغامرة وتهور
من أجل لقاء واحد
....
البحر قريب أمامنا-
يصعد من ذاته
ثم يغوص في ذاته
حولنا.. المستجمون،
بقايا صراخ على الخلفية المائرة
....
وحدنا الهادئان -
جزيرة صغيرة وسط الفوضى
بلا عواصف حتى السراب
على الرغم من الصراحة
على الرغم من بطاقة العودة
على الرغم من غد
....
وهكذا لم أتعلّم العيش
ببساطة الطيور
الربانية الفاتنة
فهل سيكون لدي الوقت
كي أتعلم كيف أموت

بجدارة الطيور؟
....
أتملّى باهتمام
وجوه أمواتي
اللامعة في التراب
خسروا المعركة التي عرفوها خاسرة
منذ البداية
لقد حافظوا على صورة -
الفرادة، التي لم تبعد عنهم الموت.
....
ألامس عمى الحجر
الذي مازال يدفأ
بشريان شبه نابض
أعطوني فكرتكم الأخيرة، أيها المتوحدون
المتروكون من الاحياء
حين تنكبتم الدرب
....
في ساعة سفري، أعرف:
لن أكون متروكة، منكم،
من الأموات،
ستتلفت روحي إلى
ظلال الطيور الرخية
التى ترافقها بهدوء
....
لي أمل واحد
إذ لايوجد أمل -
أن تنفتح أعين الموتى
أن ترفع التراب بالأهداب

وأن تنظر مباشرة إلى روحي –
فهم يعرفون لغة
العذاب والصمت
ينبغي أن أقول لهم بأيّ ثمن،
في الحمّى، في الصخب، في الفوضى،
يجب أن أحافظ على فترة
لأقول لهم
قبل أن أغرق في عدم إحساس الحجر:
لم أفهم إلّا بعد موتهم
ماذا تعني معاً..،
ليس إذ كنا الواحد قرب الآخر
بل إذ نحن الواحد بلا الآخر،
ولايمكننا أن نكون الواحد بلا الآخر
حينئذ نكون حقاً معاً.

....

أمر واحد يعذبني:
هل يعرفون ذلك؟

....

يبقينا الحب
في أوج تفجره
هناك على قطعة من الافق
حيث يظل أحدنا هنا
ويغيب الآخر هناك
أعلم أننا سنبدو
حينئذ قصيري النظر
في عدسة الغياب المكبرة
عبر ضوء الدموع
وسيتعانق
كيانانا
حتى ينسكب تماماً
أحدنا في الآخر

....

أخاف من إمكانية الشعور هذه
التي نحملها في نفسينا
مثل منجم
أريد أن أُزيحها
أن أدور حولها، أتجاوزها
أن أنبشها من الموت
وأزداد قرباً منها

....

كيف سنحمل
الانفجار الممزق
للحب بين اثنين
حين نصبح واحداً؟

....

في البدء كانت الكلمة
فهل في النهاية – الصمت؟
أقبلُ الموت
كما يقبله الطفل
البحر المحظور
وهو للخيال
كما الريح للنار
كلمتي هي
بحر مكشوف
أرتمي فيه
وحيدة والكلمة في الحنجرة

مثل حجر في العنق
أغرق، أغرق
زجاجة مختومة
كي أُبحر في الكلمة
أيتها الكلمات، الكلمات كاسرات الوقت،
ياكلماتي اليتيمات
إبلغن شاطئاً ما
وسرن على المنحدر
مع شرايين موزع البريد المنتفخة.

....

أيتها الكلمات، الملّوحة بالايادي كالصم البكم
لكي تعبر عن البحر، الزمن، وعني..
ياكلمات، مكتوبة بأنفاسي على الماء.

....

أيها البحر المحظور،
أريد أن أتغلغل فيك عبر الكلمة
متوغلة، متوغلة حتى جذرك
المجدول من سكينة وانفعال
عميقاً، عميقاً حتى القعر،
لكي أقتلع حفنة من سماء.
أيها البحر الذي لايهدأ
كن قدوة لي،
في أن أطرح من ذاتي
المهترىء والقذر.
كن معياري
أيها البحر.

....

أبتلعُ مرارة الكلمة المالحة:

إذا منعوا عني الكلمه
فسوف أقبل الموت
لكي أحرر الكلمة
من أجل انبعاثي

البحر الاسود ـ صيف ١٩٧٤

الشاعرة

ابتكري كل قصيدة
وكأنما هي الأخيرة
في هذا القرن، المتخم بالخاطبين
المشحون بالارهاب،
الطائر بسرعة تفوق سرعة الصوت
يزداد مجيء الموت فجاءة
أرسلي كل كلمة من كلماتك،،
مثل رسالة أخيرة قبل الإعدام
منقوشة في جدار السجن.
لايحق لك الكذب
حتى في لعبة صغيرة جميلة
ولن يكون لديك وقت بسيط
لاصلاح أخطائك بنفسك
اكتبي بالدم ـ
باقتضاب وبلا رحمة
كل قصيدة من قصائدك
وكأنها الوداعية

١٩٦٦

حياتان

عشت مرتين في هذا العالم
لي حياتان. ثمة من له واحدة
وثمة من ليس له، وأما أنا ـ فباثنتين.
اثنتان مختلفتان تماماً، نكهة ولوناً

....

الأولى تحمل لي على طبق صقيل
نقاء النهار،
العطور المرنانة، الايقاعات، والنغمات الوافرة
والحب والمغامرات والضحك ـ
يا إلهي، أي دفق من الضحك غير المعلل!
ومع ذلك أشيح بوجهي
وأتنهد على شيء لاأعرف ماهيته ولامكانه.

....

الآن أدرك لماذا ـ من أجل الالم.

....

الحياة الثانية تسحب الطبق الصقيل
من تحت أنفي..
في مثل لمحة طرف ـ ثم لاشيء لديَّ
حتى أنا لاوجود لي، وكم كنت ـ
عنيدة، ضاله، حقوداً، ذات نزوات؟
انظر خلل الدمع وتنسحب مني
كل الأصباغ ـ حتى الأخير.

....

وتنسكب الرقة في يدين فارغتين

....

عشت مرتين في هذا العالم
ارتشفت حياتين. من أعطاك إياهما؟
جُلجلتان لروح واحدة. الذروة ـ كفى!

مصباح ليلي
عين طائر ليلي

في العذاب أتسلل منتصف الليل
على أصابعي مثل لص
إبريق شاي عتيق يغلي
عبر فتحتي أنفها ويصفر
....
أوقظها من القرن الماضي
كي أعطيها الدواء.
وهي الجذع المتحجر من ضوء
ترفع بجهد جفنيها
....
وتنظر إليَّ بعينين متتبعتين
تسألني: «من أنتِ؟»
وأجفل.. الا تعرفين ابنتك
يا أُماه؟
....
ألا تتذكرين، على الأقل،
هذا الوجه الذي يكررك؟
فالى من سوف أستند إذن
وسط النسيان الشامل؟
الوطن مستعد أيضاً

ألا يرف له جفن
حين لا أبحث عنه
إلا لإيقاظه من نوم.
....
والآم الطبيعة هكذا
بعين طائر ليلي
سوف تسأل «من أنتِ؟»
حين سأسألها نفحة
....
سامحيني يا أُماه فقد فكرت بنفسي
ولم أشأ ذلك
فاعرفيني بهذه الأنانية
وهلمي أُعانقك!

ناقوس

كم أضعنا من فرص الحب
الغروب في قرون أيائل الغابة ـ ليس لنا
إثنان في أرجوحة تساقط الأوراق ـ ليسا أنا وأنت.
هدوء الليل البلسمي ـ ليس لكلماتنا
....
كم من الهدايا الثمينة حولناها إلى رخيصة:
الوحدة ـ إلى مجمع
القبل ـ إلى عضات
اللطف ـ إلى صخب وغرور
....
كم أضعنا من فرص الحب
....

هل أستطيع ان استعيد قمراً منهمراً على الأقل؟
وثمرة فريز برية في ظلال بيرين على الأقل؟
أو على الأقل تعداد دقات ناقوس يمامة؟

....

أبادل تسع ممالك بصوت جدجد تحت العتبة
الاغترابات ـ بالوحدة
الانتصارات ـ بقبلة
المجد ـ بليلة حب واحدة

....

كم أضعنا من فرص الحب

١٩٧٣

اصنع بنفسك سنونة بيضاء

لاتنتظر أن تطير اليك من مكان ما
تحمل ألخلاص بمنقارها
وتقص سماءك
بمقص جناحيها.
مادمت تبحث عن سنونة بيضاء
فاصنعها من جلدك

....

النموذج بسيط يعرفه الأطفال:
زاوية حادة أو اثنتان
جناحان مستقيمان مشدودان
وحقيبة ما ـ كي تستطيع

أن تنفصل دفعة واحدة
وتطير أبعد من الإجاصة

....

ولتقع من ثم على الجمجمة من طيرانك
مصاباً على الأرض،
وبالسخرية الزواحف،
ولتحاول مرة أخرى
ولتغامر مرة أخرى
كي تحتوي القدر كسنونة ورقية

....

وكأنما من باحة الطفولة المعشوشبة
ترسل بتلويحة بلهاء
نحو قبة السماء طائراً أبيض،
من ورقة منتزعة من دفتر،
وبعد دورة غير محدودة
سيقع فجاءة بين قدميك مصاباً

....

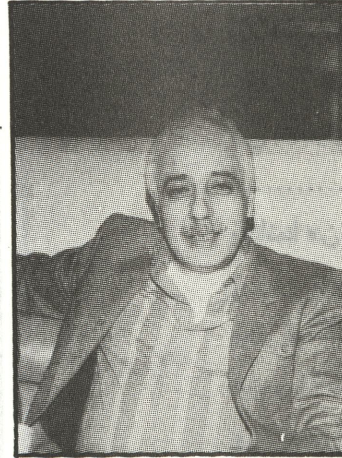
(مثال واضح على الفضاء المتوتر)
هكذا ستقع أنت أيضاً أمام نصيبك الأرضي
ومع ذلك سيرسل الحفيف في مسامك
هواء طلق
وفوق الجناح الكسير
ستحمل علامة من اللانهاية
حتى لو دعوك غراباً أبيض
حتى الانبحاح.
اصنع بنفسك سنونة بيضاء

١٩٨١

حوار

مع الكاتب المسرحي اللبناني عصام محفوظ

مشروعي اللغوي الجديد هدفه التواصل بين كل العرب



حوار اكرم اليوسف

الكاتب المسرحي اللبناني عصام محفوظ، من رواد المسرح اللبناني والعربي الحديث، وقد استطاع أن ينقل عبر مسرحياته، المسرح اللبناني إلى مستوى متطور جداً نال إعجاب الجمهور العربي في كل مكان. وعصام محفوظ مسرحي «مغامر» مشغول بهموم المسرح العربي وقضية الإيصال والتوصيل على صعيد الوطن العربي ككل، وانطلاقاً من هذا الهم، طرح مشروعاً «لغويا ـ مسرحيا» اطلق عليه اسم «الفصحى الشعبية» هدف من ورائه أن تصل جميع النصوص المسرحية العربية المكتوبة باللهجة المحلية إلى كل القراء العرب، مشروعه هذا أثار الكثير من الحوارات والجدل، واختلفت الآراء حوله سلباً أو إيجاباً دون أن يحسم الامر بعد. في هذا اللقاء مع عصام محفوظ محاولة لاطلاع القارىء العربي على الخلفية التي طرح فيها محفوظ مشروعه الجديد:

● **بمناسبة مشروعك* اللغوي الجديد، الذي صدُرت به اعمالك المسرحية الكاملة في طبعة جديدة ـ اعني مشروع اللغة الفصحى ـ والذي اثار جدلاً كثيراً ـ فهل لك ان تلخص لنا الغاية من هذا المشروع؟**

■ محفوظ: مشروعي هو التالي: إذا كان على الكاتب المسرحي، الذي يكتب باللغة العامية، أن ينشر هذا النص في كتاب، فعليه أن يعيد كتابة هذا النص بفصحى مبسطة لكي تصل إلى قرّاء عرب، بعيدين عن فهم لغته العامية. إذن هو مشروع للتواصل بين المسرحيين العرب والمعنيين بالمسرح، عن طريق الفصحى.

● **لماذا اطلقت اسم «الفصحى الشعبية» على هذه الفصحى؟**

■ محفوظ: لأن نقل النص من العامية إلى الفصحى، يجب أن يتم بأقل خسارة ممكنة من حيويته الاولى. من هنا، تعمّدت صيغة هي الأكثر تبسيطاً حتى الآن للفصحى، في إطار محاولات لتبسيط الفصحى، منذ بداية عصر النهضة.

● **من الملاحظ ان كل المشاريع السابقة والمشابهة لمشروعك هذا كانت فردية، فإذا كان الموضوع ملحّا إلى هذا الحد. فلماذا لايتم اتخاذ موقف جماعي مسرحي عربي من هذا المشروع؟**

■ محفوظ: أتمنى بالفعل أن يتم لقاء عربي واسع، لإصدار بيان جماعي حول هذا الموضوع يكون حسماً له، طالما أن الأزمة اللغوية المسرحية لاتزال تطرح منذ خمسين سنة كلّما اجتمع المسرحيون العرب لتقديم نصوصهم المسرحية، وهذا لايمنع أن تطرح كل وجهات النظر حول هذا الموضوع، لاستخلاص الحد الادنى من التوجهات المشتركة بيننا، وفي اعتقادي أن أي مشروع لغوي مسرحي، لايتحقق بطريقة مفيدة إلا إذا كان جماعياً، ولسوء الحظ بقيت حتى الآن هذه المحاولات فردية منذ ذلك التاريخ.

● **ولكن، كيف يتم هذا اللقاء برايك؟**

■ محفوظ: أعتقد أن ندوة عربية شاملة، تتم بين المسرحيين العرب، انطلاقاً من هذا المشروع، وبعد أن اختمرت ونضجت الكثير من الافكار حوله، طوال تجارب تعود إلى ثلاثين عاماً، يمكن أن تجعلنا نصل إلى بلورة خطوة متقدمة في اتجاه حل هذه المعضلة.

● **بعض اللغويين العرب، يطرحون اليوم حلاً لمشكلة الازدواجية في لغة المسرح، يتلخص هذا الحل في إنشاء نوعين من المسرح: مسرح اطلقوا عليه اسم «المسرح الاقليمي» ويتناول المشاكل الخاصة بكل بلد عربي على حدة، وهو باللغة العامية، ومسرح آخر سموّه «المسرح القومي» وهو يتالف من فرق مسرحية مشتركة، تطرح المشاكل العربية المشتركة ويكون باللغة الفصحى، فما هو رايك بذلك؟**

■ محفوظ: أعتقد أن الذين يطرحون مثل هذا المشروع، لاعلاقة لهم بالمسرح إطلاقاً، وإنما لهم علاقة بالإعلام المسرحي، وتالياً بالسياسة الاعلامية. وفي رأيي: يجب أن يتم الفصل بين هذين التوجهين، فالخلط بينهما لايفيد لا المسرح ولا السياسة، بل يسيء خاصة إلى الإبداع المسرحي. الذي هو فن يتصل عن طريق هذا المبدع بوجدان الشعب، والذي عبر التوجه الإبداعي بمخاطبة هذا الوجدان، يمكن الوصول الى نتيجة لايستطيعها أي توجه سياسي. إذن لنترك هذ التوجه، في هذا المجال للمسرحيين انفسهم، الذين عبر تجاربهم المتلاحقة سيصلون الى نتيجة بهذا الصدد.

● يطرح البعض أيضاً، انه يمكن ان نقبل العامية في الكوميديا ولكن لايمكن قبولها في التراجيديا فما هو ردك على ذلك؟

■ محفوظ: الفصل بين الكوميديا والمأساة في اللغة، هو فصل تعسفي برأيي، فاللغة التي تستطيع ان تحمل الكوميديا، تستطيع أيضاً أن تحمل التراجيديا، لأنهما فن واحد، هذا الطرح يدل على جهل بفن المسرح من جهة، وعلى نظرة «تحقيرية» للغة العامية. فالعامية هي لغة الناس المحكية، وهي لاتعبر عن فرحهم وهمومهم الصغيرة، بل تعبر أيضاً عن مآسيهم وهمومهم الكبيرة. ليس في الحياة من يفرح بالعامية ويبكي بالفصحى.

● دائماً تؤكد، على ان كلمة «ترجمة» تعادل كلمة «نقل» ونحن نعلم ان الترجمة تكون من لغة غريبة عنا تماماً، فهل تقصد بذلك ان الفصحى غريبة إلى هذا الحد عن اللغة العامية الشعبية؟

■ محفوظ: أولاً يجب أن نقول أن العامية العربية، ليست بعيدة عن الفصحى للحد الذي تصحّ فيه كلمة ترجمة. عندما ينقل نص مسرحي من الفصحى إلى العامية أو العكس. فاللغة المحكية تحمل ثلاثة أرباع القواعد الفصيحة. هذا الاختلاف هو في التفصيل، لكن هذا التفصيل بالذات في اللسان العربي الشعبي يعطي نبرة أكثر حيوية للحوار المسرحي. فالروابط اللغوية في اللغة المحكية المختلفة عنها في اللغة الفصحى هو كل الفارق وهو في الوقت نفسه فارق بسيط على الصعيد الكمي، وفارق كبير على الصعيد النوعي. وفي اعتقادي أن النقل والترجمة هنا، تعني استبدال هذا الفرق، ولايهم الصفة التي نطلقها على هذا النقل من محكيات إلى فصحى ادبية أو بالعكس. اكرر هنا أن استخدام كلمة ترجمة في هذا المجال لاتعني المدلول نفسه لكلمة ترجمة في المصطلح القاموسي بل هي تعبير عن هذا التحول التفصيلي الذي يتم بين اللغة الأم واللغة الوليدة.

● ارجو ان تحدثنا عن السبب الذي دفعك لطرح مشروعك اللغوي هذا (الفصحى الشعبية) في هذا الوقت بالذات، وليس قبلاً مع ان تجربتك المسرحية تعود إلى عشرين عاماً مضت؟

■ محفوظ: عندما بدأت الكتابة للمسرح قبل أكثر من عشرين عاماً، كانت الغالبية من الكتاب العرب المسرحيين ـ يكتبون بالفصحى، أما اليوم فالعكس هو الصحيح اي الغالبية تكتب باللغة (العامية) من قبل القرّاء العرب، وانا شخصياً عانيت طويلاً ومريراً من سوء فهم القراءات المسرحية بالعامية، وكذلك عانى الذين كانوا يتمنون الاطلاع على مسرحياتي، والذين لم يستطيعوا قراءتها في الطبعة الأولى. هذه المعاناة كانت تزداد سنة بعد أخرى، حتى وجدت أن الحل الوحيد لكسر هذا الحاجز بين العاميات العربية المختلفة المنشورة يجب أن يتم عبر نقل هذه النصوص من أصلها العالي إلى فصحى مبسطة مفهومة لكل المعنيين بالمسرح في الأقطار العربية. إن محاولتي هدفها الأساسي هو تواصل المسرح العربي لإغناء الإبداع العربي.

ومن الملاحظ وجود آراء تعتبر أن سوء الفهم للعاميات لم يعد موجوداً في الوطن العربي، في حين يؤكد الواقع العربي العكس، وبشكل خاص على الصعيد المسرحي. حيث يتجلى ذلك في المهرجانات

المسرحية. وكنت قد شرحت مطولاً أن المتفرج على مسرحية تتكلم بالعامية يسهل عليه فهمها اكثر بكثير من قراءتها، لأن الاداء اللفظي يساعد مع الحركة على إيصال هذه اللغة إلى حدّ معقول للمتفرج الذي لاينطق بها، ولكن المعاناة ستكون عندما سيقرأها في كتاب، هذه الصعوبة الناتجة عن اللاضوابط في كتابة اللغة العامية.

● نعود الآن إلى عام ١٩٦٩، وبالتحديد إلى «بيانك المسرحي» والذي اسميته «بيان مسرحي رقم واحد» ولم تتبعه باي بيان آخر منذ ذلك التاريخ حتى الآن.

المهم، تقول في بيانك هذا «إنني اولاً وقبل كل شيء ضد الكلمة الشعرية في المسرح ضد الحذلقة الذهنية، ضد البلاغة، ضد الخطابة، ضد الغنائية، ضد الفكر، ضد كل مايقتل الحياة في اللغة المسرحية» ماذا ابقيت إذن للمسرح؟

■ محفوظ: تركت للمسرح الحياة التي نعيشها والتي هي أهم من كل التصنيفات، فهذه الحياة التي انقلها للمسرح هي حياتنا المعاشة، أنقلها بأمانة أردت أن يكون المسرح انعكاساً حيّاً لها، وحتى يكون المسرح انعكاساً حيّاً لها أردت أن أجنبه كل المطبات التي كان يقع فيها المسرحيون الأدباء قبلي. فالأدباء المسرحيون، وحتى يميّزوا بين النص المسرحي والنص الأدبي، عنوا جداً بالبلاغة والأفكار ذات المواعظ في حين أردت ـ انسجاماً مع طبيعة الفن المسرحي ـ أن يكون فكر هذا المسرح ينبع من طبيعة هذا العمل، وليس أن يكون مجرد وسيلة لنشر شعارات وأفكار مجردة بعيدة عنه، هذا ماقصدته باللغة المسرحية التي تكون بعيدة عن الحذلقة والفكر، الفكر بمعناه الملتصق بالفن المسرحي وليس الذي يخرج من الفن المسرحي. المطلوب من الفكر أن يخرج من الحوار المسرحي بطبيعية دون أن يكون ملتصقاً ظاهرياً، فيجعل العمل الفني مجرد تجميع أفكار.

● هناك بعض الأفكار الغامضة في بيانك، حتى انها تبدو كانها متناقضة. فمثلاً ان تقول ان «الادب الصغير» ـ والاصطلاح لك ـ هو الذي يعالج مشاكل محلية فيتوقف عندها، و «الادب الكبير» يعالج مشكلة كل إنسان في كل مكان، حتى انك تقول: «يخطىء من يظن ان مشكلة الامريكي هي غير مشكلة اللبناني».

هل ياترى مشكلة اللبناني او الفلسطيني مثلاً، مثل مشكلة الفرنسي او الامريكي او الافريقي، لننظر إلى الواقع ونحكم؟

■ محفوظ: في بياني الذي أسميته «بيان رقم ١» وهو أول بيان في المسرح العربي الحديث ضمنته هذه الإشارة عن عالمية اللغة المسرحية، بمعنى أن هموم الانسان في كل مكان مشتركة، في علاقته بالموت والحياة، بالسلطة. وإن الاختلاف يكون بالتفاصيل، لكن هذه التفاصيل هي التي تميز كل أدب، في كل قطر عن غيره. إذن الفنان المسرحي الذي يستطيع أن يعمق هذه التفاصيل في محليته دون أن يغيب عنه جوهر النشاط الانساني الذي يجعل هذا الفن ميسراً للوصول الى حساسية كل إنسان في كل مكان.

وإلا فكيف نقبل الكثير من الأعمال الفنية العالمية التي تصلنا إذا لم يكن ذلك الفن او الأدب، قد تعمق في الجوهر إلى حد كسر الحاجز القومي والوصول الينا. إذن الحديث عن تفاصيل في المؤلفات الفنية او الروائية هو تميُّز دون تغيير في الجوهر.

● **انت تقول أيضاً، ليكن المسرح وسخاً، فظاً، لا أخلاقياً شرط أن يحافظ على تأثيره وتحركه الدائب في قلب العالم، أرجو ان تحدثنا عن هذه الفكرة، ومامدى علاقة مسرحك بمسرح القسوة، وبخاصة (انطوين أرتو)؟**

■ محفوظ: هذه الفكرة لاتعود إلى زماننا هذا، بل تعود إلى بداية المسرح العالمي، المسرح الاغريقي والتي نعرف كلنا أن المسرح الحديث في بلادنا متطور عنه، فمنذ ٣ آلاف عام كتب (اريستوفان) بكل مانسميه لا أخلاقية، عن مشاكل اجتماعية تمسُّ حياة مجتمع وكان لأعماله تلك وقع القنبلة كما يقول (دورنمات) على العالم المحيط بها التي تنشر القذارة في كل مكان لكي يراها الناس. مهمة المسرح والنقد المسرحي، هي فضح لا أخلاقية الجوانب السيئة في المجتمع عبر انعكاس هذه اللا أخلاقية في شكل يبدو للوهلة الأولى أنه لاأخلاقي في حين هي درس أخلاقي في المعنى الجوهري للكلمة في تطوير المجتمع المعني بتغييره، وكل المحاولات المسرحية التي تعنى بذلك في زماننا الحديث تعود إلى ذلك الكاتب ويجب أن لاننسى أن الفن والأخلاق ليسا متساويين، فالأخلاق الجيدة قد تنتج أدباً سيئاً كما يقول (أندريه جيد) وفي حين الأدب الجيد قد يتضمن أخلاقاً سيئة. الأخلاق في الأدب والمسرح هي مايصل إلى المتفرج عبر تأثره بما يريد الكاتب أن يجعله يتأثر به.

● **سؤال أخير: هل تظن أن هذا المشروع ـ تلقى ـ أو سيتلقى تجاوباً عربياً معه؟**

■ محفوظ: أنا أعتقد أن هذه الدعوة التي اسمها الفصحى «الشعبية» والتي بلورتها في مقدمة أعمالي المسرحية والتي أعدت طباعتها، قدمت فيها النظرية والتطبيق هذه المحاولة ناجمة عن معاناة، وأنا كنت أكثر ملحاحاً لايصال هذه الأزمة إلى حلّ يفيد، في تطور وتقدم الحركة المسرحية العربية، وأنا متأكد أن هذه الدعوة إذا وصلت إلى كتاب مسرحيين آخرين يعانون مثلي من هذه الازدواجية فسوف يكون التزامهم بها مدعاة فعلاً الى مزيد من التواصل، هو أقوى بكثير من التواصل الذي يتم على صعيد المهرجانات العربية.

تعريف:

عصام محفوظ، مواليد لبنان ١٩٣٩

مؤلفاته المسرحية: الزنزلخت، الديكتاتور، كارت بلانش، لماذا رفض سرحان سرحان.

- أشرف على كتابة مسرحية «إزار» عام ١٩٧٢
- كتب حوار فيلم «كفر قاسم» عام ١٩٧٣
- قدم مسرحية «حسن والبيك» عام ١٩٧٤
- (١١ قضية ضد الحرية) عام ١٩٧٧ وهي مجموعة مسرحيات إذاعية.
- كتب للتلفزيون: «سيناريو المسرح العربي في مائة عام» ونشره عام ١٩٨١.
- أصدر كتاب «مسرحيات قصيرة» عام ١٩٨٤.
- شارك في تحرير مجلتي «شعر» و «أدب».
- له مجموعات شعرية ودراسات نقدية.
- أستاذ مادة التأليف المسرحي في معهد الفنون في الجامعة اللبنانية منذ عام ١٩٦٩.

حوار

مع الأديبة اللبنانية والروائية العربية ليلى عسيران



حول الأدب الملتزم، وموقع الرواية العربية من الشارع والهموم العربية

حوار عماد بني حسن

.. الحديث مع الروائية والإنسانة ليلى عسيران حديث حميمي مليىء بالذكريات السمراء لوجوة الخنادق والبنادق والعبور الى فلسطين.. يجيء حديث مجلة الكاتب معها بعد أن اختفت ليلى عسيران من أدب المقاومة وصحف المقاومة الفلسطينية، هي لم تبتعد، بل هم الذين ابتعدوا.. الفدائيون إخوتي وأولادي، وكان اللقاء معها من خلال الحوار التالي...

● **الكاتب، أولاً لابد من سؤالك عن بداياتك الروائية، وعن موقع الرواية العربية في الآداب العالمية.**

ـ ليلى عسيران ـ معرفتي الشخصية بعالم الرواية من خلال الغرب قبل أن أعرف الرواية العربية، وذلك يعود إلى ثقافتي ودراستي في مدارس أجنبية،ثم كانت لي تجربة دراسية في القاهرة،ومن القاهرة تعرفت على رواية

نجيب محفوظ وقصص يوسف إدريس، ويحيى حقي من الجيل العظيم،وتأثرت بهم كثيراً،وكانت أمنيتي أن أكتب الرواية منذ الصغر، ولكني صبرت لكي أنضج وعملت في الصحافة وبدأت أكتب،فكانت لي أول رواية وهي بعنوان «لن نموت غداً»،كانت مدخلي الى عالم الكتابة،ولقيت تشجيعاً فأصبحت أقرأ غيري بمسؤولية أكثر،وفي ذهني للآن يبقى نجيب محفوظ والدكتور يوسف إدريس،واللذين أعتبرهما من رواد الرواية العربية،ولم ينافسهما أحد بعد،وإن كان هناك محاولات عديدة وجيدة في الوطن العربي للرواية،

● الكاتب أين موقفك الروائي من مسألة الحداثة التي تجتاح جيل اليوم؟

- ليلى عسيران ـ مسألة الحداثة في الرواية، ومسألة الالتزام في الرواية، أنا كنت من الذين يؤمنون بالالتزام بشكل عفوي،لأنني كنت أطرح قضايا وآمنت بتحرير المرأة،ومن خلال العمل وليس من خلال الطرح العبثي الذي كان سائداً في الستينات وبأن تحرير المرأة يعني تحريرها جنسياً،تحريرها من عائلتها، لم يكن ذلك مفهومي لتحرير المرأة،وأعتقد بأن موضوع الالتزام الزمني بنوع من السرد التصويري للكتابة الذي تأثرت به من المدرسة المصرية، وهذا النوع من الكتابة لست نادمة عليه،ولكن اليوم لو قدر لي أن أكتب لالتزم مرّة أخرى،لربما كنت كتبت بطريقة مختلفة، هناك أدب لم أكن أقدر على التجاوب معه، وهو الأدب الذي لا يقول شيئاً،ولا يوفر شيئاً للقارىء ولذلك تجدني من الذين قصّروا بالاهتمام بدراسة الأدب لأن الأدب يجب أن يدرس لانشغالي بالقضايا الوطنية والقومية،

● الكاتب، من المعروف أن لك تجربة فلسطينية سماتها علاقتك بالواقع الفلسطيني، من مخيمات، وقواعد، ومثقفين بشكل خاص،ألم تطلعي على الرواية الفلسطينية مثلاً،وإن كان حصل ذلك ما تقييمك لهذه الرواية؟

-ليلى عسيران ـ تعرفت على غسان كنفاني وتابعت كل قصصه،وأعتقد أنه في المجال الفلسطيني قطعاً الكاتب الأول،

هناك شعراء فلسطينيون جيدون،ولكن في مجال الرواية، غسان كنفاني استطاع أن يقفز بأسلوبه الى الحداثة في رواية «ماذا تبقى لكم»، ومن أم سعد تلك الرواية البسيطة المبكرة،

وأستطيع أن أقول على غير صعيد وبوجه عام وشامل،إن موقفي من الرواية ليس موقفاً تقليدياً بمعنى أنني أحاكم على أساس الالتزام الوطني والقومي، كما كانت الكتابة بالنسبة لي أن أكتب لأخدم القضية، واعتبر ذلك هو سلاحي الوحيد الذي أجيد استعماله، وعلى هذا الأساس جاءت روايتي عصافير، وبعدها خط الأفعى، وقلعة الأسطى،

وأعتقد أن الإعلام الفلسطيني مقصر في نشر وتشجيع الرواية الفلسطينية الجيدة، ربما هناك من يكتبون في الأرض المحتلة، وأنا مع الأسف لم أعرفهم ولم أعد أعرف أحداً يستطيع أن يدلني عليهم.

● الكاتب، هل خرجت ـ برايك ـ رواية الحجارة للنور على مستوى الوطن العربي؟

- ليلى عسيران ـ لابد وأن يخرج أدب من ثورة الحجارة مهم بأهمية هذه الثورة المباركة،وأعتقد أنه لا توجد ثورة وممكن أن تَعُمَّ ما لم تَطُلْ وجدان الناس، فكيف نطال وجدان الناس؟؟ بالفعل، ومن هنا يمكن أن أعود وأسترشد بكتابات غسان كنفاني، سميرة عزام أيضاً كتبت قبل الثورة الفلسطينية المعاصرة، قبل فكرة الكفاح المسلح، لأن الكفاح المسلح الفلسطيني لم يبدأ من ١٩٦٥/١/١، بل كانت له مراحل عديدة عمل فيها الفلسطينيون في الكفاح المسلح ولكن الفكر الجديد الذي انطلق لينصهر العرب في تيار يوجد فيما بينهم قوى الكفاح المسلح لإزعاج إسرائيل وتشجيع الأنظمة العربية على التلاحم مع الثورة الفلسطينية لتحرير فلسطين،

على صعيد أدب الانتفاضة أسجل هنا اعتراضي.أنني أنفعل جداً عندما أرى طفلاً ملقى القبض عليه لأنه يرمي الحجارة على جيش يعتبر نفسه من أقوى جيوش العالم،إلا أنني أحرص على المحافظة على الذاكرة الفلسطينية ونتاجي الأدبي يضيف الى الصورة ذاكرة أوسع وأعمق من الاحتفاظ بالصورة التي لم تنفك تذكرنا في كل يوم . . عن هذه الثورة العظيمة التي انطلقت في الأرض المحتلة إلى نفس نقاء النضال في الأرض المحتلة،

● الكاتب، برأيك كيف يمكن أن يسهم المثقفون العرب في خلق عملية التفاعل بين المواطن العربي وحدث الانتفاضة؟

- ليلى عسيران ـ أنا أستطيع أن أتكلم عن المواطن اللبناني، لأنني لا أعرف ولا أحيا ظروف بقية المواطنين العرب بل أراهم كانوا بعيدين جداً عن النضال الفلسطيني وكانوا بعيدين أيضاً عن مأساة لبنان، إنما هناك نخبة، هناك جماهير لا صوت لها ولا وسيلة لها للتعبير عن نفسها، لأن وسائل الإعلام إما مرتبطة بالأنظمة أو تنقصها الإمكانيات المادية، أقول عن لبنان لأن المواطن اللبناني انفعل بالثورة الفلسطينية المسلحة ومازال يعجب وينفعل مع ثورة الحجارة رغم كل المآسي المحيطة به،إلا أنه أغرق بالمشاكل حتى بات البقاء على قيد الحياة هو نوع من البطولة والصمود،وهناك شيء لابُدَّ من الاعتراف به لأنه يغفل إما قصداً أم صدفة، أو لأننا منهمكين في صراعنا نحن أيضاً مع إسرائيل، هو دور وتأثير الكفاح المسلح الفلسطيني على اللبناني الذي تعلم وسيلة وتكنيك المقاومة وتضييق الخناق على العدو الإسرائيلي الذي يحتل جزءاً كبيراً من الجنوب،

وكان هناك تفاعل مباشر، ولكن أيضاً صادقين لأننا نتكلم من باب الالتزام والمحبة والتقدير كانت هناك أخطاء ولكن هناك أيضاً ممارسات أدت الى نقل البندقية بعد أن غادر الفلسطينيون الأراضي اللبنانية، بحيث تكلمت البندقية اللبنانية وصاحت هي بدورها ضد اسرائيل، هذا الأمر مهم جداً وهذا ما لفت إليه الانتباه في رواية «جسر الحجر» كيف تم التلاحم ثم اختلف الرأي والهدف لأن لكل نضال معطياته وتأثيراته وإستراتيجيته، فاللبناني اختلف عن الفلسطيني في الأسلوب وليس الجوهر وهذا واضح في روايتي

تلك؟ . . ولكنني أؤمن بتحريك المشاعر العربية من هذا السبات من هذا الإحباط من هذا الغرق في الملذات وفي الركض وراء لقمة العيش.هناك دائماً لحظة أو ساعة في النهار يمكن أن يبذلها الإنسان لأهدافه الوطنية، لكي نستجلب هؤلاء الناس يجب أن نصل إليهم، إمّا كما تفضلت عبر الصورة عن الحدث اليوم لانتفاضة الأرض المحتلة، وأن يقوم كلّ من مكانه في جهد تجاه هذه الانتفاضة كما حصل في لبنان مثلاً مع جريدة السفير قامت بحملة تبرعات للانتفاضة، وكان ريع كتابي «قدمته للانتفاضة» وهو ليس مبلغاً مهماً ولكن رمزياً وشعوراً مني بالعطاء وفي أي جانب أستطيع أن أعطي به لثورة الحجارة. في جانب آخر، الأدب مهم لتحريك الناس، وللفت نظر الناس ومهم جداً لذاكرة الناس لأنه جيل بعد جيل ننسى، مثل اليوم مثلاً ننسى ماذا حدث سنة ١٩٣٦، أو قبلها، منذ العام ١٩١٩ هناك نضال فلسطيني والكلام السائد لليوم بطبيعة الحال أقل من قبل،،

فمثلاً عندما أصدرت كتاب شهداء فلسطين الأحياء، كان في تلك المرحلة تعبيراً عن الواقع الفلسطيني وحقائقة وما الذي حصل معه لا كما يقال من قبل البعض أن الفلسطيني باع أرضه ورحل. . . وهكذا لكل مرحلة أحداثها ووقائعها التي يجب أن توضح وتوثق ويعلن عن خلفياتها وآفاقها في المستقبل،

فالمثقفون العرب ليسوا مثقفين بقدر ماهي الناس في الارض المحتلة مناضلة، هذه مشكلة المجتمع العربي ولو كانوا مناضلين كما هم أطفال الحجارة لكانوا أعطوا ثورة الحجارة أكثر مما أعطوها حتى الآن، وكما قلت عندما أقرأ الصحف على الأقل لا أقرأ ما يهزني، أنا أهتز بيني وبين نفسي وأهتز بما أشاهده على التلفزيون أكثر من الكتابة التي تملأ الصفحات، ليس المهم عنوان ثورة الحجارة، المهم هو عمل شيء ملموس لثورة الحجارة، أو الكتابة بشيء يثير الالتزام ليساعد ثورة الحجارة، وهذا بالطبع يعني أن المثقفين العرب مقصرون وأنا منهم، فأنا لم أكتب عن ثورة الحجارة لأسباب خاصة بي، ربما إحباط أو حالة سياسية، إنما على الأقل أعترف بأنني مقصرة.

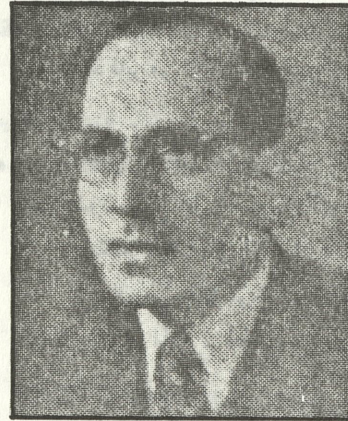
● **الكاتب ـ لو أردت الآن كتابة رواية عن الانتفاضة من أي جانب قد تتناولينها؟**

ـ ليلى عسيران ـ قبل أن أجيب أقول أنه علي أن أقرأ أكثر وبتعمق عن ظاهرة الانتفاضة وأسمع عنها أكثر، لأنني لا أكتب مقالاً سياسياً، لأنني سأكتب أدباً، وممكن أن أتخيل الى حد ما ولكن هذا النوع من الكتابة يجب أن يسلسل هذه البادرة الخارقة بتفاصيل أكثر، والدخول إلى الأعماق والتحسس في البيئة، وإظهار الضغط الصهيوني على شعبنا في الأرض المحتلة، والمحافظة على الشخصية الفلسطينية التي انطلقت عبر أطفال،،

وهذه الثورة هي استكمال لنضال الشعب الفلسطيني ولكن الظروف الحياتية أتصور في ظل الاحتلال الاسرائيلي أمر من الصعب تخيله لأنني لم أعش تحت الاحتلال الإسرائيلي،

وصلت إلى حدوده، وشاهدت ماذا يفعله في الجنوب، عشت على مقربة ثلاثة كيلومترات في الأغوار ولكنني كنت محصنة بوجود الفدائيين الى جانبي،

ذكرياتي مع فايز علي الغول ١٩١٥ ـ ١٩٧٢/٣/٣



نصري الجوزي*

ولد فايز في قرية سلوان إحدى ضواحي بيت المقدس وتلقى علومه الثانوية في كلية روضة المعارف عام ١٩٣١. تسنى له ان يتوظف براتب جيد ولكن والده العامل ومتعهد البناء أبى عليه ذلك، وأراده ان يتم دراسته رغم ضيق الأحوال في تلك الأيام.

وفي سنة ١٩٣١ قصد مدينة القاهرة، وانضم إلى الأزهر الشريف، وقضى فيه سنة كاملة أظهر فيها جداً واجتهاداً ونشاطاً، وحاز خلالها على شهادة الأهلية العلمية للغرباء والأولوية النظامية للمصريين. ثم تحول إلى دار العلوم العليا قضى فيها سنوات أربع يحمل شهادتها العلمية المعروفة.ثم عاد إلى فلسطين ليزاول مهنة التعليم التي أحبها وكرّس جلّ أوقاته في سبيل تعزيز اللغة العربية وآدابها،وبذل الجهود الجبارة لتسهيل اللغة العربية للطلاب وتحبيبهاإليهم، لأنها لغة الآباء والأجداد، لغة القران الكريم.

* من رواد ادب المسرح الفلسطيني.

كانت أول معرفتي به في أواخر الثلاثينات في كلية «الأمة» لمؤسسها شكري حرامي الذي اختلف مع زملائه في كلية النهضة لمؤسسيها: خليل السكاكيني - شكري حرامي - لبيب غلمية - وابراهيم شحادة الخوري.

تقع «مدرسة الأمة أو كلية الأمة في حي البقعة الفوقا، وكانت في أوائل تأسيسها ١٩٣٨، وضمت وقتئذ عدداً من المدرسين المعروفين ياسين الخالدي، عبد الجبار محمد، فايز الغول، نصري الجوزي. وكان مدير المدرسة شكري حرامي يقوم بتدريس مادة التاريخ المختص بها.

كان فائز رحمه الله - من أعز أصدقائي، نتبادل الزيارات ونقيم الحفلات. وقد تعرفت على والده تغمده الله برحمته، ذلك العصامي الذي بذل ما بوسعه لتعليم أولاده فايز ومحمود وموسى، وقد أصبحوا أعلاماً في عالم الأدب والعلم.

عاد فايز من القاهرة متحمساً يريد أن ينقل معلوماته اللغوية إلى طلابه. تقاسمت وإياه دروس اللغة العربية.

وأذكر أنه ظل يعلم طلاب الصف السابع الإبتدائي مواضع تقديم المبتدأ على الخبر، والخبر على المبتدأ بدون شرح على السبورة (اللوح) وبدون تقديم أمثلة على ذلك.

«يتقدم المبتدأ على الخبر في خمسة مواضع. أولاً - ثانياً - ثالثاً - رابعاً - خامساً.

شهران مرّا وفايز يريد أن يحفظ طلابه مواضع تقديم المبتدأ والخبر فلم يفلح. وأخيراً تقدم الطلاب بالشكوى إلى المدير، فطلب من ياسين الخالدي وعبد الجبار محمد ونصري الجوزي أن يحضروا درساً ويقدموا تقريراً:

ومن ذلك الوقت توثقت عرى الصداقة بيني وبينه وقدمت له كتاب «النحو الواضح» وفيه من الأمثلة ما يغني الطلاب ويبصرهم بقواعد اللغة العربية.

وأشهد ان فائز كان من أذكى الرجال وأسرعهم إلى التأقلم، ولم يمض إلا وقت قليل حتى أسر قلوب طلابه، وأفادهم إفادات كثيرة، وحبب إليهم لغة الآباء والأجداد، وترك الأساليب القديمة التي تعلمها في الأزهر الشريف ودار العلوم وأصبح مدرساً منطلقاً محبوباً.

ومن نوادر فائز انه كان يتكلم مع أفراد عائلته - عدا الطلاب - اللغة العربية.

وذات يوم وكان ذلك في داره في سلوان، كان جالساً يقرأ بعض القصائد بصوت عالٍ. وإذ يصيبه مغص حاد فيتحمله ثم يزداد هذا الألم ازدياداً شديداً، فراح يصرخ منادياً زوجته التي كانت في غرفة سفلية «الغوثَ. الغوثَ»

ولما لم تلب نداءه صرخ بصوت أعلى: «المعونة. المعونة».

فظنت زوجته أنه يقرأ قصيدة.

وإذا به يصرخ للمرة الثالثة:

«إليّ إليّ».

فلم تعره زوجته انتباهاً فناداها باسمها صَارخا: «ولكِ راح أموت. الحقيني».

فقالت زوجته.

إحكِ بالعربي من زمان».

وأتذكر انه كان يكلم كريمته «هالة» باللغة العربية الفصحى حتى تتقنها. وأين هالة اليوم وقد رباها تربية عربية قومية؟.

وفي عام ١٩٤١ التحق بمعارف فلسطين وعين مدرساً في المدرسة الأميرية بحيفا ثم في الكلية الرشيدية بالقدس من عام ١٩٤٢ - ١٩٤٨ أيام النكبة الأولى ولا يفوتني أن أذكر أن فايزاً ومحموداً وموسى اشتركوا في الدفاع عن القدس وأبلوا بلاء حسناً في سبيل الحفاظ على فلسطين عربية.

وبعد النكبة درّس في العراق مدة ٥ سنوات ثم استقر في الأردن عام ١٩٥٣ وعمل في دار المعلمين مديراً ومعلماً ثم نُقِلَ مديراً للتربية والتعليم في محافظة نابلس ومديراً للتعليم في وزارة التربية ومستشاراً ثقافياً في السفارة الأردنية في (أنقرة) بتركيا. وأحيل على التقاعد في مطلع نيسان ١٩٧١.

امتاز فايز بإخلاصه لأصدقائه ووداده لهم والمحافظة على الصلة بهم كما كان مخلصا للتعليم والطلاب وبذل الجهود في تقديم الكتاب السهل الممتنع الذي يفي بحاجات الطلاب عامة. وله في هذا الباب جهود جبارة تخلد ذكراه.

من آثاره القلمية:

١ - العروض السهل (ج١) بالاشتراك مع الدكتور موسى الحسيني ١٩٤٥ (ج٢) ١٩٤٧.
٢ - الوافي في تاريخ الأدب (في ثلاثة أجزاء بالاشتراك مع الاستاذين على حسن عودة وعبد الرحمن الكيالي: طبع عام ١٩٥١ وطبع عام ١٩٥٢.
٣ - النصوص الأدبية (في خمسة أجزاء) بالاشتراك مع سماحة الشيخ ابراهيم القطان والأساتذة على حسن عوده وعيسى عطا الله وحكمة لبادة والدكتور سيف الدين زيد الكيلاني - طبع عام ١٩٥٤.
٤ - القواعد الوافية (في أربعة أجزاء) بالاشتراك مع سماحة الشيخ ابراهيم القطان والأستاذين على حسن عودة وعيس عطا الله. طبع عام ١٩٥٤ وطبع عام ١٩٥٥.
٥ - الأساس في التربية الوطنية - بالاشتراك مع الأستاذين ذوقان الهنداوي وموسى الغول. طبع عام ١٩٥٥ وطبع عام ١٩٥٦.
٦ - فن التلخيص - طبع عام ١٩٥٦.
٧ - الثقافة المكتبية - بالاشتراك مع الدكتور كايد عبد الحق. طبع عام ١٩٦٤.
٨ - الدنيا حكايات (ظهر منها ثلاثة كتب وهي قصص شعبية بأسلوب عربي متين) طبع عام ١٩٥٦.
٩ - من أساطير بلادي - طبع عام ١٩٦٦.
١٠ - من سواليف السلف - طبع عام ١٩٦٦.
١١ - اللغة العربية (في ثلاثة أجزاء للصفوف الاعدادية) بالاشتراك مع الأساتذة راضي عبد الهادي، وهيب

البيطار ـ محمود سيف الدين الايراني ـ عبد الجبار الفقيه ـ طبع عام ١٩٦٨ .

١٢ ـ القراءة المصورة (كتاب معه دليله لمرحلة ما قبل القراءة) بالاشتراك مع الأساتذة: أمين فارس ملحس، تيسير البسطامي، ياسين بصيلة، فهيم جبور ـ طبع عام ١٩٦٦ .

١٣ ـ اللغة العربية في جزأين للصفين الخامس والسادس الابتدائيين) بالاشتراك مع الأساتذة: وهيب البيطار، عبد الجبار الفقيه، تيسير البسطامي ـ طبع عام ١٩٦٨ .

١٤ ـ الجديد المعدل (وهو تعديل للكتب الأربعة التي وضعها المربي المرحوم خليل السكاكيني) بالاشتراك مع: أمين فارس ملحس، تيسير البسطامي، ياسين بصيلة، فهيم جبور ـ طبع عام ١٩٦٩ .

أسلوبه:

نقلاً عن «الدنيا حكايات» ص ٢٢ و٢٣ كان لأحد القروين ولدان اسم الكبير سالم، واسم الصغير سويلم انشأهما على عادة اهل القرى من حب الارض وخدمتها بشؤون الفلاحة. فلما توفي خلف، لهما أرضاً طويلة عريضة، فقسماها بينهما وشرعا يزرعان. ويعيش كل منهما على نتاج أرضه كما يعيش أهل قريتهما.

ومرت ثلاثة اعوام كانت أرض سالم خلالها تخصب وتعطي بكل قنطار من البذار ثلاثين قنطاراً. اما أرض سويلم فكانت تجدب. فراح سويلم إلى أخيه سالم وطالبه بإعادة القسمة، وكان سالم طيب القلب فأجابه وخيره، فاختار أرض سالم وتبادلا، ومرت ثلاث سنوات اخرى وزرع سالم يمرع ويخصب ويعطي بكل قنطار خمسين قنطاراً، وزرع سويلم لا يكاد يجمع بذاره. فتحير سويلم من هذا واغتاظ ورجع الى أخيه يطالبه باعادة النظر في قسمة الأرض. وكان سالم طيب القلب، فقال له، اسمع يا اخي، سأجعل البذار هذا العام من غلتي، وأحرث أنا الأرض جميعها ثم اترك لك الخيار في أخذ أي النصفين بعد اسبوع من نبت الزرع، على شرط أن لا تأكل من زرعي ولا آكل من زرعك، فرضي سويلم بهذا الاقتراح وتم تنفيذه كما اتفقا، ولما برز الزرع وحان موعد القسمة بدا لسويلم ان يقسم الأرض بالطول حتى يأخذ نصف ما كان له ونصف ما كان لأخية، وإطمأن باله لذلك، فلما رجع للأرض بعد أربعة أشهر، وجد قمحه لا يبلغ طول شبر وقمح أخيه يزيد عن مترين، فعجب كل العجب، وتبلد ذهنه، فمشى في زرع أخيه ناسياً ما اتفقا عليه ومد يده ليقطف سنبلة قمح فامتدت يد لتتمنعه من ذلك. نظر فوجد فارساً يشبه أخاه أشد الشبه ولكنه يبدو كالشبح، فسأله: «من أنت حتى تمنعني مال أخي»؟ فقال: «اذكر اتفاقكما على أن لا تمس زرعه، أنا أمنعك لأني حظ أخيك». فقال سويلم: وأين حظي أنا؟ قال: حظك نائم في مغارة كذا من أرض كذا على مسيرة شهر من هنا». فقال: من أجل هذا أتعثر دائماً ولا ينجح لي عمل أو مسعى، لأن حظي نائم. سأذهب لأوقظه». . الخ

فايز علي الغول إنسان خلوق، مهذب، صدوق، وفي لأقربائه وأصدقائه وطلابه وللإنسانية، يبتعد عن الشر، يحب اللغة العربية حباً لا يتصوره عقل، يتمسك بالتعاليم الإسلامية والمبادىء الإسلامية، لا

يحمل حقداً لأحد إلاّ لشذاذ الآفاق الذين احتلوا بلادنا الحبيبة وشردونا في جميع بقاع الأرض.

فايز ابن قرية سلوان أثرى، هو وشقيقاه، محمود والأستاذ موسى، أثروا المكتبة العربية بمؤلفاتهم، وأسهموا إسهاماً فعالاً في تعزيز اللغة العربية ـ لغة الآباء والأجداد.

ومن رسائله إلى صاحب المقال:

ثانوية بعقوبة ـ لواء ديالي ـ العراق.

١٩٥١/٩/١٠

أخي وعزيزي نصري لا عدمته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فقد باعدت بيننا الأيام بعد التئام جمع، وزعزعتنا الحوادث الجسام فما التأم لنا صدع، وتفرق الإخوان ـ كما قيل ـ أيدي سبا ـ فما سمع أحد عن أخيه من نبأ، فكنت في الشام وصرت أنا إلى العراق ثلاث سنين عجافا كسني يوسف ـ ثم عدت هذا العام الى الوطن نجدد العهد بتربته الغالية، ونذكر الأطفال به كيلا ينسيهم إياه طول الغياب وما عرفوه إلا قليلا صغارا فإذا الأرض قد اغبرّ وجهها، وتغير أهلوها وفسد ساكنوها وشاهت أفعالهم كما شاهت وجوههم. حالة تبعث في النفس الكرب وتجرح في القلب جراحات عميقة، وما ظنك بشعب كان من أوثق الناس بنيانا خلقيا واجتماعيا فتهدم الأول وتفسخ الثاني حتى كأنه يريد أن ينقض ولا احد يرنو الى إعماره، ولا من يتطلع إلى إقامته، وبنوه لا يلقون تشجيعاً على العمل، فإذا طلب أحدهم إنصافاً ليم على الطلب، وعيب عليه أن لا يكون مضحياً وبَمَ يضحي؟ أبكرامته أم بقوت أطفاله؟ الخ.

هذه شذرات من نفسه المتوثبة المتطلعة إلى الحياة الأفضل، إلى الحرية، إلى الإنسان المثالي الذي يعمل من أجل المجهود، ويبذل المستحيل في أن يرى بلاده في القمه وأبناء بلاده يتحلون بكل نبيل وصالح ورفيع.

تغمد الله تلك الروح الطاهرة وأسكنها فسيح جناته.

١٩٨٨/١١/٣

نتائج المؤتمر العاشر للكتاب التونسيين

اتحاد الكتاب التونسيين يعقد مؤتمره، وينتخب هيئته الجديدة ويواصل نضاله من أجل الديمقراطية وإلغاء الرقابة.

والكاتب اذ تهنىء الاخوة التونسيين بما أنجزوه تنشر ما أتيح من وثائق تتعلق بذلك:

التقرير الاول

لائحة عامة صادر عن المؤتمر العاشر لاتحاد الكتاب التونسيين

١٩٨٩/١٢/٢٤

نحن اعضاء اتحاد الكتاب التونسيين، المجتمعين في مؤتمرنا العاشر المنعقد بدار الثقافة ابن خلدون يوم ٢٤/ ديسمبر/١٩٨٩.

انطلاقاً من الدور الفكري والحضاري الذي يقوم به الادباء والمثقفون في مجتمعاتهم من أجل حماية الحريات الفردية والعامة ومبادىء حقوق الانسان وخاصة حرية التفكير والتعبير والمعتقد،

واعتباراً للظرف الدقيق الذي يمر به مجتمعنا التونسي اليوم والذي يحتم علينا جميعاً النضال من أجل تركيز أسس المجتمع المدني ونشر قيم العقلانية والتقدم، وانطلاقا من حرصنا على ان يكون لاتحادنا دوره الفعّال في مختلف القضايا الحيوية المطروحة نعلن:

١ ـ تمسكنا المبدئي بالذود عن الحريات الفردية والعامة وخاصة منها حرية الابداع والتعبير والنشر، نطالب في هذا الصدد بعدم اخضاع الانتاج الادبي والفني لأية رقابة أو قانون مثل قانون الصحافة الذي ندعو بالمناسبة الى تحويره لما يتضمنه من طابع زجري يتنافى مع ما ضمنه دستور البلاد من حريات.

٢ ـ نطالب بضرورة الافراج عن الكتب والآثار الفنية المحجوزة والتخلّي نهائيا عن كل اشكال الرقابة التي تشوهها أو المصادرة التي تلغيها وإيقاف كل التتبعات العدلية الجارية ضد بعض الكتاب والصحفيين.

٣ ـ نعبر عن رفضنا لكافة اشكال الوصاية وتكفير التفكير واخضاع الاعمال الادبية والفنية والفكرية الى أي مرجعية اخرى غير مرجعية الابداع ونتمسك بضرورة تعميق روح التسامح واحترام حق الاختلاف.

٤ ـ ندعو الى ضرورة اعادة الاعتبار الى الثقافة والمثقفين عبر منظماتهم المتمثلة في كل ما يهم حاضر البلاد ومستقبلها وذلك:

أ ـ بتشريكهم في الهيئات الاستشارية الوطنية مثل المجلس الاعلى للتربية والمجلس الاعلى للثقافة والمجلس الاقتصادي والاجتماعي.

ب ـ باعطاء المنزلة الاولى للأدب التونسي في الانتاج الاعلامي خاصة بالاذاعة والتلفزة وفي البرامج التعليمية، على أسس الجودة الفنية والاستنارة الفكرية والعمل على توزيعه والتعريف به داخل الوطن وخارجه وتطبيق القوانين المدعمة لذلك.

ج ـ دعم قانون الملكية الادبية والفنية وتطبيقه في اوسع مجالات الانتاج والنشر والتوزيع، ودعوة الكتاب الى الانخراط بالجمعية التونسية للمؤلفين والملحنين.

د ـ احياء صندوق التنمية الثقافية وتنمية موارده وتنشيط دخله على اسس عادلة ومقاييس موضوعية.

٥ ـ نعبّر عن تضامننا مع كافة الكتاب والفنانين المضطهدين والمناضلين من أجل الحرية في كافة انحاء العالم وخاصة في فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا.

كما نعبر عن مؤازرتنا التامة لكل الشعوب المناضلة في سبيل التحرر الوطني والاجتماعي.

الهيئة الجديدة لاتحاد الكتاب التونسيين

- العروسي المطوري: رئيس
- الميداني بن صالح: نائب رئيس
- سوف عبيد: كاتب عام.
- أبو زيان السعدي: كاتب عام مساعد
- الهاشمي بلوزة: أمين مال
- نور الدين بن بلقاسم: أمين مال مساعد
- جلول عزونة: العلاقات الخارجية.
- التابعي الاخضر: النوادي والفروع
- سمير العيادي: الندوات والدراسات.
- عبد الحميد خريف: النشر والاعلام.

عريضة لا لقمع الانتاجات المهنية والإبداعية

ان شعار السلطة المتضمن «لا لثقافة التهميش ولا لتهميش الثقافة» يصبح محل طعن في وضع تقمع فيه الانتاجات الابداعية والفنية.

ان قضية الكتاب القصصي لزميلنا حسن بن عثمان، اضافة الى انها تندرج في اجراءات قمع الفكر والادب، فان وقائعها تدعو الى الاستغراب الشديد. . هذا وفي أذهاننا ما يتعرض له شريط نوري بوزيد من مساومات وعراقيل، وكذلك كتاب عبد الرحمن عبيد وهشام القروي وقضية الاساتذة سليم دولة وزياد كريشان وعمر صحابو نطالب بالحاح أن تكون شعارات الدولة في الحرية والديمقراطية ذات مضمون وذات مصداقية، ومقياسنا الوحيد على ذلك الافراج عن كل الاعمال الابداعية المحجوزة والمخنوقة والممنوعة، وأن ترفع السلطة يدها نهائياً، وتطلق سلطة النقد الكفيل وحده بتقييم الانتاج الثقافي والفني.

ونؤكد ما جاء في تقرير الاتحاد، من أن لا رقيب على الكاتب إلا ضميره وشعوره بالمسؤولية، وليس لأية جهة الحق في تقييم الانتاج الادبي والفكري والفني من خارج اهل الاختصاص المؤهلين لذلك؟

ـ الجيلاني بن محمد ـ عمر بن سالم ـ سوف عبيد ـ مصطفى التواتي ـ المرادي فروج ـ راجح القفصي ـ التبعي الاخضر ـ عبد الرزاق نزار ـ أبو

زيان السعدي ـ ريم العيساوي ـ مصطفى الكيلاني ـ التهامي الهاني ـ جلول عزونة ـ كمال قداوين ـ محمد البشير الشريف ـ عبد العزيز فاخت ـ على شلفوح ـ محمد عبد الهادي ـ الفطناسي ـ علي الخميلي ـ الميداني بن صالح ـ سويلمي بو جمعة ـ ساسي حمام ـ أولاد احمد ـ الهادي الزريبي ـ نعيمة الصيد ـ الشاذلي السايح ـ محمد الخموسي الحناشي ـ رفيق الفضلاوي ـ حسن النوري ـ حياة بن الشيخ ـنور الدين بن بلقاسم ـ عبد الوهاب الفقيه رمضان ـ علي سعد الله ـ ابراهيم بن مولد ـ بشير البكوش ـ الناصر التونسي ـ محمد الطاهر الحضري ـ محمد الامين الشريف ـ محمد الهاشمي بلوزة ـ محفوظ الزعيبي ـ عبد الادر اللطيف ـ شكري بن حسن ـ زهرة الجلاصي ـ هند عزوز ـ بنت البحر ـ أحمد السماوي ـ الأزهر النفطي ـ الطيب الفقيه ـ العربي المعلمي ـ علي ديب ـ عبد الحميد خريف ـ الصادق شريف ـ سالم الشعباني ـ فاطمة سليم ـ شكري لطيف ـ حياة الرايس ـ محمد عمار شعانية ـ محمد الطوبي ـ رضا الملولي.

التقرير الثاني

لجنة الدفاع عن حرية الابداع

اعتبارا لقداسة حرية الابداع في اي مجتمع. ودوره المحوري في بلورة الحريات، واعتباراً لما تعرض ويتعرض له المبدعون في تونس من حد لهذه الحرية الاساسية، ونظرا لخطورة الرقابة على تمتع المجتمع بجل الحريات التي يضمنها الدستور التونسي والمواثيق العالمية لحقوق الانسان، وخاصة الفصل التاسع عشر من الاعلان العالمي لحقوق الانسان.

فان المؤسسات الوطنية التالية:

الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الانسان، واتحاد الكتاب التونسيين، وجمعية الصحافيين التونسيين، واتحاد السينمائيين التونسيين، تعلن عن تأسيس لجنة مشتركة في اطار مواثيقها هي لجنة تدعيم حرية الابداع والنشر، ومتابعة قرارات الرقابة، وهي مفتوحة لتنظيمات المبدعين ووجوه ثقافية معروفة بنضالها من أجل حرية الفكر والابداع. وحددت لها هدفاً عاماً هو العمل بكل الوسائل على الغاء كل اصناف الرقابة، من بلادنا في اقرب الاجال، كما رسمت لها خطة عمل تركز على المحاور التالية:

١ ـ تعريف المواطنين بهياكل الرقابة، وبطرق عملها، حتى لا تواصل عملها في العتمة، وانما تحت الاضواء.

٢ ـ تبني الدفاع عن كل الاعمال الفكرية والادبية والفنية والصحفية التي تتعرض للمصادرة والحجز والمنع بأي سبب من الاسباب السياسية منها أو العقائدية.

٣ ـ تحسيس كل مؤسسات المجتمع المدني بأهمية القضية، والعمل على خلق رأي عام مناهض لاجواء الرقابة تمهيداً لالغائها.

وتتكون هذه اللجنة من:

١ ـ ممثل الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الانسان د. المنصف المرزوقي.

٢ ـ ممثلة جمعية الصحافين التونسيين: رشيدة النيفر.

٣ ـ ممثل اتحاد الكتاب: جلول عزونة.

٤ ـ ممثل جمعية السينمائيين التونسيين: منصف ذويب.

٥ ـ ممثل الجامعة التونسية لنوادي السينما: فتحي العوادي

٦ ـ ممثل اتحاد الممثلين التونسيين: منصف السويسي.

٧ ـ ممثل الجامعة التونسية للسينمائيين الهواة: محمد علي العسلي.

التقرير الثالث

مصر وتحديات التسعينات

● آمال سعد متولي

عبر ثلاثة أيام، شهدت القاهرة المؤتمر السنوي الثالث للبحوث السياسية، عقد في الفترة ٢ ـ ٤ ديسمبر ١٩٨٩، تحت عنوان: «مصر وتحديات التسعينات».

فقد أصبح هذا المؤتمر الذي يدعو لإقامة مركز البحوث والدراسات السياسية، بالتعاون مع كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، أحد المعالم الأساسية للحياة السياسية والفكرية المصرية.

وموضوعه هذا العام ينصب على استشراف المستقبل، والكشف عما يأتي به عقد قادم لعبور عنق الزجاجة، واستقبال القرن الحادي والعشرين.

* ولكن هل نجحت هذه المحاولة؟

ـ هذا ما سيكشف عنه عرض وقائع المؤتمر.

برنامج المؤتمر وخطته:

تقوم فكرة المؤتمر على المزاوجة بين الرؤية النظرية من خلال إسهامات الاكاديميين، والرؤية التطبيقية من خلال الواقع، والممارسة من خلال تعقيب بعض الخبراء والمتخصصين على الدراسات المقدمة، وتضمنت أعمال المؤتمر مناقشة ١٣ دراسة، نوقشت في ثماني جلسات، بالإضافة إلى الجلسة الافتتاحية.

وإلى جانب حلقات البحث، أقيمت ثلاث أمسيات فكرية، تحدث فيها على التوالي:

د. أحمد كمال ابو المجد، محمد سيد أحمد، أحمد بهاء الدين.

تابع أعمال المؤتمر، إلى جانب المفكرين، بعض رؤساء الأحزاب، وبعض رؤساء تحرير الصحف المصرية، بالإضافة إلى مشاركة بعض من المفكرين من بعض الدول العربية. إذ حضر «كمال الصوراني» (فلسطين)، د. شفيق السمرائي - د. سعد ناجي عواد (العراق).

أما أهم الموضوعات الأساسية التي ناقشها المؤتمر فهي: التطور الديمقراطي في مصر قضايا الأمن القومي، العنف السياسي، التنمية الاقتصادية، مصر والنظام الإقليمي العربي، مصر والقوى العظمى.

أولاً: الديمقراطية في مصر:

بدأت أعمال المؤتمر بالجلسة الافتتاحية، والتي حضرها د. عاطف صدقي رئيس الوزراء، والذي قدم خطة وزارته في المرحلة المقبلة.. وإن كانت تتميز بالعمومية، ولا تعبر عن خصوصية اللقاء.

وفي الجلسة الثانية نوقشت دراسة د. أحمد عبد الله، وهي تحت عنوان: باقٍ من الزمن عشر سنوات: التطور الديمقراطي في مصر عشية القرن الحادي والعشرين، وجاء التعقيب عليه من ممثلي ثلاثة تيارات، من التيارات الموجودة على الساحة المصرية، وهم: د. حسام عيسى ممثلاً للتيار الناصري، د. عبد العزيز محمد «محام» ممثلاً لحزب الوفد، ود. محمد العوا (جامعة الزقازيق) ممثلاً للتيار الاسلامي. ولعل هذه التعقيبات تمثل إنجازاً للمؤتمر، بما قدمه من رؤى سياسية للقوى الموجودة على الساحة، منها ما هو ممثل بأحزاب (كالوفد)، وما هو محجوب عن الشرعية كالتيار الناصري. ورأس الجلسة «السيد يسن» مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

١ - يمكن إجمال رؤية د. أحمد عبد الله، في أنه قدم توصيفاً للحالة الديمقراطية في الفترة القادمة، من خلال استعراض خلفية تاريخية للتطور الديمقراطي في مصر في الفترة القادمة، على أساس أن أي تصوير للمستقبل، لابد وأن يستمد جذوره من الماضي.

ويرى أن مصر دائماً كانت تعيش زمانها، فقد كانت ليبرالية، في وقت كانت فيه الليبرالية تسود العالم، وهي الفترة (١٩٢٣ - ١٩٥٠). وكانت اشتراكية حيث كانت الاشتراكية هي السائدة، ويرى أن الحالة المصرية الحالية تقف موقف الوسطية بين الاستبدادية والليبرالية، فهي لم تعرف الليبرالية الشكلية أو الليبرالية الواسعة، بل عرفت ليبرالية المابين بين.

وفي خلال العقد القادم فإن هناك خمسة معوقات للتطور الديمقراطي:

يقول «د. عبد الله»: (الأزمة الاقتصادية، تركيب هيكل جهاز الدولة، ودور الصفوة المصرية، واللامبالاة الشعبية، ثم العنف السياسي).

أما قوى الدفع الديمقراطي في رأيه فهي: خمسة عوامل أيضاً أولها: التغير في الإطار الدولي والمد العالمي للديمقراطية، الثاني العامل الدولي الاقليمي (العربي والافريقي). أما الثالث فهو

الأزمة الاقتصادية، والتي كانت شكلت لديه جزءاً من المعوقات، فإنها أيضاً إحدى عوامل الدفع، وذلك بأن الديمقراطية يمكن أن تحقق التراضي بين الدولة والمجتمع، فيخفض ذلك من سخط الشعب من الأزمة الاقتصادية، أما العامل الرابع فهو الإنجاز السابق، أي المد الديمقراطي السابق، والذي سوف يشكل دفعة إلى الأمام، وأخيراً التعددية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وأثرها في دفع التطور الديمقراطي.

ويختم دراسته بأن الوضع الحالي الذي تعيشه مصر يشبه (الجاكته الضيقة). ولذلك فهناك أحد حلين إما أن نخلعها أو تنفجر. وبناء على هذا التصور لديه، فإن لحظة الذروة التي يتوقعها سوف تأخذ إما شكل المصادمة أو المصالحة. المصادمة، أي تنزل الجماهير إلى الشارع، وتقول نحن هنا، ولابد من تغيير، أو شكل المصالحة، أي يتدخل العقلاء لطرح المسألة الديمقراطية لحوار وطني واسع ويدخل الدستور والبرلمان في إطار تغييرات واسعة كتلك التي تحدث في البلدان الشرقية.

وأرجح (يقول الباحث) ان الصورتين سوف تشهدهما الساحة، أي يحدث ضغط الشارع، ثم يتنبه المسئولون.

ويستدرك، فيما يشبه الاعتذار، بأن ما قدمه لا يشكل حتمية، فقد يحدث شيء آخر وقد اثبتت التجربة أن التخمينات غير موجودة في التاريخ البشري، وما يحدث الآن لا يمكن توقعه قبل أشهر (يقصد تجربة البلدان الشرقية في أوربا). فالشعوب هي التي تفرض، ولا يوجد حتميات، وان كان هذا لا ينكر علينا حق الترجيحات وحق الأمل.

٢ - كان د. حسام عيسى أول المعقبين، وناقش بعض ما ذهب إليه الباحث، مثل الوسطية بين الديمقراطية والاستبداد، واتساق مصر مع زمانها، سواء الليبرالي أو الاشتراكي، وتساءل عما يقصده بالزمان والنخب، وديكتاتورية العسكريين، وديمقراطية المدنيين. ولذلك جاء تعقيبه أطول التعقيبات، مقارنةً بما جاء بعد ذلك، في إطار المؤتمر.

ففي شكل تساؤل بدأ بقوله: ما المقصود بالزمان؟ هل هو زمان الغربة المهيمنة؟ أم زمان العالم الثالث التابع؟ أم أن هنا زمان آخر مطلق يعلو على هذا الزمان التابع؟

ويرى أن زمان الايديولوجية مطلق، وزمان التاريخ نسبي، ومن ثم فهناك خلط لدي الباحث. فأوربا لم تكن تعيش عصر الليبرالية (أشار إلى ظهور الفاشية والنازية والأزمات التي عاشتها أوربا). فالفترة بين الحربين لم تكن ليبرالية، والوضع الذي تعيشه مصر الآن أكثر ليبرالية من هذه الفترة (٢٣- ١٩٥٠)، فإن ٧٥٪ من الشعب المصري كان غائباً عن الساحة، ليس السياسية ولكن الاجتماعية والاقتصادية. وكان يعيش على هامشه. ولم يكن في هذا النظام حرية صحافة. وإذا أخذنا هذه المعايير، فمصر تعيش الآن اعرق التجارب الليبرالية، حيث إن كل الشعب داخل الاطار القائم.

وناقش ما أطلق عليه د. عبد الله باللامبالاة الشعبية. وقال: من غير الصحيح أن الناس عادت إلى بيوتها، القضية من الذي عاد،

ومن الذي خرج. (وهو هنا يفجر قضية خطيرة، حيث يشهد المجتمع المصري حالة من إعادة توزيع الأدوار، وصعود مئات وشرائح اجتماعية وثقافية واقتصادية، وتواري أخرى سواء قصرا أو اختبارا).

أما الأزمة الاقتصادية، التي سبقت الإشارة اليها باعتبار ان لها دوراً مزدوجاً، فهي من جانب قد تشكل معيقاً للتطور الديمقراطي، وعامل دفع، فان د. عيسى يقول: إن القضية ليست أزمة اقتصادية، ولكنها نسبية التاريخ، وهذا ما يجعلنا نتساءل: لماذا يؤدي نفس الوضع في لحظة تاريخية إلى وضع، وفي لحظة أخرى إلى وضع مناقض (أدت الأزمة الاقتصادية إلى ظهور الفاشية، وأدت إلى الديمقراطية في دول أوروبا الشرقية)، ورفض مقولة العسكريين والمدنيين، وقال لابد من مناقشة أجهزة الدولة والصراع الدائر فيها، ومسألة الفرق بين توجهات الرئيس وتوجهات الدولة، وما هي طبيعة العلاقة بينهما.

أمّا قضية عجز الصفوة والتي أشارت اليها الدراسة السابقة، تساءل أيضاً د. حسام عيسى بقوله.. عن أية صفوة يتكلم الباحث؟ هل هي صفوة تضع نفسها فوق صراعات المجتمع، أو صراعات المجتمع والاحزاب معاً. ومع ذلك يلطمون الخدود خوفاً على الديمقراطية وينهشون الأحزاب، ويرى أن هذه الصفوة تمثل خطورة بالغة على الديمقراطية.

٣ - توقف د. محمد عبد العزيز أمام اللحظة القادمة التي أشار إليها الباحث في ختام دراسته (المصادمة - أو المصالحة، أو الاثنتين معاً)، وقال: انه لم يقدم حلاً، فالعنف والصدام يستدعي تصعيداً غير مطلوب، ولا نعرف حدوده. أمّا الحل الذي يقدمه المعقب فهو أن نتيح الفرصة لهذا الاحتقان لأن يعبر عن نفسه، وإتاحة الفرصة للتعديلات الدستورية - التي يدعو إليها حزبه -.

واتفق مع د. أحمد عبد الله فيما ذهب إليه، من أن التعددية القائمة تقوم على فكرة واحدية السلطة، حيث أن السلطة تدور حول محور واحد، هو شخص رئيس الجمهورية.

٤ - والتعقيب الأخير كان للدكتور «محمد العوا» ولعل ملاحظته الرئيسية هي أن الدراسة السابقة تجسد تبعية مصر لحركة المد العالمي. وهذا ما يرفضه المعقب والحل لديه يكون بانسجام البناء السياسي المصري مع احتياجات وظروف وبيئة المجتمع المصري، وتكونه العقائدي والثقافي..

ويرفض وصف اللامبالاة الشعبية، وضرب مثلاً بالاقبال الجماهيري على صناديق الانتخاب في بعض النوادي والنقابات ويتخذ هذا دليلاً على أن الجماهير تنتظر الفرصة للمشاركة.

ثانياً: العنف السياسي:

كان الموضوع الرئيس للجلسة الثالثة مناقشة الدراسة التي قدمها «حسنين توفيق» عن «العنف السياسي في مصر بين إمكانيات الاستيعاب واحتمالات المواجهة». رأس الجلسة د. علي عبد القادر، وعقب عليها د. عبد الباسط عبد المعطي.

١ - العنف السياسي ظاهرة مركبة - في رأي حسنين توفيق - ومن الصعب إرجاعها لسبب

واحد، وقد فرّق بين نوعين من العنف، عنف غير رسمي (أي ما يقوم به العمال الطلاب أو جماعات حزبية نقابية... الخ) عنف رسمي، أي ما تقوم به الأجهزة الرسمية. ويرى أن كل تيار سياسي، يتضمن في إطاره إمكانيات التطرف حينما تتوفر مسبباته.

أما الفئات التي يتوقع أن تقوم بالعنف في التسعينات، فهي إما القوى الاجتماعية المهمشة أو الشباب المتعطل عن العمل - من هنا تأتي خطورة مشكلة البطالة - وبالنسبة لظاهرة العنف الرسمي نجده يرصد الربط بين الإرهاب والجماعات الإسلامية، مما يترتب عليه العنف الرسمي بالقبض على هذه الفئات، كما أن النظام قد يعمد إلى تضخيم دور العامل الخارجي في إحداث العنف، بهدف تحويل انتباه الجماهير للاهتمامات الخارجية.. وتبرئة ساحته الداخلية، وكأن لا علاقة له ولسياساته بالعنف. هذا بالإضافة إلى أن النظام قد يعمد إلى توظيف اتهام بعض الدول والقوى الخارجية في اطار الاهتمامات السياسية. ومن ثم فإن الدراسة قدمت عدة اجراءات للحد من هذه الظاهرة، اجراءات قانونية، مثل إلغاء العمل بقانون الطوارىء، إلغاء القوانين الاستثنائية، احترام القضاء، وإجراءات سياسية، مثل إعادة تقييم دور الأحزاب والاتحادات والجمعيات والنقابات، وتمكين القوى الفاعلة في المجتمع من تكوين تنظيماتها الشرعية. إجراءات اقتصادية وإجتماعية مثل البحث عن حلول لمشكلة البطالة، وإعادة النظر في فلسفة المدن الجديدة.

٢ - إتفق د. عبد الباسط عبد المعطي مع معظم النقاط التي أشار اليها الباحث وأشار إلى أنه يلحظ غياب دور الفلاحين، أضاف إلى أن أحداث العنف المحدودة لا تعني استقرار النظام، ولكن تدل على أن هناك أساليب للصراع السلمي تتطلب دراستها.

٣ - بينما فسر د. علي عبد القادر غياب دور الفلاحين، نظراً لانخراطهم في أحداث العنف في إطار قوى أخرى. فالعناصر النشطة هاجرت للخارج أو للمدن، ومن ثَمّ فقد أصبحت مادة نشطة في المدن التي هاجرت اليها.

ثالثاً: تحديات الأمن القومي:

رأس الجلسة الرابعة لواء د. مختار هلودة، وتم مناقشة تحديات الأمن القومي المصري في التسعينات حيث عرضه لواء أ. ح - متقاعد - أحمد عبد الحليم، أمّا الموضوع الثاني فكان حول: «صناعة السلاح في مصر وتحديات التسعينات»، وقدمه د. نبيل ابراهيم، عقب عليها كل من لواء طلعت مسلم، ود. أحمد شوقي الحفني.

وقد أثارت هذه الجلسة العديد من النقاط الخلافية فيما يتعلق بأولويات الأمن القومي، وماهي مصادر التهديد، صناعة الأسلحة التقليدية أم الأسلحة النووية.

١ - ينحاز لواء «احمد عبد الحليم» الى مفهوم الأمن القومي الواسع، ومن ثم فإن التهديدات التي سوف تواجهها مصر في المرحلة المقبلة، وهي تهديدات خارجية، وأخرى داخلية. والتهديدات الخارجية، حسبما يشير (تداعيات الصراع الدولي

في المنطقة، الخطر الاسرائيلي، الانتشار النووي، والأطماع الإقليمية ومشكلة النيل، وانعكاسات الأوضاع الاقتصادية العالمية على الوضع في مصر).

أما التحديات الداخلية فهي متعددة وشاملة ما بين سياسية، واقتصادية، واجتماعية وعسكرية. فالتحديات السياسية، مثل ضعف المشاركة السياسية، تفشي أمراض البيروقراطية، التحديات الاقتصادية (البطالة، الديون، الفجوة الغذائية، اتساع الفجوة بين الأجور والأسعار) والتحديات العسكرية التي يشير اليها هي التحدي الاسرائيلي، التهديد الايراني. والحل لديه هو الاتفاق حول مصادر الخطر والتهديد. ولكي يتحقق الأمن القومي المصري، فيجب الاعداد الشامل للدولة، والتعاون الإقليمي والدولي، وبناء القوة العسكرية.

٢ - والتحدي العسكري مصدره اسرائيل، كما يراه د. نبيل ابراهيم، وتحدٍ اقتصادي نتيجة انشغال مصر في الحروب، وتحدٍ علمي تكنولوجي، وخاصة في مجالات تكنولوجيا الفضاء والهندسة الوراثية، والاتصالات الإلكترونية، وتكنولوجيا الحاسبات. ويقلل من قيمة ما تعلن اسرائيل عن تفوقها النووي ويعتبره نوعاً من أنواع الابتزاز.

ومن ثَمَّ فهو يدعو إلى تبني استراتيجية للصناعة الحربية، أساسها مواجهة تحديات الأمن القومي.

٣ - الرأي الآخر في مجال تحديات الأمن القومي، يقدمه د. أحمد شوقي الحفني، في تعقيبه، وهو مياه النيل وهي لا تقبل التلاعب، وهي ضمن التهديدات التي تعاني منها مصر، والتهديد الآخر هو الانكشاف المعلوماتي، لأن الدول تعمل جاهدة لجمع المعلومات عن الدول الأخرى حتى تسيطر عليها. ونحن في حالة انكشاف معلوماتي، لأننا في سبيل الحصول على المعونات، نقدم كل المعلومات التي تفيد بدورها في معرفة النوايا وتطويع الارادة.

وتأتي المشكلة التكنولوجية بعد ذلك، فالعالم في رأيه انتقل من الجيواستراتيجي إلى التكنواستراتيجي.

ولا تمثل إيران تهديداً للعالم العربي يجعلها تتساوى مع اسرائيل، ويختتم حديثه بقوله: «لابد من وصول النخبة الحاكمة إلى وضع استراتيجية تلقى قبول الأغلبية، بمعنى تراضي المواطن وإمكانياته، محذراً بقوله: «اذا تهلهلت الشبكة الاجتماعية، نتيجة عدم صياغة استراتيجية تخلق الإقناع، فسوف يحدث انفصال سياسي واجتماعي ومن ثَمَّ اختلال.

٤ - ولا تشكل اسرائيل تهديداً في رأي اللواء د. محمد رضا فوده، ومن ثم فلا يتوقع حرباً بينها وبين أية دولة عربية، مادامت لن تشكل تهديداً لها - ويرى أن مقولة التقدم النووي الاسرائيلي، ما هي الا ادعاء للابتزاز السياسي لا أكثر - يلاحظ أن رأيه هذا يختلف مع آراء أخرى سوف ترد في موقع آخر.

وما أشار اليه اللواء فوده، تداعيات ما يحدث في أوربا الشرقية، وتقارب أوربا الغربية، والذي يؤثر بدوره على المساعدات لدول العالم الثالث، ومنها مصر، وبالتالي فلابد من زيادة الإنتاج، أو زيادة التعاون مع الدول العربية، أو

فتح اسواق جديدة.

٥ - جاء الرأي التالي مباشرة، بأن أية تحولات في أوربا الشرقية وغيرها لا تعنينا - يقول د. جمال زهران - فالتهديد من «اسرائيل»، وهناك عودة العلاقات الاسرائيلية السوفيتية، والمطلوب عمل المحور العربي.

٦ - ولما كانت الآراء في مجال التصنيع ما بين أولوية التصنيع والتقدم في المجال العسكري، أو تغليب مشروعات التنمية لعدم القدرة على التصنيع العسكري، فإن د. هدى عبد الناصر ذكرت الحاضرين بقدرة مصر فيما سبق، ليس على صيانة السلاح بل وتطويره، بما يتناسب مع الحاجة المصرية، وضربت مثلاً بالهند التي صنعت السلاح وتفوقت فيه.

٧ - وحسماً لهذه الآراء أشار د. مختار هلوده في نهاية الجلسة، إلى عدم إمكانية تحديد أولوية مطلقة، الغذاء أم السلاح؟، ولكن لأية دولة في مراحل نموها، أن تضحي بجزء من احتياجاتها، وان تسير في خطواتها جنباً الى جنب، والمشكلة في رأيه ما هي السياسة التي تتبعها الدولة؟

رابعاً: القضايا الاقتصادية:

حول هذا الموضوع قُدِّمت دراستان: الاولى «تحدي التنمية»، وقدمتها د. منى البرادعي «المصاعب الاقتصادية المتوقعة» وعرضها د. عثمان محمد عثمان، وعقب عليهما د. جلال أمين و«أسامة الغزالي حرب».

١ - ومثلت المصاعب الاقتصادية في التسعينات، كما يراها د. عثمان محمد عثمان وهي: التضخم، البطالة، المديونية، ولن يتم حل هذه المشكلات في التسعينات، ولكن من الممكن ان تتفاقم حدة هذه المشكلات، ومن ثم فلتخفيف وطأتها، لابد من تكثيف النمو الاقتصادي.

٢ - على العكس لا ترى د. منى البرادعي أن هناك قلة موارد، بقدر ما هناك سوء توزيع وزيادة السكان ليست مشكلة، ولكن المشكلة في تركزهم على ٣,٥٪ من مساحة مصر، وهناك ١/٣ المياه في مصر يذهب هدراً، مما يؤكد على تدهور القطاع الزراعي. وتستمر على هذا القياس. وهي لذلك تقترح نمط تنمية بديلاً، يعتمد على تغيير هيكلي، يقوم على الحد من الإسراف في الموارد، ولما كان القرار في النهاية ليس بيد الاقتصاديين، ولكن بيد السياسيين، ومن ثَمَّ فهي تدعو إلى إحياء مفهوم الاقتصاد السياسي، كمدخل ملائم لدراسة التنمية الاقتصادية، لأن هناك حاجةً الى قرار سياسي يأخذ العوامل السياسية والاقتصادية في الاعتبار.

٣ - تركز تعقيب د. جلال أمين على دراسة د. منى البرادعي.. ويقول إن مصر لا تعاني من سوء استخدام الموارد، ولكن إمكانيات استغلالها.

ويدق ناقوس الخطر محذراً: لا يمكن أن ندخل عام ٢٠٠٠، ونحن محملون بنفس التركه التي حملناها في الثمانينات، وندخل بها في التسعينات، لقد كانت تركة الستينات أخف وطأة، ومديونية أقل، وجهازاً إنتاجياً فعالاً.

٤ - والتعقيب التالي قدمه «أسامه الغزالي حرب»، وإن كانت ملاحظاته منهجية في المقام الأول، عازفة عن الخطاب الاقتصادي انه يتسم

بالخلط بين الوسائل والأهداف، والأعراض والأمراض، كما يتسم بعدم الحسم، أي ذكر مزيد من التفاصيل، ومزيد من التحفظات، هذا يترتب عليه العجز عن تحديد الأولويات، وقد يرجع هذا الى أن مهمة الاقتصاديين وضع الخيارات ومهمة السياسيين وضع القرارات. بالإضافة إلى ذلك عمومية الحديث عن الطبقات الاجتماعية.

خامساً: المتغيرات الإقليمية والدولية:

كان الموضوع الرئيس للجلسات الثلاث الباقية، مناقشة التطورات الإقليمية في المنطقة العربية، وتداعيات التغيرات الدولية على السياسة المصرية.

ففي الجلسة السابعة، والتي رأسها د. أحمد صدقي الدجاني، تمت مناقشة القضايا العربية من خلال دراستين، لكل من وحيد عبد المجيد، ود. نيفين مسعد. وعقبل عليهما جميل مطر، ود. محمد السيد سعيد.

أما الجلسة الثامنة، فقد ناقشت «مصر والنظام الدولي».. ورأسها السفير «عمرو موسى»، وكان البحث الرئيس بها قدمته د. سلوى شعراوي جمعة وعقب عليها د. عبد المنعم سعيد.

أما الجلسة الأخيرة، فكانت عن مصر والقوى العظمى، ورأسها «حافظ اسماعيل»، ونوقشت دراسة كل من د. مصطفى علوي، د. نادية مصطفى، وكان التعقيب من كل من السفير «أشرف غربال» سفير مصر السابق بالولايات المتحدة الامريكية، ود. حسن نافعة.

وقد ارتبطت هذه الجلسات معاً بخيط واحد، وهو استغراقها في نفس الموضوع، حيث كان التغير في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية وأوروبا الموحدة عام ١٩٩٢ الموضوع الرئيس، ومن ثَمّ كان إدماجها تحت عنوان واحد ـ في هذا العرض ـ.

ويمكن ترجمة هذا الموضوع في سؤالين:

أولهما: ما أثر ما يحدث في اوربا الغربية واتجاهها نحو الوحدة عام ١٩٩٢، وفي أوربا الشرقية من تغيرات على الشرق الأوسط، والمنطقة العربية ككل؟

والسؤال الثاني: ما أثر اهتمام القوتين العظميين بهذه التغيرات على اهتمامها بالمنطقة العربية؟

١ ـ يعلق د. محمد السيد سعيد على ما ذكرته د. نيفين مسعد: إن النظام العربي بدون قيادة، وإن أحد التجمعات الاقليمية مرشح للقيادة بقوله: إن الاحتفال بالتكتلات العربية في غير محله، كما إن هذه التجمعات الاقليمية ليست الإطار المناسب للعلاقات العربية ـ ويتنبأ ـ بأنها في طريقها للأفول. أما عن قولها «إن النظام العربي بلا قيادة»، فإنه يمكن أن ينطبق على النصف الأول من الثمانينات، بينما في النصف الثاني، فإن للسعودية دوراً في ذلك. وقد شُكِّلت قيادةٌ محافظةٌ ـ أي نقيضٌ للقيادة الثورية، والتي عرفتها المنطقة العربية فيما سبق ـ وفي معرض تعليقه على حاجة مصر للعرب يقول: إن توجه مصر للعرب كان اختياراً وليس تحت ظروف ملزمة، إنما كان جزءاً من مشروع نهضوي.

٢ ـ شكل النظام الدولي أحد سيناريوهات ثلاثة

قدمتها د. سلوى شعراوي، وهي إمّا نجاح «جورباتشوف» في اصلاحه، ونجاح أوربا في تحقيق الاندماج يؤدي هذا الى مزيد من التقارب الامريكي الكندي والتنسيق الامريكي الياباني.

الشكل الثاني: فشل جورباتشوف، تولى العسكر وانتكاسة الليبرالية، بمايؤدي إلى انهاء التباعد بين أمريكا وأوربا، وتعود الحرب الباردة وسباق التسلح.

الشكل الثالث: اندماج الالمانيتين «وحدة المانيا»، يؤدي الى مزيد من التعاون بين امريكا وروسيا وأوربا الغربية، نتيجة المخاوف التاريخية من المانيا، وقد تعود المانيا الى حليفها الطبيعي، وهو اليابان.

تحمل الأشكال الثلاثة السابقة تراجعاً نسبياً لدور الولايات المتحدة في التسعينات، بما ينعكس على حرية حركة صانع القرار ـ في مصر ـ في الاتجاه إلى أوربا الغربية، أو اللجوء الى العرب وتعريب الديون، أو الاعتماد على الذات وتنمية الموارد.

٣ ـ ولكن هذه التغيرات جاءت كهزيمة لفكر الثورة الفرنسية، ونجاح فكر الثورة الصناعية، تفسير جديد يقدمه د. عبد المنعم سعيد، ويشرح تفسيره بقوله: إننا أمام فكر ثورتين فكر الثورة الصناعية، وهي لا تعرف الحدود، ولكن تعرف العمل، وفكر الثورة الفرنسية الذي يقوم على أساس الدولة القومية ذات الحدود.

والثورة الصناعية الأولى والثانية عرفت كل منهما كيف تتعايش مع فكرة الدولة وما نواجهه ليس إفلاس فكر الثورة البلشفية، ولكن فكر الثورة الفرنسية الخاص بالدولة القومية.

وجوهر ماسيتحقق في أوربا عام ١٩٩٢، هو أنها سوف تحقق ما فشلت في تحقيقه منذ عشرين عاما. وما يحدث الآن هو عملية اندماج تقوده اوربا الغربية يقوم على تنسيق العمل، وما يحدث الآن ليس انعكاساً للاعتماد المتبادل ولكن لتحقيقه ولذلك فهو يدق ناقوس الخطر محذراً، إما أن ندخل النظام الدولي الجديد، والا سنظل على هامشه، ومدى النجاح أو الفشل يوضح لنا مدى القدرة على التطور والتكيف.

٤ ـ بينما اقتصر تعليق محمود أمين العالم على مايحدث في الاتحاد السوفييتي، فهذه التغيرات ـ هناك ـ لم تأت فجأة فهناك لجان مشكلة منذ عام ١٩٧٥ لبحث امكانيات التغيير، ومن ثم جاءت هذه التغييرات نتيجة للاقتناع بفكرة ان هناك عالماً واحداً يتعرض للمشاكل، ولا قيمة للسيطرة الرأسمالية في هذا العالم، ومن ثم برزت أهمية الديمقراطية في العالم كله، وهذا يعكس بروز العامل الاجتماعي من أجل مصلحة العالم.

٥ ـ بينما تتشابك الأحداث الاقليمية والدولية في التسعينات، كما يراها السفير «اشرف غربال» فهو لايستبعد قيام اسرائيل بفتح جبهة جديدة مع سوريا، وذلك بهدف تحويل الانظار عن مشكلاتها في الضفة وغزة الى قضية أخرى.

وفي اطار تدني اهتمام القوى العظمى بالمشاكل الاقليمية ـ ومنها الصراع العربي الاسرائيلي ـ فإن اسرائيل في محاولة منها للحفاظ على وضعها بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية، فإنها سوف تسعى الى خلق أرضية جديدة لجذب الاهتمام الامريكي، ومن ثم فلا يستبعد عمليات جديدة مثل عملية لافون لخلق تهديد بالمنطقة مما

يؤدي الى الاهتمام الامريكي.

وانتقل الى أوربا.. وفي المسألة السابقة يرى أن على العرب استثمار الموقف الاوربي من اجل الوصول الى تسوية خاصة، وأن هذه المنطقة - اي اوربا - تتخذ مواقفها بناء على مصالحها الذاتية ومانراه من اختلاف وتباين فيما بينها، يأتي بموجب توزيع للأدوار لدفع العرب لعدم اليأس.. ومن ثم على العرب توظيف هذه المواقف.

وتناول مايحدث في الاتحاد السوفييتي واوربا الشرقية.. وأثره فقال: أعتقد أن موسكو باقية، أما الاتحاد السوفييتي كتركيبة داخلية فربما دخلت عليه تعديلات. ويرى أن سير الاحداث في اوربا الشرقية متلاحق لدرجة أن أوربا الغربية تتمنى لو كان أقل حتى نستطيع ملاحقته.

وفي نهاية جلسات المؤتمر جاءت كلمة «حافظ اسماعيل» - مستشار الأمن القومي السابق - لتهدي الى الحاضرين نصيحة بضرورة التعقل والتريث انتظاراً لما ستأتي به سنوات ١٩٩٠، ١٩٩١، ١٩٩٢، لنعرف هل يتغلب جورباتشوف على نفسه، وما الذي يتقرر في أوربا، اين مكان اليابان والهند، إن هذه التحولات قد تحسم مع عام ١٩٩٣، وحتى هذا التاريخ فسوف نرى العديد من المفاجآت وهذا يقتضي منا مرونة سياستنا دون أن نفقد توازن حركتنا.

*** أمسيات سياسية**

اختلف المؤتمر السنوي هذا العام عن العام السابق - حيث كان الاعتماد بصفة أساسية على مسئولي وصناع القرار السياسي - بينما في هذا العام أتيحت الفرصة لمعرفة وجهات نظر المفكرين.

والعناصر الرئيسية التي دارت حولها كلمات د. أحمد كمال أبو المجد، محمد سيد أحمد، أحمد بهاء الدين، هي تحدي التسعينات، وأثر مايحدث في القارة الاوربية.

١ - المشكلة الرئيسية: اتفق الحاضرون في أن التحديات التي تواجه مصر، هي نتاج معطيات الحاضر، وهي ثلاثة يحددها «كمال أبو المجد» في التنمية، الديمقراطية، وتحدي الأمن القومي والسياسة الخارجية، ويوجز هذه المشاكل «محمد سيد أحمد» بأنها مجتمع الكثرة والندرة - كثرة سكانية، كثرة صحراء، كثرة استهلاك، كثرة بطالة، ندرة موارد، وتعليم وإسكان، وندرة في الأراضي الزراعية، فنحن مجتمع لايسيطر على متغيراته، ومن ثم لايسيطر على مصيره، وهذه الكثرة والندرة يتعاظم شأنها، وهي نقطة حرجة، فهي تؤدي إلى انفلات اجتماعي وعنف يصعب الادعاء بأنه مستبعد، وهذا يستدعي تدخل السلطة.. ولا علاج للكثرة والندرة داخل حدود مصر.

بينما المصريون كما يراهم «احمد بهاء الدين» منقسمون او مجتمع لم يصل الى اتفاق اجتماعي، فهناك افكار نوقشت منذ مائة عام، ولم تحسم حتى الان.

٢ - تحدي العصر: يلمس ابو المجد مفارقة وهي: على الرغم من ثورة المعلومات التي بلغت درجة من التقدم والنمو لاسابقه لها، ومع ذلك

فالحوادث تفاجئنا دون مقدمات مرصودة، ومن ثم فتحديات التسعينات لاتنفصل عن هذه التطورات فهذه المفاجآت واردة.

فلم تكن الانتفاضة متوقعة وبالمثل أحداث اوربا الشرقية - يقول أحمد سيد أحمد - وهذه الأحداث لها طابع تراكمي يصعب فيه التوقع، فقد ثبت أنه لاتوجد حتميات في التاريخ.

الرأي الثالث قدمه «أحمد بهاء الدين» بانتهاء عصر الايديولوجيات، فالنظريات تنزل عن العرش، ولم تعد العقيدة الدوجمائية حاكمة، فهناك طابع الواقعية، والتعامل مع مايستجد من أحداث، فالثورة التي تحدث الآن على مصدري النظريات وصناع الايديولوجيات.

٣ - الديمقراطية:

اتفق الثلاثة في عدم تحققها، وأن ماتشهده مصر والدول العربية هو التعددية، وهي خطوة في سبيل تحقيق الديمقراطية، وهي ضرورة لابد منها..

ويطلق د. ابو المجد على هذه الظاهرة الموجودة وغير الموجودة أي وجود برلمان، ولا برلمان، معارضة ولا معارضة، محكمة ولا محكمة، ومع ذلك فنحن نحتاج الى التجربة الديمقراطية، والى اكبر عدد مشارك فلن يبدع جائع ولم يبدع خائف، ان يخيف بعضنا بعضاً ضرره أكثر من نفعه.

ويرى «بهاء» عدم وجود الديمقراطية، فالمفاتيح في يد السلطة، والمعارضة أو الأحزاب إطار شكلي، حتى يمكن الادعاء بأن لدينا ديمقراطية.

٤ - التغير في المعسكر الشرقي ودلالته:

هو شرح في ثلاثة أمور يحددها ابو المجد بأنها: الحزب الواحد حيث إن شره أكثر من نفعه، انهيار فكرة الستار الحديدي كحماية لأي فكر، ونهاية نظام التخطيط المركزي.

وهذا التغير قد لايكون بسبب الاتحاد السوفييتي، وان كان له دور بالدعوة للتغيير وينبه: أرجو ألا تستخفنا الموجة الحالية، وننكر كل شيء، لان مايحدث نراه في اطار تفسير غربي.

أخشى أن نندفع من حال الى حال، وننسى أن الترويج الحالي ضد الاشتراكية يقوده إعلام غربي، وبعض شرائح الضغط في القطاع الخاص ولا بد من الفرز.

بينما مايحدث في اوربا الشرقية يفهمه «محمد سيد أحمد» باعتباره تكتيكاً، فالجولة التي نراها الآن هي بدلا من المواجهة بالتصادم اصبحت بالتلاحم، وإسقاط السور الحديدي، والبديل ليس بالضرورة الرأسمالية، وهذاالتغير جاء بعد ان حققت أوربا الشرقية لمواطنها العادي كثيراً من متطلباته، وامامنا في تقرير «بهاء الدين» قرون حتى ننجز ماأنجزته، ومايحدث الآن هو انتصار لليبرالية والسوق الحر.

٥ - الصراع العربي الاسرائيلي:

تعددت الآراء في هذا الموضوع، فهناك

من دعا الى دور لمصر في إطار هذا الصراع وحله. . وكان هناك مايشبه الإجماع على حيوية هذا الدور في المرحلة القادمة.

أ - ويرى د. أبو المجد الداعي الى عزلة مصر داعياً الى انتحار عربي، ويضيف ولا نقول: إن مصر لها الريادة بمعنى التعالي، ولكنها أمانة ومسئولية، ويحذر من قيادة تحمي المصالح العربية من قطرية تلبس رداءً عربياً.

والحل انفتاح على العالم والا انعزل العرب. ففي العالم الاسلامي موجة تدين، فبدا وكأنه يأخذ شكلاً انسحابياً وتغار اسرائيل من هذا الوضع. وضرب مثلاً بمقولة التراث اليهودي، فهذا المصطلح خادم للمصالح اليهودية المسيحية فبدا العرب وكأنهم العدو، وكذا في عزلة العرب أمكن «لاسرائيل» أن تفعل المزيد،

ب - كل النزاعات معرضة اليوم للتسوية. وهذا ينعكس على النزاع العربي الاسرائيلي، ولكن كيف تكون التسوية، الحل، يقدمه «محمد سيد أحمد» ويقول: بالنسبة لتصورنا لاسرائيل فلا مكان لها في المنطقة ولا مستقبل، كما أنها لاماضي لها، والمعتقد العربي الرئيسي أن وجودها عارض ومؤقت، اعتقادنا يؤثر على قراراتنا، المعادلة الدولية تفرض المواجهة بالالتحام، أي لابد من وجود تسوية. الوضع الدولي يحتم هذا، وكذلك الانتفاضة.

والتسوية اي الدول توقع. . لكن الجماهير ترفض.

ولذلك فهناك ثلاثة سيناريوهات يراها:

١ - لا المجتمعات ولا الحكومات تقبل التسوية

٢ - المجتمعات ترفض والحكومة توقع.

٣ - ان المجتمعات والحكومات تقبل التسوية.

ويرجح أن اتفاقيات سوف توقع ولا سلام يتحقق، لان التسوية مفروضة من العلاقة بين الشمال (شرق وغرب) بينما هي مرفوضة من الجنوب.

والحل؟

لابد أن تكون هناك نقابة للجنوب في مواجهة توكيل الشمال (اسرائيل)، فلا بد من نظرية ناصرية تقوم على استعادة الشخصية، تكتسب النظام مصداقيته في مواجهة الشمال، وتتزعم الجنوب، وتضمن لمصر موقعاً في ١٩٩٠.

٦ - المد الاسلامي:

في هذا الموضوع نجد دعوة ابو المجد لفض الاشتباك بين الحكومات وبعض فصائل التفكير الاسلامي، والبحث عن العناصر المشتركة، وينادي: أليس منكم رجل رشيد يدرك أن هناك معركة هزلية بين الدين والدولة؟.

ظاهرة المد الديني - في رأيه - تحتاج الى ترشيد عاجل، وإعادة نظر، فنحن في حاجة الى تجميع كل قوى البناء في عالم يسوده الاضطراب، ويتفق مع هذه النقطة محمد سيد أحمد، فنحن في عالم يتعاظم فيه العلم والدين، ولابد من توحيد الجهود.

وكي يتحقق هذا، لابد ان نفرق بين الاسلام والمسلمين، وكي يتحقق ذلك يقول «بهاء الدين» ان نفرق بين الشريعة والتاريخ، فتاريخ الاسلام ليس هو الاسلام، فالاسلام

لاينفذ نفسه، ولكن ينفذه بشر، وعندما ادعو الى اعادة كتابة تاريخ الاسلام، لا أدعو الى تأليفه وتاريخ الاسلام منه الصالح والطالح.

وكي يثبت وجة نظره في ضرورة التفرق بين الاسلام والمسلمين يذكر ان القرآن اول كتاب نص على حقوق الانسان.

ولكن أي من الامبراطوريات الاسلامية طبقت حقوق الانسان؟.

التقرير الرابع

ندوة الاتحاد في أربعين الراحل غالب هلسا

في ذكرى الراحل غالب هلسا، الاديب المبدع، والعضو البارز في الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، والعضو المؤسس في لجنة العمل النقابية للاتحاد، اقام الاتحاد امسية ثقافية شارك فيها وحضرها زملاء الراحل؛ زملاء الابداع والمسيرة النضالية الصعبة، زملاء المنافي والايام القاسية.

نزيه ابو نضال تحدث عن الحياة الشخصية للراحل كما عرفه وعرفها، وعبد الله ابو هيف، تحدث عن الناقد غالب هلسا، وزهير الجزائري تحدث عن المكان في روايات غالب، اما خيري الذهبي فقد تحدث عن الروايات الأخيرة للراحل. والقيت قصيدة للدكتور عبد الرحمن الكيالي، والقى محمد لافي قصيدة اخرى. وخالد ابو خالد ادار الامسية.

والكاتب الفلسطيني تقدّم هنا بعضاً من المداخلات التي تحدثت عن ابداع الفقيد.

غالب هلسا.. ان للفارس أن يترجل

● نزيه ابو نضال

قبل أسابيع قليلة كان غالب هلسا يتحدث في ندوة ثقافية، في ذكرى وفاة الاديب الاردني تيسير سبول، وبعد اسابيع قليلة سيتحدث كتاب آخرون، وربما في نفس القاعة عن غالب هلسا. . وهكذا تتواصل الكلمة، ويتواصل حملة الأمانة جيلاً وراء جيل.

وتظل أهمية أي كاتب أو فنان متصلة على الدوام بمدى ارتباطه بقضايا وهموم شعبه وامته، وبمدى اسهامه في عملية الصراع التاريخية لصناعة المستقبل.

لقد ظل غالب هلسا ومنذ ان وعي على الحياة في الخندق التقدمي المدافع عن حرية الانسان وحقه المقدس بالعدالة والديمقراطية، ولهذا فقط انخرط في صفوف الحزب الشيوعي الاردني منذ نعومة أظفاره، ولهذا أيضاً انخرط في صفوف الثورة الفلسطينية وجند قلمه للدفاع عن برنامج الثورة والتحرير ولكشف كل السياسات المساومة والمتراجعة.

في كل ماكتبه غالب هلسا من روايات ودراسات ومقالات، وبغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه حول هذه المسألة أو تلك، إلا أن الأمر المؤكد والجوهري هو أن غالب هلسا هو واحد من فرسان الكلمة الحرة التي لا تنحني أو تساوم، وظل في كل ما يكتبه مكافحاً عنيداً عن حق الفقراء بالرغيف وحق الشعوب بالحرية والديمقراطية والعدالة، وهو حتى حين يوجه نقده لبعض الفصائل والقوى التقدمية فإنما ينطلق من موقعه التقدمي ويهدف تصويب بعض المسارات الخاطئة لدى هذه القوى.

ان هذه المسألة بالذات جعلت من غالب هلسا اشكالية حقيقية فهو في معظم الاحوال في حال اشتباك مع هذا الطرف أو ذاك، وبالطبع فليس معنى ذلك أن غالب هلسا لم يجانبه الصواب في العديد من هذه الاشتباكات والمواقف. بل ان غالب نفسه لا يلبث ان يدرك اخطاءه ويعترف بها، ويرجعها عادة الى طبعه الانفعالي في الكتابة. وهذه على كل حال ميزة مهمة يفتقدها الكثيرون.

وغالب هلسا فوق ذلك يمتلك جرأة نادرة في نقد وتقييم كتاباته السابقة بما في ذلك رواياته ودراساته النقدية فهو يقول مثلاً في مقدمة أحد كتبه النقدية.

«وأود أن أنبه الى أنني عدلت في بعض هذه الدراسات وحذفت أجزاء واضفت أجزاء اخرى، مما يجعلها اقرب الى وجهة نظري الحالية منها الى وجهة نظري حين كتبتها».

ويضيف معلقاً على أولئك الكتاب الذين يتبنون فكرة ثابتة ولا يحيدون عنها:

«لقد تبين لي أن كل واحد من هؤلاء ينطلق من موقف ثابت ومحدد. . لا يغيره أو يخرج عنه. وبدا لي الأمر وكأن كل واحد منهم وقد وقع أسير تعويذة، سيطرت عليه، وعجز عن الفكاك منها».

ثم يقول «هذه المسألة تحيرني. كيف يظل الانسان سجين فكرة واحدة لا يحيد عنها، وخاصة ان هذه الفكرة جزئية وغير باهرة؟ انني أسأل نفسي واعلم انني عاجز عن الاجابة: متى نشأت هذه الفكرة؟ ولماذا اثبتت بكل هذه الرسوخ؟ وما الذي يجعل الانسان يخضع لحتمية فكرة كهذه؟».

■■

لأن غالب هلسا أدرك هذه الحقيقة في وقت مبكر نسبياً فإنه لم يسقط، كما حدث مع الكثيرين، في فخ الجمود العقائدي أو في مذهب التقديس لبعض الافكار أو الاتجاهات، وظل قادراً على الدوام على مواكبة الاحداث والتطورات والاتجاهات، فهو على سبيل المثال لم ينظر الى غارودي باعتباره شراً مطلقاً بل حاول تلمس الاسس العميقة الكامنة وراء مواقفه، وقس على

ذلك الاتجاهات والتيارات الفكرية والنقدية المتعددة التي شهدتها اوروبا، خاصة في مرحلة الستينات والسبعينات.

الشي الثابت الوحيد في فكر وحياة غالب هلسا ظل دائماً راسخاً ومؤكداً: الانسان وحقه المقدس بالعدالة والمساواة والديمقراطية.

في ظل هذه القناعات والافكار تعرض غالب هلسا للسجن في الاردن اواسط الخمسينات ثم الى السجن في مصر أواسط السبعينات مما اضطره ان يعيش حياة متنقلة بين عمان والقاهرة وبغداد وبيروت وأخيراً دمشق التي قضى فيها آخر سنوات عمره (٨٢ ـ ٨٩) قبل ان ينقل جثمانه الى عمان بعد غربة طويلة بلغت حوالي ٣٣ عاماً.

ولد غالب هلسا في احدى قرى ماعين قرب مادبا عام ١٩٣٢ ولايزال بيت أسرته القديم قائماً حتى الآن، وهو ينتمي الى عشيرة الهلسة الاردنية المقيمة في منطقة الكرك جنوب الاردن.

تلقى علومه المدرسية في مدرسة المطران بعمان مما أتاح له في وقت مبكر اتقان اللغة الانجليزية، ثم واصل دراساته العليا في الجامعة الاميركية في بيروت والقاهرة.

انتمى الى الحزب الشيوعي الاردني، وهو في سن الثامنة عشرة واعتقل وسجن في منتصف الخمسينات. بعد الافراج عنه سافر الى مصر حيث قضى معظم سنوات حياته، وقد سجن في مصر أكثر من مرة قبل ان يتم ترحيله الى بغداد، انتقل بعدها الى بيروت وانخرط في النضال الوطني الفلسطيني خلال الاجتياح الصهيوني للبنان في منتصف عام ١٩٨٢ ظل غالب في الخنادق القتالية المتقدمة الى جانب المدافعين عن بيروت. في خريف عام ١٩٨٢ انتقل الى دمشق وظل مقيماً فيها الى أن وافته المنية صباح يوم الاثنين ١٨/١٢/١٩٨٩ ونقل جثمانه في اليوم التالي الى عمان.

ظل غالب هلسا على امتداد السنوات الماضية مساهماً نشيطاً في الحياة الثقافية العربية وفي خوض الصراعات من أجل الديمقراطية في الوطن العربي، وكان واحداً من المساهمين البارزين في لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية في الاردن.

ترك غالب هلسا العديد من المؤلفات الادبية والنقدية والمسرحية والكتب المترجمة.

له العديد من الدراسات والمقالات المنشورة في معظم المجلات العربية ولم تجمع ولم يجر نشرها حتى الان.

ساهم في العديد من المحاضرات والندوات الثقافية والفكرية.

عرض له المسرح القومي المصري واحدة من مسرحياته كما قدمت له مسرحية ثانية في عرض خاص.

من أبرز مؤلفاته الروائية «الضحك» و «السؤال» و «زنوج وبدو وفلاحون» و «الخماسين» و «سلطانة» و «ثلاثة وجوه لبغداد» و «البكاء على الاطلال» وأخيراً روايته «الروائيون». وهناك مخطوط لرواية اخرى لم تنشر.

من مؤلفاته النقدية: «قراءات في اعمال يوسف الصايغ ويوسف ادريس وجبرا ابراهيم جبرا وحنا مينا»، وآخر ترجماته كتاب «جماليات المكان» لغاستون باشلار.

■■

لقد رحل غالب هلسا بعد رحلة طويلة وشاقة عاشها وحيداً إلا من رفاقة واصدقائه وكتبه، وقد حالت الظروف الترحال والتنقل والمنافي دون ان يتزوج أو يعيش في دفء حياة الاسرة والابناء، وظل يحن دائماً الى هذا الدفء دون ان يعثر عليه، وربما لذلك كان الحنين يعاوده الى مرحلة الطفولة والى الام وما يسميه غالب هلسا «مرحلة الامان المطلق والقبول المطلق»، وهذا لا يمكن أن يوفرهما إلا الام». وربما يوفرهما وطن حر سعيد وديمقراطي ظل غالب يبحث عنه دون جدوى.

بعد هذه الرحلة الطويلة والمضنية توفي غالب هلسا اثر نوبة قلبية لم تمهله إلا أياماً معدودة.

فلقد آن للفارس الذي شهر قلمه سيفاً على امتداد اربعين عاماً ان يترجل ويستريح، وليظل قلمه مشعلاً في هذه الظلمات القاسية.

غالب هلسا ناقدا

● **عبد الله ابو هيف**

يكشف نقد غالب هلسا، وهو غزير ومتنوع، عن طبيعة تفكيره الأدبي بالدرجة الأولى، فقد رأى النقد فعالية إبداعية أو «إبداعاً فنياً حقيقياً»، على حد تعبيره[1]. وعلى هذا النحو، نظر هلسا الى النقد بالجدية التي كتب فيها قصصه ورواياته وأبحاثه الفكرية والسياسية. واذا كان رهن الابداع النقدي بأمرين هما «المعرفة الواسعة بالثقافة المعاصرة» و «التذوق»[2] فان نقده، لدى التمحيص، لايغادر هذين الأمرين على الرغم من تواضعه المستمر وعلمه الواسع وألمعيته التخيلية وكده المضني، وهي صفات أطلقت على ناقد معروف هو ريتشارد بلاكمور، عرف النقد بأنه جهد مبذول في قراءة النص. أما المناهج والمدارس فتصنيفات تابعة للابداع النقدي، اذ ينبغي على الناقد أن يتسلح بالمعرفة أولاً وبالذائقة النقدية ثانياً، ومن أجل ذلك لابد له من تعلم التاريخ أو علم النفس اذ دعاه النص لذلك[3]، فلكل نص نسقه المعرفي الذي لايضاء دون العلم بهذا النسق. لقد زعم هلسا مراراً أنه ليس ناقداً ولا محترفاً، ولا يشكل النقد همه الأول[4]، ولكنه ناقد حتى وهو يكتب القصة والرواية، وهما جنسان أدبيان، قائمان على منتهى التخييل والمفارقة الواقعية. ويستطيع المرء أن يقتطف نصوصاً نقدية كثيرة من متون رواياته وقصصه، على أنه كفانا مؤونة اللجوء الى مثل هذا التعسف، لان كتاباته النقدية كثيرة، وكذلك مقابلاته وتصريحاته متنوعة وجريئة في الاعلان عن موقفه النقدي.

وفي هذه المقالة، نجيب عن سؤال محدد، هل ثمة أهمية خاصة لهلسا الناقد؟ اعتقد أن نقد هلسا فريد في بابه، ويتميز شغله النقدي عن بقية النقاد العرب في أنه عزز الممارسة النقدية العربية نحو تأصيلها في بيئتها الثقافية، وفي منظورها التاريخي، وفي رحابة تناولها للنص، وفي انبثاق تقاليدها من سياقها المعرفي والخاص والفني قبل كل شيء.

وأضيف في هذا المجال ان نقد هلسا يضاهي قصصه ورواياته ان لم يتقدمها[5].

لقد كتب هلسا مئات الكتابات النقدية في الدوريات، ولكنه لم يجمعها كلها في كتب. ولما كان من المتعذر أن نعرض لهذه الكتابات، لأنها منشورة في دوريات عربية محلية ضيقة الانتشار، أو صادرة عن تجمعات ثقافية وأدبية، ارتبط نشرها باقامة هلسا من قطر عربي لآخر، فاننا سنكتفي بالاشارة الى أبرز كتبه النقدية ومصادر دراسة نقده:

١ - قراءات نقدية بيروت ١٩٨٠.

٢ - المكان في الرواية العربية - ضمن كتاب «الرواية العربية واقع وآفاق» بيروت ١٩٨١.

٣ - فصول في النقد بيروت ١٩٨٤.

٤ - الحوار المبتور ضمن كتاب (حوار في علاقات الثقافة والسياسة) دمشق ١٩٨٤.

٥ - أدباء علموني. أدباء عرفتهم (مقالات في كتابين معدين للنشر ونشرت بعض أجزاء منها في جريدة «الثورة» (دمشق) ١٩٨٩.

٦ - مقابلات وأحاديث وتصريحات (سترد اشارات لجوانب منها)[6].

٧ - كتابات نقدية في الدوريات العربية الشهرية «كالمعرفة» (دمشق) و «العربي» (الكويت) و «الموقف الادبي» (دمشق) و «فتح» (دمشق). الخ.

رأى هلسا النقد ابداعاً لايفترق عن ابداع القصة والرواية. وعلى الرغم من سهولة اطلاق رأي مفاده، أن نزوعه ذاتي في ابداعه كله، فان المتقصي المتأمل لهذا الابداع يجد أن هلسا مازج بين الذاتي والعام الى حد مدهش. فقد كان لهذا الفنان الموهوب والمجتهد اطروحته في رؤية العالم وفهم الفن. لم يستسلم لاغراء تثقيفه الماركسي، وهو تكون في ظل ستالينية وجدانوفية طبعت غالبية أبناء جيله من المثقفين الشيوعيين، لم يرضخ لشهوة «التماهي»، وهي انطباق المبدع على ابداعه ولا سيما شخصياته، وكانت القصة العربية استطاعت الخروج من هذه المعضلة في وقت متأخر.

لم يقدم غالب هلسا سيرة ذاتية. وان صاغ من عناصرها وسواها سيرة مثقفة في اعماله الروائية والقصصية، جاعلاً من «التماهي» بوصفه اقناعاً شديد الخصوصية بما يجري علامة على الدخول في التاريخ، وهذا مادعاه الى ممارسة النقد من باب التذوق الذي يتيح للتماهي مسارب اكثر حميمية وذوقية واقناعية. وقد قال في احدى حواراتي معه:

«عندما أشعر أن عملاً أدبياً ما يثير نفوري أحاول أن أجد الأسباب الموضوعية لتبرير- أو ربما تفسير- ردود فعل ذاتية قد لايكون الاساس الصحيح لمنهج نقدي، ولكنني أعتقد أنه أصح من نقد ينطلق من منهج مغلق، ويفقد عنصر التذوق.

العلاقة بيني وبين الادبي هي توقعي ان يقنعني الى الحد الذي يشعرني أنه - بمعنى من المعاني - من تأليفي، أي أنه يبني شخصيات وعوالم تذكرني بشخصيات عرفتها وعوالم عشتها، حدث لي هذا - مثلاً - مع رواية تولستوي «الحرب والسلام» كتبتها الى حد أنني دهشت عندما رأيت شخوصها في فيلم روسي مأخوذ عنها، دهشت وشعرت بخيبة الامل لانني ألبست شخوص الرواية ملابس عربية، ووضعت لهم ملامح عربية.

ماهي مزية الانطلاق من التذوق في

اعتقادي؟ مزيته أنه هو العنصر الرئيسي في الابداع النقدي، فكما أنه يستحيل كتابة عمل أدبي ابداعي دون عنصر التجربة، لايمكن كتابة نقد حقيقي - نقد ابداعي - دون توفر عنصر التذوق»[٧]

لقد رأى للتذوق مزالقه كما في دوام تحوله، أو تغيره من شخص لآخر، وسهولة وقوعه في التعصب، ولكنه رأى ان التذوق ينضج بمداومة القراءة، ويترسخ بالاطلاع على مناهج النقد. من الواضح أن هلسا قد ركز على البعد التذوقي للنص، على أنه سياق اجرائي. أما منهجه فليس تذوقياً ولا انطباعياً على الاطلاق.

كان ذكر في احدى تصريحاته أن له منهجاً ربطه باعجابه بالعمل المنقود أساساً. ومن هذه الزاوية، لم يكتف بنقد الاعمال التي تنال اعجابه فحسب، بل ان غالبية نقده موجه للاعمال التي لاتحظى باعجابه أو ان هذا مايدعوه للبحث عن السبب لانه يشعر بوجود خلل[٨].

نفى هلسا ان يكون ناقداً ايديولوجياً، ورفض النقد البنيوي والالسني، لان هذه المناهج لاتساعده على فهم النص، ولا تقدر على الحكم على النص هل هو جيد أم غير جيد[٩].

لقد رهن هلسا النقد بالاستجابة الفكرية، وليس الشعورية التي تجيء رد فعل لمؤثر خارجي، ويترتب عليها إحساس خاص شأن الانطباعيين، مؤكداً أن النقد عملية وعي تتعدى الانطباعات الى التعبير عن رؤية فكرية هي أطروحته التي طالما رددها في شغله النقدي. وهنا يكمن جانب من أصالته. أما الجانب الآخر فيتبدى في تثميره لمنطلق أطروحته في الفكر النقدي، وهي أن القمم النقدية الثلاث في التاريخ: ارسطو، العرب، أوروبا منذ القرن السابع عشر.

وفي ميدان النقد، أعاد صياغة أطروحته في سيرورة فهمه للثقافة العربية وبؤس العقل النهضوي قال: «الفقر الثقافي والبؤس الروحي - عدم القدرة على التذوق - ليسا خط العربي المقسوم، بل نتاج ظروف لابد من الكشف عنها، والعمل على مجاوزتها. والمسألة في رأيه تتصل بمعطيين:

أ - السلسلة العلمية التي يدور العقل العربي في سياقها.

ب - تدهور المستوى الاكاديمي العربي»[١٠]

في المعطى الاول، قدم هلسا فهماً للتراث ينطوي على معنى استعادته نهوضاً معاصراً، فكان التوهج العظيم الذي تميز به العقل العربي في عصره الزاهر في العصر العباسي الأول، «فالعقل العربي خلال ازدهاره كان يرى في التأويل منهجاً يدمج الفكر العالمي بالمشاريع الثورية للرأسمالية العربية ورجال الفكر، والقوى المعبرة عن جماهير الفلاحين المسحوقة والاعراب، ودمج هذا بالتراث الروحي والعقلي للعرب.

كان عقل النهضة هذا تعبيراً عن مشروع للسيطرة على العالم واعادة صياغته. لقد قدم هذا العقل رؤية للانسان، المشرع لذاته، الفرد الذي تخلص من قيود الجماعة، وقدم مشروعاً لتحريره، سواء على المستوى القانوني، او المستوى الاخلاقي.

«أما (النهضة) العربية في القرن الماضي والحالي، فكان استجابة فقيرة لدخول الاستعمار

الغربي. كانت مجرد رد فعل للاثر الذي نتج عن دخول السلع الغربية المصنعة، والتي هددت النظام الحرفي. أي كان هذا الفكر رد فعل لتخلخل الهياكل الاقتصادية وما تبعه من تخلخل في البنى الاجتماعية والروحية، كما كان رد فعل للتهديد الذي شعرت به الطبقات بعد الاحتكاك بالحضارة الاوربية.

ولكن هذا القلق تضاءل عندما شعرت به الطبقات العليا الى ثبات مواقعها ومؤسساتها، وأصبح هذا بالطبع، لم يكن العامل الوحيد، ولكنه العامل الأهم»[١١]

ان الفكر النقدي لايخرج عن سياقه التاريخي والمعرفي والفني. ثمة ضعف في الاستجابة، وركون أمام التحدي الحضاري. غير أن النقد ابداعاً قومياً لاينهض الا بالتأصيل والجهد، وهما أبرز خصائص منهجه النقدي.

قد يعتقد الكثيرون أن حداثة هلسا مجتلبة أو مطلقة أو مقيدة بالمؤثرات الاجنبية. ان واقع الحال يكشف جانباً أعمق لهذه الحداثة متغلغلاً في تراثه العربي. أجاد هلسا اللغة الانكليزية، وقرأ أمهات الأدب بهذه اللغة، ولكن الذي تعلمه من أدباء ومفكري تراثه كان الأقوى في تثقيفه وتفكيره الادبي، بل ان جوهر اطروحته شديد الاتصال بسيرورة هذا التفكير من التراث الى تراث الانسانية الاعم والاشمل، من لحظته التاريخية الماضية الغائبة، الى لحظته التاريخية الراهنة الحاضرة.

ومن هذه الزاوية أيضاً، عكس شغله النقدي هذه الأطروحة المركزية، في قراءاته لأعمال يوسف الصايغ ويوسف ادريس وجبرا ابراهيم جبرا وحنا مينه، لايخرج عن قراءاته الجامعة: «المومس الفاضلة ومشكلة حرية المرأة»، فقد ناقش هلسا هذه القضية كجزء من قضية عامة، هي تخلف مستوى الادب العربي الحديث. «والقضية التي أود طرحها هي جزء من شيوع نمط المومس الفاضلة في الفن القصصي العربي، وفي السينما والمسرح. الخ وعلى المستوى العام، كما هو على المستوى الجزئي، فان أحد المسائل المركزية التي يجب مناقشتها هي علاقة الاديب بالواقع.

ليس في نيتي أن أشير الى هذه العلاقة بكل تعقيداتها، فذلك أكبر من أن تستوعبه دراسة أو كتاب. ان مأأعنيه هو بالتحديد ان الاديب يكتب عن الواقع من خلال معطيات وتقاليد أدبية تقف عائقا بين الاديب وبين تجارب الحياة التي يعيشها. ونمط المومس الفاضلة هو مثال بارز وشديد الدلالة على ذلك. فمن النادر جداً أن يكتب روائي أو قاص عربي عملاً أدبياً دون أن تكون شخصية المومس الفاضلة احدى ركائزه. ان المدارس الادبية تتغير، ولكن هذا النمط يفرض نفسه كل مرة وقد تغيرت بعض ملامحه، ولكنه ظل محتفظاً بصيغته وجوهره.

وأنا أعتقد، اننا اذا طرحنا تلك الخلفيات للمناقشة، فاننا نسهم في ازاحة ذلك الجدار الذي يقف بين الاديب وبين التفاعل الحي مع واقعه وتجربته وجعله يتجاوز الدائرة المغلقة التي يدور فيها، وأعني بتلك الدائرة المغلقة الانطلاق من معطيات جاهزة، وصياغة الواقع وفقاً لها، ومن ثم تأكيد تلك المعطيات مرة أخرى. اننا اذا حققنا تجاوزاً للدوران في حلقة مفرغة فلسوف

نطلق الطاقات الابداعية للاديب.

ان خطورة هذه المعطيات الجاهزة أنها ترسخ في تكوين الاديب، حتى تصبح لا وعياً أدبياً تحدد مسار ابداع الاديب في اطر لايستطيع التخلص منها، رغم أن الواقع قد تجاوزها، وهي لم توجد أصلاً فيه. اذا استطعنا تحقيق ذلك، فعندها يمكن أن نعيد للادب خصوبته وذلك لان الرؤية تحاور الواقع وتغتني به»[١٢].

والنتيجة عند هلسا، هي أنه «قد جاء الوقت لتجاوز هذا الانموذج لحرية المرأة الذي خلقته البورجوازية العربية»[١٣].

لاشك ان هلسا قد غالى في اطلاق الاحكام وتأويل اللحظة التاريخية المبدعة، لان شخصية البغي في الادب العالمي كله لاتفارق شخصية «المومس الفاضلة»، والمشكلة ان اغلاق الدائرة النقدية على هذا البعد التذوقي، وهو بعد ثقافي وموقف فكري أساساً، يقلل من فرص حوار الظاهرة الابداعية.

لقد كانت البغي شخصية فاضلة لدى الادباء التقدميين على الدوام، حين كانت البورجوازية تقدمية في أوربا القرن التاسع عشر، وفي افكار اليساريين والماركسيين فيما تلا ذلك، فقد زج رجال القلم في أوربا، وكذلك لدى الادباء العرب، ممن اهتموا بمصير الانسان ضمن شروطه التاريخية والاجتماعية، «هذا الموضوع في مسرحياتهم وقصصهم واشعارهم وتصاويرهم، وظهرت شخصية البغي في أزقة رواياتهم وعلى جسور مآسيهم الانتحارية وشواطىء أحزانهم الآثمة»[١٤].

وغالباً مارأوا خلاص المجتمع في خلاصها، وغالباً ما وجدوا الفضيلة في العاهرة ذات القلب الذهبي، أكثر مما وجدوها لدى المرأة الساقطة، او التي تبدو شريفة.

وكان التفت الى مثل مخاطر منهجه النقدي لدى كتابته عن جبرا ابراهيم جبرا الذي صار الى كاتب ضعيف المستوى عند هلسا. ربما كانت بعض ملاحظاته في محلها، ولكن ليس ماكتبه حواريات. ان اعمال هلسا مبضعه النقدي، استناداً الى علم النفس وفهم التاريخ، في صنعة جبرا الروائية نافع في تشريح نمط أناني وشخصاني مسيطر على شخوصه وفعلية قصصه، ولكن ابعاد جبرا عن فن القصة والرواية لايخلو من تعصب.

ولعل خاتمة كتابته عن جبرا تعترف بمثل هذا التعصب:

«ربما كان من الظلم لهذه الرواية أن تناقش انطلاقاً من البناء الفني والمضمون اللذين تقدمهما، دون وضعها في اطار الرواية العربية والمستوى الذي بلغته، ولكن تلك، فيما اعتقده مهمة الدارس المتخصص، وما أنا الا ناقد متذوق، ليس النقد مهمتي الاساسية»[١٥]. الامر الثاني في شغله النقدي، بعد الأطروحة المركزية، هو حرصه على فهمه للفن كمعادل للتجربة الحياتية، وقد مارس ذلك في قصصه ورواياته، مثلما مارسه في نقده. واذا كان قد وجد في أسلوب تيار الوعي مايناسبه، في قصصه ورواياته، من باب ان هذا الأسلوب يعتمد على المهارة الفنية المقترنة بحضور الوعي دائماً، فان نقده يعيد انتاج فهمه للفن كمعادل للتجربة الحياتية باستمرار، فهو لايكل ولا يمل من ايراد التفاصيل الدالة على معنى التجربة الحياتية من علم النفس، الى

التاريخ، الى اللغة، الى الاقتصاد.. الخ، وفي دراسته المعنونة «التحويل الادبي» وهي نقد موسع للقصة القصيرة في دول مجلس التعاون الخليجي، اوضح بغيته على النحو التالي:

«دراسة التحويل الادبي تعني دراسة الشروط اللازمة لتحويل التجربة الحياتية الى أدب، وكذلك دراسة الموانع التي تعيق تحقيق هذا التحويل. هذا يعني بالطبع دراسة التحقق الامثل للتحويل، وتبين كل نقص في النص الادبي يحول دون هذا التحقق، الامثل. ماأود قوله: ان مناقشتي للنصوص الادبية سوف تنطلق من موقف التحويل الكامل، ولذا سيغلب عليها طابع التأكيد على النواقص»[١٦].

ويضيف:

«التحويل يعني القطيعة بين بنيتين: بنية الواقع وبنية العمل الادبي الابداعي. ثم اعادة الصلة بينهما باعتبارهما بنيتين مستقلتين، لكل منهما شروطها وخصائصها. وبهذا لايمكن احالة جزء من البنية الادبية الى جزء من الواقع.

مثال على ذلك، كثيراً مايقال في الدفاع عن شخصية او موقف غير مقنعين فنياً ان ذلك يحدث في الواقع. ولهذا فيجب قبوله فنياً. والرد على ذلك، أن الموقف يكون مقنعاً فنياً عبر خضوعه لشروط وخصائص البنية الفنية التي يكون جزءاً منها، لا من خلال احالته الى معطى واقعي مماثل»[١٧].

ان فهم الفن على هذا النحو يجعل الشغل النقدي انتقادياً،[١٨] على حد تعبير هلسا نفسه في ختام دراسته، بمعنى ان الناقد سيلجأ لا محالة الى جوانب القصور، وربما الايذاء النقدي بحكم عقلنة التأويل النصي، وتغليب عنصر الوعي على عملية التذوق. ولعل تركيز هلسا على نقد مايراه خللاً في فهمه للفن، هو الذي قاده الى تشريح النصوص المنقودة بقسوة لاترضي المبدعين على وجه العموم.

الامر الثالث في شغل هلسا النقدي، هو حرصه على البعد القومي لنقده، ولا يغرنا في هذا المجال استخدامه الواسع للمؤثرات الاجنبية، فهو انتقائي حذر في التعامل مع مايجافي البعد القومي. ان موقفه من قضية المكان في الرواية العربية مثال بالغ الدلالة على هذا الحرص، فهلسا هو الذي ترجم «جماليات المكان» لباشلار، وأشاع بذلك نمطاً من النقد والدراسات التي تبحث في المكان ونظرة باشلار الى الاشياء، والعناصر والمكونات والظاهراتية الحدسية التي تصلح لدراسة موضوع الخيال كالنار وما شابه ذلك.

قال في تقديمه للترجمة: «ان المكان بالنسبة لي يحمل خصوصية قومية، كما يعبر عن رؤية[١٩] والمعول في ذلك هو التجربة.

وفي دراسته عن «المكان في الرواية العربية»، وهي قدمت الى ملتقى الرواية العربية بالمغرب، وجد هلسا أن نجاح تحديث الرواية العربية يعني، فيما يعنيه، اعادة روابطها مع التراث المكاني في الادب العربي:

«والواقع ان مثل هذا المكان نادر الوجود في الرواية العربية. فالرواية العربية قد نشأت كامتداد للرواية الاوربية، وقد كان أثر الرواية الأوروبية قويا إلى حد ان تقاليدها المكانية فرضت نفسها على الرواية العربية. وبهذا قطعت الرواية

العربية روابطها مع التراث المكاني في الادب العربي»[20].

والامر الرابع والأخير في شغل هلسا النقدي هو استناد نقده الى العلم، فانت واجد في كتابته النقدية منطقية وعقلنة هي بعض اجتهاده وجديته واقناعه، ويتضح هذا في وضوح أسلوبه وتحديد وظائفه وسيولة حججه، حتى اننا نستطيع أن نسمي نقده ثقافياً، لغزارة المعلومات وقوة عرضها، محاججة وعمقاً، وأقرب تناولاً من القارىء العادي بالدرجة الاولى. ان مزية النقد الثقافي لدى هلسا تقربه من اصحاب المذهب النقدي، بوصفه جهداً مبذولاً قبل كل شيء.

وربما كانت الاشارة الى دراسته عن الشعر الجاهلي مفيدة في هذا المجال، لقد كتب هلسا دراسته ليقول، ان الشعر في صدر الاسلام فقد روحه، وان ذلك كان فاصلاً بين عهدين شعريين زاهرين، استمدا حيويتهما عبر الانطلاق من معطيات الحس المباشرة، فبعث المجّان جوهر التجربة الشعرية فيما بعد[21]، الا أن الدراسة تعدت التسويغ المرتجى لهلسا الى علم غزير مشهود، لايعتمد على النقل، بل العقل واعمال العقل فيما يوجه من نقد.

وعندما نقد كتاب باختين «قضايا جماليات، ديستويفسكي» حوّل قراءاته الى عرض ثقافي ممتع ومفيد لآراء منظرو ناقد، من الواضح أنه لايتفق معه[22].

هل لنا أن نقول: ان نقد غالب هلسا بعد ذلك عقلاني وصوت آخر للوعي في خضم مشروعه الثقافي الكبير: تطوير استجابة العقل العربي للصدمة الحضارية الحديثة؟

لاشك ان غالب هلسا لم يفهم النقد مجرد عملية ابداعية تنطوي تحت منهج تحديداً للفعالية الادبية، بل أراده أداة معرفية في سياق التطور الحضاري القومي العربي، وهنا تكمن فضيلته الكبرى.

هوامش واحالات:

(١) من شهادته حول حاضر النقد الادبي العربي. في كتاب عبد الله ابو هيف: «الادب العربي وتحديات الحداثة - دراسة وشهادات» دار الصداقة - بيروت ١٩٨٧ - ص ١٣٣.

(٢) نفسه - ص ١٣٣.

(٣) هايمن، ستانلي: النقد الادبي ومدارسه الحديثة - ج ٢ - (ترجمة احسان عباس ومحمود يوسف نجم) - دار الثقافة - بيروت الطـ ٣ - ١٩٧٨ ص ٩ - ٥٣.

(٤) شهادته نفسها.

(٥) لغالب هلسا أيضاً سبع روايات ومجموعتان قصصيتان وعدة دراسات فكرية وبعض المترجمات.

(٦) لقد ظهرت عدة مقابلات مع هلسا بعد وفاته بأقل من شهر اذكر منها:

١ - حوار مع الروائي العربي غالب هلسا - أجراه خالد الاحمد - في جريدة «العروبة» (حمص) ٢١/ ١٢/ ١٩٨٩.

٢ - استخدمت ديانا جبور حواراً مع غالب هلسا - كما ذكرت - لم تنشره في كتابتها عنه تحت عنوان: «آخر حديث للراحل غالب هلسامع جريدة الثورة» في جريدة الثورة ٢١/ ١٢/ ١٩٨٩. على الرغم من انها لم تذكر أنها تنشر حواراً.

٣ - غالب هلسا في حديث سبق رحيله - اجراه جهاد فاضل في «القبس» (الكويت) العدد ٦٦٣٠ تاريخ ٢٣/ ١٢/ ١٩٨٩.

٤ - حوار طويل حول الرواية - عمار الكسان في «البعث» - العدد ٨١٣٨ تاريخ ٢٥/ ١٢/ ١٩٨٩ ص ٨

٥ - «تشرين» في آخر حديث للاديب الراحل غالب هلسا - اجرته لينا نويلاتي - في جريدة «تشرين» (دمشق ١/ ١/ ١٩٩٠.

٦ - وكان أعاد خالد الاحمد نشر غالبية مادة هذا الحوار تحت عنوان «حوار أخير مع الكاتب والروائي غالب هلسا» في جريدة

«البعث» (دمشق) ٩/ ١/ ١٩٩٠.

على انني لاأثق بغالبية ماجاء في هذه الحوارات التي ربما تستدعيها المناسبة، أو تكتب من الذاكرة، لاسباب كثيرة، اذكر منها، اشارة لما جاء في حوار مع نويلاتي، كثرة الاغلاط والجهل الذي اربأ أن يوصف به غالب هلسا كما يظهر في هذه الحوارات، فرواية «رامة والتنين» لادوار الخراط وليست له، ليقول: «تماماً كما حدث معي في رواية رامة والتنين» التي قضيت في كتابتها سنوات تسعاً هل يعقل ذلك؟ أمر مروع.

(٧) شهادته نفسها ص ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٨) حواره مع جهاد فاضل في «القبس» (الكويت)

(٩) نفسه

(١٠) شهادته نفسها ص ١٣١.

(١١) هلسا، غالب: بؤس العقل النهضوي - في مجلة «المعرفة» (دمشق) العدد ٣١٨ - ٣١٩ كانون الثاني - شباط ١٩٩٠ ص ص ٢٨٦ - ٢٨٨.

(١٢) هلسا، غالب: قراءات في.. دار ابن رشد - بيروت - ١٩٨٠ - ص ص ١٦٥ - ١٦٦.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) انظر على سبيل المثال:

- القشطيني خالد: الساقطة المتمردة - شخصية البغي في الادب التقدمي المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٠.

(١٥) قراءات في.. ص ٩٧.

(١٦) هلسا، غالب، التحويل الادبي - في مجلة «الموقف الادبي» (دمشق) العدد اب - ايلول ١٩٨٩ ص ص

(١٧) المصدر نفسه - ص

(١٨) المصدر نفسه - ص

(١٩) باشارة جماليات المكان (ترجمة غالب هلسا) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت ١٩٨٤ (الطـ ٢) - ص ٦

(٢٠) الرواية العربية: واقع وآفاق - ص ٢٢٤.

(٢١) هلسا، غالب: العالم مادة وحركة - دراسات في الفلسفة العربية الاسلامية دار الكلمة بيروت ١٩٨٤ (الطـ ٣) - ص ٩ وص ١٤٣.

(٢٠) هلسا، غالب: «قراءة نقدية في كتاب: قضايا جماليات ديستوفسكي لمخائيل باختين» في مجلة «المعرفة» (الكويت) - العدد ٣٦٤ اذار ١٩٨٩ - ص ص ١٠٣ - ١٠٨.

الانسان في رواية غالب هلسا
زاوية الرؤية وموقف النقد الادبي

● موسى السيد

بقدر اطلاعي على النقد الادبي المكتوب عن روايات غالب هلسا بعد صدورها، وهو نقد يأتي في الغالب في الصحف اليومية وبعض المجلات غير المتخصصة. لا حظت وجود التباسٍ واضحٍ في تناول الرواية لدى هلسا من قبل النقاد. وظهر هذا الالتباس في حوارات كثيرة منشورة. فحين يتحدث النقد عن البناء والصعود ولغة الرواية لدى هلسا، يجد الكثير من أوجه التقريظ، اما حين يتوغل في رؤية العالم الروائي الذي صنعه غالب، فان إشكالية فكرية وسياسية وفنية تبرز على سطح الكلام، وتتحدد هذه الاشكالية بالاساس في رؤية الكاتب للانسان، أي الشخصية الروائية.

وقبل الحديث عن ذلك اسمحوا لي أن الخص وجهة نظر سريعة ومتواضعة بصدد الرواية لدى غالب هلسا.

١ - انتقل غالب هلسا بلغة الرواية من التقريرية. واللغة الشعرية المحلقة التي لا تقول ما هو مشخص، الى الانسان والحركة الاجتماعية الملموسة والقائمة في زمان ومكان روائيين وعلى صلة تماٍ بالزمان والمكان الاجتماعيين. وليس من شك في ان هناك من الروائيين العرب من سبق

غالب في هذا، وهناك من سار معه وعاصره، في تجديد وإعادة تجديد لغة الرواية العربية، وهذا كما ارى لا يقلل من قيمة غالب الادبية، بل في الواقع يضعه بين الكبار من كتّاب الرواية العربية. فقد أعادت الرواية العربية إنتاج ذاتها والعالم في أفضل نماذجها، حين صنعت مسرحها الاجتماعي الإنساني، وكان هذا المسرح على صلة بينة بالمسرح الاجتماعي الواقعي، وبمضامير محددة منه حسب موقع الكاتب، وعقيدته الفنية، والعوامل المؤثرة للوقوف ضد استسهال لغة الرواية، أو الشرود مع الافكار اللامتعينة، وكأن الانسان فيها ظهر بملامح مميزة، ومن زاوية رؤية يمكن تحديدها بقدر ما من الدقة.

٢ - نجح غالب هلسا في تقديم لوحة نثرية روائية عربية اتسمت بالشمول الاجتماعي والجغرافي. فكان منفى الكاتب بين العواصم العربية عاملاً موضوعياً في ذلك. إلّا أن حساسية الاديب الفائقة أتاحت له، مالم يتح لغيره ممن تعرضوا للنفي والتشرد وإذا وضعنا في الاعتبار أن لغة الشعر تعنى اقتناص لحظات الفكر والشعور، ولغة الرواية تعنى بملابسات عيش الانسان المشخصة اجتماعياً، فإن لغالب هلسا فضل الريادة في تقديم شخصيات روائية عربية من أكثر من قطر عربي..

٣ - كانت رواية هلسا لصيقة جداً بتجربته الشخصية، حتى تكاد تكون تاريخاً روائياً لهذه التجربة. ورغم هذا فان رواياته لم تكن كناية عن مسيرة شخصية لكاتب، وضعت في قالب روائي. اذ صنع غالب عالماً روائياً متكامل الابعاد في الاحداث والشخصيات، ويكاد المرء يعجز عن الجزم عما اذا كانت هذه الشخصية أو تلك، في أية رواية من رواياته هي غالب هلسا الانسان.

٤ - إن هلسا مولع بالشخصيات الانسانية التي يرسمها في رواياته - وهو ما تميز في حياته اليومية أيضاً - وانعكس هذا الاهتمام الذي يبلغ حدود الحب العميق بملاحقة الشخصيات الروائية حتى بدا في الكثير من الاحيان وكأن الروائي يضع شخصياته في مختبر نفسي خاص به ويحاصرها حتى تبوح بكل ما هو دقيق فيها.

٥ - كان غالب رجل، فكرٍ وأدب ونقد، وكان ثوريا يحمل ايديولوجية ماركسية، لكنه نأى عن القوالب الجامدة في فهم ورؤية الادب والرواية والنقد، ولم تكن الماركسية، لديه ديناً لا في السياسة ولا في الفكر ولا في الادب. ولعل هذا الامر بالتحديد، قد عرض روايات هلسا للكثير من سوء الفهم والالتباس، من وجهة نظر النقد الروائي اليساري اذا صحت التسمية. إذ بدا غالب بالنسبة لبعض النقاد وكأنه طائر يغرد خارج السرب الماركسي، رغم كونه ماركسياً.

إسمحوا لي أن أزعم أن النقد الادبي العربي المنطلق من مواقع يسارية، وفي غالبية تطبيقاته يضع ما يجب ان يكون عليه الإنسان فوق الواقع المشخص والإنسان الملموس، وهو لذلك يبحث عن مطلق تجريدي لا وجود له. اما شخصيات غالب هلسا الروائية فإنها، لا تستجيب لقيود هذا الصنف من النقد، حتى حين تكون حاملة لترسانة إيديولوجية متصلبة. انها تستجيب لشروط الحياة وعالم الرواية، ولا تعبأ بإملاءات نظرية خارج زمانها ومكانها

وتكوينها وملابسات ذلك كله. وهي تستجيب لما هو بطولي وعادي وتافه في إطار ملابسات نسيج الرواية ذاتها.

لغالب وجهة نظر بهذا الشأن تستوجب إعادة القراءة والنظر في رواياته، فقد ساد النقد الايديولوجي الدوغمائي فترة طويلة من الزمن، وحوى هذا النقد الكثير من الهجائية وسوء النية وحتى الطابع الدكتاتوري الصريح في فهم اشكالات الابداع الفني والادبي، ومن يقلب الكثير مما كتب في هذا الميدان، يرى واقع وجود مسطرة مسبقة تقاس عليها الرواية، فإن ظهر ان الاخيرة - أي الرواية - لا تستجيب للمقولات الفلسفية والاخلاقية المجردة، فإن صاحبها إما متأثر بأفكار معادية، أو أنه برجوازي صغير، وفي أفضل الاحوال لا يستحق أكثر من الصمت. وقد نال غالب هلسا الكثير الكثير من ذلك، بل يكاد يكون الروائي العربي الاول في مقدار اساءة فهمه في النقد.

تنطلق رواية غالب هلسا، من نقطة بقدر ما تبدو بسيطة فإنها عصية على الفهم احياناً، وهي ان الشخصيات الانسانية هي التي تصنع نسيج علاقاتها وخصائصها الجماعية والفردية، في ظروف معطاة زمنياً ومكانياً وفي إطار ملابسات ممكنة التحديد في كل مرحلة، وواقعية رواية هلسا، تكمن في كونها لا تبحث عن الاستثنائي في الانسان، عن لحظة التألق وتحيلها الى مطلق، بل ترى الانسان كما هو. وغالب هو القائل ان النقد الايديولوجي الدارج هو الذي يريد ان يحيل البطل الايجابي الى بطل على مدار ٢٤ ساعة في اليوم، وهذا مستحيل. فالبطل ليس لحظة تنفجر، بل هو انسان وكائن ارضي، ومهما حكنا من اساطير حول البطولة، فان البطل يأكل ويشرب وينام ويتعب ويغضب ويضعف وقد لا يكون بطلاً في هذا الموقف أو ذاك. وهذا لا ينفي ما هو إيجابي، ولا صفة البطولة. فالكثير والكثير جداً من الناس البسطاء يقدمون حياتهم في لحظات استثنائية فداءً لوطنهم أو لقضية ما، وهم لا يفكرون بكل ما يخطر في بال الكاتب من تأويلات لهذه البطولة، وهؤلاء قد لا يظهرون في رواية هلسا، كما يحبذ النقد الايديولوجي المتصلب. فهذا النقد لا يرى الانسان باعتباره حصيلة معقدة جداً لصراعات ونزعات اجتما- نفسية - اخلاقية وان قوة مثله تكمن في كونه كذلك، وليس بافتراض سوبرمانات ثورية، نقيضه لسوبرمانات سود في الصنف المنحط من الرواية الامريكية.

ورواية هلسا تنظر الى الانسان من هذه الزاوية بالذات. فهل يعني ذلك نجاة الكاتب من المبالغة في اختفاء ما هو غير واقعي على صورة انسان واقعية في الرواية؟ نعم، كما ارى وسأختار نموذجاً اساسياً للتدليل على وجهة النظر هذه. لقد اختار غالب في روايات «سلطانة» فتاة قروية الاصل، ونضحها بروح واضح إنها نتاج صالونات العواصم التي تضم نساء العوائل الارستقراطية العريقة اللواتي يلخصن رؤيتهن للعالم من خلال الانتباه المفرط جدا لايقاع أجسادهن في عيون وقلوب من يحيط بهن.

فسلطانة كشخصية روائية موجودة بالتأكيد، لكنها لا يمكن أن تأتي من الريف، كما أراد غالب لها - لكن رؤية هذا الامر في النقد

شيء، والافتراض بأن الماركسية، صالحة لمعالجة السل بدواء ايديولوجي شيء آخر!.

فقد تعرضت روايات غالب هلسا، للكثير من النقد الملتبس جراء تركيز بعض شخصياته الروائية على الجنس، ومادام اليساري الواقعي، واقعياً في النقد، فانه يرفض ان يرى نوازع البشر العادية، فكيف بالنوازع الجنسية. من هنا فانهال النقاد ضرباً على رواية غالب، لإخفاء سوء النية القائم على رفض رؤية انفسهم والناس كما هم، أي بشر - اسمحوا لي إذا كان كلامي قاسياً. لكن من المؤسف بحق ان ينشغل النقد العربي بأسطورة أوديب، أو عقدة أوديب، لكن حين يظهر نص عربي معاصر يمس هذا الموضوع من زاوية ما، تثار كل غرائز القبيلة النقدية، ولا يعامل النص معاملة الاسطورة القديمة. أي باعتباره مادة للبحث والتمحيص والنقد. وفي مثل هذه الحالات ليس من النادر ان يصبح الناقد موضع اتهام شخصي. وكأن الروائي هو نسخة مكررة عن كل شخصية انسانية تظهر في روايته.

والنتيجة التي يخلص اليها هذا الصنف من النقد، هي السعي لالزام الكاتب بالحديث عن انسان مفترض، نقي، طهراني، يلبي المثل، وليس الانسان في ملابساته والتباساته الواقعية - وينسى هذا النقد - ربما دون ان ينتبه - حقيقة ان عظمة أية شخصية روائية تنبع من فرادتها الانسانية، وليس من «النمذجية» المسقطة تعسفاً فالفرادة الانسانية هي مجموع معقد لما هو عظيم ومقدس وتافه ويومي في حياة الفرد الخاصة والاجتماعية.

عندما كتب بتهوفن سمفونية «البطولة» واهداها لنابليون كان الفنان يرى في نابليون مخلصاً لأوربا والعالم، لكنه لم يكن يفكر بمحنة نابليون مع زوجته جوزفين مثلاً، وكيف كان يتصرف في بيته، لم يكن يرى فيه شراً، بل «روح العالم» لكن اذا كان ذلك ممكناً في الموسيقى فانه في الرواية، لن يكون سوى نابليون الواقعي.

ان سوء الفهم والالتباس الملحوظ في النقد حول الرواية لدى غالب هلسا - وليس هو بالوحيد في ذلك - ينبع من وجود مصادرة على المطلوب. اذ يوجب النقد على الكاتب انتقاء شخصيات محددة واحاطتها بهالة اسطورية خيالية، ونسيان الانسان العادي الذي نراه في الحياة اليومية، والذي قد يكون بطلاً في لحظات تألقه الانساني، لكننا نعرفه أيضاً فرداً تتنازعه الاهواء والنزعات ونزوات قد لا تنطبق بالضرورة على مثال البطولة النقي.

اريد ان اخلص مما سلف الى نتيجة تقول ان مثال الشخصية الروائية النموذجي، كما يفترضها النقد السائد، هو قتل للفرادة الانسانية، وبشكل مباشر للبطولة وللمثال البشري، من خلال تحويل هذا المثال الى افكار خاوية. والان يمكن أن نتساءل ماذنب الرواية أو الروائي، اذا تفحص الانسان بجماع ما فيه من نزعات وأوجه ضعفٍ وقوة؟ من المؤكد أن ليس للرواية أو الروائي ذنب في ذلك، كما اننا لا نتهم الانسان لانه يعيش كينونة ملتبسة.

ان روايات غالب هلسا تعبر - من خلال مسرح اجتماعي سنأتي على ذكره - عن هذا الالتباس بأكبر قدر من الدنيوية في رؤيتها الحركة الاجتماعية روائياً، وصياغة هذه الحركة بانها هي

مع حركة المجتمع الواقعية، وكل هذا مؤطراً في رواية هلسا بمضمار تاريخي زماني مكاني داخلي وخارجي، واعني بالداخلي هنا زمان ومكان الرواية، وبالخارجي الزمان والمكان الواقعيين.

من المآخذ المكررة على رواية غالب هلسا، ان رواياته تنمو باتجاه تصوير الملامح السلبية لدى الانسان. أي أوجه الضعف الانساني المختلفة.

ونحن نجد في رواياته هذه الملامح بالفعل. لكن هذه الصفات لا توجد منفردة في كل شخصية روائية، بل تدخل في شبح تكوين الشخصية بجوانبها الاخرى، واظن ان هلسا لم يأت بذلك من خياله، ففي ظروف التقلبات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها الحياة العربية منذ الخمسينات حتى الان، ظهرت قناعات حول دوران هذه الحياة في الحلقة المفرغة - واحتلت الشخصية السلبية أو القريبة من ذلك مساحة واسعة من مسرح الرواية العربية في افضل نماذجها، ولدينا فئة من كبار الروائيين العرب تبدأ بنجيب محفوظ، وقبله لطفي المنفلوطي، وتمر بغائب طعمة فرحان والطاهر وطار وشريف حتاته وعبد الرحمن منيف وصنع الله ابراهيم وغيرهم، ممن كتبوا روايات تحكي عن نسيج اجتماعي محدد، هو نسيج المدينة العربية الجديدة، وادوار البرجوازية الصغيرة فيها. ولم يهتم هؤلاء أو غالب هلسا، في أغلب ما كتبوا بالقطاع الاجتماعي الذي يفرز شخصيات بسيطة شعبية مسكونة بالبطولة والويلات والدراما.

والنقد لا يستطيع ان يلوم حنا مينا لانه اختار شخصياته من الوسط الشعبي في جميع رواياته، كما لا يلوم غالب هلسا لانه كتب عن مجتمع المدينة العربية الفعال والنشيط والقائم، فبهذا تتميز رواية غالب هلسا عن نماذج الرواية العربية بأفضل ما انتجته من نماذج؟

ان روايات هلسا - كما أرى - لم تكن استثناءً، الا من زاوية واحدة هي ذلك الاهتمام الحميم والحار بالانسان، ودواخله ودوافعه وغرائزه للحد الذي تبدو فيه العناصر غير الانسانية في الرواية - واعني مكونات مسرح الرواية غير البشرية - مجرد ديكور يسند تظاهر روح الانسان في مواقف وخلجات واراء وأحاسيس ومشاعر.

ولهذا نلاحظ ان رواية هلسا حين تصور ما هو خارجي، فانها تصوّره من زاوية كونه منعكساً في نفس الانسان، ولهذا أيضاً نحن لا نجد في رواية هلسا بناءً ضخماً ملحمياً، بل هندسة دقيقة جداً للفرد الانسان وملاحقة في غاية الامتاع لدقائق هذا الكائن العجيب.

ان كل تصنيف أدبي أو فني - كما ازعم - يستند الى امرين هما: زاوية الرؤية في النص، واسلوب فهم الانسان والعالم. وكانت زاوية الرؤية لدى غالب في رواياته واقعية، لكنها واقعية مؤنسنة اذا صح التعبير، وضعت هاجسها في الانسان ذاته. وانسان هلسا فيه الكثير جداً من بصمات الحياة، اذ كان مخترقاً بفعاليتها وبزخم اقطابها المتناقضة، وربما لهذا السبب نحن لا نعثر على شخصية رومانسية في روايات هلسا، فالرومانسية، لحظة عابرة في حياة اية شخصية من شخصيات الرواية، وأود أن أعبر عن انطباع شخصي، ذلك هو أنه بالقدر الذي تشيع شخصيات روايات هلسا الاحساس بالدفء، فانها تبعث بعض البرد في مكان ما من انفسنا.

فهل هو التباس الرواية؟! ام التباس الانسان ذاته؟! أم لان غالب يزيل الطبقة الخارجية عن نفس الشخصية ويضع امامنا بعض ما لا نستطيع التفكير فيه بصوتٍ عالٍ؟ وشكراً لكم على الاستماع.

الفارس الوحيد والكاتب الشهيد : المرحوم «غالب هلسا»

● د. عبد الرحمن الكيالي

وحيداً كنتَ في الميدان لاتهدا ولاتتعبْ
وحيداً تركب الأخطارَ لاتعيا ولا تُغْلَبْ
وحيداً توقظ النُوّامَ إن لم يسعفِ المطلبْ

وحيداً كنتَ تحمي النور حين تدفّق الظلمُ
وحيداً في ظلال الحق تثْبت خطوَك القدمُ
وحيداً من وراء السجن كبرَّ باسُمك القلمُ

وحيداً كنت في الميدان: يخشاك الألى كثروا
وحيداً هابك الطغيانُ لما صرّح الخطرُ
تهاوت حولك الأوثان وهْي عليك تأتمرُ

مقالك كانَ للأحرار ورداً أينما ثقفوا
ورأيك كانَ للسارين صبحاً ليس ينكسفُ
وأنتَ القطب، أنت النهر، مهما صحبك اغترفوا

فصيحاً كنت في صمت لطيفا كنت في كِبْر
عفيفاً عن رخيص القول في عسر وفي يُسْر
ابياً كنت سباقاً اذا تُدعى الى الخير
رأيتك غالباً من عزٍّ في الأقوام أو بزّا
تباري الشمس إشراقاً برأي للنهى يُعزى
وتهوى الصدقَ مرتاحاً إليه فتزدهي عزّا

٢

سلام! يا غريبَ الدار! كم لاقيتَ من شدّة
كتابُك موئل الأحباب مذ طالت بك المدّة
وتحتَ يمينك الأقلام «أنصار بلا ردة»!

رأيتك في سواد الليل نجماً يهتك الظلمةْ
ورأيا لاييالي القيد حين يحاصر الكلمةْ
وطوداً شامخاً يعيا به الاعصار ذو النقمةْ

كلامك كانَ موزوناً بقدْر الحرف والنُقطةْ
ورأيك كان منهاجاً فصيحاً دونما غلطة
فَلِمَ كانت عليك الغربة الصماء مشتطة؟!

عرفتك غير انى صرت منهوماً لمعرفتك
فأية لفظةٍ من فيكَ أرنتني الى جهتك
فَلِمْ فارقتنا عجلاً وقد كنا أولي ثقتك؟!

لئن عدتَ الى الأوطان محمولاً على نعش!
فبرُّك سابق منذ غبتَ عنها رابط الجأش
فنَم في تربها الطهر شهيداً جلَّ عن جيش

وقفت تحطم الأوثان باسم الحق والعلْم
ورحت تهدِّم البنيان مذ قام على الظلم
قوياً تدحض البهتان بالعقل وبالسلم

٣

غَلبتَ وأنت مغلوب!.. فكنتَ الغالبَ الأوحدْ
وعشتَ عدوَّ كذّاب وأفاق له يُشْهَدْ
فكنتَ الشاهد البرهان لما صرّح المشهد

سلام! يا أخا الأحرار! غرِّد باسمك القلم
وروّى لحدك الابرارُ حين بنهجك التزموا
سيبقى دربك المختارُ درباً فيه نعتصمُ

كلامُكَ شرْعة الاجيال يَدْعوها إلى المَجْدِ
وفعْلُك سيِّدُ الأفعال في هزْلٍ وفي جُدٍّ
فأحي بذكرك الأمثالَ واسكنْ دارة الخلدِ

سيبقى ذكرك المعطارُ للجمهور ريحانا
يشدُّ عزيمة المنهار منّا والذي هانا
ويرفع راية الاحرار في أجواء دنيانا

لئن سارت بنا الأقدام في شوكٍ بلا وردِ!
فإنا رأينا الاقدام في جزرٍ وفي مَدِّ
محالٌ أن يعيش الذام فينا ساعة الجَدِّ
سيمحو فجرنا الأوهام ما دُمنا على العهدِ
ويحيا «غالبٌ» فينا عزيزاً واريَ الزند

عمان/١/٢/١٩٩٠م

الأسئلة

● سامي عودة

في ساعات غير معينة من اليوم، تصارع أفكارك بضجر، تحاور ذاتك، قد تنسد سبل، أو تنفتح أخرى. قد يخطر ببالك، أنك وحيد ومعزول، أو أن عليك أن تفكك العالم. تعيد تركيبه من جديد، حسبما يجب أن يكون البديع من الصور. زهرة الاركيديا على النافذة، موسيقى هادئة، افلاطون يحاور سقراط، ماركس ونهاية الصراع الطبقي، بلاد العرب واحترام ابن رشد وابن خلدون، المعتزلة في حوار العقل ولا صاحب شرطه. ياه.. يالروعة السذاجة تضرب الهواء. مفاتيح عقلك يا عقلي لا تفتح الا الهواء. أنت الان في سكرة العبث ثمل، ما العالم الا أزل في الشقـاء، ما اللغة، الا سعي دؤوب في درب التعبير عن الحيرة والقلق.

هل أنا وحدي، تسألني الذاتُ المرهقةُ، تجاوبها الذات المغلقة، نعم أنا وحدي. ثم

حصار، ثم خروج، فخروج، فخروج، الى لا نهاية. تصحو من مراياك المبكرة. لستُ وحدي، لستُ وحدي. لا، لا، هي، الجماعة مثلي، وبأس، من تغرب، من حمل شعلةً، في ليلة ماطرة ليرى، من حمل مصباح ديوجينْ ليرى، ولم يرَ، وظلَ يفتشُ مثل، غالب، الذي لم تسعه مناسبات المدن المتشابهة. السفرة الواحدة مضت، ويا روحي المحملةُ بالتردُد، دوري بين قطبي الرحى، اليأس والمقاومة، دوري يا روحي.. دوري، دوري، فأنا ملاّح صغير في هذه اللُجة.. إنما أنا، قلق عبق بالخيال والرؤى، والخطى المتعبة، محض خيال حط على شمس فذاب، بذا تُشبه الخطى شكل الروح. إنما هي أقدام تسعى في مناكبها، تتعشم انطلاقتها من قيدها تنطلق من إسارها قلقة، والجسد ساحة لمعاركها. والذي يقتلُ الجسد قد لا يقتل الروحُ، إنما من يقتل الجسد يقتلها. تُشبه بلادنا، بلادنا، وارواحنا تُشبه الشفاه، والغيوم قُبل، وموتنا الواحدُ الأحدْ جبارٌ راقصٌ، غائرٌ في تفاصيل اختياره، عليكَ أن ترفع له القبّعة ليمر، وأن تُسجي القمر من على شرفة العين، وان تمتدّ من حطام الى خراب، كي تدرك أن الموت لا يغرق في التفاصيل، إلّا لأنه يُحبُ العصافيرَ التي تطيُر، لا علاقة له بمواسم الزواحفِ الرابضةِ، فأتى من أزمانٍ الى أزمانٍ، وشكلك يتقدم كعصفور صحراوي، أخذ لون الرمل وطار، يُرخي سيّدنا الصحراوي أطرافه، فنودعه قُرباناً آخر ليفرح سيد الموت، عصافيرُ كثيرة مضتْ، رسمتْ شكلاً لجواز المرور، لزهرة ليمونٍ تفوحُ على صدرِ امرأةٍ من بلادنا، تخلع قفص النافذه وترمي وردةً لعاشقٍ يمرُ وسط الظهيرة، لا في منتصف الليل.. فضاء، ياه أعاود رغباتي ثانية، رسوم ناجي العلي تخرج منه إطارها، وقصائد خليل حاوي، تداعب شعرَ أناشيد تيسير سبول، وطرقات بلادنا تتسع، لحوارات الجدل، الطويل، الجميل. وما بين عقلين مساحة لأثينا، يمر ارسطو، افلاطون، ديكارت، ابن رشدٍ حتى ينكشف السؤال. أو بعضه.

وتسقط من لُجة الوجوم الى احتمالاتِ هرمة عجّزتها آهاتُ الندامى الطالعين من اسبارطةَ، الى الزنج في المُختار. يُنشدون شدّة الربو، في المستنقعات، ومن وجوم الى وجوم، نرسم أطفالا وسيمينَ في ثيابٍ زاهية، هي قصة جديدة، وهمْ نطلقه كي نتوسده، ساعات الليل الآبقة، ومن نحله صابئةٍ نتوسمُ عسلاً الى شجيره دفلى زان ضرعها، فتندّت وقت اليباس، السلام الأبدي مضى وما عاد، عاد دون وجل. يعتذرُ القتلة لقاتليهم والحوارات لا تتبدى الا في جثة خامله و.. وسؤال الأسئلة ان تعرف لغةً مختلفةً، ان تخرج من التداخل ألّا تُشبه ظلك، ان تتمايز ان تكونَ قابلةَ رحم الموت. انْ تكتبَ رسائلَ لامرأةٍ وانت موشكٌ على الغرق. ان تحفظَ آثارَ أقدام من مرّوا على الزجاج المهشّم. ان تحضن ظل امرأة في الضريح الأخير من الليل، ذهبت نحو لا هدف في الهزيع الأخير من الليل نحو لا هدفٍ، انْ تُحس بجدوى الحركه. ان تقترح أسئلةً دائماً وتقطع الورقَ. وانْ تعاودَ النفخَ في قربةٍ مقطوعةٍ وترقص. انْ تمشي الطريق بعناد

وانت تعرفُ انكَ لنْ تصلَ. ان تحملَ إضبارات مليئةً بتاريخ يعاود ذاتهُ عادياً كالفضيحة.. ان تقولَ: بلغَ الجنونُ سنّ الرُشْد، بلغ أن يفتي بالكشفِ عن سر الوردةِ اليابسةِ. وبالهذيانِ آخر الليل، عن أول الليل. وان يحلم بمسيحٍ قُرمطيٍ جميل، أمير يدعو لثورة الزنج في المختارة، أو الأهوازي في البصره يتململَ. يتكيء على تعبٍ، يستريحُ أو ترهقُه مؤونةُ الغد المحمل بالأعباء، ولا بدّ انْ يمُرَ تحتَ خط الطباشير، قد يصل أو لا يصل، تلك قصةٌ أخرى. ها إن وجهه فيه ندوبٌ كزنجي يتمايز قبيلةً، واصلاً.. آه من هذا الضجيج الكوني ومنْ السراب المتبدّي. فارساً جديراً باللحاق. وآه من هواءٍ ملوث اعتدته. ذهبت الشفاه التي تعودتها، لابأس لابد أن تتعود، امطر الهواء قبل اترك قبلةً لابد تصل. واتركْ الأفكارَ لابد تصل، هو الكونُ سؤال التعب المعتق، لابد بثقه بهذا الغبش المسائي الجميل، ثمة جمال سيصل، لنْ يبتعد، وان ابتعد. تحمل اوزارك كلّها، أوسمةً لجنرالٍ، دون راياتٍ. يعلّقها على شباك روحه، حيث تلُم ما أدبر منها لتعاود الطيران في فلواتها. أوّاه من هذا التسربل بالسؤال الأبدي، أكاتبُ، أباحثُ في بقايا النار عن جمر، والريح شديدة ليدفيء ليل القوافل، أم سامر يغني لامرأةٍ خرجت من ظلام القرونِ قبل قليل، أم بطريق هجر الماء الى شاطيء، كثر فيه الصيادون؟. أم حمامةٌ زاجلةٍ تنبيءُ بالغرقِ السفنَ المصدعه؟ أم غرامشي يغذ الخطى في النقاباتِ، ويُلحق بجريدته المقالَ، ليعود قبل الفجر الى زنزانته؟ أم سقراط يتجرع السم دون امتعاض، كي تزهرَ فكرةٌ في المكروبول؟.

عليك أن تحمل الفكرة، وضد الضد فيها، وان.. ان تبالغ وتذوب في شرنقةِ لا تنتهي بعد. لك هذه الشظية الملونة، ولك تنزاح ستارة الليل المرصعة بالهتاف الأزلي، وضدُ الضدِ فيكَ، حريق كلما فترتْ شُعلته عاد الى البدايه، وضد الضدِ فيكَ، خاتمة كل مره، لم تكن النهاية. يا من ترسمُ في ظلال الشيوخ سفر الحكمةِ لا قلقَ الموتِ المبكر، ولا تقبسُ إلّا من روحكَ نوراً لسراديب محكَمة، تُعاود رسم النهد على الصدر الممسوح بمذلّة. تنهد عليك حوائطُ اسمنتٍ فتوقفه على نشيد لا ينتهي، أوله في نقطة ما، في جنوب، لا ينتهي الا جنوباً، في مناخ سدّ عليه فيه الشمال سؤال التنمية.

يعود غرامشي نحو تأمل جديدٍ هذا جنوبيٌ بالسليقةِ وذاكَ لينين واتقاد الفكرة،... يعود الى كراسةٍ قديمةٍ، تمتدُ من الشمال الى الجنوب، كل العالم يوتوبيا أو كل العالم فلسطينْ. يتوسد غرامشي طوبةً تُقربهُ من فاتنةٍ أو من الارض. لا فرق. يحاور كأس النبيذِ المعتق فيذوب في قطرات الكأس في قدّاس لا ينتهي. لامياه مقدسةٌ، ولا مساحة لاجتناب المعصية، تبالغ في التقوى، تلك عمّان ومرتفعاتها الجبلية، مكتنزة بالأسرار، حانات يتقاطر روادها، من أول الليل الى آخر الليل، يعبّون من كأس على صوت لحن مسمم، بالذكريات الثقيلة. زهرة تضحك بلكنة متواترة، صاحبة لابأس لو جننت بها، لا بأس لو فكرت ان ترضع نهد الشهوة العطشى، لموسم ساحرة المواقيت التي تقرأ آيات الماحكة، في العقول

المقفله.

عمانُ نُقطة البدء، وعمانُ قافلةٌ ثكلى، ضاع فيها الرهبان الثوريون قبل منع التجول منذ ثلاثين سنة، وعمان تنزل من جبالها الى سهولها حباً بالأستواء. وغرامشي عابرُ سبيلٍ يطرقُ باب المدن. كي تنفتح، وهو آخر، من بلغوا سنّ رشد الجنون. انتحر تيسير قبل أن يفوه بأية، عندما خذلتهُ الجيوش، وعندما فقد اللوز تربةً صالحة للّقاح.. هذا القلب لا يحتمل. كأنما هو غشاء بكارة، لا يصلح الاّ لمرة واحدة. حَلُمَ غالبُ بأن يقفل الأندلسَ على الأندلس. ان يوقظَ المدن النائمة. تعاودني صور من مرّوا تعودُ تُلح مرّة أخرى. ها الكون وترٌ، يرسم العليُّ غير ذاتِ الصورِ، ها ارسطو يعيدُ تكوين المحاورة من جديد. وابن خلدونٍ يرتبُ الطبيعة والبدو والعربَ وينفضُ ما تقدمَ وما تأخر. ها خليلُ خاوي ينشدُ للجسر المارّ من كهوف الشرق، الى الشرقِ الجديد. من هذا الذي يشدّنا دون اذنٍ من أحلامنا الكبرى؟ درب ضياع، يشيرُ الى طريقٍ متعب، ها فلسطين غرناطةٍ جديدة. وهُيولي السلام والرايات البيضُ في عرضِ السماء. علينا يا صديقي، أن نلمَّ الأسئلة. احتراماً للهيولي المازحِ، أن نصطفَّ لآخر قائدٍ حزمَ حقائبهُ وغادر، وهو علينا جنرال. عد الى رشدكَ يا سقراطُ. هل أتاكَ حديثُ الإخوان، عن امهاتنا المجنونات وهل تحلّق نوارس العقل فوق فكرة ميتة، أم يعجبك حديث المبايعة في المكروبول؟ هل خلعَ شيخُ القبيلةِ لباسهُ القديمِ ليرتدي جديدا أم جديدا فوق القديمِ؟ هذه يا سيدُ بلادنا في عرس الغولة الكونية، ووليمته بالكاد تكفيها، وان كانت البحار والطبيعة.

هيولى بحجم المحيطُ. هيولى بحجم الخليج. سنرحلُ في فكرةٍ جديدة، يلم غرامشي مثقفيه غير العفويين ولا يكترثْ، من حاناتهم من نسائهم. قد لا يعود غُودو ولكنْ لا يصلُ العبثْ. من لفّ ماركسهُ ولينينهُ بالورق المقوىّ ولا صراع ولا يحزنونْ يتنعّى. لا يعود عصفور الماغوط، الى قفصه طائعها.

ومن تعود النوافذ، ستحرمه الأبواب لذةَ الخلسِ الدائمة، ستتلو على الجياع قصائد عبد الرحيم محمود وآيات مارا المقدسّة. لذةٌ في كل شيءٍ في السياجِ الحائلِ بينَ قُبلتينْ. حتّى لو ذُبلت الرسائل وصارت قصديراً وشظايا برقٍ أفل، أو نيزكاً ممزقا بين نجمتين. ومن تعلم تراث القرامطة، سيتعلم، ان يقفز، فوق فجاجة اليمين، وقبح اليسار، سيخترعُ جهةً جديدةً يقوم بمعجزة كي تصل قديسةٌ أفزعها ابتعاد البلاد، ترمي مأدبا والأردنَ وفلسطينَ، بزهرةٍ فتصل.

في غسقِ الدُجى يلملمُ ابن رشدٍ أوراقه بعد ختِام صفحةٍ جديدةٍ في لحظةِ الخلق الوليد، تحاولُ رسومُ ناجي العلي أن تمشي في الشوارع. تهيء مأدبا بطاقة دعوى لغزّة لزفافٍ محتملٍ لابنَها الشهيد. فجيعة أن يرحل السندباد قبل هدوء العاصفة بقليل. ها أصوات الطيور الباكية. ها الكون دمعه وغرامشي هلسًا يعود هذه المرّة دون رغبة بالخروج ويا غالب، ويا غالب، الفكرة المتجددة، سلاماً على مقاهيك سلاماً عليك، سلاماً علينا.

اجتماع المكتب التنفيذي للمجلس القومي للثقافة العربية

في الفترة ١ ـ ٤ شباط ١٩٩٠، شهدت مدينة الرباط في المغرب الاجتماع الدوري للمكتب التنفيذي للمجلس القومي للثقافة العربية، وقد دعي الى الاجتماع عدد من الكتاب والمبدعين، للمشاركة في دراسة جدول الاعمال الذي تضمن الموضوعات التالية:

١ ـ المشروع الحضاري العربي الجديد.

٢ ـ التحولات الجارية في العالم وانعكاساتها على الواقع العربي ودور المثقفين العرب في هذا المجال.

٣ ـ الانتفاضة في الارض المحتلة، وسائل دعمها وأساليب التعريف ببطولاتها.

ط ـ نشاط هيكل المجلس وخاصة مجلة الوحدة والدور البارز الذي تقوم به على الساحة القومية.

ذ ـ انشاء مؤسسة عربية للابداع الفني وخاصة في المجال السمعي والبصري.

وقد أصدر المكتب في ختام أعماله بيانين أحدهما عام والآخر عن الانتفاضة. كما كون لجنة من كبار المبدعين في الوطن العربي لدراسة موضوع تكوين مؤسسة «ابداع»، وقد بدأت هذه اللجنة اتصالاتها على الفور بسائر المبدعين والجهات المعنية في الوطن العربي.

ونسشر هنا نص البيان الذي أصدره المكتب التنفيذي حول الانتفاضة في فلسطين المحتلة.

التقرير الخامس

بيان صادر عن اجتماع المكتب التنفيذي للمجلس القومي للثقافة العربية حول الانتفاضة

دخلت الانتفاضة الفلسطينية المجيدة عامها الثالث، رافعة راية التحرر ودحر الاحتلال، محققة المزيد من الانجازات السياسية والتلاحم الاجتماعي، وابتداع المزيد من الاساليب والاشكال التنظيمية العالية، وملحقة اكبر الاضرار بالكيان الصهيوني.

ولقد عبرت الانتفاضة عن قوة الحياة في روح الامة العربية، وعن غنى طاقاتها الشعبية في مواجهة العدو الصهيوني وسياساته الاستيطانية، وعن الامكانية الشعبية العربية العالية في تجاوز العجز الرسمي العربي.

ومن هذا المنطلق، فان استمرار الانتفاضة تجسيد لارادة المقاومة العربية، في مواجهة المشروع الصهيوني الامبريالي، وضرورة كفاحية لتظل راية المقاومة عالية.

وعلى الرغم من كل محاولات العدو الصهيوني لضرب الانتفاضة وتحطيم مقاومة

الشعب العربي الفلسطيني، فان شعلة الانتفاضة ظلت متوهجة، وفشلت كل اساليب التنكيل في اطفاء لهيبها.

واستمرت الانتفاضة في اندفاعها وعنفوانها وعلى الرغم من كل عمليات الاحباط، على الرغم من كل تصريحات قادة الكيان الصهيوني الداعية الى ضم الاراضي المحتلة عام ٦٧، وتحقيق مشروع (اسرائيل الكبرى). وعلى الرغم من تدفق المهاجرين في سياق حملة اعلامية كبيرة ودعم مالي امريكي واسع.

لقد استمرت الانتفاضة في اندفاعتها معلنة رسالتها الواضحة، ان تصعيد المواجهة مع العدو الصهيوني، وتطوير القوى العربية خارج الارض المحتلة سوف يدفع الراغبين في الهجرة الى الامتناع عن القدوم، والمهاجرين المقيمين الى التفكير في الهجرة.

ولما كان تصعيد الانتفاضة ضرورة قومية، فان هذا يقتضي خلق حاضنة عربية شعبية لها، تزودها بكل أشكال المساندة المادية والمعنوية التي تؤمن لها الاستمرار والتصاعد، نحو مراحل متقدمة من المقاومة الشعبية.

ان هذا يتطلب الدعوة الى مؤتمر قومي شعبي، يضع برنامج الدعم للانتفاضة ويحدد آليات العمل ومؤسساته، تأكيدا لمقررات الملتقى الثاني «للابداع والحرية» طرابلس ٤ - ١٩٨٩/١١/٧ الذي دعا اليه وتعهد مؤتمر الشعب العربي بتبني هذه الدعوة، والعمل على تحقيقها على الصعيد الشعبي بالتنسيق مع منظمة التحرير الفلسطينية والقوى والاحزاب الوطنية العربية.

ويؤكد المشاركون في هذا الاجتماع التزامهم بمساندة الانتفاضة، ودعوة كل المثقفين العرب لوضع امكانياتهم في هذه العملية القومية الحاسمة، كما يحيي المجتمعون في المكتب التنفيذي للمجلس القومي للثقافة العربية ابناء الشعب العربي الفلسطيني في الارض المحتلة، رجالا ونساء وشيوخا وشباب واطفالا، ويقفون احتراما واجلالا لنضالهم وتضحياتهم ومعاناتهم.

ويحيون المقاومة الوطنية المجيدة في الجنوب اللبناني ضد العدو الصهيوني، التي تشكل دعما وسندا وامتدادا للانتفاضة.

وفي هذا الاطار يوصي المجتمعون باتخاذ الخطوات التالية:

١) اقرار برنامج تضامني لمدة أسبوع تحت عنوان (اسبوع الارض) يخصص لدعم الانتفاضة والتعريف بها على أوسع نطاق، وينتهي في الثلاثين من مارس (آذار) يوم الارض، ويدعو المجلس الى اقامة سلسلة من المهرجانات الشعبية والدعوة الى تعميم اقتراح بتوقف السير لمدة خمس دقائق في جميع مدن الاقطار العربية على الساعة الثانية عشرة ظهراً حسب التوقيت المحلي لكل قطر.

٢) الدعوة الى مساهمة كل مواطن بتبرع لدعم الانتفاضة تحت شعار «درهم للانتفاضة»، على ان يتم اشراك الاطفال في هذه الحملة الشعبية المستمرة.

٣) الدعوة الى المساهمة في حملة شعبية عامة للتكافل الاسري، حيث تتبنى اسرة من الوطن العربي دعم أسرة داخل الوطن المحتل، أو رعاية اطفال الشهداء، وذلك بما يعزز صمود الانتفاضة

ويوسع قاعدتها الشعبية على المستوى القومي.

٤) القيام بحملة شاملة للتوعية بالانتفاضة ودورها وأهدافها عن طريق:

أ - اقامة سلسلة من الندوات والمؤتمرات الشعبية.

ب - حث وسائل الاعلام المتعددة على تخصيص برامج ومقالات يومية ضمن باب ثابت يسمى «الانتفاضة».

ج - الضغط على الحكومات العربية لزيادة اهتمام وسائل الاعلام الرسمية بالانتفاضة حتى لاتتحول التغطية الاعلامية الى مجرد متابعة روتينية باهتة.

٥) اقامة مهرجانات فنية في أوربا وأميركا اللاتينية يكون الهدف منها:

أ - دعم الانتفاضة ماديا

ب - تحريك الرأي العام في الخارج والحفاظ على الشحنة العاطفية في تبني الانتفاضة.

٦) اقامة مباريات رياضية دورية في اقطار الوطن العربي وفي الخارج تشارك فيها منتخبات رياضية عالمية تهدف الى نفس الغايات المتوخاة من المهرجانات الفنية.

٧) نظراً للاثار الخطيرة التي ستنتج عن هجرة اليهود السوفييت الى فلسطين المحتلة، لابد من مواجهة هذه الموجة الجديدة التي تعتبر الاخطر منذ قيام الكيان الصهيوني.

وذلك بـ:

أ - ارسال وفد من المجلس القومي للثقافة العربية الى موسكو لاجراء حوار مباشر مع المثقفين السوفييت، وشرح مخاطر هذه الهجرة.

ب - التنسيق مع اتحادات الكتاب والفنانين العرب لاجراء اتصالات مماثلة مع اتحادات كتاب وفناني الاتحاد السوفياتي حول نفس الموضوع.

٨) دعوة المجلس القومي للثقافة العربية الى الاشراف على جمع النتائج المتميزة من أدب الانتفاضة، واصداره في كتب وتعميمها، وكذلك العمل على ترجمة نماذج منها بلغات أجنبية متعددة، وذلك لابراز تضامن المثقف العربي مع القضايا القومية الكبرى بالتنسيق مع منظمة التحرير الفلسطينية.

٩) العمل على تنفيذ مختلف القرارات العربية الخاصة بدعم الانتفاضة.

التقرير السادس

رسالة

في المناخ الاردني الجديد عقدت رابطة الكتاب الاردنيين - التي سبق وان حلت حلاً تعسفياً، تم فيه انتخاب هيئتها الادارية الجديدة، حيث قام مندوب لجنة العمل النقابية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين الاخ خالد عايد بالقاء كلمة اللجنة. كما ارسلت اللجنة التهنئة التالية:

الاخ الاستاذ عبد الرحيم عمر رئيس رابطة الكتاب الاردنيين:

يسرني باسمي شخصياً، وباسم زملائي في لجنة العمل النقابية لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وهيئة تحرير مجلة الكاتب الفلسطيني ان اهنئكم شخصياً، وزملاءكم في الهيئة الادارية للرابطة على الثقة التي اولاكم اياها اعضاء الرابطة.

لقد جاءت الانتخابات التي جرت يوم ٩٠/٢/٢ لتؤكد حرصكم جميعاً وفي الرابطة على ممارسة الديمقراطية وهو ما يثلج صدورنا، ويدعونا الى النظر باهتمام الى تجربتكم.

واننا لنتمنى لكم كل تقدم ونجاح، ضمن اطار التجربة الجديدة في الاردن التي تفتح الآفاق للتخلص من القيود القاسية للعقدين الماضيين، وتطرح مهمات عملية جدية وخطيرة على كل من يحترم الديمقراطية، ويؤمن بها نظاماً لحياة الشعب.

واننا لنمد لكم ايدينا من أجل التعاون والتفاعل لتعميق الوعي بقيم الحرية، وتوطيد اسس ممارسة الديمقراطية والدفاع عن حرية المواطن العربي في الاردن ومطامحه ومصالحه، لاننا لانرى طريقاً غير الممارسة الديمقراطية، تسمح بحشد جهود الشعب في الاردن لمعالجة قضاياه السياسية والاجتماعية والحماية وحدته، وتأهيله للدفاع عن الوطن، واحباط مخططات الامبريالية الاميركية والعدو الصهيوني الرامية الى تقسيم الشعب واثارة الصراعات، وتصفية القضية الفلسطينية.

وان هيئة تحرير مجلة الكاتب الفلسطيني لتعرب لكم عن استعدادها لفتح المجلة لدراساتكم ومقالاتكم وابداعاتكم، لتحقيق المزيد من التعاون والتفاعل، وللتعريف باسهاماتكم ورفع راية قيم الحرية والديمقراطية والعدالة.

مع اطيب التمنيات

لجنة العمل النقابية

لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

امين السر

ناجي علوش

التقرير السابع

لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية تدين جريمة اغتيال يفسييف

من أجل قضية فلسطين ليس أول الشهداء السوفييت ولن يكون الأخير

كان يعبر الشارع - خطا خطوة اثنتين، ولم يتم الثالثة حتى جاءت سيارة مسرعة

واجتاحته.. سقط على ارض موسكو التي أحبها وخافوا أن لا يكون قد مات.. فهو عنيد وصبور.. وعاودوا اجتياحه ثانية، وتأكدوا ان يفغيني يسييف قد فارق الحياة فعلاً، ولم يعد بامكانه مواصلة الكتابة والخطابة ضدهم.. أما هم فقد تابعوا سيرهم الهادىء في شوارع موسكو دون أن يوقفهم شرطي مرور.

أجهزة الاعلام الغربية والشرقية، نشرت الخبر في الزوايا المهملة من الصحف ونشرات الاخبار.. وأما الصحف العربية فبدت وكأنها تجهل يفغيني يسييف الذي كان احد الدبلوماسيين السوفييت في عدة أقطار عربية.. وليست هذه المرة الاولى.. التي قتلت فيها الصهيونية من الكتاب والمفكرين والساسة العالميين.. وكان اسدال الستار الكثيف على الجريمة جزءاً أساسياً من تخطيطها.

لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية، التي أحست بالخسارة التي لحقت بالشعب الفلسطيني والامة العربية وبقضيتها العادلة نتيجة هذا الاغتيال أصدرت بياناً وسجلت موقفاً. وإذ ندرج هذا البيان كوثيقة للتاريخ ونعرف بالمستشرق والدبلوماسي السوفييتي نقول لاخواننا الكتاب هذا ليس أول شهداء السوفييت في سبيل قضيتنا ولن يكون الأخير.

المستشرق السوفييتي الدكتور يفغيني يفسييف. من المع المستشرقين الروس السوفييت. عمل دبلوماسياً في عدة اقطار عربية. الاردن، مصر والعراق. وعمل في معهد الفلسفة بأكاديمية العلوم السوفييتية. وهو كذلك من أبرز اعضاء «الجمعية الروسية - الفلسطينية» ونائب الرئيس.

الف كتباً هامة كثيرة منها:

١ - الفاشية تحت النجمة الزرقاء «نجمة اسرائيل» عام ١٩٧١ ترجم ونشر في مصر.

٢ - الصهيونية في النظرية والتطبيق عام ١٩٧٢.

٣ - التخريب الفكري الصهيوني عام ١٩٧٥.

٤ - الفلسطينيون شعب لا يقهر عام ١٩٨٤.

٥ - التوسع الفكري الايديولوجي للغرب عام ١٩٨٦، ونشره باسم مستعار، حيث فسر لجوءه الى ذلك. باعتبارات أمنية. وتجنباً للعسف الصهيوني الذي وصل باخطبوطه الى الاتحاد السوفييتي بأكمله.

٦ - له أكثر من سبعمائة مقالة متفرقة في صحف ومجلات متعددة.

٧ - اعد المادة الوثائقية لثلاثة أفلام قصيرة هي «الصهيونية في محكمة التاريخ» عام ١٩٧٥، و «الفلسطينيون وحق الحياة» عام ١٩٧٥، و «شارع الصهيونية» عام ١٩٧٨ الذي أثيرت حوله اشكالات كثيرة من قبل وسائل الاعلام الصهيونية ومن يساندها، حتى أن الدكتور يفغيني قد تعرض لاتهامات ومضايقات بلغت ان مجلة «دير شبيغل» الالمانية الغربية كتبت مقالاً تقول فيه ان يفغيني يفسييف، هو مجرد اسم يعيش به في الاتحاد السوفياتي مجرم تشيكي ممن شاركوا في تعذيب اليهود في معسكرات

النازية.

ومع بداية انتفاضة الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة ومن منطلق الايمان بهذه القضية وبحق الشعب الفلسطيني في أرضه ووجوده اقيم مهرجان تضامني حضره د. يفغيني يفسييف مع عدد من زملائه المناهضين للصهيونية وصدر عن هذا الاجتماع التضامني بيان ورد فيه، ان الاعتراف بدولة اسرائيل كان خطأ تاريخياً وسياسياً وقانونياً يحاسب عليه ستالين.

لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية تدين جريمة اغتيال يفسييف

طالعتنا الانباء الواردة مؤخراً من الاتحاد السوفياتي بنبأ مؤسف وحزين هو مقتل الدكتور يفغيني يفسييف، حيث صدمته سيارة لا تحمل ارقاماً اثناء عبوره الطريق يوم السبت الماضي «٢٤/٢/١٩٩٠»، وتشير الدلائل المتوفرة حول الحادث الى ان اصابع الصهيونية تقف وراء جريمة اغتيال يفسييف المناضل الاممي البارز ويفسييف هو رئيس لجنة مناهضة اعادة العلاقات الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني ونائب رئيس جمعية الصداقة الروسية ـ الفلسطينية. وقد عرفناه نحن الكتاب والصحفيين والمفكرين العرب، مناضلاً شجاعاً مناصراً لقضية الشعب الفلسطيني وللقضية العربية. . وهو صاحب الكتب العديدة التي تفضح جوهر الصهيونية الاستيطاني العدواني ومنها: (فلسطين على مشنقة الصهيونية) و (السفاح). . وغيرها كما انه كتب في الأونة الاخيرة مقالات عدة في وسائل الاعلام السوفياتية حول دعم انتفاضة شعبنا الباسلة وضد هجرة يهود الاتحاد السوفياتي إلى فلسطين.

والحركة الصهيونية بارتكابها هذه الجريمة تدلل مرة اخرى على وجهها الارهابي العنصري الذي لا يحتمل الرأي الآخر.

اننا بفقدان المناضل الاممي يفسييف خسرنا نحن العرب صديقاً تقدمياً ونصيراً شجاعاً لكفاح شعبنا العربي ضد الصهيونية العدوانية. كما خسرت شعوب الاتحاد السوفياتي باستشهاده ابناً باراً ومناضلاً اشتراكياً عنيداً. . اننا ندين هذه الجريمة البشعة ونتوجه بالتعازي الى كافة اصدقائنا الكتاب والمفكرين السوفييت بفقدان المناضل يفسييف، ونأمل أن تتكاتف جهودهم من أجل كشف مرتكبي هذه الجريمة البشعة وتقديمهم للعدالة. انتصاراً للرأي الحر والكلمة الشريفة. . انتصاراً للحقيقة، في زمن التشويش والارباك وضبابية الرؤى.

وسيبقى يفسييف حياً في ضميرنا. . وضمير احرار العالم.

دمشق في ١٩/٢/١٩٩٠

لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية

كما أصدر بعض المثقفين العرب البيان التالي نصه

بيان المثقفين العرب حول اغتيال المناضل الشيوعي الأممي يفسييف

مرة اخرى تكشف الحركة الصهيونية عن وجهها العنصري البشع، مرة اخرى تدلل الصهيونية على عمق فاشيتها في الغدر وقتل الآخر، مرة اخرى تبرهن الحركة الصهيونية على عدائها لكل ما هو غير يهودي ـ صهيوني.

وتتعدد ضحايا هذه الحركة العنصرية، من تشريد الفلسطيني وقتله، مروراً باغتيال برنادوت، وانتهاءاً بقتل العالم الكبير والشيوعي الاممي المناضل السوفييتي ـ الروسي ونائب رئيس الجمعية الروسية الفلسطينية الدكتور يفغيني يفسييف.

ان هذه الجريمة البشعة بحق هذا المناضل الاممي الذي يعيد الى ذاكرة الشعوب انخراط المناضلين السوفييت في الحرب الاسبانية، تعري تعرية كاملة كل تبرير ايديولوجي أخرق لأي شكل من أشكال تبرئة الصهيونية من عنصريتها، وتفرض على جميع البشر في العالم المدافعين عن قيم الحرية والشعوب المقهورة ان ينظروا بجدية عالية الى خطر الصهيونية الذي لا يمس فقط حقوق الشعب الفلسطيني، بل ويتعدى ذلك الى حقوق الانسان عامة، ويشكل خطراً على جميع قيم المحبة والاخاء والانسانية.

ان الادانة والاشمئزاز من هذه الجريمة البشعة لاتكفيان لمواجهة الخطر المحدق بحياة كل ما هو معادٍ للعنصرية الصهيونية، اذ لابد من تضامن كل احرار العالم، وفي كل مكان للوقوف بحزم ضد كل اشكال العنصرية والانظمة الفاشية.

ـ سترمى الصهيونية في مزبلة التاريخ، اما روح الشهيد يفغيني يفسييف فستظل تحوم دائماً فوق رؤوس الاحياء والتاريخ مخلدة ابداً ابداع هذا المفكر والمناضل الكبير.

والنصر لقضية الحرية

التقرير الثامن

الجمهور يحاور اللعبي

استضاف منبر لجنة العمل النقابية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في أمسية حاشدة الكاتب والمفكر المغربي الاستاذ عبد اللطيف اللعبي.

كان ذلك مساء يوم الثلاثاء ٢٧/٢/١٩٩٠. وتحدث الكاتب المغربي عن رحلته مع الكتابة تأليفاً وترجمة ومع الصحافة تحريراً واصدار صحف وعن عذابات السجون والهجرة.

وتحدث عن مشروعه في انتاج «انطولوجيا» لشعر المقاومة الفلسطينية وادبها وعن ترجمته لهذا الشعر. ثم دار نقاش حيوي بين الكاتب والحضور الذين كانوا في غالبيتهم من المثقفين العرب المتواجدين في دمشق.

المحاور في الاعداد القادمة

قررت اسرة تحرير الكاتب ، ان تنشر في كل عدد ، ابتداء من العدد القادم (رقم ١٩) محورين احدهما سياسي والثاني ثقافي ادبي .

وسيكون المحور السياسي في العدد (١٩) التاسع عشر مخصصاً للهجرة الصهيونية والمحور الادبي عن النقد أما العدد (٢٠ عشرون) فسيكون محوره السياسي عن القضية الفلسطينية والمتغيرات الدولية .

ونبدأ من هذا العدد بنشر بنود بعض هذه المحاور ، داعين الكتاب والباحثين للاسهام في بنودها حسب اختصاصاتهم واهتماماتهم .

« التحرير »

محور الهجرة الصهيونية

(العدد التاسع عشر . شباط ، آذار ، نيسان ، ايار ، حزيران .

١) الهجرة والاستيطان في فلسطين .
٢) الهجرة والصراع الديموغرافي .
٣) سياسة الحكومة الاميركية ازاء الهجرة خلال العقدين الماضيين .
٤) الموقف السوفياتي من الهجرة .
٥) الموقف الاوروبي من الهجرة .
٦) الهجرة وتطوير قدرة العدو العسكري .
٧) الهجرة وتطوير قدرة العدو الانتاجية .
٨) الهجرة وقدرة العدو على الاستيعاب .
٩) مصادر الهجرة الباقية . (مستقبل الهجرة) .
١٠) الهجرة وتهجير العرب من فلسطين والمناطق المجاورة .
١١) الهجرة والحاجة للأرض والغذاء والمياه .
١٢) الهجرة والموقف العربي .
١٣) الهجرة وموقف يهود العالم من الهجرة .
١٤) الهجرة واستنزاف تجمعات يهود العالم .
١٥) الهجرة والهجرة المضادة من الكيان الصهيوني .

ملاحظة : تنشر المواد الخاصة بهذا المحور في العدد ، اذا وصلت قبل العشرين من ايار .

القضية الفلسطينية والمتغيرات الدولية :

(العدد عشرون ـ تموز آب ـ ايلول)

١) العالم في ظل المتغيرات الدولية .
٢) السياسة الاميركية ازاء الكيان الصهيوني في ظل المتغيرات الدولية .
٣) السياسة السوفياتية الجديدة ازاء القضية الفلسطينية .
٤) السياسة الصهيونية في الأوضاع الدولية الجديدة .
٥) السياسات الرسمية العربية والوضع العالمي الجديد .
٦) السياسة الرسمية الفلسطينية في الوضع العالمي الجديد .
٧) سياسات الاحزاب العربية غير الحاكمة في الوضع العالمي الجديد .
٨) السياسات الاوروبية ازاء القضية الفلسطينية في الوضع الجديد .
٩) الصين الشعبية والقضية الفلسطينية .
١٠) آفاق الحرب والسلام في الاوضاع الجديدة .

ملاحظة : تنشر المواد الخاصة بهذا المحور ، في العدد اذا وصلت قبل العشرين من آب .

سعر العدد

● لبنان ٢٥٠ ل.ل. ● سوريا ٢٠ ل س. ● الأردن دينار واحد ● العراق دينار واحد ● الكويت دينار واحد ● الامارات العربية ١٥ درهما ● البحرين دينار واحد ● قطر ١٥ ريالا ● السعودية ١٥ ريالا ● اليمن ١٤ ريالاً ● اليمن الديمقراطية ٦٠٠ فلس ● مصر جنيه واحد ● السودان ٢.٥٠ جنيه ● الصومال ٢٠ شلناً ● ليبيا دينار واحد ● الجزائر ١٢ ديناراً ● تونس دينار واحد ● المغرب ١٢ درهماً ● موريتانيا ١٥٠ اوقية ● قبرص ١.٥٠ جنيه ● اليونان ٣٠٠ دراخما ● فرنسا ٢٥ فرنكا ● المانيا ١٠ ماركات ● ايطاليا ٥٠٠٠ لير ● بريطانيا ٢.٥ جنيه ● سويسرا ١٠ فرنكات ● هولندا ١٠ فلورن ● اميركا وسائر الدول الاخرى ٦ دولارات.



مكتب دمشق

الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ـ الازبكية ـ ص . ب ٨١٥٧

الثمن ٢٠ ل . س أو مايعادلها